بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، وعليه نتوكل

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : كتاب التوحيد.

لم يذكر في النسخ التي بأيدينا خطبة للكتاب من المؤلف ، فإما أن تكون سقطت من النساخ وإما أن يكون المؤلف اكتفى بالترجمة لأنها عنوان على موضوع الكتاب وهو التوحيد ، وقد ذكر المؤلف في هذه الترجمة عدة آيات.

والكتاب بمعنى : مكتوب أي مكتوب بالقلم ، أو بمعنى مجموع من قولهم: كتيبة وهي المجموع من الخيل .

والتوحيد في اللغة : مشتق من وحد الشيء إذا جعله واحداً ؛ فهو مصدر وحد يوحد ؛ أي : جعل الشيء واحداً . وفي الشرع : إفراد الله ـ سبحانه ـ بما يختص به من الربوبية والألوهية والسماء والصفات .

* أقسامه : ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام :

1 ـ توحيد الربوبية. 2ـ توحيد الألوهية. 3ـ توحيد الأسماء والصفات.

وقد اجتمعت في قوله تعالى : (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً) (مريم:65)

* القسم الأول : توحيد الربوبية:

هو إفراد الله – عز وجل - بالخلق، و الملك، و التدبير.

فإفراده بالخلق : أن يعتقد الإنسان أنه لا خالق إلا الله ، قال تعالي : (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْر)(الأعراف: من الآية54) فهذه الجملة تفيد الحصر لتقديم الخبر؛ إذ إن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر ، وقال تعالى : (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)(فاطر: من الآية3) فهذه الآية تفيد اختصاص الخلق بالله ، لأن الاستفهام فيها مشرب معنى التحدي.

أما ما ورد من إثبات خلق غير الله ؛ كقوله تعالى : (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)(المؤمنون: من الآية14) وكقوله صلى الله عليه وسلم في المصورين : يقال لهم أحيوا ما خلقتم) [1] 0

فهذا ليس خلقاً حقيقة ، وليس إيجاداً بعد عدم ، بل هو تحويل للشيء من حال إلى حال ، وأيضاً ليس شاملاً ، بل محصور بما يتمكن الإنسان منه ، ومحصور بدائرة ضيقة ؛ فلا ينافي قولنا : إفراد الله بالخلق.

وأما إفراد الله بالملك :

فأن نعتقد أنه لا يملك الخلق إلا خالقهم ؛ كما قال تعالى : (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (آل عمران:189) وقال تعالى : (قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)(المؤمنون: من الآية88).

وأما ما ورد من إثبات الملكية لغير الله ؛ كقوله تعالى : (إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)(المؤمنون: 6) وقال تعالى : (أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ)(النور: من الآية61) فهو ملك محدود لا يشمل إلا شيئاً يسيراً من هذه المخلوقات ؛ فالإنسان يملك ما تحت يده ، ولا يملك ما تحت يد غيره ، وكذا هو ملك قاصر من حيث الوصف ؛ فالإنسان لا يملك ما عنده تمام الملك ، ولهذا لا يتصرف فيه إلا على حسب ما أذن له فيه شرعاً ، فمثلاً : لو أراد أن يحرق ماله أو يعذب حيوانه ؛ قلنا : لا يجوز ، أما الله ـ سبحانه ـ ؛ فهو يملك ذلك كله ملكاً عاماً شاملاً.

وأما إفراد الله بالتدبير :

فهو أن يعتقد الإنسان أنه لا مدبر إلا الله وحده ؛ كما قال تعالى : (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)(يونس:31).

([1] البخاري : كتاب اللباس/ باب عذاب المصورين يوم القيامة، ومسلم : كتاب اللباس والزينة/ باب تحريم تصوير صورة الحيوان.

وأما تدبير الإنسان ؛ فمحصور بما تحت يده ومحصور بما أذن له فيه شرعاً. وهذا القسم من التوحيد لم يعارض فيه المشركون الذين بعث فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل كانوا مقرين به ، قال تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)(الزخرف:9) فهم يقرون بأن الله هو الذي يدبر الأمر ، وهو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض ، ولم ينكره أحد معلوم من بني آدم ؛ فلم يقل أحد من المخلوقين : إن للعالم خالقين متساويين.

فلم يجحد أحد توحيد الربوبية ، لا على سبيل التعطيل ولا على سبيل التشريك، إلا ما حصل من فرعون ؛ فإنه أنكره على سبيل التعطيل مكابرة ؛ فإنه عطل الله من ربوبيته وأنكر وجوده ، قال تعالى حكاية عنه : (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)(النازعات:24)ـ ، (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)(القصص: من الآية38). وهذا مكابرة منه لأنه يعلم أن الرب غيره ؛ كما قال تعالى : (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً)(النمل: من الآية14)، وقال تعالى حكاية عن موسى وهو يناظره : (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)(الاسراء: من الآية102) ؛ فهو في نفسه مقر بأن الرب هو الله ـ عز وجل ـ .

وأنكر توحيد الربوبية على سبيل التشريك المجوس ، حيث قالوا : إن

للعالم خالقين هما الظلمة والنور ، ومع ذلك لم يجعلوا هذين الخالقين متساويين ، فهم يقولون : إن النور خير من الظلمة ؛ لأنه يخلق الخير ، والظلمة تخلق الشر ، والذي يخلق الخير خير من الذي يخلق الشر.

وأيضاً فإن الظلمة بفرق ثالث ، وهو : أن النور قديم على اصطلاح الفلاسفة، واختلفوا في الظلمة : هل هي قديمة ، أو محدثة ؟ على قولين.

دلالة العقل على أن الخالق للعالم واحد :

قال الله تعالى : (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)(المؤمنون: من

الآية91) ، إذ لو أثبتنا للعالم خالقين ؛ لكان كل خالق يريد أن ينفرد بما خلق ويستقل به كعادة الملوك ؛ إذ لا يرضى أن يشاركه أحد ، وإذا استقل به ؛ فإنه يريد أيضاً أمراً آخر ، وهو أن يكون السلطان له لا يشاركه فيه أحد.

وحينئذ إذا أرادا السلطان ؛ فإما أن يعجز كل واحد منهما عن الآخر ، أو يسيطر أحدهما على الآخر ؛ فإن سيطر أحدهما على الآخر ثبتت الربوبية له ، وإن عجز كل منهما عن الآخر زالت الربوبية منهما جميعاً ؛ لأن العاجز لا يصلح أن يكون رباً.

القسم الثاني : توحيد الألوهية :

ويقال له : توحيد العبادة باعتبارين ؛ فباعتبار إضافته إلى الله يسمى : توحيد الألوهية ، وباعتبار إضافته إلى الخلق يسمى توحيد العبادة.

وهو إفراد الله ـ عز وجل ـ بالعبادة.

فالمستحق للعبادة هو الله تعالى ، قال تعالى : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ

وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلِ)(لقمان: من الآية30).

والعبادة تطلق على شيئين :

الأول : التعبد: بمعنى التذلل لله ـ عز وجل ـ بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ محبة وتعظيماً .

الثاني : المتعبد به ؛ فمعناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله : (إسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة).

مثال ذلك : الصلاة ؛ ففعلها عبادة ، وهو التعبد ، ونفس الصلاة عبادة ، وهو المتعبد به.

فإفراد الله بهذا التوحيد : أن تكون عبداً لله وحده تفرده بالتذلل ؛ محبة وتعظيماً ، وتعبده بما شرع ، قال تعالى:(لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً)(الاسراء:22) وقال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(الفاتحة:2) ؛ فوصفه سبحانه بأنه رب

العالمين كالتعليل لثبوت الألوهية له؛ فهو الإله لأنه رب العالمين، وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ)(البقرة: من الآية21) ؛ فالمنفرد بالخلق هو المستحق للعبادة.

إذ من السفه أن تجعل المخلوق الحادث الآيل للفناء إلهاً تعبده؛ فهو في الحقيقة لن ينفعك لا بإيجاد ولا بإعداد ولا بإمداد ، فمن السفه أن تأتي إلى قبر إنسان صار رميماً تدعوه وتعبده ، وهو بحاجة إلى دعائك ، وأنت لست بحاجة إلى أن تدعوه ؛ فهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ؛ فكيف يملكه لغيره ؟!

وهذا القسم كفر به وجحده أكثر الخلق ، ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل،

وأنزل عليهم الكتب ، قال الله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)(الانبياء:25).

ومع هذا ؛ فأتباع الرسل قلة ، قال عليه الصلاة والسلام : (فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد) [1] .

* تنبيه :

من العجب أن أكثر المصنفين في علم التوحيد من المتأخرين يركزون على توحيد الربوبية ، وكأنما يخاطبون أقواماً ينكرون وجود الرب ـ وإن كان يوجد من ينكر الرب ـ ، لكن ما أكثر المسلمين الواقعين في شرك العبادة !!

ولهذا ينبغي أن يركز على هذا النوع من التوحيد حتى نخرج إليه هؤلاء المسلمين الذين يقولون بأنهم مسلمون ، وهم مشركون ، ولا يعلمون.

القسم الثالث : توحيد الأسماء والصفات :

---

[1] البخاري : كتاب الطب/ باب من اكتوى أو كوى غيره، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب.

وهو إفراد الله ـ عز وجل ـ بما له من الأسماء والصفات.

وهذا يتضمن شيئين :

الأول : الإثبات ، وذلك بأن نثبت لله ـ عز وجل ـ جميع أسمائه وصفاته التي أثبتها لنفسه في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

الثاني : نفي المماثلة ، وذلك بأن لا نجعل لله مثيلاً في أسمائه وصفاته ؛ كما قال تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى: من الآية11) . فدلت الآية على أن جميع صفاته لا يماثله فيها أحد من

المخلوقين؛ فهي وإن اشتركت في أصل المعنى ، لكن تختلف في حقيقة الحال، فمن لم يثبت ما أثبته الله لنفسه ؛ فهو معطل ، وتعطيله هذا يشبه تعطيل فرعون ، ومن أثبتها مع التشبيه صار مشابهاً للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ، ومن أثبتها بدون مماثلة صار من الموحدين.

وهذا القسم من التوحيد هو الذي ضلت فيه بعض الأمة الإسلامية وانقسموا فيه إلى فرق كثيرة ؛ فمنهم من سلك مسلك التعطيل ، فعطل ، ونفى الصفات زاعماً أنه منزه لله ، وقد ضل ؛ لأن المنزه حقيقة هو الذي ينفي عنه صفات النقص والعيب ، وينزه كلامه من أن يكون تعمية وتضليلاَ ، فإذا قال : بأن الله ليس له سمع ، ولا بصر ، ولا علم ، ولا قدرة ؛ لم ينزه الله ، بل وصمه بأعيب العيوب ، ووصم كلامه بالتعمية والتضليل ؛ لأن الله يكرر ذلك في كلامه ويثبته ، (سميع بصير) ، (عزيز حكيم) ، (غفور رحيم) ، فإذا أثبته في كلامه وهو خال منه ؛ كان في غاية التعمية والتضليل والقدح في كلام الله ـ عز وجل ـ ، ومنهم من سلك مسلك التمثيل زاعماً بأنه محقق لما وصف الله به نفسه ، وقد ضلوا لأنهم لم يقدروا الله حق قدره ؛ إذ وصموه بالعيب والنقص ؛ لأنهم جعلوا الكامل من كل وجه كالناقص من كل وجه.

وإذا كان اقتران تفضيل الكامل على الناقص يحـط من قـدره ؛ كما قيل :

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السـيف أمضـى من العصا

فكيف بتمثيل الكامل بالناقص ؟! هذا أعظم ما يكون جنايـة في حق الله ـ عز وجل ـ ، وإن كان المعطوف أعظم جرماً ، لكن الكل لم يقدر الله حق قدره.

فالواجب:أن نؤمن بما وصف اللـه وسـمى بـه نفسـه في كتابـه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسـلم ، من غـير تحريـف ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل.

هكذا قال شيخ الإسلام ابن تيميه وغيره من أهل العلم.

فالتحريف في النصوص ، والتعطيل في المعتقد ، والتكييف في الصـفة ، والتمثيـل في الصـفة ، إلا أنـه أخص من التكـييف ؛ فكـل ممثل مكيف ، ولا عكس ، فيجب أن تـبرأ عقيـدتنا من هـذه الأمـور الأربعة.

ونعني بالتحريف هنا : التأويل الذي سـلكه المحرفـون لنصـوص الصفات ؛ لأنهم سموا أنفسهم أهل التأويل ، لأجل تلطيف المسلك الذي سلكوه ؛ لأن النفوس تنفرد من كلمـة تحريـف ، لكن هـذا من باب زخرفة القول وتزيينه للناس ، حتى لا ينفروا منه.

وحقيقة تأويلهم : التحريف : التحريف ، وهو صـرف اللفـظ عن ظاهره؛ فنقول: هذا الصرف إن دل عليه دليل صحيح ؛ فليس تأويلاً بالمعنى الذي تريدون، لكنه تفسير.

وإن لم يــدل عليــه دليــل ؛ فهــو تحريــف ، وتغيــير للكلم عن مواضـعه ؛ فهـؤلاء الـذين ضـلوا بهـذه الطريقـة ، فصـاروا يثبتـون الصـفات لكن بتحريـف ؛ قـد ضـلوا ، وصـاروا في طريـق معـاكس لطريق أهل السنة والجماعة.

وعليه لا يمكن أن يوصفوا بأهل السنة والجماعة ؛ لأن الإضافة تقتضي النسبة ، فأهل السنة منتسبون للسنة ؛ لأنهم متمسكون بها ، وهؤلاء ليسوا متمسكين بالسنة فيما ذهبوا إليه من التحريف.

وأيضاً الجماعة في الأصل : الاجتماع ، وهم غير مجتمعين في آرائهم ففي كتبهم التداخل ، والتناقض ، والاضطراب ، حتى إن بعضهم يضلل بعضاً ، ويتناقض هو بنفسه.

وقد نقل شارح (الطحاوية) عن الغزالى ـ وهو ممن بغل ذروة علم الكلام ـ كلاماً إذا قرأه الإنسان تبين له ما عليه أهل الكلام من الخطأ والزلل والخطل ، وأنهم ليسوا على بينة من أمرهم.

وقال الرازي وهو من رؤسائهم :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم قال : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ؛ فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً ، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ في الإثبات : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)(طه: 5)ـ ، ـ (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ)(فاطر:من الآية10) ؛ يعني:فأثبت، وأقرأ في النفي: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)(الشورى: من الآية11)ـ ، (وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً)(طه: من الآية110) ؛ يعني : فأنفي المماثلة ، وأنفي الإحاطة به علماً ، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

فتجدهم حيارى مضطربين ، ليسوا على يقين من أمرهم ، وتجد من هداه الله الصراط المستقيم مطمئناً منشرح الصدر ، هادئ البال ، يقرأ في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات ؛ فيثبت ؛ إذا لا أحد أعلم من الله بالله ، ولا أصدق خبراً من خبر الله ، ولا أصح بياناً من بيان الله ؛ كما قال تعالى : (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)(النساء: من الآية26)ـ (يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا)(النساء: من الآية176)ـ ، (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً)(النحل: من الآية89)ـ ، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ

اللَّهِ قِيلاً)(النســاء: من الآية122)ــ (وَمَنْ أَصْــدَقُ مِنَ اللَّهِ حَــدِيثاً) (النساء: من الآية87).

فهذه الآيات وغيرها تدل على أن الله يـبين للخلـق غايـة البيـان الطريق التي توصلهم إليه ، وأعظم ما يحتـاج الخلـق إلى بيانـه مـا يتعلـق باللـه تعـالى وبأسـماء اللـه وصـفاته حـتى يعبـدوا اللـه على بصيرة ؛ لأن عبادة من لم نعلم صفاته ، أو من ليس له صفة أمر لا يتحقق أبداً ؛ فلابد أن تعلم من صفات المعبود ما تجعلك تلتجئ إليه وتعبده حقاً.

ولا يتجاوز الإنسان حده إلى التكييف أو التمثيـل ؛ لأنـه إذا كـان عاجزاً عن تصور نفسه التي بين جنبيـه ؛ فمن بـاب أولى أن يكـون عاجزاً عن تصور حقائق ما وصف الله به نفســه ، ولهـذا يجب على الإنسان أن يمنع نفسه عن السـؤال بــ (لم) و (كيـف) فيمـا يتعلـق بأسماء الله وصفاته ، وكذا يمنع نفسه من التفكير بالكيفية.

وهذا الطريـق إذا سـلكه الإنسـان اسـتراح كثـيراً ، وهـذه حـال السف رحمهم الله ، ولهذا لما جاء رجل إلى الإمـام مالـك بن أنس رحمه الله قال : يا أباعبداللـه ! (الـرحمن على العـرش اسـتوى) ، كيـف اسـتوى ؟ فـأطرق برأسـه وقـال : (الاسـتواء غـير مجهـول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، ومـا أراك إلا مبتدعاً).

أما في عصرنا الحاضر ؛ فنجـد من يقـول : إن اللـه يـنزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر كل ليلـة ، فيلـزم من هـذا أن يكون كل الليل في السماء الدنيا ؛ لأن الليل يمشي على جميـع الأرض ؛ فالثلث ينتقل من هذا المكان إلى المكان الآخـر ، وهـذا لم يقلـه الصـحابة رضـوان اللـه عليهم ، ولـو كـان هـذا يـرد على قلب المؤمن ؛ لبينه الله إما ابتداءً أو على لسان رسوله صلى الله عليــه وسلم ، أو يقيض من يسأله عنه فيجاب ، كما سأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين كان الله قبل أن يخلق السماوات والأرض ؛ فأجابهم [1] .

([1]) البخاري : كتاب بدء الخلق / باب ما جاء في قول الله تعالى : (وهو الذي يبدأ الخلق).

فهذا السؤال العظيم يدل على أن كل ما يحتاج إليه الناس فإن الله يبينه بأحد الطرق الثلاثة.

والجواب عن الإشكال في حديث النزول [2] : أن يقال : ما دام ثلث الليل الأخير في هذه الجهة باقياً ؛ فالنزول فيها محقق ، وفي غيرها لا يكون نزول قبل ثلث الليل الأخير أو النصف ، والله ـ عز وجل ـ ليس كمثله شيء ، والحديث يدل على أن وقت النزول ينتهي بطلوع الفجر.

وعلينا أن نستسلم ، وأن نقول : سمعنا ، وأطعنا ، واتبعنا ، وأمنا ؛ فهذه وظيفتنا لا نتجاوز القرآن والحديث.

* * *

وقول الله تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات:56)

---

* الآية الأولى قوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون).

قوله (إلا ليعبدون) استثناء مفرغ من أعم الأحوال ؛ أي : ما خلقت الجن والإنس لأي شيء إلا للعبادة.

واللام في قوله : (إلا ليعبدون) للتعليل ، وهذا التعليل لبيان الحكمة من الخلق، وليس التعليل الملازم للمعلول ؛ إذ لو كان كذلك للزم أن يكون الخلق كلهم عباداً يتعبدون له ، وليس الأمر كذلك ، فهذه العلة غائية ، وليست موجبة.

---

[2] البخاري : كتاب التهجد / باب الدعاء والصلاة آخر الليل، ومسلم: كتاب صلاة المسافر/ باب الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل

فالعلة الغائية لبيان الغاية والمقصود من هذا الفعل ، لكنها قد تقع ، وقد لا تقع، مثل : بريت القلم لأكتب به ؛ فقد تكتب ، وقد لا تكتب.

والعلة الموجبة معناها : أن المعلول مبني عليها ؛ فلابد أن تقع ، وتكون سابقة للمعلول ، ولازمة له ، مثل انكسر الزجاج لشدة الحر.

قوله : (خلقت) ؛ أي : أوجدت ، وهذا الإيجاد مسبوق بتقدير ، وأصل الخلق التقدير.

قال الشاعر :

ولأنت تفري ما خلقت وبعض الناس يخلق ثم لا يفري

قوله : (الجن) : هم عالم غيبي مخفي عنا ، ولهذا جاءت المادة من الجيم

....

والنون ، وهما يدلان على الخفاء والاستتار ، ومنه : الجَنة ، والجِنة ، والجُنة.

قوله : (الإنس) سموا بذلك ؛ لأنهم لا يعيشون بدون إيناس ؛ فهم يأنس بعضهم ببعض ، ويتحرك بعضهم إلى بعض.

قوله : (إلا ليعبدون) فسر : إلا ليوحدون ، وهذا حق ، وفسر : بمعنى يتذللون لي بالطاعة فعلاً للمأمور ، وتركاً للمحظور ، ومن طاعته أن يوحد سبحانه وتعالى؛ فهذه هي الحكمة من خلق الجن والإنس.

ولهذا أعطي الله البشر عقولاً ، وأرسل إليهم رسلاً ، وأنزل عليهم كتباً ، ولو كان الغرض من خلقهم كالغرض من خلق البهائم ؛ لضاعت الحكمة من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ؛ لأنه في النهاية يكون كشجرة نبتت ، ونمت، وتحطمت ، ولهذا قال تعالى (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)(القصص: من الآية

85)؛ فلابد أن يردك إلى ميعاد تجازى على عملك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وليست الحكمة من خلقهم نفع الله ، ولهذا قال تعالى : (مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ)(الذريات:57) .

وأما قوله تعالى : (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ)(البقرة: من الآية245).

فهذا ليس إقراضاً لله سبحانه ، بل هو غني عنه ، لكنه سبحانه شبه معاملة عبده له بالقرض ؛ لأنه لابد من وفائه ، فكأنه التزام من الله سبحانه أن يوفي العامل أجر عمله كما يوفي المقترض من أقرضه.

* * *

وقوله تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)(النحل: من الآية36) .

---

* الآية الثانية قوله تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوت)(النحل: من الآية36).

قوله (ولقد) : اللام موطأة لقسم مقدر ، وقد : للتحقيق.

وعليه؛ فالجملة مؤكدة بالقسم المقدر ، واللام ، وقد.

قوله : (بعثنا) ؛ أي : أخرجنا ، وأرسلنا في كل أمة.

والأمة هنا : الطائفة من الناس.

وتطلق الأمة في القرآن على أربعة معان :

أ ـ الطائفة : كما في هذه الآية.

ب ـ الإمام، ومنه قوله تعالى:(إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله) (النحل: 120).

ج ـــ الملة:ومنه قوله تعالى:(إنا وجدنا آباءنا على أمة) (الزخرف : 23).

د ـ الزمن : ومنه قوله تعالى : (وأدكر بعد أمة)(يوسف : 45) 0

فكل أمة بعث فيها رسول من عهد نوح إلى عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

* والحكمة من إرسال الرسل :

أ ـ إقامة الحجة : (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ

....

لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)(النساء: من الآية165) .

ب ـــ الرحمــة : لقولــه تعــالى : (وَمَـا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَـةً لِلْعَالَمِينَ) (الانبياء:107).

ج ـ بيان الطريـق الموصـل إلى اللـه تعـالى ؛ لأن الإنسـان لا يعرف ما يجب لله على وجه التفصيل إلا عن طريق الرسل.

قوله : (أن اعبدوا الله) (أن) : قيـل : تفسـيرية ، وهي الـتي سـبقت بمـا يـدل على القـول دون حروفـه ؛ كقولـه تعـالى : (فَأَوْحَيْنَـا إِلَيْـهِ أَنِ اصْـنَعِ الْفُلْـكَ) (المؤمنـون: من الآية27)ـ ، والوحي فيه معـنى القـول دون حروفـه، والبعث متضـمن معـنى الوحي ؛ لأن كل رسول موحي إليه.

وقيل : إنهـا مصـدرية على تقـدير البـاء ؛ أي : بـأن اعبـدوا ، والراجح: الأول ؛ لعدم التقديرـ

قولـه : (أن اعبـدوا اللـه) أي : تـذللوا لـه بالعبـادة ، وسـبق تعريف العبادة [1] .

قوله : (واجتنبوا الطاغوت) أي : ابتعدوا عنه بـأن تكونـوا في جانب، وهو في جانب ، والطاغوت : مشتق من الطغيـان ، وهـو صفة مشبهة ، والطغيان : مجاوزة الحد ؛ كما في قولـه تعـالى : (إِنَّا لَمَّا طَغَـا الْمَـاءُ حَمَلْنَـاكُمْ فِي الْجَارِيَـةِ)(الحاقـة:11) ؛ أي : تجاوز حده.

وأجمع ما قيل في تعريفه هو ما ذكره ابن القيم رحمـه اللـه بأنه : (ما تجاوز به العبد حده من متبوع ، أو معبود ، أو مطاع).

ومـراده من طـان راضـياً بـذلك ، أو يقـال : هـو طـاغوت باعتبـار عابده، وتابعه ،

---

[1] ص 5 .

....

ومطيعه ، لأنه تجاوز به حده حيث نزله فوق منزلته التي جعلها الله لـه ، فتكـون عبادتـه لهـذا المعبـود ، واتباعـه لمتبوعـه ، وطاعتـه لمطاعه طغياناً لمجاوزته الحد بذلك.

فالمتبرع مثل : الكهان ، والسحرة ، وعلماء السوء0

والمبعود مثل : الأصنام0

والمطـاع مثـل : الأمـراء الخـارجين عن طاعـة اللـه ، فـإذا اتخذهم الإنسان أرباباً يحل ما حـرم اللـه من أجـل تحليلهم لـه ، ويحرم ما أحل اللـه من أجـل تحـريمهم لـه ؛ فهـؤلاء طـواغيت ، والفاعل تابع للطـاغوت ، قـال تعـالى : (أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُـوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِـالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ)(النسـاء: من الآية 50) ، ولم يقل : إنهم طواغيت .

ودلالة الآية على التوحيـد : أن الأصـنام من الطـواغيت الـتي تعبد من دون الله.

والتوحيد لا يتم إلا بركنين ، هما :

1 ـ الإثبات0

2 ـ النفي 0

إذ النفي المحض تعطيـل محض ، والإثبـات المحض لا يمنـع المشاركة0

مثال ذلك : زيد قائم ، يدل على ثبـوت القيـام لزيـد ، لكن لا يدل على انفراده به.

ولم يقم أحد ، هذا نفي محض.

ولم يقم إلا زيد ، هذا توحيـد لـه بالقيـام ؛ لأنـه اشـتمل على إثبات ونفي.

قوله : (الآية) أي : إلى آخر الآية ، وتقرأ بالنصـب ؛ إمـا على أنهـا مفعـول بـه لفعـل محـذوف تقـديره أكمـل الآيـة ، أو أنهـا منصوب بنزع الخافض ؛ أي : إلى آخر الآية.

ووجه الاستشهاد بهذه الآيـة لكتـاب التوحيـد : أنهـا دالـة على إجماع الرسل

وقولـــه تعـــالى : (وَقَضَـــى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُـــدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِـــدَيْنِ إِحْسَاناً) (الاسراء: من الآية23)

عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى التوحيد ، وأنهم أرسلوا به؛ لقوله تعالى : (أن اعبدوا واجتنبوا الطاغوت).

* * *

* الآية الثالثة قوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ...) الآية .

قوله : (قضى) قضاء الله ـ عز وجل ـ ينقسم إلى قسمين :

1 ـ قضاء شرعي. 2ـ قضاء كوني.

فالقضاء الشرعي : يجوز وقوعه من المقضي عليه وعدمه ، ولا يكون إلا فيما يحبه الله.

مثال ذلك : هذه الآية : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)(الإسراء: 23) ؛ فتكون قضى بمعنى : شرع ، أو بمعنى : وصى ، وما أشبههما.

والقضاء الكوني : لابد من وقوعه ، ويكون فيما أحبه الله ، وفيما لا يحبه.

مثال ذلك : قوله تعالى : (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً)(الاسراء:4) فالقضاء هنا كوني : لأن الله لا يشرع الفساد في الأرض ، ولا يحبه.

قوله : (أن لا تعبدوا) . (أن) هنا مصدرية بدليل حذف النون من تعبدوا، والاستثناء هنا مفرغ ؛ لأن الفعل لم يأخذ مفعوله ؛ فمفعوله ما بعد إلا.

قوله : (إلا إياه) ضمير نصب منفصل واجب الانفصال ؛ لأن المتصل لا يقع بعد إلا ، قال ابن مالك :

....

وذو اتصال منه ما لا يبتدأ ولا يلي إلا اختياراً أبدا

* إشكال وجوابه :

إذا قيل : ثبت أن الله قضى كوناً ما لا يحبه ؛ فكيف يقضي الله ما لا يحبه ؟

فالجواب : أن المحبوب قسمان :

1 ـ محبوب لذاته.
2 ـ محبوب لغيره.

فالمحبوب لغيره قد يكون مكروهاً لذاتـه ، ولكن يحب لمـا فيـه من الحكمة والمصلحة ؛ فيكون حينئذ محبوباً من وجه ، مكروهاً من وجه آخر.

مثال ذلك : الفساد في الأرض من بـني إسـرائيل في حـد ذاتـه مكروه إلى الله ؛ لأن اللـه لا يحب الفسـاد ، ولا المفسـدين ، ولكن للحكمة التي يتضمنها يكون بها محبوبـاً إلى اللـه ــ عـز وجـل ــ من وجه آخر.

ومن ذلك : القحـط ، والجـدب ، والمـرض ، والفقـر ، لأن اللـه رحيم لا يحب أن يـؤذي عبـاده بشـيء من ذلـك ، بـل يريـد بعبـاده اليسر ، لكن يقدره للحكم المترتبة عليه ؛ فيكـون محبوبـاً إلى اللـه من وجه ، مكروهاً من وجه آخر.

قال الله تعالى : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)(الروم:41).

فـإن قيـل : كيـف يتصـور أن يكـون الشـيء محبوبـاً من وجـه مكروهاً من وجه آخر ؟

فيقـال : هـذا الإنسـان المـريض يعطي جرعـة من الـدواء مـرة كريهة الرائحة واللون ، فيشربها ، وهو يكرهها لما فيها من المـرارة واللون والرائحة ، ويحبها لما فيها من الشفاء ، وكذا الطبيب يكــوي المـريض بالحديـدة المحمـاة على النـار ، ويتـألم منهـا ؛ فهـذا الألم مكروه له من وجه ، محبوب من وجه آخر.

....

فإن قيل : لمـاذا لم يكـون قولـه (وقضـى ربـك أن لا تعبـدوا إلا إياه) من باب القضاء القدري ؟

أجيب : بأنه لا يمكن ؛ إذ لو كان قضاء قـدرياً لعبـد النـاس كلهم ربهم ، لكنه قضاء شرعي قد يقع وقد لا يقع.

والخطاب في الآية للنبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ، لكن قـال : (وقضى ربك أن لا تبعدوا إلا إياه) ، ولم يقل : (أن لا تعبد) ، ونظــير ذلـك في القـرآن قولـه تعـالى : (يَـا أَيُّهَـا النَّبِـيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَـاءَ)

(الطلاق: من الآية1) ؛ فالخطـاب الأول للرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم والثاني عام ؛ فما الفائدة من تغيير الأسلوب ؟

أجيب : إن الفائدة من ذلك :

1 ـ التنبيه ؛ إذ تنبيه المخاطب أمر مطلـوب للمتكلم ، وهـذا حاصل هنا بتغيير الأسلوب.

2 ـ أن النبي صلى الله عليه وسـلم زعيم أمتـه ، والخطـاب الموجه إليه موجه لجميع الأمة.

3 ـ الإشارة إلى أن ما خوطب به الرسول صـلى اللـه عليـه وسلم فهو له ولأمته ؛ إلا ما دل الدليل على أنه مختص به.

4 ـ وفي هذه الآية خاصة الإشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم مربوب لا رب، عابد لا معبود ؛ فهو داخل في قوله : (تعبدوا) ، وكفى به شرفاً أن يكون عبداً لله ـ عز وجل ـ ، ولهذا يصـفه اللـه تعالى بالعبودية في أعلى مقاماته ؛ فقال في مقام التحدي والدفاع عنه : (إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا)(البقرة: من الآية23) ، وقال في مقـام إثبـات نبوتـه ورسـالته إلى الخلـق : (تَبَـارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْـدِهِ)(الفرقـان: من الآية1) ، وقـال في مقـام الإسراء والمعراج (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)(الإسراء: من الآية1) ، (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)(لنجم:10).

....

---

* أقسام العبودية :

تنقسم العبودية إلى ثلاثة أقسام :

1ـ عامة ، وهي عبوديـة الربوبيـة ، وهي لكـل الخلـق ، قـال تعالى : (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الـرَّحْمَنِ عَبْـداً)(مريم:93) ، ويدخل في ذلك الكفار.

2ـ عبودية خاصة ،وهي عبودية الطاعة العامة ، قال تعالى : (وَعِبَـادُ الـرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُـونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنـاً)(الفرقـان: من الآية63) ، وهذه تعم كل من تعبد لله بشرعه0

3ــ خاصـة الخاصـة ، وهي عبوديـة الرسـل عليهم الصـلاة والسلام ، قال تعالى عن نوح : (إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً)(الاسراء: من الآية3) ، وقـــال عن محمـــد : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَـــا عَلَى عَبْدِنَا)(البقرة: من الآية23) ، وقال في آخرين من الرسل : (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ)(صّ:4).

فهـذه العبوديـة المضـافة إلى الرسـل خاصـة الخاصـة ؛ لأنـه لا يباري أحد هؤلاء الرسل في العبودية.
قوله : (وبالوالدين إحساناً) أي : قضى ربك أن نحسن بالوالدين إحساناً.
والوالدان : يشـمل الأم ، والأب ، ومن فوقهمـا ، لكنـه في الأم والأب أبلغ، وكلما قربـا منـك كانـا أولى بالإحسـان، والإحسـان بـذل المعروف، وفي قـولـه : (وبالوالـدين إحسـاناً) بعـد قولـه : (وقضـى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) دليل على أن حق الوالدين بعد حق اللـه ـ عز وجل ـ.
فإن قيل : فأين حق الرسول صلى الله عليه وسلم ؟
اجيب : بأن حق الله متضـمن لحـق الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم ، لأن اللـه لا يعبـد إلا بمـا شـرع الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم .
وقوله تعالى : (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَـيْئاً)(النسـاء: من الآية 36).

وقوله : (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهمـا فلا تقـل لهمـا أف) أي: كف الأذى عنهما؛ ففي قولـه: (إحسـاناً): بـذل المعـروف، وفي قوله (فلا تقل لهما أف): كـف الأذى، ومعـنى (أف): أتضـجر؛ لأنك إذا قلته؛ فقد يتأذيـان بـذلك ، وفي الآيـة إشـارة إلى أنهمـا إذا بلغا الكبر صارا عبئاً على ولدهما؛ فلا يتضجر من الحال، ولا ينهرهما في المقال إذا أساءا في الفعل أو القول.
قوله: (وقل لهما قولاً كريماً)، أي: ليناً حسـناً بهـدوء وطمأنينـة؛ كقولك: أعظم الله أجرك، ابشري يا أمي: أبشر يـا أبي، ومـا أشـبه ذلك؛ فالقول مثلاً ، بل يتضمن الدعاء والإيناس لهما.
والشاهد من هذه الآية : قوله تعالى: (ألا تعبدوا إلا إيـاه): فهـذا هو التوحيد لتضمنه للنفي والإثبات.

* * *

* الآية الرابعة قوله تعالى: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شئياً..) الآية. (ولا تشركوا) في مقابل (لا إله)؛ لأنها نفي.

وقوله: (واعبدوا) في مقابل (إلا الله)؛ لأنها إثبات

وقوله: (شيئاً) نكرة في سياق النهي؛ فتعم كل شيء: لا نبياً، ولا ملكاً،
ولا ولياً، بل ولا أمراً من أمور الدنيا؛ فلا تجعل الدنيا شريكاً مع الله، والإنسان إذا كان همه الدنيا كان عابداً لها؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : (تعس عبد الدينار ،

....

تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة) [1] .

قوله: (وبالوالدين إحساناً) يقال فيها ما قيل في الآيـة السـابقة [2] .

قوله: (وبذي القربى واليتامى والمساكين)؛ أي: إحساناً.

وذو القربى هم من يجتمعون بالشخص في الجد الرابع؟

واليتامى: جمع يتيم، وهو الذي مات أبوه، ولم يبلغ.

والمساكين: هم الذين عدموا المال فأسكنهم الفقر.

وابن السبيل: هو المسافر الذي انقطعت به النفقة.

قولـه: (والجـار ذي القـربى والجـار الجنب) الجـار: الملاصـق للبيت، أو من حوله، وذي القربى؛ أي: القريب، والجــار الجنب؛ أي: الجار البعيد.

قوله: (والصاحب بالجنب) ، قيل : إنه الزوجـة، وقيـل : صـاحبك في السفر؛ لأنه يكون إلى حنبك، ولكل منهمـا حـق؛ فالآيـة صـالحة لهما.

قوله: (ومـا ملكت أيمـانكم) هـذا يشـمل الإحسـان إلى الأرقـاء والبهائم؛ لأن الجميع ملك اليمين.

قوله: (إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً).

المختال: في هيئته.

---

[1] البخاري : كتاب الجهاد/باب الحراسة في الغزو.

[2] انظر: (ص21).

والفخور: في قوله، والله لا يحب هذا ولا هذا.

* * *

وقوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِـهِ شَيْئاً)(الأنعام: من الآية151) الآيات.

---

* الآية الخامسة إلى السابعة قوله تعالى: (قل تعالوا أتـل مـا حرم
ربكم عليكم...).

الخطـاب للنـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ، أمـره اللـه أن يقـول للناس: (تعالوا)؛ أي أقبلوا،
وهلموا، وأصله من العلو كأن المنـادي يناديـك أن تعلـو إلى مكانـه، فيقول: تعالى؛ أي ارتفع إلي.

وقوله: (أتل) بالجزم جواباً للأمر في قوله: (تعالوا).

وقوله: (ما حرم ربكم عليكم) (ما) اسم موصول مفعـول لأتـل، والعائد محذوف، والتقدير: ما حرمه ربكم عليكم.

وقال: (ربكم) ولم يقل: مـا حـرم اللـه؛ لأن الـرب هنـا أنسـب، حيث إن الرب له مطلق التصرف في المربـوب، والحكم عليـه بمـا تقتضيه حكمته,

قوله: (ألا تشركوا) أن تفسيرية، تفسر (أتل ما حرم)؛ أي: أتلــو عليكم ألا تشركوا به شيئاً، وليسـت مصـدرية، وقـد قيـل بـه، وعلى هـذا القـول تكـون (لا) زائـدة، ولكن القـول الأول أصـح؛ أي: أتـل عليكم عدم الإشراك؛ لأن الله لم يحرم علينا ألا نشرك به، بل حرم علينا أن نشرك به، ومما يؤيـد أن (أن) تفسـيرية أن (لا) هنـا ناهيـة لتتناسب الجمل؛ فتكون كلها طلبية.

قوله: (وبالوالدين إحساناً)، أي: وأتل عليكم الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

قوله: (ولا تقتلوا أولادكم)، بعـد أن ذكـر حـق الأصـول ذكـر حـق الفروع.

والأولاد في اللغة العربيـة: يشـمل الـذكر والأنـثى، قـال تعـالى: (يُوصِيكُمُ

....
____

اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)(النساء: من الآية11)0

قوله: (من إملاق) ، الإملاق : الفقـر، و(من) للسـببية والتعليـل؛ إي: بسبب الإملاق.

قوله: (نحن نرزقكم وإياهم)، أي: إذا أبقيتموهم؛ فإن الرزق لن يضيق عليكم بإبقائهم؛ لأن الذي يقوم بالرزق هو الله.

وبدأ هنا برزق الوالدين ، وفي سورة الإسراء بدأ بـرزق الأولاد ، والحكمة في ذلك أنه قال هنا: (من إملاق)؛ فـالإملاق حاصـل، فبـدأ بذكر الوالدين الذين أملقـا، وهنـاك قـال: (خشـية إملاق)(الإسـراء: 31)؛ فهما غنيان، لكن يخشيان الفقر، فبدأ بـرزق الأولاد قبـل رزق الوالدين.

وتقييـد النهي عن قتـل الأولاد بخشـية الإملاق بنـاءً على واقـع المشركين غالباً؛ فلا مفهوم له.

قوله: (ولا تقربـوا الفـواحش)، لم يقـل: لا تـأتوا؛ لأن النهي عن القرب أبلغ من النهي عن الإتيان؛ لأن النهي عن القـرب نهي عنهـا، وعمـا يكـون ذريعـة إليهـا، ولـذلك حـرم على الرجـل أن ينظـر إلى المرأة الأجنبيـة، وأن يخلـو بهـا، وأن تسـافر المـرأة بلا محـرم؛ لأن ذلك يقرب من الفواحش.

قوله: (ما ظهر منهـا ومـا بطن)، قيـل : مـا ظهـر فحشـه، ومـا خفي؛ لأن الفواحش منها شيء مستفحش في نفوس جميع الناس، ومنها شيء فيه خفاء.

وقيل: ما أظهرتمـوه، ومـا أسـررتموه؛ فالإظهـار: فعـل الزنـا ـ والعياذ بالله ـ مجاهرة، والإبطان فعله سراً.

وقيـل: مـا عظم فحشـه، ومـا كـان دون ذلـك؛ لأن الفـواحش ليست على

....
____

حد سواء، ولهذا جاء في الحـديث : (ألا أنـبئكم بـأكبر الكبـائر) [1] ، وهذا يدل على أن الكبائر فيها أكبر وفيها ما دون ذلك.

قولـه: (ولا تقتلـوا النفس الـتي حـرم اللـه إلا بـالحق) ، النفس الــتي حــرم اللــه: هي النفس المعصــومة، وهي نفس المســلم، والذمي، والمعاهد، والمستأمِن؛ بكسر الميم.

والحق: ما أثبته الشرع.

والباطل: ما نفاه الشرع.

فمن الحق الـذي أثبتـه الشـرع في قتـل النفس المعصـومة أن يزني المحصن فيرجم حتى يمـوت، أو يقتـل مكافئـه، أو يخـرج عن الجماعة، أو يقطع الطريق؛ فإنه يقتل، قال صلى الله عليه وسلم : (لا يحل دم أمريء مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بـالنفس، والـثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة)(2) .

وقال هناك: (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) ، وقال قبلهـا: (ولا تقتلـوا أولادكم)؛ فيكـون النهي عن قتـل الأولاد مكـرراً مرتين: مرة بذكر الخصوص، ومرة بذكر العموم.

وقوله: (ذلكم وصاكم بـه) ، المشـار إليـه مـا سـبق ، والوصـية بالشيء هي العهد به على وجه الاهتمام، ولهـذا يقـال: وصـيته على فلان؛ أي: عهدت به إليه ليهتم به.

....

قوله: (تعقلـون)، العقـل هنـا: حسـن التصـرف، وأمـا في قولـه تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(الزخرف:3)؛ فمعناه: تفهمون.

وفي هذا دليل على أن هذه الأمور إذا التزم بهـا الإنسـان؛ فهـو عاقل رشيد، وإذا خالفها؛ فهو سفيه ليس بعاقل.

وقد تضمنت هذه الآية خمس وصايا:

---

(1) البخاري : كتاب الشهادات/باب ما قيل في شهادة الزور، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان الكبائر).

(2) (2) البخاري: كتاب الديات/باب قول الله تعالى : أن النفس بالنفس ...) ، ومسلم كتاب القسامة/ باب ما يباح به دم المسلم.

الأول : توحيد الله.
الثانية : الإحسان بالوالدين.
الثالثة : أن لا نقتل أولادنا.
الرابعة : أن لا نقرب الفواحش.
الخامسة: أن لا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.
قوله : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحس) ، قولــه : (ولا تقربوا) هذا حماية لأموال اليتامى أن لا نقربها إلا بالخصلة التي هي أحسن؛ فلا نقربهـا بـأي تصـرف إلا بمـا نـرى أنـه أحسـن، فـإذا لاح للولي تصرفان أحدهما أكثر ربحاً؛ فالواجب عليـه أن يأخـذ بمـا هـو أكثر ربحاً لأنه أحسن.
والحسن هنا يشمل: الحسن الدنيوي، والحسن الديني، فإذا لاح تصرفان أحدهما أكثر ربحاً وفيه رباً، والآخر أقل ربحاً وهو أسلم من الربـا؛ فنقـدم الأخـير؛ لأن الحسـن الشـرعي مقـدم على الحسـن الدنيوي المادي.
قوله: (حتى يبلغ أشـده)، (حـتى) هنـا: حـرف غايـة؛ فمـا بعـدها مخالف لما قبلها.
أي: إذا بلغ أشده؛ فإننا ندفعه إليه بعـد أن نختـبره، وننظـر في حسن تصرفه، ولا يجوز لنا أن نبقيه عندنا.
....

ومعـنى أشـده: قوتـه العقليـة والبدنيـة، والخطـاب هنـا لأوليـاء اليتامى أو للحاكم على قول بعض أهل العلم، وبلوغ الأشد يختلــف، والمراد به هنـا الأشـد الـذي يكـون بـه التكليـف، وهـو تمـام خمس عشرة سنة، أو إنبات العانة أو الإنزال.
قوله: (وأوفوا الكيل والميزان) ، أي : أوفوا الكيل إذا كلتم فيما يكال من الأطعمة والحبوب.
وأوفوا الميزان : إذا وزنتم فيما يوزن؛ كاللحوم مثلاً.
والأمر بالإيفاء شـامل لجميـع مـا تتعامـل بـه مـع غـيرك؛ فيجب عليك أن توفي بالكيل والوزن وغيرهما في التعامل.
قوله: (بالقسط)، أي: بالعدل، ولما كـان قولـه: (بالقسـط) قـد يشق بعض الأحيان؛ لأن الإنسان قد يفوته أن يوفي الكيل أو الـوزن

أحياناً ، أعقب ذلك بقوله: (لا نكلف نفساً إلا وسـعها)؛ أي: طاقتهـا، فإذا بـذل جهـده وطاقتـه، وحصـل النقص؛ فلا يعـد مخالفـاً؛ لأن مـا خرج عن الطاقة معفو عنه فيه، كما أن هذه الجملة تفيد العفـو من وجه، وهو ما خرج عن الوسع؛ فإنها تفيد التغليظ من وجه، وهـو أن على المرء أن يبـذل وسـعه في الإيفـاء بالقسـط، ولكن مـتى تـبين الخطأ وجب تلافيه لأنه داخل في الوسع.

قوله: (وإذا قلتم فاعدلوا) ، معناه : أي قول تقولـه ؛ فإنـه يجب عليك أن تعدل فيه، سواء كان ذلك لنفسك على غـيرك ، أو لغـيرك على نفسك ، أو لغيرك على غيرك ، أو لتحكم بين اثنين ؛ فالواجب العدل؛ إذ العدل في اللغة الاستقامة، وضده الجور والميل؛ فلا تمل يميناً ولا شمالاً ، ولم يقـل هنـا : (لا نكلـف نفسـاً إلى وسـعها)؛ لأن القول لا يشق فيه العدل غالباً.

....

قوله: (ولو كان ذا قربى)، أي المقول له ذا قرابـة؛ أي: صـاحب قرابة؛ فلا تحابيه لقرابته ، فتميل معه على غيره من أجلـه؛ فاجعـل أمرك إلى الله ـ عز وجل ـ الذي خلقك ، وأمرك بهذا وإليه سترجع، ويسألك ـ عز وجل ـ ماذا فعلت في هذه الأمانة.

وقد أقسم أشرف الخلق، وسيد ولد آدم، وأعدل البشر؛ محمـد صلى الله عليه وسلم وقال: (وايم الله ؛ لو أن فاطمة بنت محمـد سرقت ؛ لقطعت يدها) [1] .

قوله: (وبعهد الله أوفوا)، قدم المتعلق؛ للاهتمام به، وعهد الله: ما عهد به إلى عباده ، وهي عبادته سبحانه وتعـالى والقيـام بـأمره؛ كما قال عز وجل: (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَـاقَ بَنِي إِسْـرائيلَ وَبَعَثْنَـا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَــرَ نَقِيبــاً وَقَــالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّــلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَـاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُـلِي وَعَزَّرْتُمُـوهُمْ وَأَقْرَضْـتُمُ اللَّهَ قَرْضـاً حَسَـناً) (المائـدة: من الآية12) ، هـذا ميثـاق من جـانب المخلـوق، وقولـه

([1] البخـاري : كتـاب الحـدود/ بـاب كراهية الشـفاعة في الحد إذا رفع إلى السـلطان، ومسـلم: كتـاب الحدود/ باب قطع السارق الشريف

تعـالى: (لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَـيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَارُ)(المائدة: من الآية12)، هذا من جانب الله ـ عز وجل ـ .
قوله : (ذلكم وصاكم بـه لعلكم تـذكرون) ، هـذه الآيـة الكريمـة فيها أربع وصايا من الخالق عز وجل :
الأولى : أن لا نقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.
الثانية : أن نوفي الكيل والميزان بالقسط.
الثالثة : أن نعدل إذا قلنا.

....

الرابعة: أن نوفي بعهد الله.

والآية الأولى فيها خمس وصايا . صار الجميع تسع وصايا.

ثم قال عز وجل : (وأن هذا صراطي مسـتقيماً فـاتبعوه)، هـذه هي الوصـية العاشـرة ؛ فقولـه : (وأن هـذا صـراطي) يحتمـل أن المشار إليه ما سبق؛ لأنك لو تأملتـه وجدتـه محيطـاً بالشـرع كلـه ؛ وإما إيماء ، ويحتمل أن المراد بـه مـا علم من دين اللـه ؛ أي : هـذا الذي جاءكم به الرسول صلى الله عليه وسـلم هـو صـراطي ؛ أي : الطريق الموصل إليه سبحانه وتعالى.

والصراط يضاف إلى الله ـ عز وجل ـ ويضاف إلى سـالكه؛ ففي قولـه تعـالى: (صِـرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ)(الشورى:من الآية53) هنا أضـيف إلى اللـه ــ عـز وجـل ــ؛ فإضافته إلى الله ـ عـز وجـل ــ لأنـه موصـل إليـه، ولأنـه هـو الـذي وضعه لعباده ــ جـل وعلا ــ ، وإضـافته إلى سـالكه لأنهم هم الـذين سلكوه.

قوله : (مستقيماً) ، هـذه حـال من (صـراط) ؛ أي : حـال كونـه مستقيماً لا اعوجاج فيه فاتبعوه.

قوله : (ولا تتبعوا السبيل فتفرق بكم عن سـبيله) السـبل ؛ أي: الطرق الملتوية الخارجة عنه.

وتفرق: فعل مضارع منصوب بأن بعد فاء السببية ، لكن حذفت منه تاء المضارعة، وأصلها: (تتفرق)، أي أنكم إذا اتبعتم السبل تفرقت بكم عن سبيله، وتشتت بكم الأهواء وبعدت.

قال ابن مسعود : (من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه ؛ فليقرأ قوله تعالى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً...) إلى قوله : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ) (المائدة: من الآية 16) الآية .

وهنا قال : (السبل): جمع سبيل ، وفي الطريق التي أضافها الله إلى نفسه قال: (سبيله) سبيل واحد ؛ لأن سبيل الله ــ عز وجل ـ واحد ، وأما ما عداه ؛ فسبل متعددة ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : (وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار ؛ إلا واحدة) ؛ فالسبيل المنجي واحد، والباقية متشعبة متفرقة ، ولا يرد على هذا قوله تعالى : (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ)(المائدة: من الآية16) ؛ لأن (سبل) في الآية الكريمة ؛ وإن كانت مجموعة ؛ لكن أضيفت إلى السلام فكانت منجية ، ويكون المراد بها شرائع الإسلام.

وقوله : (ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) ، أي ذلك المذكور وصاكم لتنالوا به درجة التقوى ، والالتزام بما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم .

* * *

* قوله : قال ابن مسعود: (من أراد...) إلخ . الاستفهام هنا للحث والتشويق ، واللام في قوله : (فليقرأ) للإرشاد.

....

قوله : (وصية محمد صلى الله عليه وسلم) ، أي : رسول اللـه محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي صلى الله عليه وسلم ، وهـذا التعبير من ابن مسعود يـدل على جـواز مثلـه ، مثـل : قـال محمـد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصية محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم , ولا ينـافي قولـه تعـالى : (لا تَجْعَلُـوا دُعَـاءَ الرَّسُـولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً)(النور: من الآية63) ؛ لأن دعـاء الرسـول هنـا أي : مناداته؛ فلا تقولوا عند المناداة : يـا محمـد ! ولكن قولـوا : يـا رسول الله ! أما الخبر ؛ فهو أوسـع من بـاب الطلب ، ولهـذا يجـوز أن تقول : أنا تابع لمحمد صـلى اللـه عليـه وسـلم، أو اللهم ! صـل على محمد ، وما أشبه ذلك .

قوله : (التي عليها خاتمه) ، الخاتم بمعنى التوقيع .

وقوله : (وصية محمد صـلى اللـه عليـه وسـلم) ليسـت وصـية مكتوبة مختوماً عليها ؛ لأن النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم لم يـوص بشيء ، ويدل لذلك : أن أبا جحيفة سأل علي بن أبي طـالب : هـل عهد إليكم النبي صلى الله عليه وسلم بشيء ؟ فقـال : لا . والـذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يؤتيه الله تعـالى في القـرآن ، ومـا في هذه الصحيفة . قيل : وما في هذه الصـحيفة ؟ قـال : العقـل ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر [1] .

فلا يظن أن النبي صلى اللـه عليـه وسـلم أوصـى بهـذه الآيـات وصية خاصة مكتوبة ، لكن ابن مسعود رضي الله عنه يرى أن هـذه الآيات قد شملت الدين كله ؛ فكأنها الوصية التي ختم عليها رسـول الله صلى الله عليه وسلم وأبقاها لأمته .

وعن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) ؛ قـال : (كنت رديـف النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم على حمـار ، فقـال لي : (يـا معـاذ ! أتدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟). قلت : الله و رسـوله أعلم . قـال : (حـق اللـه على العبـاد أن يعبـدوه ولا يشركوا به شيئا .

---

[1] البخاري : كتاب الديات / باب العاقلة.

وهي آيات عظيمة ، إذا تدبرها الإنسان وعمل بها ؛ حصلت له الأوصاف الثلاثة الكاملة : العقل ، والتذكر ، والتقوى .

وقوله : (فليقرأ قوله تعالى ...) إلخ الآيات سبق الكلام عليها .

* * *

قوله : (رديف) ، بمعنى رادف ؛ أي : راكب معه خلفه؛ فهو فعيل بمعنى فاعل ، مثل : رحيم بمعنى راحم ، وسميع بمعنى سامع.

قوله : (على حمار) ، أي : أهلي ؛ لأن الوحشي لا يركب.

قوله : (أتدري) ، أي : أتعلم.

قوله : (ما حق الله على العباد؟)، أي : ما أوجبه عليهم ، وما يجب أن يعاملوه به ، وألقاه على معاذ بصيغة السؤال ؛ ليكون أشد حضوراً لقلبه حتى يفهم ما يقول صلى الله عليه وسلم .

قوله (وما حق العباد على الله؟) ، أي: ما يجب أن يعاملهم به ، والعباد لم يوجبوا شيئاً ، بل الله أوجبه على نفسه فضلاً منه على عباده ، قال تعالى: (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (الأنعام: من الآية54).

وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً) . قلت : يا رسول الله! أفلا أبشر الناس؟ قال : (لا تبشرهم فيتكلوا) . أخرجاه في (الصحيحين)[1]

فأوجب سبحانه على نفسه أن يرحم من عمل سوءاً بجهالة ؛ أي : بسفه وعدم حسن تصرف ثم تاب من بعد ذلك وأصلح.

ومن كتب ؛ أي : أوجب.

قوله : (قلت: الله ورسوله أعلم) ، لفظ الجلالة الله : مبتدأ ، و(رسوله): معطوف عليه ، وأعلم: خبر المبتدأ، وأفرد الخبر هنا مع

---

[1] البخاري: كتاب الجهاد/ باب اسم الفرس والحمار، ومسلم : كتاب الإيمان / باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة.

أنه لاثنين؛ لأنه على تقدير : (من)، واسم التفضيل إذا كان على تقدير: (من)؛ فإن الأشهر فيه الإفراد والتذكير.

والمعنى : أعلم من غيرهما ، وأعلم مني أيضاً.

قوله : (يعبدوه) أي : يتذللوا له بالطاعة.

قوله : (ولا يشركوا به شيئاً) ، أي : في عبادته وما يختص به ، وشيئاً نكرة في سياق النفي؛ فتعم كل شيء لا رسولاً ولا ملكاً ولا ولياً ولا غيرهم.

* * *

وقوله : (وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً) ، وهذا الحق تفضل الله به على عباده ، ولم يوجبه عليه أحد ، ولا تظن أن قوله : (من لا

....

يشرك به شيئاً) أنه مجرد عن العبادة ؛ لأن التقدير : من يعبده ولا يشرك به شيئاً، ولم يذكر قوله : (من يعبده)؛ لأنه مفهوم من قوله: (وحق العباد) ، ومن كان وصفه العبودية ؛ فلابد أن يكون عابداً.

ومن لم يعبد الله ولم يشرك به شيئاً ؛ هل يعذب ؟

الجواب : نعم يعذب ؛ لأن الكلام فيه حذف ، وتقديره : من يعبده ولا يشرك به شيئاً ، ويدل لهذا أمران :

الأول : قوله : (حق العباد) ، ومن كان وصفه العبودية ؛ فلابد أن يكون عابداً.

الثاني : أن هذا في مقابل قوله فيما تقدم: (أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً) ؛ فعلم أن المراد بقوله : (لا يشركوا به شيئاً) ؛ أي : في العبادة.

قوله : (أفلا أبشر الناس) ، أي : أأسكت فلا أبشر الناس ؟ ومثل هذا التركيب: الهمزة ثم حرف العطف ثم الجملة لعلماء النحو فيه قولان:

الأول : أن بين الهمزة وحرف العطف محذوفاً يقدر بما يناسب المقام ، وتقديره هنا : أأسكت فلا أبشر الناس ؟

الثـاني : أنـه لا شـيء محـذوف ، لكن هنـا تقـديم وتـأخير ، وتقديره : فألا أبشـر؟ فالجملـة معطوفـة على مـا سـبق ، وموضـع الفاء سابق على الهمزة ؛ فالأصـل : فـألا أبشـر النـاس ؟ لكن لمـا كـان مثـل هـذا الـتركيب ركيكـاً ، وهمـزة الاسـتفهام لهـا الصـدارة؛ قدمت على حرف العطف ، ومثل ذلـك قولـه تعـالى (أَفَلا يَنْظُـرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)(الغاشية:17) ، وقوله تعالى : (أفلا تُبصرون) (السـجدة: 27) ، وقولـه تعـالى: (أفلم يسـيروا في الأرض)(الحج: 46).

والبشارة : هي الإخبار بما يسر.

وقـد تسـتعمل في الإخبـار بمـا يضـر ، ومنـه قولـه تعـالى : (فبشرهم بعذاب

* فيه مسائل :

الأولى : الحكمة في خلق الجن و الإنس . الثانية : أن العبـادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه .

أليم)(الانشقاق:24) ، لكن الأكثر الأول.

قوله : (لا تبشرهم) ، أي : لا تخبرهم ، ولا ناهية.

ومعنى الحديث أن اللـه لا يعـذب من لا يشـرك بـه شـيئاً ، وأن المعاصي تكون مغفورة بتحقيـق التوحيـد ، ونهى النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم عن إخبـارهم ؛ لئلا يعتمـدوا على هـذه البشـرى دون تحقيق مقتضاها ؛ لأن تحقيق التوحيـد يسـتلزم اجتنـاب المعاصـي ؛ لأن المعاصي صادرة عن الهوى ، وهذا نوع من الشرك ، قال تعالى :(أفرأيت من أتخذَ إلهه هواه)(الجاثية:23).

ومناسـبة الحـديث للترجمـة : فضـيلة التوحيـد ، وأنـه مـانع من عذاب الله.

* * *

المسائل :

* الأولى : الحكمة من خلق الجن و الإنس ، أخـذها رحمـه اللـه من قولـه تعـالى : (ومـا خلقت الجن و الإنس إلا ليعبـدون)

(الذاريات :56)؛ فالحكمة هي عبادة الله لا أن يتمتعون بالمآكــل و المشارب و المناكح .

* الثانية : أن العبـادة هي التوحيـد ، أي : أن العبـادة مبنيـة على التوحيد ؛ فكل عبادة لا توحيد فيها ليست بعباده ، لا سـيما أن بعض السلف فسروا قوله
تعالى : (إلا ليعبدون) : إلا ليوحدون .
الثالثة : أن من لم يأت به ؛ لم يعبد اللـه ؛ ففيـه معـنى قولـه : (ولا أنتم عابـدون مـا أعبـد) (الكـافرون : 3) . الرابعـة : الحكمـة في إرسال الرسل . الخامسة : أن الرسالة عمت كل أمة .

وهذا مطـابق تمامـا لمـا اسـتنبطه المؤلـف رحمـه اللـه من أن العبادة هي التوحيد ؛ فكل عبادة لا تبنى على التوحيـد فهي باطلـة ، قال صلى الله عليه وسلم :) قال الله تعالى : أنـا أغـنى الشـركاء عن الشــرك، من عمــل عملا أشــرك فيــه معي غــيري ؛ تركتــه وشركه) [1]

وقوله : (لأن الخصـومة فيـه)، أى : في التوحيـد بين الرسـول صلى الله عليه وسلم وقريش ؛ فقريش يعبدون اللــه يطوفــون لــه ويصلون ، ولكن على غير الإخلاص والوجه الشرعي ؛ فهي كالعــدم لعـدم الإيتـان بالتوحيـد ، قـال تعـالى : (وَمَـا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَـلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ)(التوبة: من الآية54)

* وقوله في الثالثـة : ففيـة معـنى قولـه : (ولا أنتم عابـدون مـا أعبد) ، لستم عابـدين عبـادتي؛ لأن عبـادتكم مبنيـة على الشـرك ، فليست بعبادة لله تعالى

* الرابعة : الحكمة في إرسال الرسل ، أخذها رحمه الله تعالى من قوله تعـالى : (وَلَقَـدْ بَعَثْنَـا فِي كُـلِّ أُمَّةٍ رَسُـولاً أَنِ اعْبُـدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)(النحل: من الآية36) فالحكمة هي: الدعوة إلى عبادة الله وحده ، واجتناب عبادة الطاغوت.

---

[1] مسلم : كتاب الزهد/ باب من أشرك في عمله غير الله.

* الخامسة : أن الرسالة عمت كل أمة ، أخذها من قوله تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا) (النحل : 36).
السادسة : أن دين الأنبياء واحد . السابعة : المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت ؛ ففيه معنى قوله تعالى : (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ)(البقرة: من الآية256)

---

* السادسة : أن دين الأنبياء واحد ، أخذها من قوله تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) (النحل: من الآية36) ، ومثل قولة تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الانبياء:25) ، وهذا لا ينافي قوله تعالى (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً) (المائدة: من الآية48)؛ لأن الشرعة العملية تختلف باختلاف الأمم والأماكن والأزمنة، وأما أصل الدين؛ فواحد، قال تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)(الشورى: من الآية13).
* السابعة: المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت. ودليله قوله تعالى: (واجتنبوا الطاغوت)، فمن عبد الله ولم يكفر بالطاغوت؛ فليس بموحد، ولهذا جعل المؤلف رحمه الله هذه المسألة كبيرة؛ لأن كثيراً من المسلمين جهلها في زمانه وفي زماننا الآن.
** تنبيه
لايجوز إطلاق الشرك أو الكفر أو اللعن على من فعل شيئاً من ذلك؛ لأن الحكم بذلك في هذه وغيرها له أسباب وله موانع؛ فلا نقول لمن أكل الربا: ملعون؛ لأنه قد يوجد مانع من حلول اللعنة عليه؛ كالجهل مثلاً، أو الشبهة، وما أشبه ذلك، وكذا الشرك لا نطلقه على من فعل شركاً؛ فقد تكون الحجة ما قامت عليه بسبب تفريط علمائهم، وكذا نقول: من صام رمضان إيماناً

الثامنة : أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون اللـه. التاسـعة : عظم شأن الثلاث آيات المحكمات في سورة الأنعام عنـد السـلف، وفيها عشر مسائل، أولها النهي عن الشرك.

واحتساباً؛ غفر له مـا تقـدم من ذنبـه، ولكن لا نحكم بهـذا لشـخص معين، إذ إن الحكم المعلق على الأوصاف لا ينطبق على الأشخاص إلا بتحقق شروط انطباعه وانتفاء موانعه.

فإذا رأينا شخصاً يتبرز في الطريق؛ فهل نقول له: لعنك الله؟

الجواب: لا، إلا إذا أريد باللعن في قوله: (اتقــوا الملاعن) [1] أن الناس أنفسهم يلعنون هذا الشخص ويكرهونه، ويرونه مخلاً بــالأدب مؤذياً للمسلمين؛ فهذا شيء آخر.

فدعاء القبر شرك، لكن لا يمكن أن نقول لشخص معين فعله: هذا مشرك؛ حتى نعرف قيام الحجـة عليـه، أو نقـول: هـذا مشـرك باعتبار ظاهر حاله.

* الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله . فكل ما عبد من دون الله؛ فهو طاغوت، وقد عرفـه ابن القيم: بأنـه كـل ما تجـاوز بـه البعـد حـده من معبـود أو متبـوع أو مطـاع، فـالمعبود كالصنم، والمتبوع كالعالم، والمطاع كالأمير،

* التاسعة: عظم شأن الثلاث آيات المحكمات في سورة الأنعام، المحكمات؛

العاشرة : الآيات المحكمات في سورة الإسراء/ وفيها ثماني عشــر مسألة، بدأها الله بقوله: (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُـدَ مَـذْمُوماً مَخْذُولاً)(الاسراء:22) . وختمها بقوله : (وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهـاً آخَـرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً)(الاسراء: من الآية39) . ونبهنا اللـه

---

[1] مسند الإمام أحمد 1/299، سنن أبي داود : كتاب الطهـارة / بـاب المواضع الـتي نهى النـبي صـلى الله عليه وسـلم عن التبـول فيها ، وابن ماجـة: كتـاب الطهارة/باب النهي عن الخلاء على قارعة الطريـق، والحـاكم ـ وقـال: (صـحيح)، ووافقه الذهبي.

سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله : (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ)(الاسراء: من الآية39).

أي: التي ليس فيها نسخ، أخذ ذلك من قول ابن مسعود رضي الله عنه.

* العاشرة : الآيات المحكمات في سورة الإسراء. وهي قوله تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)(الاسراء: من الآية23)، وفيها ثماني عشرة مسألة بدأها بقوله تعالى : (لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً)، وختمها بقوله تعالى : (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً).

وقد نبهنا الله ـ سبحانه ـ على عظم شأن هذه المسائل بقوله تعالى: (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة).

فبدأها الله بالنهي عن الشرك بقوله تعالى: (لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً)، والقاعد ليس قائماً؛ لأنه لا خير لمن أشرك بالله، مذموماً عند الله وعند أوليائه، مخذولاً لا ينتصر في الدنيا ولا في الآخرة.

وختمها بقوله: (وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً)(الاسراء: من الآية39)؛فهذه عقوبته عندما يلقى في النار كل يلومه ويدحره فيندحر و العياذ بالله .

الحادية عشرة : آية سورة النساء التى تسمى آية الحقوق العشرة ، بدأها الله تعالى بقوله : (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً)(النساء: من الآية36) الثانية عشرة : معرفة حق الله علينا.

---

* الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة. بدأها بقوله تعالى: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً)، فأحق الحقوق حق الله، ولا تنفع الحقوق إلا به؛ فبدئت هذه الحقوق به ، ولهذا لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم حكيم بن

حزام عمن كان يتصدق ويعتق ويصل رحمه في الجاهلية هل له من أجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أسلمت على ما أسـلفت من الخير) [1] ؛ فدل على أنه إذا لم يسلم لم يكن له أجر ، فصارت الحقوق كلها لا تنفع إلا بتحقيق حق الله.

* الثانية عشرة : التنبيه على وصية رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم عند موته. وذلك من حديث ابن مسعود رضي اللـه عنـه [2] ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوص بها حقيقة، بل أشار إلى أننا إذا تمسكنا بكتاب الله: فلن نضل بعده، ومن أعظم مـا جـاء بـه كتـاب اللـه قولـه تعـالى: (قُـلْ تَعَـالَوْا أَتْـلُ مَـا حَـرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) (الأنعام: من الآية151).

* الثالثة عشرة: معرفـة حـق اللـه علينـا. وذلـك بـأن نعبـده ولا نشرك به شيئاً.

الرابعة عشـرة : معرفـة حـق العبـاد عليـه إذا أدوا حقـه. الخامسـة عشــرة : أن هــذه المســألة لا يعرفهــا أكــثر الصــحابة. السادســة عشرة : جواز كتمان العلم للمصلحة.

---

* الرابعة عشرة: معرفة حق العبـاد عليـه إذا أدوا حقـه. وذلـك بأن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، أما من أشـرك؛ فإنـه حقيـق أن يعذب.

* الخامسة عشرة: أن هـذه المسـألة لا يعرفهـا أكـثر الصـحابة. وذلك أن معاذاً أخبر بها تأثماً، أي خروجاً من إثم الكتمان عند موتـه بعد أن مات كثير من الصحابة؛ وكأنه رضي الله عنـه علم أن النـبي صلى الله عليه وسلم كان يخشى أن يفتتن الناس بها ويتكلـوا، ولم

---

[1] البخـاري: كتب الأدب/ بـاب شـراء من وصل رحمه في الشـرك ثم أسـلم، ومسلم: كتاب الإيمان/باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده.

[2] سبق تخريجه (ص 31)

يرد صلى الله عليه وسلم كتمها مطلقاً؛ لأنه لو أراد ذلك لم يخبر بها معاذاً ولا غيره.

* السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة. هذه ليست على إطلاقها؛ إذ إن كتمان العلم على سبيل الإطلاق لا يجوز لأنه ليس بمصلحة، ولهذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً ولم يكتم ذلك مطلقاً، وأما كتمان العلم في بعض الأحوال، أو عن بعض الأشخاص لا على سبيل الإطلاق؛ فجائز للمصلحة؛ كما كتم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عن بقية الصحابة خشية أن يتكلوا عليه، وقال لمعاذ: (لا تبشرهم فيتكلوا) [1] .

ونظير هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة: (بشر الناس أن من قال: لا إله إلا الله

السابعة عشرة : استحباب بشارة المسلم بما يسره . الثامنة عشرة : الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

خالصاً من قلبه دخل الجنة) [1].

بل قد تقتضي المصلحة ترك العمل؛ وإن كان فيه مصلحة لرجحان مصلحة الترك، كما هم النبي صلى الله عليه وسلم أن يهدم الكعبة ويبنيها على قواعد إبراهيم، ولكن ترك ذلك خشية افتتان الناس؛ لأنهم حديثو عهد بكفر [2] .

* السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره. لقوله: (أفلا أبشر الناس؟)، وهذه من أحسن الفوائد.

* الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله. وذلك لقوله: (لا تبشرهم فيتكلوا)؛ لأن الاتكال على رحمة الله يسبب مفسدة عظيمة هي الأمن من مكر الله.

([1] سبق تخريجه (ص 34) .

([1] مسلم: كتاب الإيمان/باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة.

([2] البخاري: كتاب العلم/ باب ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، ومسلم: كتاب الحج/باب نقض الكعبة.

وكذلك القنوط من رحمة الله يبعد الإنسان من التوبة ويسبب اليأس من رحمة الله، ولهذا قال الإمام أحمد: (ينبغي أن يكون سائراً إلى الله بين الخوف والرجاء؛ فأيهما غلب هلك صاحبه)، فإذا غلب الرجاء أدى ذلك إلى الأمن من مكر الله ، وإذا غلب الخوف أدى ذلك إلى القنوط من رحمة الله.

....

وقال بعض العلماء: إن كان مريضاً غلب جانب الرجاء، وإن كان صحيحاً غلب جانب الخوف.

وقال بعض العلماء: إذا نظر إلى رحمة الله وفضله غلب جانب الرجاء, وإذا نظر إلى فعله وعمله غلب جانب الخوف لتحصل التوبة.

ويستدلون بقوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) (المؤمنون: من الآية60)؛ أي: خائفة أن لا يكون تقبل منهم لتقصير أو قصور، وهذا القول جيد، وقيل: يغلب الرجاء عند فعل الطاعة ليحسن الظن بالله، ويغلب جانب الخوف إذا هم بالمعصية لئلا ينتهك حرمات الله.

وفي قوله: (أفلا أبشر الناس ؟) [1] دليل على أن التبشير مطلوب فيما يسر من أمر الدين والدنيا، ولذلك بشرت الملائكة إبراهيم، قال تعالى: (وبشروه بغلامٍ عليم)(الذاريات:28)، وهو إسحاق، والحليم إسماعيل، وبشر النبي صلى الله عليه وسلم أهله بابنه إبراهيم، فقال: (ولد لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم) [2]؛ فيؤخذ من أنه ينبغي للإنسان إدخال السرور على إخوانه المسلمين ما أمكن بالقول أو بالفعل؛ ليحصل له بذلك خير كثير وراحة وطمأنينة قلب وانشراح صدر.

---

(1) سبق تخريجه (ص 34) .

(2) مسلم: كتاب الفضائل/باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال.

وعليه؛ فلا ينبغي أن يـدخل السـوء على المسـلم، ولهـذا يـروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : (لايحـدثني أحـد عن أحـد بشـيء؛ فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر) [3] .

التاسـعة عشـرة : قـول المسـؤول عمـا لا يعلم: اللـه ورسـوله أعلم.

وهذا الحديث فيه ضعف ، لكن معناه صحيح؛ لأنه إذا ذكر عندك رجل بسوء؛ فسيكون في قلبك عليه شـيء ولـو أحسـن معاملتـك، لكن إذا كنت تعاملــه وأنت لا تعلم عن سـيئاته، ولا محــذور في أن تتعامـل معـه؛ كـان هـذا طيبـاً ، وربمـا يقبـل منـك النصـيحة أكـثر، والنفوس ينفر بعضها من بعض قبل الأجسام، وهذه مسـائل دقيقـة تظهر للعاقل بالتأمل.

* التاسعة عشرة : قول المسـؤول عمـا لا يعلم: اللـه ورسـوله أعلم، وذلك لإقرار النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً لما قالها، ولم ينكر النبي صلى الله عليـه وسـلم على معـاذ، حيث عطـف رسـول الله صلى الله عليه وسـلم على اللـه بـالواو، وأنكـر على من قـال: (ما شاء الله وشئت)، وقـال: أجعلتـني للـه نـداً؟ بـل مـا شـاء اللـه وحده) [1] .

فيقال: إن الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم عنـده من العلـوم الشرعية ما ليس عند القائـل، ولهـذا لم ينكـر الرسـول صـلى اللـه عليه وسلم على معاذ.

بخلاف العلوم الكونية القدرية؛ فالرسول صلى الله عليه وسـلم ليس عنده علم منها.

فلو قيل : هل يحرم صوم العيدين؟

جـاز أن نقـول: اللـه ورسـوله أعلم، ولهـذا كـان الصـحابة إذا أشـكلت عليهم المسـائل ذهبـوا إلى رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه

---

[3] مسند الإمـام أحمد 1/396، وقـال أحمد شـاكر : إسـناده حسن على الأقـل. وسنن أبي داود: كتاب الأدب/باب في رفع الحديث من المجلس، ـ وسكت عنه ـ .

[1] مسند الإمام أحمد (1/214)، وابن ماجة: كتاب الكفارات/باب النهي أن يُقال: ما شـاء الله وشـئت، وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح (1839).

وسلم فيبينها لهم، ولو قيل: هل يتوقع نزول مطر في هذا الشــهر؟ لم يجز أن نقول: الله ورسوله أعلم؛ لأنه من العلوم الكونية.

العشرون: جواز تخصـيص بعض النـاس بـالعلم دون بعض. الحاديـة والعشـرون: تواضـعه صـلى اللـه عليـه وسـلم لركـوب الحمـار مـع الإرداف عليه. الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة.

---

* العشــرون: جــواز تخصــيص بعض النــاس بــالعلم دون بعض. وذلك لأن النبي صلى الله عليـه وسـلم خص هـذا العلم بمعـاذ دون أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

فيجــوز أن نخصــص بعض النــاس بــالعلم دون بعض، حيث أن بعض الناس لـو أخبرتـه بشـيء من العلم أفتتن، قـال ابن مسـعود: (إنك لن تحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنــة) [1] ، وقال علي:(حـدثوا النـاس بمـا يعرفـون) [2]، فيحـدث كـل أحـد حسب مقدرته وفهمه وعقله.

* الحادية والعشرون: تواضعه صـلى اللـه عليـه وسـلم لركـوب الحمار مع الإرداف عليه. النبي صلى الله عليه وسلم أشرف الخلق جاهاً، ومع ذلك هو أشد النـاس تواضـعاً، حيث ركب الحمـار وأردف عليه، وهـذا في غايـة التواضـع؛ إذ إن عـادة الكـبراء عـدم الإرداف، وركب صلى الله عليه وسلم الحمـار، ولـو شـاء لـركب مـا أراد، ولا منقضة في ذلك؛ إذ إن من تواضع لله ـ عز وجل ـ رفعه.

* الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة. وذلـك أن النـبي صلى الله عليه وسلم أردف معاذاً لكن يشترط للإرداف أن لا يشق على الدابة، فإن شق؛ لم يجز ذلك.

الثالثة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة.

الرابعة والعشرون : فضيلة معاذ بن جبل.

([1] رواه : مسلم : المقدمة/ باب النهي عن الحديث بكل ما سمع.

([2] البخاري: كتاب العلم/باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا.

* الثالثة والعشرون: عظم شأن هذه المسـالة. حيث أخـبر النـبي صلى الله عليه وسلم معاذاً وجعلها من الأمور التي يبشر بها.
الرابعة والعشرون: فضيلة معاذ رضي الله عنه. وذلـك أن النـبي صلى الله عليه وسلم خصه بهذا العلم, وأردفه معه على الحمار.

* * *

باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

سبق أن ذكر المؤلف كتـاب التوحيـد؛ أي وجـوب التوحيـد، وأنــه لابــد منــه، وأن معــنى قولــه تعــالى: (وَمَـا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُـدُونِ)(الــذريات:56) : أن العبــادة لا تصــح إلا بالتوحيد.
وهنا ذكر المؤلف فضل التوحيد، ولا يلزم من ثبوت الفضل للشيء أن يكون غير واجب، بل الفضل من نتائجه وآثاره.

ومن ذلك صلاة الجماعة ثبت فضلها بقوله صـلى اللـه عليـه وسلم: (صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفـذ بسـبع وعشـرون درجة). متفق عليه [1] .

ولا يلزم من ثبوت الفضل فيها أن تكون غير واجبــة؛ إذ إن التوحيد أوجب الواجبات، ولا تقبـل الأعمـال إلا بـه، ولا يتقـرب العبد إلى ربه إلا به، ومع ذلك ففيه فضل.

قوله: (ومـا يكفـر من الـذنوب) . معطـوف على (فضـل)؛ فيكون المعنى: باب فضل التوحيد، وباب ما يكفر من الذنوب، وعلى هذا؛ فالعائد محـذوف والتقـدير مـا يكفـره من الـذنوب، وعقد هذا الباب لأمرين:

الأول: بيان فضل التوحيد.

الثـاني: بيـان مـا يكفـره من الـذنوب؛ لأن من آثـار فضـل التوحيد تكفير الذنوب.

وقوله الله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَــانَهُمْ بِظُلْمٍ) (الأنعام:82) .

فمن فوائد التوحيد:

1 ـ أنه أكبر دعامة للرغبة في الطاعة؛ لأن الموحد يعمل لله ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ وعليه فهو يعمل سراً وعلانية، أما غير الموحد؛ المرائي مثلاً؛ فإنه يتصدق ويصلي، ويذكر الله إذا كان عنده من يـراه فقـط، ولهـذا قـال بعض السـلف: (إني لأود أن أتقرب إلى الله بطاعة لا يعلمها إلا هو).

2 ـ أن الموحدين لهمـا الأمن وهم متهـدون؛ كمـا قـال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)(الأنعام:82) .

* * *

---

[1] البخاري : كتاب الجماعة والإمامة/ باب فضل صلاة الجماعة، ومسلم: كتـاب المسـاجد/ بـاب فضل صلاة الجماعة.

قوله: (لم يلبسوا)، أي: يخلطوا.

قوله: (بظلم)، الظلم هنا ما يقابل الإيمـان، وهـو الشـرك، ولما نزلت هذه الآية شق ذلـك على الصـحابة، وقـالوا: أينـا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسـلم : (ليس الأمـر كما تظنـون، إنمـا المـراد بـه الشـرك، ألم تسـمعوا إلى قـول الرجل الصالح ـ يعني لقمان ـ : (إن الشـرك لظلم عظيم) ؟) [1].

* والظلم أنواع :

1ـ أظلم الظلم ، وهو الشرك في حق الله.

....

2ـ ظلم الإنسان؛ فلا يعطيها حقهـا، مثـل أن يصـوم فلا يفطر، ويقوم فلا ينام.

3ــ ظلم الإنسـان غـيره، مثـل أن يتعـدى على شـخص بالضرب، أو القتل أو أخذ مال، أو ما أشبه ذلك.

وإذا انتفى الظلم؛ حصل الأمن، لكن هل هو أمن كامل؟

الجـواب: أنـه إن كـان الإيمـان كـاملاً لم يخالطـه معصـية؛ فالأمن أمن مطلق، أي كامل، وإذا كان الإيمان مطلق إيمـان ـ غير كامل ـ فله مطلق الأمن ؛ أي : أمن ناقص.

مثـال ذلـك: مـرتكب الكبـيرة، آمن من الخلـود في النـار، وغير آمن من العذاب، بل هو تحت المشيئة، قال الله تعـالى : (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَـا دُونَ ذَلِـكَ لِمَنْ يَشَـاءُ) (النساء: من الآية116).

وهذه الآية قالها الله تعالى حكماً بين إبـراهيم وقومـه حين قـال لهم: (وكيـف أخـاف مـا أشـركتم...) إلى قولـه:(إن كنتم تعلمون)(الأنعام:81-82) فقال الله تعـالى: (الـذين آمنـوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم..) الآية (الأنعام:82)، على أنـه قـد يقـول قائل: إنها من كلام إبـراهيم ليـبين لقومـه، ولهـذا قـال بعـدها: (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه)(الأنعام:83).

قوله: (الأمن)، أل فيهـا للجنس، ولهـذا فسـرنا الأمن بأنـه إما أمن مطلق، وإما مطلق أمن حسب الظلم الذي تلبس به.

---

[1] البخاري: كتاب الإيمان/باب ظلم دون ظلم، مسلم: كتاب الإيمان/ باب صدق الإيمان وإخلاصه.

قوله: (وهم مهتدون) ، أي: في الدنيا إلى شرع الله بالعلم والعمل؛ فالاهتداء بالعلم هداية الإرشاد كما قال الله تعالى في أصحاب الجحيم : (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) (الصافات:23) .

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من شهد أن لا إله إلى الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) أخرجاه [1] .

والاهتداء بالعمل: هداية توفيق، وهم مهتدون في الآخرة إلى الجنة.

فهذه هداية الآخرة، وهي للذين ظلموا إلى صراط الجحيم؛ فيكون مقابلها أن الذين آمنوا ولم يظلموا يهدون إلى صراط النعيم.

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى: (أولئك لهم الأمن): إن الأمن في الآخرة، والهداية في الدنيا، والصواب أنها عامة بالنسبة للأمن والهداية في الدنيا والآخرة.

مناسبة الآية للترجمة :

أن الله أثبت الأمن لمن لم يشرك، والذي لم يشرك يكون موحداً؛ فدل على أن من فضائل التوحيد استقرار الأمن.

* * *

قوله: (من شهد أن لا إله إلا الله)، الشهادة لا تكون إلا عن علم سابق، قال تعالى: (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (الزخرف: من الآية86) ، وهذا العلم قد يكون مكتسباً وقد يكون غريزياً.

([1] البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء/باب قوله تعالى : (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم)، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة.

....

فالعلم بأنه لا إلـه إلا اللـه غريـزي، قـال صـلى اللـه عليـه وسلم : (كل مولود يولد على الفطرة) [1] .

وقد يكون مكتسباً، وذلك بتدبر آيات الله، والتفكر فيها.

ولابد أن يوجد العلم بلا إله إلا الله ثم الشهادة بها.

قوله: (أن)، مخففة من الثقيلة، والنطق بأن مشددة خطأ؛ لأن المشددة لا يمكن حذف اسمها، والمخففة يمكن حذفه.

قولـــه: (لا إلـــه)، أي: لا مـــألوه ، وليس بمعـــنى لا آلـــه، والمألوه: هو المعبود محبة وتعظيماً ، تحبه وتعظمـه لمـا تعلم من صفاته العظيمة وأفعاله الجليلة.

قولـه: (إلا اللـه)، أي: لا مـألوه إلا اللـه، ولهـذا حكي عن قريش قولهم: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَـيْءٌ عُجَـابٌ) (صّ:5) .

أما قوله تعالى : (فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)(هود: من الآية101)؛ فهـذا التألـه باطـل؛ لأنــه بغــير حــق، فهــو منفي شــرعاً، وإذا انتفى شــرعاً؛ فهــو كـالمنتفي وقوعـاً؛ فلا قـرار لـه، (وَمَثَـلُ كَلِمَـةٍ خَبِيثَـةٍ كَشَـجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)(ابراهيم:26)

وبهـذا يحصـل الجمـع بين قولـه تعـالى (فمـا أغنت عنهم آلهتهم)(هود:101)، وقولـه تعـالى حكايـة عن قـريش: (أجعـل الآلهة إلهاً واحداً)(ص:5)، وبين قولـه تعـالى: (ومـا من إلـه إلا الله)(أل عمران:62)؛ فهذه الآلهة مجرد أسـماء لا معـاني لهـا ولا حقيقة؛ إذ هي باطلة شرعاً، لا تستحق أن تسمى آلهة؛

....

لأنها لا تنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق؛ كما قال تعـالى: (مَـا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْـمَاءً سَـمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَـاؤُكُمْ مَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)(يوسف: من الآية40)

* التوحيد عند المتكلمين:

---

[1] البخاري: كتاب الجنائز/باب ما قيل في أولاد المشركين، ومسلم: كتاب القدر/باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

يقولون: إن معنى إله: آله، والآلـه: القـادر على الاخـتراع؛ فيكون معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله.

والتوحيد عندهم: أن توحد الله، فتقول: هو واحد في ذاتـه، لا قسيم له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وواحـد في صـفاته لا شبيه لـه، ولـو كـان هـذا معـنى لا إلـه إلا اللـه؛ لمـا أنكـرت قريش على النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم دعوتـه ولآمنت بـه وصدقت؛ لأن قريشاً تقول: لا خالق إلا الله، ولا خالق أبلـغ من كلمة لا قادر؛ لأن القادر قد يفعـل وقـد لا يفعـل، أمـا الخـالق؛ فقد فعل وحقق بقدرة منـه، فصـار فهم المشـركين خـيراً من فهم هـؤلاء المتكلمين والمنتسـبين للإسـلام؛ فالتوحيـد الـذي جـاءت بـه الرسـل في قولـه تعـالى: (مـا لكم من إلـه غـيره) (الأعراف:59)؛ أي من إله حقيقي يستحق أن يعبد، وهو الله.

ومن المؤسـف أنـه يوجـد كثـير من الكتـاب الآن الـذين يكتبون في هذه الأبواب تجدهم عندما يتكلمون على التوحيد لا يقـررون أكـثر من توحيـد الربوبيـة، وهـذا غلـط ونقص عظيم، ويجب أن نغرس في قلوب المسلمين توحيد الألوهية أكثر من توحيد الربوبية؛ لأن توحيد الربوبية لم ينكره أحد إنكاراً حقيقياً، فكوننا لا نقرر إلا هذا الأمر الفطري المعلوم بالعقل، ونسـكت عن الأمر الذي يغلب فيه الهوى هـو نقص عظيم؛ فعبـادة غـير اللـه هي الـتي يسـيطر فيهـا هـوى الإنسـان على نفسـه حـتى يصرفه عن عبادة الله وحده، فيعبد الأولياء ويعبـد هـواه، حـتى جعل النبي صلى الله عليه وسلم الذي

....

همه الدرهم والدينار ونحوهما عابداً [1]، وقال الله ــ عـز وجـل ـ : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)(الجاثية:23).

فالمعاصي من حيث المعنى العـام أو الجنس العـام يمكن أن نعتبرها من الشرك.

وأما بالمعنى الأخص؛ فتنقسم إلى أنواع:

1ـ شرك أكبر.

2ـ شرك أصغر.

3ـ معصية كبيرة.

([1] سبق تخريجه (ص 23) .

4ـ معصية صغيرة.

وهذه المعاصي منها ما يتعلق بحق اللـه، ومنهـا مـا يتعلـق بحق الإنسان نفسه، ومنها ما يتعلق بحق الخلق.

وتحقيق لا إله إلا الله أمـر في غايـة الصعوبة، ولهـذا قـال بعض السلف: (كل معصية؛ فهي نوع من الشرك).

وقـال بعض السـلف: (مـا جاهـدت نفسـي على شـيء مجاهدتها على الإخلاص)، ولا يعرف هذا إلا المـؤمن ، أمـا غـير المـؤمن؛ فلا يجاهـد نفسـه على الإخلاص ، ولهـذا قيـل لابن عباس: (إن اليهود يقولون: نحن لا نوسوس في الصلاة. قـال: فما يصنع الشيطان بقلب خرب؟!)؛ فالشيطان لا يأتي ليخرب المهدوم، ولكن يأتي ليخـرب المعمـور، ولهـذا لمـا ًشـكي إلى النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم أن الرجـل يجـد في نفسـه مـا يستعظم أن يتكلم به؛ قال: (وجدتم ذلك؟). قـالوا: نعم. قـال: (ذاك صريح الإيمان) [2] ؛ أي: أن

....

ذاك هو العلامة البينة على أن إيمـانكم صـريح لأنـه ورد عليـه، ولا يرد إلا على قلب صحيح خالص.

قوله: (من شهد أن لا إله إلا الله)، من : شرطية، وجـواب الشرط: (أدخله الله الجنة على ما كان من العمل).

والشـهادة: هي الاعـتراف باللسـان، والاعتقـاد بـالقلب، والتصديق بالجوارح، ولهذا لما قال المنـافقون للرسـول صـلى الله عليه وسـلم : (نشـهد إنـك لرسـول اللـه)(المنـافقون:1)، وهـذه جملـة مؤكـدة بثلاث مؤكـدات: الشـهادة، وإن، واللام، كـذبهم اللـه بقولـه: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُـولُهُ وَاللَّهُ يَشْـهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)(المنـافقون: من الآية1) ؛ فلم ينفعهم هـذا الإقـرار باللسـان لأنـه خـال من الاعتقـاد بـالقلب، وخـال من التصديق بالعمل، فلم ينفع؛ فلا تتحقق الشهادة إلا بعقيـدة في القلب ، واعتراف باللسان، وتصديق بالعمل.

---

(2) مسلم: كتاب الإيمان/باب الوسوسة في الإيمان.

وقوله: (لا إله إلا الله)، أي: لا معبود على وجه يستحق أن يعبد إلا الله, وهذه الأصنام التي تعبد لا تستحق العبادة؛ لأنه ليس فيها من خصائص الألوهية شيء.

قوله: (وحده لا شريك له)، وحده: توكيد للإثبات، لا شريك له: توكيد للنفي في كل ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من المؤمنين يلجئون إلى الله تعالى عند الشدائد؛ فقد جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أصحابه، وقد علق سيفه على شجرة فاخترطه الأعرابي، وقال: من

....

يمنعك مني؟ قال: (يمنعني الله) [1] ، ولم يقل أصحابي ، وهذا هو تحقيق توحيد الربوبية ؛ لأن الله هو الذي يملك النفع، والضر، والخلق، والتدبير، والتصرف في الملك؛ إذ لا شريك له فيما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وقولنا فيما يختص به حتى نسلم من شبهات كثيرة، منها شبهات النافين للصفات؛ لأن النافين للصفات زعموا أن إثبات الصفات إشراك بالله ـ عز وجل ـ ، حيث قالوا؛ يلزم من ذلك التمثيل، لكننا نقول: للخالق صفات تختص به، وللمخلوق صفات تختص به.

قوله: (وأن محمداً)، محمد: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي، الهاشمي، خاتم النبيين.

وقوله: (عبده)؛ أي: ليس شريكاً مع الله.

وقوله: (ورسوله)؛ أي: المبعوث بما أوحي إليه؛ فليس كاذباً على الله.

فالرسول صلى الله عليه وسلم عبد مربوب، جميع خصائص البشرية تلحقه ما عدا شيئاً واحداً، وهو ما يعود إلى أسافل الأخلاق؛ فهو منزه معصوم منه، قال تعالى (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)(لأعراف: من الآية

---

[1] البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة ذات الرقاع، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين/باب صلاة الخوف.

188) ، وقال تعـالى : (قُـلْ إِنِّي لا أَمْلِـكُ لَكُمْ ضَـرّاً وَلا رَشَـداً. قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِـيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَـدٌ وَلَنْ أَجِـدَ مِنْ دُونِـهِ مُلْتَحَـداً) (الجـن:21، 22) .

فهو بشر مثلنا؛ إلا أنه يوحى إليه، قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَـا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِـدٌ)(فصـلت: من الآية 6)،

....

ومن قال : إن الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم ليس لـه ظل، أو أن نوره يطفيء ظله إذا مشـى في الشـمس ؛ فكلـه كذب باطل، ولهذا قالت عائشـة رضـي اللـه عنهـا: (كنت أمـد رجلي بين يديه، وتعتذر بـأن الـبيوت ليس فيهـا مصـابيح)، فلـو كان النبي صلى الله عليه وسلم له نور؛ لم تعتـذر رضـي اللـه عنها، ولكنه الغلو الذي أفسد الدين والدنيا، والعياذ بالله.

ومن الغلو قول البوصيري في (البردة) المشهورة:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن آخذاً يوم المعـاد يـدي فضـلاً وإلا فقـل يـا زلـة القــدم

فـإن جــودك الــدنيا وضرتهـــا ومن علومــك علم اللــوح والقلـم

قال ابن رجب وغيره: إنه لم يترك لله شـيئاً مـا دامت الـدنيا والآخرة من جود الرسول صلى الله عليه وسلم

ونشهد أن من يقول هذا؛ ما شهد أن محمداً عبـد اللـه ، بـل شـهد أن محمـداً فـوق اللـه ! كيـف يصـل بهم الغلـو إلى هـذا الحد ؟ !

وهذا الغلو فوق غلو النصارى الذين قـالوا: إن المسـيح ابن الله، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة.

هم قالوا فوق ذلك، قالوا: إن الله يقـول: (من ذكـرني في ملأ ذكرته في ملأ خـير منـه، وأنـا مـع عبـدي إذا ذكـرني) [1] ، والرسول معنا إذا ذكرناه، ولهذا كان أولئك الغلاة ليلـة المولـد

---

[1] البخـاري: كتـاب التوحيـد/ بـاب قـول الله تعـالى: (ويحـذركم الله نفسـه)، ومسـلم: كتـاب الـذكر والدعاء/باب الحث على ذكر الله تعالى.

إذا تلى التالي (المخرف) كلمة المصطفى قـاموا جميعـاً قيـام رجل واحد، يقولون: لان الرسول صلى الله

....

عليه وسلم حضر مجلسـنا بنفسـه، فقمنا إجلالاً لـه، والصـحابة رضـي اللـه عنهم أشـد إجلالاً منهم ومناً، ومع ذلك إذا دخل عليهم الرسول صلى الله عليه وســلم وهو حي يكلمهم لا يقومون لـه، وهـؤلاء يقومـون إذا تخيلـوا أو جاءهم شبح إن كانوا يشاهدون شـيئاً؛ فـانظر كيـف بلغت بهم عقولهم إلى هذا الحد ! فهؤلاء ما شهدوا أن محمـداً عبـد اللـه ورسوله، وهـؤلاء المخرفـون مسـاكين ، إن نظرنـا إليهم بعين الشــرع؛ فإننــا يجب أن ننابــذهم بالحجــة حــتى يعــودوا إلى الصراط المسـتقيم، والرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم أشـد الناس عبودية لله، أخشاهم لله، وأتقاهم لله، قام يصلي حــتى تـورمت قـدماه، وقيـل لـه في ذلـك؛ فقـال: (أفلا أكـون عبـداً شكوراً) [1] وقد غفرله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا تحقيــق العبادة العظيمة,

أما الرسالة؛ فهو رسول أرسله الله ـ عـز وجـل ــ بـأعظم شـريعة إلى جميـع الخلـق، فبلغهـا غايـة البلاغ، مـع أنـه أوذي وقوتل، حتى إنهم جاءوا بسلا الجزور وهـو سـاجد عنـد الكعبـة ووضعوه على ظهره، كل ذلك كراهيـة لـه ولمـا جـاء بـه، ومـع ذلك صبر، يلقون الأذى والأنتان والأقـذار على عتبـة بابـه، لكن هذا للنبي الكريم امتحان من الله ـ عز وجل ـ ؛ لأجل أن يتبين صبره وفضله، يخرج ويقول: (أي جوار هذا يا بني عبد مناف؟) (2) ، فصبر صلى الله عليه وسلم ؛ حتى فتح الله عليه، وأنــذر أم القرى ومن حولها، ثم إنه حمل هذه الشريعة من بعده أشد الناس أمانة وأقواهم على

....

---

(1) البخاري: كتاب التهجد/باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم حتى تورم قدماه، ومسلم: كتاب صفات المنافقين/باب إكثار الأعمال.

(2) (2) ذكره ابن هشام في (السيرة النبوية) (2/416) ، وابن كثير في (البداية والنهاية) (3/133).

الاتباع؛الصحابة رضي الله عنه، وأدوها إلى الأمة نقيـة سـليمة، ولله الحمد.

ونحب الرسول صلى الله عليه وسلم لله وفي اللـه؛ فحب الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم من حب اللـه ونقدمـه على أنفسنا ووأهلنا وأولادنا والناس أجمعين، وأحببناه من أجـل أنـه رسول الله صلى الله عليه وسلم .ونحقـق شـهادة أن محمـداً رسول الله، وذلك بأن نعتقد ذلك بقلوبنا، ونعترف به بألسـنتنا، ونطبـق ذلـك في متابعتـه صـلى اللـه عليـه وسـلم بجوارحنـا، فنعمل بهدية، ولا نعمل له.

أما ما ينقض تحقيق هذه الشهادة؛ فهو :

1ـ فهـل المعاصـي؛ فالمعصـية نقص في تحقيـق هـذه الشهادة؛ لأنـك خـرجت بمعصـيتك من اتبـاع النـبي صـلى اللـه عليه وسلم .

2ـ الابتداع في الدين ما ليس منه ؛ لأنك تقربت إلى الله بمـا لم يشـرعه اللـه ولا رسـوله صـلى اللـه عليـه وسـلم ، والابتـداع في الـدين في الحقيقـة من الاسـتهزاء باللـه ؛ لأنـك تقربت إليه بشيء لم يشرعه.

فإن قال قائل: أنا نويت التقرب إلى الله بهذا العمل الـذي ابتدعه.

قيل له: أنت أخطأت الطريق؛ فتعذر على نيتـك، ولا تعـذر على مخالفة الطريق متى علمت الحق.

فالمبتـدعون قـد يقـال: إنهم يثـابون على حسـن نيتهم إذا كانوا لا يعملـون الحـق، ولكننـا نخطئهم فيمـا ذهبـوا إليـه، أمـا أئمتهم الذين علمـوا الحـق، ولكن ردوه ليبقـوا جـاههم؛ ففيهم شبه بأبي جهل، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، وغــيرهم الذين قابلوا رسالة النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم بـالرد إبقـاء على رئاستهم وجاههم.

أما بالنسبة لأتباع هؤلاء الأئمة فينقسمون إلى قسمين:

....

القسم الأول: الذين جهلوا الحـق، فلم يعلمـوا عنـه شـيئاً، ولم يحصل منهم تقصير في طلبه، حيث ظنوا أن مـا هم عليـه هو الحق؛ فهؤلاء معذورون.

القســم الثــاني: من علمــوا الحــق، ولكنهم ردوه تعصــباً لأئمتهم؛ فهؤلاء لا يعذرون، وهم كم قال الله فيهم : (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَـارِهِمْ مُهْتَـدُونَ)(الزخـرف: من الآية 22) .

قوله: (وأن عيسى عبد الله ورسوله)، الكلام فيها كـالكلام في شـهادة أن محمـداً رسـول اللـه، إلا أننـا نـؤمن برسـالة عيسى، ولا يلزمنا اتباعه إذا خالفت شريعته شريعتنا.

فشريعة من قبلنا لها ثلاث حالات:

الأولى : أن تكون مخالفة لشريعتنا؛ فالعمل على شرعنا.

الثانيــة : أن تكــون موافقــة لشــريعتنا؛ فنحن متبعــون لشريعتنا.

الثالثة : أن يكون مسـكوتاً عنهـا في شـريعتنا، وفي هـذه الحال اختلف علماء الأصول: هل نعمل بها، أو ندعها؟

والصحيح أنها شرع لنا، ودليل ذلك :

1ـ قوله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) (الأنعام:من الآية90).

2ـ قوله تعـالى : (لَقَـدْ كَـانَ فِي قَصَصِـهِمْ عِبْـرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (يوسف: من الآية111).

وقد تطرف في عيسى طائفتان:

الأولى: اليهود كذبوه، فقالوا: بأنـه ولـد زنى، وان أمـه من البغايا، وأنه ليس بنبي، وقتلوه شرعاً؛ أي: محكوم عليهم عنـد الله أنهم قتلوه في حكم الله

....

الشرعي؛ لقوله تعالى عنهم:(إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِـيحَ عِيسَـى ابْنَ مَـرْيَمَ) (النسـاء:من الآية157) ، وأمـا بالنسـبة لحكم اللـه القـدري؛ فقـد كذبوا، وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه ، ولكن شـبه لهم، فقتلـوا المشبه لهم وصلبوه.

الثانية: النصارى قالوا: إنه ابن اللـه، وإنـه ثـالث ثلاثـة، وجعلـوه إلهاً مع الله، وكذبوا فيما قالوا.أمـا عقيـدتنا نحن فيـه : فنشـهد أنـه

عبدالله ورسوله ، وأن أمه صديقة ؛ كما أخبر الله تعالى بذلك ، وأنها أحصنت فرجها ، وأنها عذراء ، ولكن مثله عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له : كن ؛ فيكون .

وفي قوله : (عبدالله) ، رد على النصارى .

وفي قوله : (ورسوله) ، رد على اليهود .

قوله : (وكلمته ألقاها إلى مريم) ، أطلق الله كلمة ؛ لأنه خلق بالكلمة عليه السلام ؛ فالحديث ليس على ظاهره ؛ إذ عيسى عليه السلام ليس كلمة ؛ لأنه يأكل، ويشرب ، و يبول ، ويتغوط ، وتجري عليه جميع الأحوال البشرية قال الله تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (آل عمران: 59)

وعيسى عليه السلام ليس كلمة الله ؛ إذ إن كلام الله وصف قائم به ، لا بائن منه ، أما عيسى ؛ فهو ذات بائنة عن الله ـ سبحانه ـ ، يذهب ويجيء، ويأكل الطعام و يشرب .

قوله : (ألقاها إلى مريم) ، أي : وجهها إليها بقوله : (كن فيكون)؛ كما قال تعالى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (آل عمران:59)

ومريم ابنة عمران ليست أخت موسى و هارون عليهما السلام كما يظنه بعض الناس ، و لكن كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يسمون بأسماء

....

أنبيائهم [1]؛ فهارون أخو مريم ، ليس هارون أخا موسى ، بل هو آ خر يسمى باسمه، وكذلك عمران سمي باسم أبي موسى .

قوله : (وروح منه) ، أى : صار جسده عليه السلام بالكلمة ، فنفخت فيه هذه الروح التي هي من الله ؛ أي : خلق من مخلوقاته أضيفت إليه تعالى للتشريف و التكريم .

و عيسى عليه السلام ليس روحا ، بل جسد ذو روح ، قال الله تعالى : (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ)(المائدة: من الآية75)

---

[1] (مسلم: كتاب الآداب/باب النهي عن التكني بأبي القاسم وما يستحب من الأسماء

فبالنفخ صار جسدا ، وبالروح صار جسدا و روحا .
قوله : (منه) هذه هي التي أضلت النصارى ، فظنوا أنه جزء من الله فضلوا و أضلوا كثيرا ، ولكننا نقول : إن الله قد أعمى بصائركم ؛ فإنها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب التي في الصدور ؛ فمن المعلوم أن عيسى عليه السلام كان يأكل الطعام ، وهذا شيء معروف ، ومن المعلوم أيضا أن اليهود يقولون إنهم صلبوه ، و هل يمكن لمن كان جزءاً من الرب أن ينفصل عن الرب و يأكل و يشرب و يدعى أنه قتل و صلب ؟

و على هذا تكون (من) للابتداء ، وليست للتبعيض ؛ فهي كقوله تعالى : (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)(الجاثية: من الآية13)؛ فلا يمكن أن نقول : إنَ الشمس و القمر والأنهار جزءاً من الله ، وهذا لم يقل به أحد .

واعلم أن ما أضافه الله إلى نفسه ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : العين القائمة بنفسها ، وإضافتها إليه من باب إضافة المخلوق إلى

....

خالقه ، وهذه الإضافة قد تكون على سبيل عموم الخلق ؛ كقوله تعالى : (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) (الجاثية:13)، وقوله تعالى:(إن أرضي واسعة) (العنكبوت : 56) .

وقد تكون على سبيل الخصوص لشرفه ؛ كقوله تعالى : (وطهر بيتي للطائفين) (الحج 26) وكقوله تعالى : (ناقة الله و سقياها) (الشمس : 13)، وهذا القسم مخلوق

الثاني : أن يكون شيئا مضافا إلى عين مخلقة يقوم بها ، مثاله قوله تعالى : (وروح منه)(النساء :171)؛ فإضافة هذه الروح إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه تشريفا ؛ فهي روح من الأرواح التي خلقهاالله ، و ليست جزءاً أو روحا من الله ؛ إذ أن

هذه الروح حلت في عيسى عليـه السـلام، و هـو عين منفصـلة عن الله ، و هذا القسم مخلوق أيضا .

الثالث : أن يكون وصفا غير مضـاف إلى عين مخلوقـة ، مثـال ذلك قوله تعالى: (إِنِّي اصْـطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَـالاتِي وَبِكَلامِي) (لأعـراف: من الآية144) ، فالرسـالة و الكلام أضـيفا إلى اللـه من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ، فإذا أضاف الله لنفسـه صـفة ؛ فهذه الصفة غير مخلوقة ، و بهذا يتـبين أن هـذه الأقسـام الثلاثـة : قسمان منها مخلوقان ، و قسم غير مخلوق .

فالأعيان القائمة بنفسـها و المتصـل بهـذه الأعيـان مخلوقـة ، و الوصف الذي لم يذكر له عين يقوم بها غير مخلوق ؛ لأنه يكون من صفات الله ، وصفات الله غير مخلوقه . وقد اجتمـع القسـمان في قوله :)كلمته ، و روح منه) ؛فكلمته هذه وصف مضـاف إلى اللـه ، وعلى هذا ؛ فتكون كلمته صفة من صفات الله .

ولهمـا [1] في حـديث عتبـان : فـإن اللـه حـرم على النـار من قال :

وروح منه : هذه أضيفت إلى عين ؛ لأن الروح حلت في عيسى ؛ فهي
مخلوقة

قوله : (أدخله الله الجنة) ، إدخال الجنة ينقسم إلى قسمين :

الأول : إدخال كامل لم يسبق بعذاب لمن أتم العمل .

الثاني : إدخال ناقص مسبوق بعذاب لمن نقص العمل .

فالمؤمن إذا غلبت سيئاته حسناته إن شاء الله عذبه بقدر عمله ، و إن شاء لم يعذبه ، قال الله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْـرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)(النساء: من الآية116)

* * *

قوله : (عتبان) ، هو عتبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنـه ، كان يصلي بقومـه ، فضـعف بصـره ، و شـق عليـه الـذهاب إليهم ، فطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يخـرج إليـه و أن يصـلي في مكان من بيته ليتخذه مصلى ، فخرج إليه النبي صلى الله عليـه

---

[1] البخاري : كتـاب الصـلاة/ بـاب المسـاجد في الـبيوت، ومسـلم: كتـاب المسـاجد/بـاب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر.

وسلم ومعه طائفة من أصحابه ، منهم أبو بكـر و عمـر رضـي اللـه عنهما ، فلما دخل البيت ؛ قال (أين تريد أن أصلي ؟) . قـال : صـل ها هنا . و أشار إلى ناحية من البيت ، فصلى بهم النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ركعـتين، ثم جلس على طعـام صـنعوه لـه ، فجعلـوا يتــذاكرون، فــذكروا رجلا يقــال لــه : مالــك بن الدخشــم ، فقــال بعضهم : هو

لا إله إلا الله ؛ يبتغي بذلك وجه الله).

منافق. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تقـل هكـذا؛ أليس قال: لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله؟!). ثم قال: (فإن الله حرم على النار...) الحديث.

فنهاهم أن يقولوا هكذا؛ لأنهم لا يدرون عما في قلبه؛ لأنه يشـهد أن لا إله إلا الله، وهنا الرسول قال هكذا، ولم يـبريء الرجـل، إنمـا أتى بعبارة عامة بأن اللـه حـرم على النـار من قـال: لا إلـه إلا اللـه يبتغي بذلك وجه الله، ونهى أن نطلق ألسنتنا في عبـاد اللـه الـذين ظاهرهم الصلاح، ونقول: هذا مراء، هذا فاسق، وما أشبه ذلك؛ لأننا لو أخذنا بما نظن فسدت الدنيا والآخرة؛ فكثير من الناس نظن بهم سوء، ولكن لا يجوز أن نقـول ذلـك وظـاهرهم الصـلاح، ولهـذا قـال العلماء: يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة.

قوله: (فإن الله حرم على النار)، أي: منع من النار، أو منع النــار أن تصيبه.

قولـه: (من قـال: لا إلـه إلا اللـه)، أي: بشـرط الإخلاص، بـدليل قولـه: (يبتغي بـذلك وجـه اللـه)؛ أي: يطلب وجـه اللـه، ومن طلب وجهاً؛ فلابد أن يعمل كـل مـا في وسـعه للوصـول إليـه؛ لأن مبتغي الشيء يسعى في الوصول إليه، وعليه؛ فلا نحتاج إلى قول الزهري

رحمه الله بعد أن ساق الحديث؛ كما في (صحيح مسـلم) [1] ؛ حيث قال: (ثم وجبت بعد ذلك أمور، وحرمت أمور؛ فلا يغتر مغـتر بهـذا)؛ فالحديث واضح الدالة على شرطية العمل لمن قال: لا إله إلا اللـه، حيث قال: (يبتغي بـذلك وجـه اللـه)، ولهـذا قـال بعض السـلف عن قول النبي صلى الله عليه

....

وسلم: (مفتاح الجنة: لا إله إلا اللـه) [1] ، لكن من أتى بمفتـاح لا أسنان له لا يفتح له.

قال شيخ الإسلام: إن المبتغي لا بد أن يكمل وسائل البغيـة، وإذا أكملها حرمت عليه النـار تحريمـاً مطلقـاً، وإن أتى بالحسـنات على الوجه الأكمل؛ فإن النار تحرم عليه تحريماً مطلقاً، وإن أتى بشـيء ناقص؛ فإن الابتغاء فيه نقص، فيكون تحريم النـار عليـه فيـه نقص، لكن يمنعه ما معه من التوحيد من الخلود في النار، وكـذا من زنى، أو شرب الخمر، أو سرق، فـإذا فعـل شـيئاً من ذلـك ثم قـال حيث فعله؛ أشهد أن لا إله إلا الله أبتغي بذلك وجه اللـه؛ فهـو كـاذب في زعمه؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قـال: (لا يـزني الـزاني حين يزني وهو مؤمن) [2] ، فضلاً عن أن يكون مبتغياً وجه الله.

وفي الحديث رد على المرجئة الذين يقولون: يكفي قوله: لا إلـه إلا الله، دون ابتغاء وجه الله.

وفيه رد على الخوارج والمعتزلة؛ لان ظاهر الحديث أن من فعل هـذه المحرمـات لا يخلـد في النـار، لكنـه مسـتحق للعقوبـة، وهـو يقولون: إن فاعل الكبيرة مخلد في النار.

* * *

---

[1] مسلم : كتاب المساجد/ باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر.

[1] الإمام أحمد في (المسند) 5/242، والهيثمي في (المجمع) 1/16، والخطيب في (المشكاة) 1/91 ، قال الهيثمي : (رواه أحمد والبزار وفيه القطاع)، وضعفه الألباني في (الضعيفة) 3/477

[2] البخاري: كتاب الأشربة/باب قوله تعالى: (إنما الخمر والميسر ...)، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب نقصان الإيمان بالمعاصي

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال: (قال موسى عليه السلام: يارب! علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: يا رب! كل عبادك يقولون هذا ؟

قال: يا موسى! لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة و(لا إله إلا الله) في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله) رواه ابن حسان والحاكم وصححه [1] .

قوله: (أذكرك وأدعوك به)، صفة لشيء، وليست جواب الطلب؛ فموسى عليه السلام طلب شيئاً يحصل به أمران:

1-1- ذكر الله.

2-2- دعاؤه.

فأجابه الله بقوله: (قل لا إله إلا الله)، وهذه الجملة ذكر متضمن للدعاء؛ لأن الذاكر يريد رضا الله عنه، والوصول إلى دار كرامته، إذاً ؛ فهو ذكر متضمن للدعاء، قال الشاعر:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحيـــاء

يعني : عطاؤك.

وأستشهد ابن عباس على أن الذكر بمعنى الدعاء بقول الشاعر:

إذا أثنى عليك العبد يوماً كفاه من تعرضه الثنـــاء

قوله: (كل عبادك يقولون هذا)، ليس المعنى أنها كلمة هينة كل يقولها؛ لأن موسى عليه الصلاة والسلام يعلم عظم هذه الكلمة، ولكنه أراد شيئاً يختص به؛ لأن تخصيص الإنسان بالأمر يدل على منقبة له ورفعة؛ فبين الله لموسى أنه مهما أعطي فلن يعطي أفضل من هذه الكلمة، وأن لا إله إلا الله أعظم من السماوات والأرض وما فيهن؛ لأنها تميل بهن وترجح، فدل ذلك على فضل لا إله إلا الله وعظمها، لكن لا بد من الإتيان بشروطها، أما مجرد

---

[1] ابن حبان (2324)، والحاكم (1/528)ـ – وصححه ووافقه الذهبي ـ ، وقال الحافظ في (الفتح) : أخرجه النسائي بسند صحيح.

أن يقولهـا القائـل بلسـانه؛ فكم من إنسـان يقولهـا لكنهـا عنـده كالريشة لا تساوي شـيئا؛ لأنـه لم يقلهـا على الوجـه الـذي تمت بـه الشروط وانتفه به الموانع.

قوله: (مالت)، أي: رجحت حتى يملن.

قوله: (عامرهن)، أي : ساكنهن؛ فالعامر للشيء هو الـذي عمـر به الشيء.

قوله: (غيري)، استثنى نفسه تبارك وتعـالى؛ لأن قـول لا إلـه إلا الله ثناء عليه، والمثني عليه أعظم من الثناء، وهنـا يجب أن تعـرف أن كون الله تعالى في السـماء ليس ككـون الملائكـة في السـماء؛ فكون الملائكة في السماء كون حـاجي، فهم سـاكنون في السـماء لأنهم محتاجون إلى السماء ، لكن الرب تبارك وتعالى ليس محتاجاً إليها ، بل إن السماء وغير السماء محتاج إلى اللـه تعـالى؛ فلا يظن ظان أن السماء تقل الله أو تظله أو تحيط به، وعليـه؛ فالسـماوات باعتبار الملائكة أمكنة مقلة للملائكة، ومـا فـوقهم منهـا مظـل لهم، أما بالنسبة لله؛ فهي جهة لأن اللـه تعـالى مسـتوى على عرشـه، لا يقله شيء من خلقه.

وللترمذي وحسن عن أنس: سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم ؛ يقـول: (قـال اللـه تعـالى: يـا بـابن آدم! لـو أتيتـني بقـراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً: لأتيتك بقرابهـا مغفـرة) [(1)] .

قوله: (قال الله تعالى: يا ابن آدم...) إلخ.

(1) مسند الإمام أحمد (5/147)، والترمذي: كتاب الدعوات/باب غفران الذنوب، وقال: أحسن غريب).

هذا من الأحاديث القدسية ، والحـديث القدسـي: مـا رواه النـبي صلى الله عليه وسلم عن ربه، وقد أدخله المحـدثون في الأحـاديث النبوية؛ لأنه منسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم تبليغـاً، وليس من القرآن بالإجماع، وإن كان كل واحد منهما قد بلغه النـبي صـلى الله عليه وسلم أمته عن الله ـ عز وجل ـ .

وقد اختلف العلماء رحمهم الله في لفظ الحديث القدسـي: هـل هو كلام الله تعالى، أو أن الله تعالى أوحى إلى رسـوله صـلى اللـه عليه وسلم معناه واللفظ لفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

على قولين :

القول الأول أن الحديث القدسي من عند الله لفظه ومعناه؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أضافه إلى اللـه تعـالى ، ومن المعلـوم أن الأصـل في القـول المضـاف أن يكـون بلفـظ قائلـه لا ناقلـه، لا سيما والنبي صـلى اللـه عليـه وسـلم أقـوى النـاس أمانـة وأوثقهم رواية.

القول الثاني: أن الحديث القدسي معنـاه من عنـد اللـه ولفظـه النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لوجهين :

....

الوجـه الأول: لـو كـان الحـديث القدسـي من عنـد اللـه لفظـاً ومعنى لكـان أعلى سـنداً من القـرآن؛ لأن النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم يرويـه عن ربـه بـدون واسـطة ؛ كمـاهو ظـاهر السـياق، أمـا القرآن؛ فنزل على النبي صلى الله عليه وسـلم بواسـطة جبريـل ؛ كما قال تعالى:(قل نزله روح القدس من ربـك) (النحـل : 102) وقال: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) (الشعراء: 193 ـ195).

الوجه الثاني : أنه لو كان لفظ الحـديث القدسـي من عنـد الله ؛ لم يكن بينه و بين القرآن فرق ؛ لأن كليهما على هذا التقـدير كلام الله تعالى ، و الحكمة تقتضي تساويهما في الحكم حين اتفقنا

في الأصـل ، و من المعلـوم أن بين القـرآن و الحـديث القدسـي فروق كثيرة :
منها: أن الحديث القدسي لا يتعبد بتلاوته ، بمعنى أن الإنسان لا يتعبد لله تعالى بمجرد قراءته ؛ فلا يثاب على كل حرف منـه عشـر حسنات ، و القرآن يتعبد بتلاوته بكل حرف منه عشر حسنات .
و منها : أن الله تعالى تحدى أن يأتي الناس بمثل القرآن أو آية منه ، و لم يرد مثل ذلك في الأحاديث القدسية .
و منهـا : أن القـرآن محفـوظ من عنـد اللـه تعـالى ؛ كمـا قـال سـبحانه : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَـا الـذِّكْرَ وَإِنَّا لَـهُ لَحَـافِظُونَ) (الحجـر:9) ، و الأحـاديث القدسـية بخلاف ذلـك ؛ ففيهـا الصـحيح و الحسـن ، بـل أضيف إليها ما كان ضـعيفا أو موضـوعا، و هـذا و إن لم يكن نسـب إليها و فيها التقديم و التاخير و الزيادة و النقص .

ومنها : أن القرآن لا تجوز قراءته بالمعنى بإجماع المسلمين ،و أما الأحاديث القدسية ؛ فعلى الخلاف في جواز نقل الحديث النبوي بالمعنى و الأكثرون على جوازه .
و منها : أن القرآن تشرع قراءته في الصلاة و منـه مـا لا تصـح الصلاة بدون
....

قراءته ، بخلاف الأحاديث القدسية .
و منهـا : القــرآن لا يمســه إلا الطــاهر على الأصــح ، بخلاف الأحاديث القدسية.
و منها : أن القـرآن لا يقـرؤه الجنب حـتى يغتسـل على القـول الراجح ، بخلاف الأحاديث القدسية .
و منهــا : أن القـــرآن ثبت بـــالتواتر القطعي المفيـــد للعلم اليقيني ، فلو أنكـر منـه حرفـا أجمـع القـراء عليـه ؛ لكـان كـافرا ، بخلاف الأحاديث القدسية ؛ فإنه لو أنكـر شـيئا منهـا مـدعيا أنـه لم يثبت ؛ لم يكفر ، أما لو أنكر مـع علمـه أن النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم قاله ؛ لكان كافرا لتكذيبه النبي صلى الله عليه وسلم
وأجاب هؤلاء عن كون النبي صلى الله عليه وسلم أضـافه إلى الله ، و الأصل في القول المضاف أن يكون لفظ قائله بالتسليم أن هذا هو الأصل ، لكن قد يضاف إلى قائلـه معـنى لا لفظـا ؛كمـا في القرآن الكريم ؛ فإن اللـه تعـالى يضـيف أقـوالا إلى قائليهـا ،و نحن

نعلم أنهــا أضــيفت معــنى لا لفظــا ، كمــا في (قصــص الأنبيــاء) وغيرهم ، و كلام الهدهد و النملة ؛ فإنه بغير هذا اللفظ قطعا .

و بهــذا يتــبين رجحــان هــذا القــول ، وليس الخلاف في هــذا كـالخلاف بين الأشـاعرة و أهـل السـنة في كلام اللـه تعـالى ؛ لأن الخلاف بين هؤلاء في اصل كلام الله تعالى ؛ فأهل السنة يقولون : كلام اللــه تعــالى كلام حقيقي مســموع يتكلم ســبحانه بصــوت و حرف ، و الأشاعرة لا يثبتون ذلك ، و إنما يقولون : كلام الله تعالى هـو المعـنى القـائم بنفسـه ، و ليس بحـرف و صـوت ، و لكن اللـه تعالى يخلق صوتا يعبر به عن المعنى القائم بنفسـه ، و لا شـك في بطلان قــولهم ، و هــو في الحقيقــة قــول المعتزلــة ؛ لأن المعتزلــة يقولون: القرآن مخلوق ، و هو كلام الله ، و هؤلاء يقولـون: القـرآن مخلوق ، و هو عباره عن كلام الله؛ فقـد اتفـق الجميـع على أن مـا بين دفتي المصحف مخلوق.

....

ثم لو قيـل في مسـالتنا ــ الكلام في الحـديث القدسـي ــ : إن الأولى ترك الخوض في هذا ؛ خوفا من أن يكون من التنطع الهالك فاعله ، والاقتصار على القول بأن الحديث القدسي مـا رواه النـبي صلى الله عليه وسلم عن ربـه وكفى ؛ لكـان ذلـك كافيـا ، و لعلـه أسلم و الله أعلم

*(فائدته) :

إذا انتهى سند الحديث إلى الله تعالى سمي (قدسيا) ؛ لقداسته و فضله ، و إذا انتهى إلى الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم سـمي مرفوعا ، و إذا انتهى إلى الصـحابي سـمي موقوفـا و إذا إنتهى إلى التابعي فمن بعده سمي مقطوعا .

قوله : (بقراب الأرض) ، أي : مـا يقاربهـا ؛ إمـا ملئـا ، أو ثقلا ، أوحجما.

قوله(خطايا)،جمع خطيئة، وهي الذنب، والخطايا الـذنوب؛ و لـو كـانت صـغيرة؛ لقولـه تعـالى:(بَلَى مَنْ كَسَـبَ سَـيِّئَةً وَأَحَـاطَتْ بِـهِ خَطِيئَتُهُ)(البقرة:من الآية81) .

قولـه : (لا تشـرك بي شـيئا) ، جملـة (لا تشـرك) في موضـع نصب على الحال في التاء ؛ أي : لقيتني في حال لا تشرك بي شيئا

قوله : (شـيئا) نكـرة في سـياق النفي تفيـد العمـوم ؛ أي : لا شركا أصغر و لا أكبر . وهذا قيد عظيم قـد يتهـاون بـه الإنسـان ، و يقول : أنا غير مشرك و هـو لا يـدري ؛ فحب المـال مثلا بحيث يلي عن طاعة الله من الإشراك ، قال النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم : (تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة...)الحديث [1] . فسمى النبي صلى الله عليه وسلم من كان هذا همه سماه : عبدا له .

* فيه مسائل :

الأولى : سـعة فضـل اللـه . الثانيـة : كـثرة ثـواب التوحيـد عنـد الله . الثالثة : تكفيره مع ذلك الذنوب . الرابعة : تفسير الآيـة الـتي في سورة الأنعام .

قوله : (لآتيتك بقرابها مغفرة) ، أي : أن حسنة التوحيد عظيمة تكفـر الخطايـا الكبـيرة إذا لقي اللـه و هـو لا يشـرك بـه شـيئا ، و المغفرة ستر الذنب و التجاوز عنه

- مناسبة الحديث للترجمة :

أن في هذا الحديث فضل التوحيد ، و أنه سبب لتكفير الذنوب ؛ فهو مطابق لقوله في الترجمة : (وما يكفرمن الذنوب) .

* * *

قوله : (فيه مسائل) :

- الأولى : (سعة فضل الله) ، لقوله : (أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) .

---

(1) سبق تخريجه (ص 23) .

- الثانية : كثرة ثواب التوحيد عند الله ، لقوله:(ما لت بهن لا إله إلا الله) .
- الثالثة : تكفيره مع ذلك للذنوب ، لقوله : (لأتيتك بقرابها مغفرة) ؛ فالإنسان قد تغلبه نفسه أحياناً؛ فيقع في الخطايا، لكنه مخلص لله في عبادته وطاعته؛ فحسنة التوحيد تكفر عنه الخطايا إذا لقي الله بها.
- الرابعة : تفسير الآية التي في سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: (الذين آمنو ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)؛ فالظلم هنا الشرك؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : (ألم تسمعوا قول الرجل الصالح: (إن الشرك لظلم عظيم) [1] .

الخامسة : تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة. السادسة : أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده؛ تبين لك معنى قول: (لا إله إلا الله) ، وتبين لك خطأ المغرورين. السابعة: التنبيه للشرط الذي في تعبان. الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل (لا إله إلا الله).

---

* الخامسة : تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة:

1ـ2ـ الشهادتان.

3ــ أن عيسى عبد الله، ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه.

4ـ أن الجنة حق.

5ـ أن النار حق.

* السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان، وحديث أبي سعيد، وحديث أنس؛ تبين لك معنى قوله: لا إله إلا الله، وتبين لك خطأ المغرورين، لأنه لابد أن يبتغي بها وجه الله، وإذا كان كذلك ؛ فلابد أن تحمل المرء على العمل الصالح.

---

[1] سبق تخريجه (ص 49).

* السـابعة: التنبيـه للشـرط الـذي في حـديث عتبـان، وهـو أن يبتغي بقولها وجه الله، ولا يكفي مجرد القول؛ لأن المنـافقين كـانوا يقولونها ولم تنفعهم.

* الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله، فغيرهم من باب أولى.

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقـات، من أن كثـيراً ممن يقولهـا يخـف ميزانـه، العاشـرة: النص على أن الأرضـين سـبع كالسماوات.

---

* التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه، فالبلاء من القائل لا من القول؛ لأنـه قـد يكـون اختل شـرط من الشـروط؛ أو وجـد مـانع من الموانـع؛ فإنهـا تخـف بحسب ما عنده، أما القول نفسه؛ فيرجح بجميع المخلوقات.

*العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسماوات، لم يـرد في القـرآن تصـريح بـذلك، بـل ورد صـريحاً أن السـماوات سـبع بقولـه تعالى: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ)(المؤمنـون: من الآية86)ـ ، لكن بالنسبة للأرضين لم يرد إلا قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَـقَ سَـبْعَ سَـمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) (الطلاق: من الآية12)؛ فالمثليـة بالكيفية غير مرادة لظهور الفـرق بين السـماء والأرض في الهيئـة، والكيفية، والارتفاع، والحسن؛ فبقيت المثلية في العدد.

أما السنة؛ فهي صريحة جداً بأنها سبع؛ مثل قوله صلى الله عليه وسلم : (من اقتطع شبراً من الأرض؛ طوقه يـوم القيامـة من سـبع أرضين) [1] .

وقد اختلف في قوله صلى الله عليه وسلم : (من سبع أرضين)؛ كيف تكون سبعاً؟

فقيل: المراد: القارات السبع، وهذا ليس بصحيح؛ لأن هذا يمتنـع بالنسبة

([1]) البخـاري: بلفظ (من ظلم قيد شـبر . . .) : كتـاب المظـالم/ بـاب إثم من ظلم شـيئاً من الأرض، ومسلم: كتاب المساقاة/ باب تحريم الظلم وغصب الأرض.

الحادية عشـرة: أن لهن عمـاراً. الثانيـة عشـرة: إثبـات الصـفات خلافاً للأشعرية. الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حـديث أنس؛ عـرفت أن قوله في حديث عتبان: (فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا اللـه؛ يبتغي بـذلك وجـه اللـه)؛ أن تـرك الشـرك، ليس قولهـا باللسـان. الرابعـة عشـرة: تأمـل الجمـع بين كـون عيسـى ومحمـد عبدي الله ورسوليه.

لقولـه : (طوقـه من سـبع أرضـين)، وقيـل: المـراد المجموعـة الشمسية، لكن ظاهر النصوص أنهـا طبـاق كالسـماوات، وليس لنـا أن نقول إلا ما جاء في الكتـاب والسـنة عن هـذه الأرضـين؛ لأننـا لا نعرفها.

- الحاديـــة عشـــرة: أن لهن عمـــاراً، أي: الســـماوات ، وعمارهن الملائكة.
- الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافاً للأشـعرية، وفي بعض النسخ خلافاً للمعطلة، وهذه أحسـن؛ لأنهـا أعم، حيث تشـمل الأشعرية و المعتزلة والجهمية وغيرهم ؛ ففهيه إثبـات الوجـه لله سبحانه بقوله : (يبتغي وجه الله) ، وإثبات الكلام بقوله : (وكلمته ألقاها) ، و إثبات القول في قوله : (قل لا إله إلا الله).

* الثالثةعشرة : أنك إذا عـرفت حـديث أنس ؛ عـرفت أن قولـه في حديث عتبان: (فإن الله حرم على النار من قال لا إلـه إلا اللـه يبتغي بـذلك وجـه اللـه) أن تـرك الشـرك . وفي بعض النسـخ : إذا ترك الشرك . أي . أن قوله : (حرم على النار من قـال : لا إلـه إلا اللـه يبتغي بـذلك (يعـني : تـرك الشـرك)) وليس مجـرد قولهـا باللسان ؛ لأن من ابتغي وجه الله في هذا القول لا يمكن أن يشرك أبدا .

- الرابعة عشرة : تأمل الجمع بين كون كـل من عيسـى ومحمد عبدي الله

الخامسة عشرة : معرفة اختصـاص عيسـى بكونـه كلمـة اللـه . السادسـة عشـرة : معرفـة كونـه روحـا منـه . السـابعة عشـرة معرفة فضـل الإيمـان بالجنـة و النـار . الثامنـة عشـرة : معرفـة قوله (على ما كان من العمل).

ورسوليه . عبدي : منصب على أنه خبر كـون ؛ لأن كـون مصـدر كان و تعمل عملها . وعيسى ومحمد : اسم كون .

و تأمل الجمع من وجهين :

الأول : أنه جمع لكل منهما بين العبودية و الرسالة .

الثـاني : أنـه جمـع بين الـرجلين ؛ فتـبين أن عيسـى مثـل محمد ، وانه عبد ورسول ، وليس ربا و لا ابنا للرب ـ سبحانه ـ .

وقول المولف : (تأمل) ؛ لأن هذا يحتاج إلى تأمل .

* الخامسـة عشـرة : معرفـة اختصـاص عيسـى بكونـه كلمـه الله ، أي : أن عيسى انفرد عن محمـد في أصـل الخلقـة ؛ فقـد كان بكلمة ، أما محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقد خلق من ماء أبيه .

*السادسة عشرة : معرفـة كونـه روحـا منـه ، أي : أن عيسـى روح من الله ، و (من) هنا بيانية أو للابتداء ، وليست للتبعيض ؛ أي : روح جاءت من قبل اللـه وليسـت بعضـا من اللـه ، بـل هي من جملة الأرواح المخلوقة.

*السابعة عشرة : معرفة فضـل الإيمـان بالجنـة و النـار ، لقولـه في حديث عبادة: (وأن الجنة حق ، والنار حـق) ، والفضـل أنـه من أسباب دخول الجنة.

- الثامنة عشرة :معرفة قوله: (على ما كان من العمل) ، أي : على ما كان

التاسعة عشرة : معرفة أن الميزان له كفتان . العشـرون : معرفـة ذكر الوجه .

من العمل الصالح ولو قل ، أو على ما كان من العمل السيىء ولـو كثر ، بشرط أن يأتي بما ينافي التوحيد ويـوجب الخلـود في النـار ، لكن لابد من العمل . ولا يلزم استكمال العمـل الصـالح كمـا قـالت

المعتزلة والخوارج ، ولم تذكر أركان الإسلام هنا؛ لأن منها ما يكفــر الإنسان بتركه ، ومنها مالا يكفر ؛ فإن الصحيح أنه لا يكفر إلا بترك الشـهادتين و الصـلاة ، وإن كـان روي عن الإمـام أحمـد أن جميـع أركان الإسلام يكفر بتركها؛ لكان الصحيح خلاف ذلك .

* التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان ، أخذها المؤلف من قوله: (لو أن السماء ... إلخ ، وضعت في كفة ولا إلـه إلا اللـه في كفة) ، و الظاهر أن الذي في الحديث تمثيـل ، يعـني أن : لا إله إلا الله أرجح من كل شيء ، وليس في الحديث أن هذا الــوزن في الآخرة ، وكأن المؤلف رحمه الله حصـل عنـده انتقـال ذهـني ؛ فانتقل ذهنه من هذا إلى ميزان الآخرة .

* العشرون : معرفة ذكر الوجه ، يعني : وجـه اللـه تعـالى وهـو صفة من صفاته الخبرية التي مسماها بالنسبة لنا أبعاض و أجــزاء ؛ لأن من صفات الله تعالى مـا هـو معـنى محض ، ومنـه مـا مسـماه بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء ، ولا نقـول بالنسـبة للـه تعـالى أبعـاض ؛ لأننا نتحاشى كلمة التبعيض في جانب الله تعالى الله .

* * *

باب من حقق التوحيد ؛ دخل الجنة بغير حساب

هذا الباب كـالمتم للبـاب الـذي قبلـه ؛ لأن الـذي قبلـه : (بـاب فضل التوحيـد ومـا يكفـر من الـذنوب) ، فمن فضـله هـذا الفضـل العظيم الذي يسعى إليه كل عاقل ، وهو دخول الجنة بغير حساب .

قوله : (من) ، شرطية ، وفعل الشرط : (حقق) ، وجوابه: (دخل) ، قوله : (بـل حسـاب) ؛ أي : لا تحسـب لا على المعاصـي ولا على غيرها .

وتحقيـق التوحيـد : تخليصـه من الشـرك ، و لا يكـون إلا بـأمور ثلاثة :

الأول : العلم ؛ فلا يمكن أن تحقق شـيئا قبـل أن تعلمـه ، قـال الله تعالى: (فأعلم أنه لا إله إلا الله) (محمد : 19).

الثاني : الاعتقاد ، فإذا علمت و لم تعتقد واستكبرت ؛ لم تحقق التوحيد ، قال الله تعالى عن الكافرين : (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) (صّ:5)؛ فما اعتقدوا انفراد الله بالألوهية .

الثالث : الانقياد ، فإذا علمت و اعتقـدت و لم تنقـد ؛ لم تحقـق التوحيـد ، قــال تعــالى: (إِنَّهُمْ كَـانُوا إِذَا قِيــلَ لَهُمْ لا إِلَــهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَـا لِشَـاعِرٍ مَجْنُـونٍ) (الصـافات: 35-36). 0

فإذا حصل هذا وحقق التوحيـد ؛ فـإن الجنـة مضـمونة لـه بغـير حساب ، و لا يحتـاج أن نقـول إن شـاء اللـه ؛ لأن هـذا حكايـة حكم ثـابت شـرعا ، و لهـذا جـزم المؤلـف رحمـه اللـه تعـالى بـذلك في الترجمة دون أن يقول : إن شاء الله .

أما بالنسبة للرجل المعين ؛ فإننا نقول : إن شاء الله .

*   *   *

وقول الله تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفـاً وَلَمْ يَـكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (النحل:120) .

و قد ذكـر المؤلـف في هـذا البـاب آيـتين ، ومناسـبتهما للبـاب الإشارة إلى تحقيق التوحيد ، وأنه لا يكون إلا بانتفاء الشرك كله :

* الآية الأولى : قوله تعالى : (إن إبراهيم كان أمة ...) الآية .

قولـه : (أمــة) ، أي : إمامــا ، وقــد ســبق أن أمــة تــأتي في القرآن على أربعة أوجه : إمام ، ودهر ، وجماعة ، ودين [1].

قوله : (إن إبراهيم كان أمة) ، هذا ثناء من الله ـ سبحانه و تعالى ـ على إبراهيم بأنه إمام متبـوع ؛ لأنـه أحـد الرسـل الكـرام من أولي العزم ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم غـدوة في أعمالـه و

---

(1) سبق تخريجة (ص 15) .

أفعاله و جهاده ؛ فإنه جاهد قومه وحصل منهم عليه ما حصل ، وألقي في النار فصبر ثم ابتلاه الله ــ سبحانه وتعالى بالأمر بذبح ابنه ، وهو وحيده ، وقد بلغ السعي معه (أي شب و ترعرع) ؛ فليس كبيرا قد طابت النفس منه ، ولا صغيرا لم تتعلق به النفس كثيرا ، فصار على منتهى تعلق النفس به . ثم وفق إلى ابن بار مطيع لله ، قال الله تعالى عنه : (قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)(الصافات: من الآية102) ، لم يحنث ولده و يتمرد و يهرب ، بل أراد من والده أن يوافق أمر ربه وهذا من بره بأبيه و طاعته لمولاه سبحانه و تعالى ، و انظر إلى هذه القوة العظيمة مع الاعتماد على الله في

....

قوله : (ستجدني إن شاء الله من الصابرين) .

فالسين في قوله : (ستجدني) في قوله : (ستجدني) تدل على التحقيق ، و هو مع ذلك لم يعتمد على نفسه ، بل استعان بالله في قوله: (إن شاء الله) .

وامتثلا جميعا و أسلما ، و انقادا لله ـ عز و جل ـ ، و تله للجبين ؛ أي : على الجبين ، أي جبهته ؛ لأجل أن يذبحه و هو لا يرى وجهه ، فجاء الفرج من الله تعالى : (وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (الصافات:104ـ105) ، و لا يصح ما ذكره بعضهم من أن السكين انقلبت ، أو أن رقبته صارت حديدا ، و نحو ذلك .

قوله : (قانتا) ، القنوت : دوام الطاعة ، و الاستمرار فيها على كل حال ؛ فهو مطيع لله ، ثابت على طاعته ، مديم لها في كل حال .

كما أن ابنه محمدا صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه [1] : إن قام ذكر الله ، وإن جلس ذكره ، وإن نام ، و إن أكل ، وإن قضى حاجته ذكر الله ؛ فهو قانت آناء الليل والنهار .

([1]) مسلم: كتاب الحيض/ باب ذكر الله تعالى حال الجنابة.

قوله : (حنيفا) ، أي : مائلا عن الشرك ، مجانبا لكل ما يخالف الطاعـة ؛ فوصـف بالإثبـات و النفي ؛ أي : بالوصـفين الإيجـابي و السلبي .

قوله : (و لم يكن من المشركين) ، تأكيد ، أي لم يكن مشركا طول حياته ؛ فقد كان عليه الصلاة و السلام معصوما عن الشرك ، مع أن قومـه كـانوا مشـركين ، فوصـفه اللـه بامتناعـه عن الشـرك اسـتمرارا في قولـه: (حنيفـا) ، و ابتـداء في قولـه : (ولم يـك من المشركين) ، و الدليل على ذلك: أن الله جعله إماما ، ولا يجعل

....

الله للناس إماما من لم يحقق التوحيد أبدا .

و من تأمل حال إبراهيم عليه السلام و ما جرى عليـه وجـد أنـه في غايـة مـا يكـون من مـراتب الصـبر ، و في غايـة مـا يكـون من مراتب اليقين ؛ لأنه لا يصبر على هذه الأمـور العظيمـة إلا من أيقن بالثواب ، فمن عنده شك أو تردد لا يصـبر على هـذا ؛ لأن النفس لا تدع شـيئا إلا لمـا هـو أحب إليهـا منـه ، و لا تحب شـيئا إلا مـا ظنت فائدته ، أو تيقنت .

ويجب أن نعلم أن ثناء الله على أحد من خلقه لا يقصد منــه أن يصل إلينا الثناء فقط ، لكن يقصد منه أمران هامان :

الأول : محبة هذا الذي أثنى الله عليه خـيرا ، كمـا أن من أثـنى اللــه عليــه شــرا ؛ فإننــا نبغضــه و نكرهــه ، فنحب إبــراهيم عليــه السلام ؛ لأنه كان إماما حنيفا قانتا لله و لم يكن من المشـركين ، و نكره قومـه ؛ لأنهم كـانوا ضـالين ، و نحب الملائكـة و إن كـانوا من غـير جنسـنا ؛ لأنهم قـائمون بـأمر اللـه ، ونكـره الشـياطين ؛ لأنهم عاصون لله وأعداء لنا ولله ، ونكره أتباع الشياطين ؛ لأنهم عاصون لله أيضا و أعداء لله و لنا .

الثاني : أن نقتدي به في هذه الصفات التي أثنى الله بها عليه ؛ لأنها محل الثناء ، و لنـا من الثنـاء بقـدر مـا اقتـدينا بـه فيهـا ، قـال تعالى: (لَقَـدْ كَـانَ فِي قَصَصِـهِمْ عِبْـرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَـاب)(يوسـف: من الآية111) و قال تعالى: (قَـدْ كَـانَتْ لَكُمْ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ فِي إِبْـرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَـهُ)(الممتحنـة: من الآية4)،و قـال تعـالى: (لَقَـدْ كَـانَ لَكُمْ

فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ)(الممتحنة: من الآية6).

وهذه مسألة مهمة ؛ لأن الإنسان أحيانا يغيب عن باله الغرض الأول ، وهو محبة هذا الذي أثنى الله عليه خيرا ، و لكن لا ينبغي أن يغيب ؛ لأن الحب في الله، والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان .

....

---

* فائدة :

أبو إبراهيم مات على الكفر ، و الصواب الذي نعتقده أن اسمه آزر ؛ كما قال الله تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً)(الأنعام: من الآية74)، و قال تعالى : (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ)(التوبة: من الآية114) لأنه قال : (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً) (مريم:47) ، (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)(التوبة: من الآية114) و في سورة إبراهيم قال : (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) (ابراهيم:41) ، و لكن فيما بعد تبرأ منه . أما نوح ؛ فقال: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)(نوح: من الآية28)، و هذا يدل على أن أبوي نوح كانا مؤمنين .

فائدة أخرى :

قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل : المغازي ، و الملاحم ، و التفسير ؛ فهذه الغالب فيها أنها تذكر بدون إسناد، و لهذا ؛ فإن المفسرين يذكرون قصة آدم ، (فلما آتاهما صالحا) (الأعراف : 190) ،و قليل منهم من ينكر القصة المكذوبة في ذلك [1] .

فالقاعدة إذا : أنه لا أحد يعلم عن الأمم السابقة شيئا إلا من طريق الوحي ، قال تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ)(ابراهيم: من الآية 9).

*   *   *

---

[1] انظر: (ص 889) باب قول الله تعالى: (فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاه فيما آتاهما . . .) .

وقال : (وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ) (المؤمنون:59).

---

* الآية الثانية : قوله : (والذين هم بربهم لا يشركون) .

هـذه الآيـة سـبقها آيـة ، و هي قولـه : (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْـيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)(المؤمنون:57).

لكن المؤلف ذكر الشاهد . و قوله تعالى : (من خشـية ربهم) ؛ أي : من خـوفهم منـه على علم ، و (مشـفقون) ؛ أي : خـائفون من عذابه إن خالفوه .

فالمعاصي بالمعنى الأعم ـ كما سبق ـ [1] شـرك ؛ لأنهـا صـادرة عن هوى مخالف للشرع، وقد قـال تعـالى:(أَفَـرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَـذَ إِلَهَـهُ هَوَاهُ)(الجاثـية:من الآية23).

أما بالنسبة للمعنى الأخص ؛ فيقسمها العلماء قسمين :

1- شرك.

2- فسوق .

و قوله : (لا يشركون) ، يراد به الشرك بالمعنى الأعم ؛ إذ تحقيق التوحيـد لا يكـون إلا باجتنـاب الشـرك بـالمعنى الأعم ، و لكن ليس معنى هذا ألا تقع منهم المعاصي ؛ لأن كـل ابن آدم خطـاء ، و ليس بمعصوم ، و لكن إذا عصوا ؛ فـإنهم يتوبـون و لا يسـتمرون عليهـا ؛ كما قال تعالى : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَـرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِـرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (آل عمران:135) .

* * *

وعن حصـين بن عبـد الـرحمن ؛ قـال : كنت عنـد سـعيد بن جبير ، فقال :أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ فقلت : أنـا . ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة .

قوله : (عن حصين بن عبد الرحمن ؛ قال : كنت عند سعيد بن جبير)

---

[1] انظر (ص 54) .

و هما رجلان من التابعين ثقتان .
قوله : (انقض البارحة) ، أي : سقط البارحة ، و البارحة : أي أقرب ليلة مضت ، و قال بعض أهل اللغة : تقول فعلنا الليلة كذا إن قلته قبل الزوال ، و فعلنا البارحة كذا إن قلته بعد الزوال .
و في عرفنا ؛ فمن طلوع الشمس إلى الغروب نقول : البارحة لليلة الماضية ، و من غروب الشمس إلى طلوعها نقول : الليلة لليلة التي نحن فيها .
بل بعض العامة يتوسع متى قام من الليل قال : البارحة و إن كان في ليلته .
قوله : (فقلت أنا) ، أي : حصين .
قوله : (أما إني لم أكن في صلاة) ، أما : أداة استفتاح ، و قيل : إنها بمعنى حقا ، و على هذا ؛ فتفتح همزة (إن) ، فيقال : أما أني لم أكن في صلاة ، أي حقا أني لم أكن في صلاة .
و قال هذا رحمه الله لئلا يظن أنه قائم يصلي فيحمد بما لم يفعل ، و هذا خلاف ما عليه بعضهم ، يفرح أن الناس يتوهمون أنه يقوم يصلي ، و هذا من نقص التوحيد .
و قول حصين رحمه الله ليس من باب المراءاة ، بل هو من باب الحسنات ،

و لكني لدغت . قال : فما صنعت ؟ قلت : ارتقيت . قال : فما حملك على ذلك ؟ قلت : حديث حدثناه الشعبي . قال : وما حدثكم ؟ قلت : حدثناه عن بريدة بن الحصيب ؛ أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة .

وليس كمن يترك الطاعات خوفا من الرياء ؛ لأن الشيطان قد يلعب على الإنسان، ويزين له ترك الطاعة خشية الرياء ، بل افعل الطاعة ، و لكن لا يكن في قلبك أنك ترائي الناس .
قوله : (لدغت) ، أي : لدغته عقرب أو غيرها ، و الظاهر أنها شديدة ؛ لأنه لم ينم.

قولـــه : (ارتقيت) ، أ ي : اســـترقيت ؛ لأن افتعــــل مثــــل استفعل ، و في رواية مسلم : (استرقيت)؛ أي : طلبت الرقية .

قوله : (فما حملك على ذلك) ، أي : قال سـعيد : مـا السـبب أنك استرقيت .
قوله : (حديث حدثناه الشعبي) ، و هـذا يـدل على أن السـلف رضي الله عنهم يتحـاورون حـتى يصـلوا إلى الحقيقـة ، فسـعيد بن جبير لم يقصد الانتقاد على هذا الرجل ، بل قصـد أن يسـتفهم منـه ويعرف مستنده.
قولـه: (لا رقيــة)، أي: لا قــراءة أو لا اســترقاء على مــريض أو مصاب.
قوله: (إلا من عين)، وهي نظرة من حاسد، نفسه خبيثة، تتكيــف بكيفية خاصة فينبعث منها ما يؤثر على المصـاب، ويسـميها العامـة الآن: (النحاتــة)، وبعضــهم يســميها (النفس) ، وبعضــهم يســميها (الحسد)
قوله: (حمـة)، بضـم الحـاء، وفتح الميم، مـع تخفيفهـا: وهي كـل ذات

قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع .

سـم ، والمعـنى لدغتـه إحـدى ذوات السـموم، والعقـرب من ذوات السموم.
فقال سعيد بن جبير: قـد أحسـن من انتهى إلى مـا سـمع، ولكن حدثنا ابن عباس... إلخ .
إذن فحصين استند على حـديث : (لا رقيـة إلا من عين أو حمـة)، وهـذا يـدل على أن الرقيـة من العين أو الحمـة مفيـدة، وهـذا أمـر واقع؛ فإن الرقى تنفع بإذن الله من العين ومن الحمة أيضاً ، وكثـير من الناس يقرؤون على الملدوغ فيبرأ حالاً، ويدل لهذا قصة الرجـل الذي بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في سرية، فاستضافوا قوماً،

فلم يضـيفوهم، فلـدغ سـيدهم لدغـة عقـرب، فقـالوا: من يـرقي؟ فقالوا: لعل هؤلاء الركب عندهم راق، فجـاؤوا إلى السـرية، قـالوا: هل فيكم من راق؟ فاقتطعوا لهم من الغنم، ثم ذهب أحـدهم يقـرأ عليه الفاتحـة، قرأهـا ثلاثـاً أو سـبعاً، فقـام كأنمـا نشـط من عقـال، فانتفع اللديغ بقراءتها، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم (وما يدريك أنها رقية؟)(يعني: الفاتحة) [1] ، وكذا القراءة من العين مفيدة.

ويستعمل للعين طريقة أخرى غير الرقية، وهو الاستغسال، وهي أن يؤتى بالعائن، ويطلب منه أن يتوضأ، ثم يؤخذ ما تناثر من المـاء من أعضائه ويصب على المصاب، ويشرب منه، ويبرأ بإذن الله.

ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ؛ أنـه قال: (عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد.

وهناك طريقة أخرى، ولا مانع منها أيضـاً، وهي أن يؤخـذ شـيء من شـعاره، أي: مـا يلي جسـمه من الثيـاب؛ كـالثوب، والطاقيـة، والسروال، وغيرهـا أو الـتراب إذا مشـي عليـه وهـو رطب، ويصـب على ذلك ماء يرش به المصاب أو يشربه، وهو مجرب.

وأمـا العـائن؛ فينبغي إذا رأى مـا يعجبـه أن يـبرك عليـه؛ لقـول النبي صلى اللـه عليـه وسـلم لعـامر بن ربيعـة لمـا عـان سـهل بن حنيف: (هلا بركت عليه) [1] ؛ أي : قلت : بارك الله عليك.

قوله: (ولكن حدثنا) ، القائل: سعيد بن جبير.

قوله: (عرضت علي الأمم)، العارض لها الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وهذا في المنام فيما يظهر. وانظر: (فتح الباري) (11/407) بـاب يدخل الجنة سبعون ألفاً، كتاب الرقاق)، والأمم: جمع أمة وهي أمم الرسل.

([1] البخاري : كتاب الطب/ باب الرقى بفاتحة الكتاب، ومسلم: كتاب السلام/ باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن.

([1] مسند الإمام أحمد (3/486)، وموطأ الإمام مالك (211/938)، وشرح السنة (1211/164)0

قوله: (الرهط)، من الثلاثة إلى التسعة.

قوله: (والنبي ومعه الرجل والرجلان)، الظاهر أن الـواو بمعـنى أو ؛ أي:

إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هـذا موسـى وقومه، فنظرت؛ فإذا سواد عظيم، فقيـل لي: هـذه أمتـك، ومعهم، ومعهم سـبعون ألفـاً يـدخلون الجنـة بغـير حسـاب ولا عـذاب). ثم نهض. فـدخل منزلـه، فخـاض النـاس في أولئـك. فقـال بعضـهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومعه الرجل أو الرجلان؛ لأنه لـو كـان معـه الرجـل والـرجلان صـار يغـني أن يقـول: ومعـه ثلاثـة، لكن المعـنى: والنـبي ومعـه الرجـل، والنبي الثاني ومعه الرجلان.

قوله: (والنبي وليس معه أحـد)، أي: يبعث ولا يكـون معـه أحـد، لكن يبعثه الله لإقامة الحجة، فإذا قامت الحجة حينئذ؛ يعذر الله من الخلق، ويقيم عليهم الحجة.

قوله: (سواد عظيم)، المراد بالسواد هنا الظاهر أنه الأشـخاص، ولهذا يقال: ما رأيت سواده؛ أي: شخصه، أي أشخاصاً عظيمة كانوا من كثرتهم سواداً.

قوله: (فظننت أنهم أمـتي)، لأن الأنبيـاء عرضـوا عليـه بـأممهم؛ فظن هذا السواد أمته ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

قوله: (فقيل لي: هذا موسى وقومه)، وهذا يدل على كثرة أتباع موسى عليه السلام وقومه الذين أرسل إليهم.

قوله: (فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك)، وهذا أعظم من السواد الأول؛ لأن أمة النبي صلى الله عليه وسلم أكثر بكثير من أمة موسى عليه السلام.

قوله: (بغير حساب ولا عذاب)، أي: لا يعذبون ولا يحاسبون كرامة لهم، وظاهره أنه لا في قبورهم ولا بعد قيام الساعة،

قوله: (فخاض الناس في أولئك)، هذا الخوض للوصول إلى الحقيقة نظرياً وعملياً حتى يكونوا منهم.

قوله: (الذين صحبوا رسول الله) ، يحتمل أن المراد الصحبة المطلقة، ويؤيده ظاهر اللفظ.

ويحتمل أن المراد الذين صحبوه في هجرته، ويؤيده أنه لو كان المراد الصحبة المطلقة؛ لقالوا: نحن؛ لأن المتكلم هم الصحابة، ويدل على هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد: (لا تسبوا أصحابي) [1] ؛ فإن المراد بهم الذين صحبوه في هجرته، لكن يمنع منه أن المهاجرين لا يبلغون سبعين ألفاً.

ويمنع الاحتمال الأول: أن الصحابة أكثر من سبعين ألفاً، ويحتمل أن المراد من كان مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى فتح مكة؛ لأنه بعد فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجاً.

وهذه المسألة تحتاج إلى مراجعة أكثر.

وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً ... وذكروا أشياء ، فخرج عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه، فقال: (هم الذين لا يسترقون).

قوله: (الذين ولدوا في الإسلام)، أي: من ولد بعد البعثة وأسلم، وهؤلاء كثيرون، ولو قلنا: ولدوا في الإسلام من الصحابة ما بلغوا سبعين ألفاً.

---

[1] البخاري : كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم / باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لو كنت متخذاً خليلاً)، ومسلم : كتاب فضائل الصحابة/ باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم.

قوله: (فخرج عليهم رسول الله ، فأخبروه)، أي: أخبروه بما قالوا وما جري بينهم.

قوله (لا يسترقون)، في بعض روايات مسلم [1] : (لا يرقون).

ولكن هذه الرواية خطأ؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيميه؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرقي [2] ، ورقاه جبريل [3] ، وعائشة [4] ، وكذلك الصحابة كانوا يرقون [5].

واستفعل بمعنى طلب الفعل، مثل: استغفر؛ أي: طلب المغفرة، واستجار: طلب الجوار، وهنا استرقى؛ أي: طلب الرقية، أي لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم؛ لما يلي :

ولا يكتوون ولا يتطيرون.

1- لقوة اعتمادهم على الله.
2- لعزة نفوسهم عن التذلل لغير الله.
3- ولما في ذلك من التعلق بغير الله.

وقوله: (ولا يكتوون)، أي: لا يطلبون من أحد أن يكويهم.

ومعنى اكتوى: طلب من يكويه، وهذا مثل قوله: (ولا يسترقون).

أما بالنسبة لمن أعد للكي من قبل الحكومة، فطلب الكي منه ليس فيه ذلك؛ لأنه معد من قبل الحكومة يأخذ الأجر على ذلك من

---

[1] مسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب.

[2] البخاري: كتاب الطب/ باب رقية النبي صلى الله عليه وسلم ، ومسلم: كتاب السلام/ باب استحباب الرقية من العين.

[3] مسلم: كتاب السلام/ باب الطب والمرض والرقى.

[4] البخاري: كتاب فضائل القرآن/ باب فضل المعوذات، ومسلم: كتاب السلام/باب رقية المريض.

[5] كما في قصة صاحب السرية.

الحكومة، ولأن هذا الطلب مجرد إخبار من الطالب بأنه محتـاج إلى الكي، وليس سؤال تذلل.

قوله: (ولا يتطيرون)، مـأخوذ من الطـير، والمصـدر منـه تطـير، والطيرة اسـم المصـدر، وأصـله: التشـاؤم بـالطير، ولكنـه أعم من ذلك؛ فهو التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو زمان، أو مكان.

وكانت العرب معروفة بالتطير، حتى لو أراد الإنسان منهم خـيراً ثم رأى الطير سنحت يميناً أو شمالاً حسب ما كان معروفاً عنـدهم، تجده يأخر عن هـذا الـذي أراده، ومنهم من إذا سـمع صـوتاً أو رأى شخصاً تشاءم، ومنهم من يتشاءم من شهر شوال بالنسبة للنكــاح، ولذا قالت عائشة رضي الله عنها: (عقد علي رسول الله صلى الله عليـه وسـلم في شـوال، وبـنى بي في شـوال؛ فـأيكن كـان أحظى عنده) [1] ، ومنهم من يتشاءم بيوم الأربعـاء، أو بشـهر صـفر، وهـذا كله مما أبطله

وعلى ربهم يتوكلون).

الشــرع؛ لشــرره على الإنســان عقلاً وتفكـيراً وسـلوكاً، وكــون الإنسان لا يبالي بهذه الأمور، هذا هـو التوكـل على اللـه ولهـذا ختم المسألة بقولـه: (وعلى ربهم يتوكلـون)؛ فإنتفـاء هـذه الأمـور عنهم يدل على قوة توكلهم.

وهل هذه الأشياء تدل على أن من لم يتصف بها فهو مذموم، أو فاته الكمال؟

الجواب: أن الكمال فاته إلا بالنسبة للتطير؛ فإنـه لا يجـوز؛ لأنـه ضرر وليس له حقيقة أصلاً.

أما بالنسبة لطلب العلاج؛ فالظاهر أنه مثله لأنه عام، وقد يقال: إنه لولا قوله: (ولا يسترقون)؛ لقلت: إنه لا يدخل؛ لأن الاكتواء ضرر محقـق : إحـراق بالنـار، وألم للإنسـان، إن لم تنفـع لم تضـر، وهنـا نقول: الدواء مثلها؛ لأن الدواء إذا لم ينفع لم يضر، وقد يضير أيضــاً لأن الإنسان إذا تناول دواء وليس فيه مرض لهذا الدواء فقد يضره.

---

[1] مسلم: كتاب النكاح/ باب استحباب التزوج والتزويج في شوال.

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث، وهل نقول مثلاً: ما تؤكد منفعته إذا لم يكن في الإنسان إذلال لنفسه؛ فهو لا يضر، أي: لا يفوت المرء الكمال به، مثل الكسر وقطع العضو مثلاً، أو كما يفعل الناس الآن في الزائدة وغيرها.

ولو قال قائل بالاقتصار على ما في هذا الحديث، وهو أنهم لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون، وأن ما عدا ذلك لا يمنع من دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ للنصوص الواردة بالأمر بالتداوي والثناء على بعض الأدوية؛ كالعسل والحبة السوداء؛ لكان له وجه.

فقام عكاشة بن محسن، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: (أنت منهم). ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال: (سبقك بها عكاشة) [1]

وإذا طلب منك إنسان أن يرقيك؛ فهل يفوتك كمال إذا لم تمنعه؟

الجواب:لا يفوتك؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمنع عائشةأن ترقيه [2]، وهو أكمل الخلق توكلاً على الله وثقة به، ولأن هذا الحديث: (لا يسترقون . . .) إلخ إنما كان في طلب هذه الأشياء، ولا يخفى الفرق بين أن تحصل هذه الأشياء بطلب وبين أن تحصل بغير طلب.

قوله: (فقال: أنت منهم)، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم هذا هل هو بوحي من الله إقراري، أو وحي إلهامي، أو وحي رسول؟

مثل هذه الأمور يحتمل أنها وحي إلهامي، أو بواسطة الرسول ، أو وحي إقراري، بمعنى أن الرسول يقولها، فإذا أقره الله عليه؛ صارت وحياً إقرارياً.

---

(1) البخاري : كتاب الرقاق/ باب يدخل الجنة سبعون ألفاً)، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب.

(2) سبق تخريجه (91).

لكن رواية البخاري: (اللهم اجعلـه منهم) تـدل على أن الجملـة: (أنت منهم) خبر بمعنى الدعاء.

قوله: (ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: سبقك بها عكاشة)، لم يرد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول له : لا ، ولكن قال: سبقك بها؛ أي

* فيه مسائل: الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد. الثانيـة: ما معنى تحقيقه. الثالثة: ثناؤه سبحانه على إبـراهيم بكونـه لم يـك من المشركين.

بهذه المنقبة

وقد اختلف العلماء لماذا قال الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم هذا الكلام؟

فقيل: إنه كان منافقاً، فأراد الرسول صلى اللـه عليـه وسـلم ألا يجابهه بما يكره تأليفاً.

وقيل: خاف أن ينفتح الباب فيطلبها من ليس منهم؛ فقـال هـذه الكلمة التي أصبحت مثلاً ، وهذا أقرب.

* * *

قوله: (فيه مسائل)، أي: في هذا الباب مسائل:

- المسـألة الأولى: معرفـة مـراتب النـاس في التوحيد، وهذه مأخوذة من قوله: (يدخلون الجنة بغير حسـاب ولا عذاب). ثم قال: (هم الـذين لا يسـترقون ولا يكتـوون، ولا يتطيرون) [1] .
- الثانية : ما معنى تحقيقه ؟ أي: تحقيـق التوحيـد، وسـبق لنـا في أول البـاب أن تحقيقـه: تخليصـه من الشرك.
- الثالثة : ثناؤه ـ سبحانه ـ على إبـراهيم بكونـه لم يك من المشركين، وهو ظاهر في الآية الكريمة: (إِنَّ إِبْـرَاهِيمَ كَـانَ أُمَّةً قَانِتـاً لِلَّهِ حَنِيفـاً وَلَمْ يَـكُ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ) (النحـل: 120)؛ فإن هذه الآية لا شك أنها سـيقت للثنـاء على إبـراهيم عليه الصلاة والسلام، وإذا كان مناط الثناء انتفاء الشرك عنه؛

---

(1) سبق تجريجه (ص 94).

دل ذلك على أن كل من انتفى عنه الشرك فهو محل ثناء من الله ـ سبحانه وتعالى ـ.
الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك. الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد. السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل. السابعة: عمق علم الصحابة بمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.

---

* الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك، لقوله تعالى: (والذين هم بربهم لا يشركون)، وهذه الآية في سياق آيات كثيرة ابتدأها الله بقوله: (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُون * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) (المؤمنون:57-61)؛ فهؤلاء هم سادات الأولياء، وكلام المؤلف من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، أي: الأولياء السادات، وليس يريد رحمه الله السادات من الأولياء، بل يريد الأولياء الذي هم سادات الخلق.

* الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد، لقوله: (الذين لا يسترقون ولا يكتوون)؛ فالمراد بقول المؤلف: (الرقية والكي): الاسترقاء والاكتواء.

* السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل، والخصال هي : ترك الاسترقاء، وترك الاكتواء، وترك التطير، يعني أن العامل لهذه الأشياء هو قوة التوكل على الله ـ عز وجل ـ .

* السابعة : عمق عمل الصحابة لمعرفة أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل، أي :

الثامنة : حرصهم على الخير. التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية. العاشرة: فضيلة أصحاب موسى. الحادية عشرة: عرض الأمم عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

لم ينل هؤلاء السبعون ألفاً هذا الثواب إلا بعمل، ووجهه أن الصحابة خاضعوا فيمن يكون له هذا الثواب العظيم وذكروا أشياء.

* الثامنة: حرصهم على الخير، وجهه خوضهم في هذا الشيء؛ لأنهم يريدون أن يصلوا إلى نتيجة حتى يقوموا بها.

* التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية، أما الكمية؛ فلأن النبي صلى الله عليه وسلم رأى سواداً عظيماً أعظم من السواد الذي كان مع موسى، وأما الكيفية؛ فلأن معهم هؤلاء الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون.

* العاشرة: فضيلة أصحاب موسى، وهو مأخوذ من قوله: (إذ رفع لي سواد عظيم)، ولكن قد يقال: إن التعبير بقوله: كثرة أتباع موسى أنسب لدلالة الحديث: لأن الحديث يقول: (سواد عظيم فظننت أنهم أمتي)، وهذا يدل على الكثرة.

* الحادية عشرة: عرض الأمم عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وهذا له فائدتان:

الفائدة الأولى : تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث رأى من الأنبياء من ليس معه إلا الرجل والرجلان، ومن الأنبياء من ليس معه أحد؛ فيتسلى بذلك عليه الصلاة والسلام، ويقول: (ما كنت بدعاً من الرسل).

الفائدة الثانية: بيان فضيلته عليه الصلاة والسلام وشرفه، حيث كان

الثانية عشرة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها. الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء. الرابعة عشرة: أن من لم يجبه أحد وحده. الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة.

أكثرهم أتباعاً وأفضلهم ؛ فصار في عرض الأمم عليه هاتان الفائدتان.

* الثانية عشرة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها، لقوله: (رأيت النبي ومعه الرجل والرجلان)، ولولا أن كل نبي متميز عن

النـبي الآخـر؛ لاختلـط بعضـهم ببعض، ولم يعـرف الأتبـاع من غـير الأتباع، ويدل لذلك قوله سبحانه وتعالى (وَتَـرَى كُـلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَـةً كُـلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا)(الجاثـية: من الآية28) فإنه يدل على أن كل أمة تكون وحدها.

* الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء، وهو واضح من قوله: (والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد).

* الرابعـة عشـرة: أن من لم يجبـه أحـد يـأتي وحـده، لقولـه: (والنبي وليس معه أحد).

* الخامسـة عشـرة: ثمـرة هـذا العلم، وهـو عـدم الاغـترار بالكثرة . . . إلخ ، فإن الكثرة قد تكـون ضـلالاً ، قـال اللـه تعـالى : (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)(الأنعـام: من الآية116)، وأيضاً الكـثرة من جهـة أخـرى إذا اغـتر الإنسـان بكـثرة وظن لن يغلب أو أنه منصور؛ فهذا أيضاً سبب للخذلان؛ فالكثرة إن نظرنـا إلى أن أكـثر أهـل الأرض ضـلال لا تغـتر بهم، فلا تقـل: إن الناس على هذا، كيف أنفرد عنهم؟

السادسـة عشـرة: الرخصـة في الرقيـة من العين و الحمـة . السابعة عشرة : عمق علم السلف ؛ لقوله : (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، و لكن كذا و كذا)، فعلم أن الحديث الأول لا يخـالف الثاني .

كذلك أيضا لا تغتر بـالكثرة إذا كـان معـك أتبـاع كثـيرون على الحق ؛ فكلام المؤلف له وجهان :

الوجه الأول : أن لا نغتر بكثرة الهالكين فنهلك معهم .

الوجـه الثـاني : أن لا نغـتر بكـثرة النـاجين فيلحقنـا الإعجـاب بالنفس و عدم الزهد في القلة ، أي أن لا نزهد بالقلة ؛ فقـد تكـون القلة خيرا من الكثرة .

* السادسة عشـرة : الرخصـة في الرقيـة من العين و الحمة ، مأخوذ من قوله : (لا رقية إلا من العين أو الحمة) .

* السابعة عشرة : عمق علم السلف ؛ لقوله : قـد أحسـن من انتهى إلى ما سمع ، و لكن كذا وكـذا) ؛ فعلم أن الحـديث الأول لا يخـالف الثـاني ، لأن قولـه : (لا رقيـة إلا من عين أو حمـة) لا يخالف الثاني لأن الثاني إنما هو في الاسترقاء ، و الأول في الرقية ؛ فالأنسان إذا أتـاه من يرقيـه و لم ينـافي قولـه : (ولا يسـترقو) ؛ لأن هناك ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى : أن يطلب من يرقيه ، و هذا قد فاته الكمال .

المرتبة الثانية : أن لا يمنع من يرقية ، و هذا لم يفتـه الكمـال ؛ لأنه لم يسترق ولم يطلب .

المرتبة الثالثـة : أن يمنـع من يرقيـة و هـذا خلاف السـنة ؛ فـإن النبي صلى الله عليه وسلم لم

الثامنـة عشـرة : بعـد السـلف عن مـدح الإنسـان بمـا ليس فيـه .

التاسـعة عشـرة : قولـه (أنت منهم) : علم من أعلام النبـوة .

العشرون : فضيلة عكاشة .

يمنع عائشة أن ترقية ، و كذلك الصحابة لم يمنعوا أحدا أن يرقيهم [1] ؛ لأن هذا لا يؤثر في التوكل.

* الثامنة عشرة بعد السلف عن مدح الإنسان بمـا ليس فيـه ، ئؤخذ من قوله : (لم أكن في صلاة و لكني لـدغت) ؛ لأنـه إذا رأى الكوكب الذي انقض استلزم أن يكون يقظان ، و اليقظان : إمـا أن يصلي ، وإما أن يكون له شغل آخر ، و إما أن يكون لديـه مـانع من النوم .

* التاسـعة عشـرة : قولـه : (أنت منهم) علم من أعلام النبوة . يعـني : دليلا على نبـوة الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم ، وكيف ذلك ؟ لأن عكاشة بن محصن رضي الله عنـه بقي محروسـا من الكفر حتى مات على الإسـلام ، فيكـون في هـذا علم ، يعـني : دليلا من دلائل نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، هـذا إذا قلنـا : إن الجملة خبرية و ليست جملة دعائية ؛ فقد نقول أيضا : فيـه علم من أعلام النبوة ، وهو أن الله استجاب دعـوة الرسـول صـلى اللـه

---

[1] انظر : (ص91) .

عليه وسلم ، لكن استجابة الـدعوة ليسـت من خصـائص الأنبيـاء ؛ فقد تجاب دعوة من ليس بنبي ، و حين إذٍ لا يمكن أن تكون علمـا من أعلام النبوة إلا حيث جعلنا الجملة خبرية محضة .

* العشرون : فضيلة عكاشة ، بكونه ممن يـدخلون الجنـة بغـير حساب و لا عذاب ، و هل نشهد له بذلك، نعم؛ لأن الرسـول صـلى الله عليه وسلم شهد له بها .

الحادية و العشـرون : اسـتعمال المعـاريض . الثانيـة و العشـرون : حسن خلقه صلى الله عليه وسلم

---

* الحادية و العشرون : استعمال المعـاريض . و في المعـاريض مندوحـة عن الكـذب ، و ذلـك لقـول الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم : : (سبقك بها عكاشـة) ؛ فـإن هـذا في الحقيقـة ليس هـو المانع الحقيقي ، بل المانع ما أشرنا إليه في الشرح : إما أن يكـون هذا الرجل منافقا فلم يرد النبي صلى الله عليـه وسـلم أن يجعلـه مع الذين يدخلون الجنة بغـير حسـاب و لا عـذاب ، و إمـا خوفـا من انفتاح الباب ؛ فيسأل هذه المرتبة من ليس من أهلها

* الثانية و العشرون : حسن خلقه صلى اللـه عليـه وسـلم . و ذلك لأنه رد هذا الرجل و سـد البـاب على وجـه ليس فيـه غضاضـة على أحد و لا كراهة .

* * *

باب الخوف من الشرك

و قول الله غز و جل : (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)(النساء: من الآية116).

مناسبة الباب للبابين قبله :

في الباب الأول ذكر المؤلف رحمه الله تحقيق التوحيد ، و في الباب الثاني ذكر أن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب و لا عذاب ، و ثلث بهذا الباب رحمه الله تعالى ؛ لأن الإنسان يرى أنه قد حقق التوحيد و هو لم يحققه ، و لهذا قال بعض السلف : (ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص) ، و ذلك أن النفس متعلقة بالدنيا تريد حظوظها من مال أو جاه أو رئاسة ، وقد تريد بعمل الآخرة الدنيا ، وهذا نقص في الإخلاص ، و قل من يكون غرضه الآخرة في كل عمله ، و لهذا أعقب المؤلف رحمه الله ما سبق من البابين بهذا الباب ، و هو الخوف من الشرك ، وذكر فيه آيتين :

الأولى قوله : (إن الله لا يغفر أن يشرك به)

(لا) : نافية ، (أن يشرك به) : فعل مضارع مقرون بان المصدرية ؛ فيحول إلى مصدر تقدره : إن الله لا يغفر الإشراك به ، أو لا يغفر إشراكا به ؛ فالشرك لا يغفره الله أبدا ؛ لأنه جناية على حق الله الخاص ، و هو التوحيد .

أما المعاصي ؛ كالزنى و السرقة ؛ فقد يكون للإنسان فيها حظ نفس بما نال

و قال الخليل عليه السلام : (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) (ابراهيم: من الآية35).

من شهوة ، أما الشرك ؛ فهو اعتداء على حق الله تعالى ، و ليس للإنسان فيه حظ نفس ، و ليس شهوة يريد الإنسان أن ينال مراده

، و لكنه ظلم ، و لهذا قال الله تعالى : (إن الشـرك لظلم عظيم) (لقمان : 13) .

و هل المراد بالشرك هنا الأكبر ، أم مطلق الشرك ؟

قال بعض العلماء : إنه مطلق يشمل كـل شـرك و لـو أصـغر ؛ كالحلف بغير الله ، فإن الله لا يغفره ، أما بالنسبة لكبائر الـذنوب ؛ كالسرقة و الخمر ؛ فإنها تحت المشيئة ، فقد يغفرها الله ، و شـيخ الإسلام ابن تيميه المحقق في هذه المسائل اختلف كلامه في هـذه المسألة ؛ فمرة قال : الشـرك لا يغفـره اللـه و لـو كـان أصـغر ، و مرة قال : الشرك الذي لا يغفره اللـه هـو الشـرك الأكـبر ، و على كل حال ؛ فيجب الحذر من الشرك مطلقا ؛ لأن العموم يحتمـل أن يكون داخلا فيه الأصغر ؛ لأن قوله: (أن يشرك به) أن و ما بعـدها في تأويـل مصـدر ، تقـديره : إشـراكا بـه ؛ فهـو نكـرة في سـياق النفي ، فتفيد العموم .

قوله : (و يغفر ما دون ذلك) ، المراد بالدون هنا : ما هو أقـل من الشرك و ليس ما سوى الشرك .

* * *

الآية الثانية : قوله : (واجنبني و بني أن نعبد الأصنام) .

قيل المراد ببنيه : بنـوه لصـلبه ، و لا نعلم لـه من صـلبه سـوى إسماعيل و إسحاق ، و قيل : المراد ذريته و ما توالد من صـلبه ، و هو الأرجح ، و ذلك

....

للآيـات الـتي دلت على دعوتـه للنـاس من ذريتـه ، و لكن كـان من حكمة الله أن لا تجاب دعوته في بعضهم ، كمـا أن الرسـول صـلى الله عليه وسلم دعا أن لا يجعـل بـأس أمتـه بينهم[1] فلم يجب اللـه دعاه .

و أيضا يمنع من الأول أن الآية بصيغة الجمـع ، و ليس لإبـراهيم من الأبناء سوى إسحاق و إسماعيل .

---

[1] يأتي تخريجه (487) .

و معنى : (و اجنبني) ؛ أي : اجعلني في جـانب و الأصـنام في جانب ، و هذا أبلغ مما لو قال : امنعني و بني من عبـادة الأصـنام ؛ لأنه إذا كان في جانب عنها كان أبعد .

فإبراهيم عليه السلام يخاف الشـرك على نفسـه ، و هـو خليـل الرحمن و إمام الحنفاء ؛ فما بالك بنا نحن إذاً ؟!

فلا تـأمن الشـرك ، و لا تـأمن النفـاق ؛ إذ لا يـأمن النفـاق إلا منافق ، و لا يخاف النفاق إلا مؤمن ، و لهـذا قـال ابن أبي ملكيـة : (أدركت ثلاثين من أصـحاب النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ، كلهم يخاف النفاق على نفسه)[2] .

و ها هو عمـر بن الخطـاب رضـي اللـه عنـه خـاف على نفسـه النفاق ؛ فقال ؛ لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه : (أنشدك اللــه ؛ هل سماني لك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع من سمى من المنافقين ؟ . فقال حذيفـة رضـي اللـه عنـه : لا ، و لا أزكي بعـدك أحدا)[3] ، أراد عمـر بـذلك زيـادة الطمأنينـة ، و إلا ؛ فقـد شـهد لـه النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة

....

و لا يقال : إن عمر رضي اللـه عنـه أراد حث النـاس على الخـوف من النفاق و لم يخفه على نفسه ؛ لأن ذلك خلاف ظاهر اللفـظ ، و الأصل حمـل اللفـظ على ظـاهره، و مثـل هـذا القـول يقولـه بعض العلماء فيما يضـيفه النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم إلى نفسـه في بعض الأشياء ، و يقولون : هذا قصد به التعليم ، و قصد به أن يــبين لغيره ، كما قيل : إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقــل : رب اغفر لي لأن له ذنبا ، و لكن لأجل أن يعلم الناس الاستغفار ، و هذا خلاف الأصل ، و قال بعضهم: إنه جهر بالذكر عقب الفريضــة ليعلم الناس الذكر ، لا لأن الجهر بذلك من السنة و نحو ذلك .

قوله : (أن نعبد الأصنام) . أن و الفعل بعدها في تأويل مصدر : مفعول ثان لقوله : اجنبني .

([2] البخاري : كتاب الإيمان / باب خوف المؤمن أن يحبط عمله .

(2) انظر ك (طريق الهجرتين) لابن القيم آخر الطبقة الخامسة عشرة .

و الأصنام : جمع صنم ، وهو ما جعل على صورة إنسان أو غيره يعبد من دون الله .

أما الوثن ؛ فهو ما عبد من دون الله على أي وجه كان ، وفي الحديث:(و لا تجعل قبري وثنا يعبد)0[(1)] فالوثن أعم من الصنم .

و لا شك ان إبراهيم سأل ربه الثبات على التوحيد ؛ لأنه إذا جنبه عبادة الأصنام صار باقيا على التوحيد .

- الشاهد من هذه الآية :

أن إبراهيم خاف الشرك ، وهو إمام الحنفاء ، و هو سيدهم ما عدا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

و في الحديث : (أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) . فسئل عنه ؟ فقال : (الرياء)[(1)] .

قوله : (و في الحديث). الحديث: ما أضيف إلى الرسول ، و الخبر : ما أضيف إليه و إلى غيره ، و الأثر : ما أضيف إلى غير الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ أي : إلى الصحابي فمن بعده ، إلا إذا قيد فقيل : و في الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فيكون على ما قيد به .

قوله : (أخوف ما أخاف عليكم) . الخطاب للمسلمين ؛ إذ المسلم هو الذي يخاف عليه الشرك الأصغر ، و ليس لجميع الناس

قوله : (الرياء) ، مشتق من الرؤية مصدر راءى يرائي ، و المصدر رياء ؛ كقاتل يقاتل قتالا .

و الرياء : أن يعبد الله ليراه الناس فيمدحوه على كونه عابدا ، و ليس يريد أن تكون العبادة للناس ؛ لأنه لو أراد ذلك ؛ لكان شركا أكبر ، و الظاهر أن هذا على سبيل التمثيل ، و إلا ؛ فقد يكون رياء ، و قد يكون سماعا أي يقصد بعبادته أن يسمعه الناس فيثنوا عليه ، فهذا داخل في الرياء ؛ فالتعبير بالرياء من باب التعبير بالأغلب.

---

0 (1) موطأ الإمام مالك (1/172) .

((1) مسند الإمام أحمد (5/428) و شرح السنة (14/324) .

أما إن أراد بعبادته أن يقتدي الناس به فيهـا ؛ فليس هـذا ريـاء ، بل هذا من الدعوة إلى الله ـ عز و جـل ــ ، و الرسـول صـلى اللـه عليه وسلم يقول : (فعلت هذا لتأتموا بي

....

و تعلموا صلاتي)[1].

و الرياء ينقسم باعتبار إبطاله للعبادة إلى قسمين :

الأول:أن يكون في أصل العبادة، أي مـا قـام يتعبـد إلا للريـاء ؛ فهذا عمله باطـل مـردود عليـه لحـديث أبي هريـرة في(الصـحيح) مرفوعا ، قال الله تعالى:(أنا أغنى الشركاء عن الشرك،من عمــل عملا أشرك معي فيه غيري تركته و شركه) [2].

الثاني: أن يكون الرياء طارئا على العبادة ، أي أن أصل العبادة لله لكن طرأ عليها الرياء ؛ فهذا ينقسم إلى قسمين :

الأول : أن يدافعه ؛ فهذا لا يضره .

مثاله : رجل صـلى ركعـة ، ثم جـاء أنـاس في الركعـة الثانيـة ، فحصل في قلبه شئ بأن أطال الركـوع أو السـجود أو تبـاكى و مـا أشبه ذلك ، فإن دافعه ؛ فلإنه لا يضره لأنه قام بالجهاد .

القسم الثاني : أن استرسل معه ؛ فكل عمل ينشـأ عن الريـاء ، فهـو باطـل ؛ كمـا لـو أطـال القيـام ، أو الركـوع ، أو السـجود ، أو التباكى ؛ فهذا كل عمله حابـط ، و لكن هـل هـذا البطلان يمتـد إلى جميع العبادة أم لا ؟

نقول : لا يخلو هذا من الحالتين :

الحال الأول : أن يكـون آخـر العبـادة مبنيـا على أولهـا ، بحيث لا يصح

....

---

[1] مسند الإمام أحمد (5/428)و شرح السنة (14/324).

[2] سبق تخريجه (ص 37) .

أولها مع فساد آخرها ؛ فهذه كلها فاسدة .
و ذلك مثل الصلاة ؛ فالصلاة مثلا لا يمكن أن يفسد آخرها و لا يفسد أولها و حينئذ تبطل الصلاة كلها إذا طرأ الرياء في أثناء ولم يدافعه .

الحال الثانية : أن يكون أول العبادة منفصلا عن آخرها ، بحيث يصح أولها دون آخرها ، فما سبق الرياء ؛ فهو صحيح ، وما كان بعده ؛ فهو باطل .

مثال ذلك : رجل عنده مئة ريال ، فتصدق بخمسين بنية خالصة ، ثم تصدق بخمسين بقصد الرياء ؛ فالأولى مقبولة ، و الثانية غير مقبولة ؛ لأن آخرها منفك عن أولها .

فإن قيل : لو حدث الرياء في أثناء الوضوء ؛ هل يلحق بالصلاة فيبطل كله ، أو بالصدقة فيبطل ما حصل فيه الرياء فقط .

فالجواب : يحتمل هذا و هذا ؛ فيلحق بالصلاة لأن الوضوء عبادة واحدة ينبني على بعض ، و ليس تطهير كل عضو عبادة مستقلة ، و يلحق بالصدقة لأنه ليس كالصلاة من كل وجه و لا الصداقة من كل وجه ؛ لأننا إذا قلنا ببطلان ما حصل فيه الرياء فأعاد تطهيره وحده لم يضر ؛ لأن تكرار غسل العضو لا يبطل الوضوء و لو كان عمدا ، بخلاف الصلاة ؛ فإنه إذا كرر جزءا منها كركوع أو سجود لغير سبب شرعي ؛ بطلت صلاته ، فلو أنه أن غسل يديه رجع و غسل وجهه ؛ لم يبطل و ضوؤه ، ولو أنه بعد أن سجد رجع و ركع ؛ لبطلت صلاته ، و الترتيب موجود في هذا و هذا ، لكن الزيادة في الصلاة تبطلها ، و الزيادة في الوضوء لا تبطلة ، و الرجوع مثلا إلى الأعضاء الأولى لا يبطله أيضا ، و إن كان الرجوع في الحقيقة لا يعتبر و ضوءا لأنه غير شرعي ، و ربما يكون في الأولى غسل وجهه على أنه واحدة ، ثم غسل يديه ، ثم قال :

وعن ابن مسعود رضي الله عنه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من مات و هو يدعو من دون الله ندا ؛ دخل النار) . رواه البخاري[1].

---

[1] البخاري : كتاب التفسير /باب (و من الناس من يتخذ من دون الله أندادا) .

الأحسن أن أكمل الثلاث في الوجه أفضل ، فغسل وجهه مرتين ، و هو سيرتب أي سيغسل وجهه ثم يديه ؛ فوضؤه صحيح .

و لو ترك التسبيح ثلاث مرات في الركوع ، و بعدما سجد قال : فوت على نفسي فضيلة ، سأرجع لأجل أن أسبح ثلاث مرات ؛ فتبطل صلاته ؛ فالمهم أن هناك فرقا بين الوضوء و الصلاة ، و من أجل هذا الفرق لا أبت فيها الآن حتى أراجع و أتأمل إن شاء الله تعالى .

* * *

قوله : (من) . هذه شرطية تفيد العموم للذكر و الأنثى .

قوله : (يدعو من الله ندا) ، أي : يتخذ لله ندا سواء دعاه دعاء عبادة أم دعاء مسألة ؛ لأن الدعاء ينقسم إلى قسمين :

الأول : دعاء عبادة ، مثاله : الصوم ، و الصلاة ، و غير ذلك من العبادات فإذا صلى الإنسان أو صام ؛ فقد دعا ربه بلسان الحال أن يغفر له ، و أن يجيره من عذابه ، و أن يعطيه من نواله ، و هذا في أصل الصلاة ، كما أنها تتضمن الدعاء بلسان المقال .

و يدل لهذا القسم قوله تعالى : (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي)(غافر: من الآية60)؛ فجعل الدعاء عبادة ، وهذا القسم كله

....

شرك، فمن صرف شيئا من شيئا من أنواع؛ فقد كفر كفراً مخرجاً له عن الملة، فلو ركع الإنسان أو سجد لشيء يعظمة كتعظيم الله في هذا الركوع أو السجود؛ لكان مشركاً، ولهذا منع النبي صلى الله عليه وسلم من الانحناء عند الملاقاة لما سئل عن الرجل يلقى أخاه أن ينحني له؟ قال: (لا) [1] .

خلافاً لما يفعله بعض الجهال إذا سلم عليك انحنى لك؛ فيجب على كل مؤمن بالله أن ينكره؛ لأنه عظمك على حساب دينه.

([1] مسند الإمام أحمد (3/198)، والترمذي: كتاب الاستئذان/ باب ما جاء في المصافحة، وقال: (حديث حسن)، وابن ماجة: كتاب الأدب/ باب في المصافحة.

الثاني: دعاء المسألة؛ فهذا ليس كله شركاً، بل فيه تفصيل، فإن كان المخلوق قادراً على ذلك؛ فليس بشرك؛ كقوله: اسقني ماء لمن يستطيع ذلك قال صلى الله عليه وسلم : (من دعاكم فاجيبوه) [2] ، وقال تعالى: (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ)(النساء: من الآية8).

فإذا مد الفقير يده، وقال: ارزقني؛ أي: أعطني؛ فليس بشرك، كما قال تعالى: (فارزقوهم منه) ، وأما إن دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله؛ فإن دعوته شرك مخرج عن الملة.

مثال ذلك: أن تدعو إنساناً أن ينزل الغيث معتقداً أنه قادر على ذلك.

والمراد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (من مات وهو يدعو لله نداً) المراد الند في العبادة، أما الند في المسألة؛ ففيه التفصيل السابق.

ومع الأسف؛ ففي بعض البلاد الإسلامية من يعتقد أن فلاناً المقبور الذي

....

بقي جثة أو أكلته الأرض ينفع أو يضر، أو يأتي بالنسل لمن لا يولد لها، وهذا ـ والعياذ بالله ـ شرك أكبر مخرج من الملة ، وإقرار هذا أشد من إقرار شرب الخمر والزنا واللواط؛ لأنه إقرار على كفر، وليس إقراراً على فسوق فقط.

قوله: (دخل النار). أي: خالداً، مع أن اللفظ لا يدل عليه؛ لأن دخل فعل، والفعل يدل على الإطلاق.

وأيضاً قال الله تعالى: (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)(المائدة: من الآية72) ، وإذا حرمت الجنة؛ لزم أن يكون خالداً في النار أبداً، فيجب أن نخاف من الشرك ما دامت هذه عقوبته؛ فالمشرك خسر الآخرة؛ لأنه في النار خالد، وخسر الدنيا أيضاً؛ لأنه لم يستفد منها شيئاً، وقامت عليه الحجة، وجاءه النذير، ولكنه خسر ـ والعياذ بالله ـ ، ما استفاد شيئاً من الدنيا، قال تعالى : (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ

([2] مسند الإمام أحمد (2/68)، وأبو داود (3/17)، والنسائي (5/28) ، والحاكم وصحح.

تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)(فاطر: من الآية37)، وقال الله ـ عز وجل ـ : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ * يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ) (الحج:11-13) ، وقال تعالى: (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)(الزمر: من الآية15).

فخسر نفسه؛ لأنه لم يستفد منها شيئاً، وخسر أهله؛ لأنهم إن كانوا من المؤمنين فهم في الجنة، فلا يتمتع بهم في الآخرة وإن كانوا في النار فكذلك؛ لأنه كلما دخلت أمة لعنت أختها، والشرك خفي جداً؛ فقد يكون في الإنسان وهو لا يشعر إلا بعد المحاسبة ولهذا قال بعض السلف: (ما جاهدت

ولمسلم عن جابر؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من لقي الله لا يشرك به شيئاً، دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً؛ دخل النار) [1]

نفسي على شيء كما جاهدتها على الإخلاص).

فالشرك أمره صعب جداً ليس بالهين، ولكن ييسر الله الإخلاص على العبد، وذلك بأن يجعله الله نصب عينيه، فيقصد بعمله وجه الله لا يقصد مدح الناس أو ذمهم أو ثناءهم عليه؛ فالناس لا ينفعونه أبداً، حتى لو خرجوا معه لتشييع جنازته لم ينفعه إلا عمله، قال صلى الله عليه وسلم : (يخرج مع الميت أهله وماله وعمله؛ فيرجع اثنان: أهله وماله، ويبقى عمله) [2] .

وكذلك أيضاً من المهم أن الإنسان لا يفرحه أن يقبل الناس قوله لأنه قوله، لكن يفرحه أن يقبل الناس قوله إذا رأى أنه الحق لأنه الحق، لا أنه قوله، وكذا لا يحزنه أن يرفض الناس قوله لأنه قوله؛ لأنه حينئذ يكون قد دعا لنفسه، لكن يحزنه أن يرفضوه لأنه الحق، وبهذا يتحقق الإخلاص.

([1]) مسلم : كتاب الإيمان/ باب من مات وهو لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة.

([2]) البخاري : كتاب الرقاق/ باب سكرات الموت، ومسلم (كتاب الزهد والرقاق.

فالإخلاص صعب جداً، إلا أن الإنسان إذا كان متجهاً إلى الله اتجاهاً صادقاً سليماً على صراط مستقيم؛ فإن الله يعينه عليه، وييسره له.

* * *

قوله: (من) . شرطية تفيد العموم ، وفعل الشرط: (لقي) ، وجوابه قوله: (دخل الجنة)، وهذا الدخول لا ينافي أن يعذب بقدر ذنوبه إن كانت عليه

....

ذنوب؛ لدلالة نصوص الوعيد على ذلك ، وهذا إذا لم يغفر الله له؛ لأنه داخل تحت المشيئة.

قوله: (لايشرك). في محل نسب على الحال من فاعل (لقي).

قوله: (شيئا) . نكره في سياق الشرط؛ فيعم أي شرك حتى ولو أشرك مع الله أشرف الخلق، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم دخل النار؛ فكيف بمن يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم من الله ، فيلجأ إليه عند الشدائد، ولا يلجأ إلى الله ، بل يلجأ إلى ما دون الرسول صلى الله عليه وسلم ؟! وهناك من لا يبالي بالحلف بالله، ولكنه لا يخلف بملته أو بما يعظمه إلا صادقاً، فلزمته يمين؛ هل يحلف بالله أو يحلف بهذا؟

فقيل: يحلف بالله ولو كذب، ولا يعان على الشرك، وهو الصحيح.

وقيل: يحلف بغير الله؛ لأن المقصود الوصول لبيان الحقيقة، وهو إذا كان كاذباً لا يمكن أن يحلف، لكن نقول: إن كان صادقاً حلف ووقع في الشرك.

- مسألة : هل يلزم من دخول النار الخلود لمن أشرك؟

هذا بحسب الشرك، إن كان الشرك أصغر كما دلت على ذلك النصوص؛ فإنه لا يلزم من دخول النار الخلود لمن أشرك؟

هذا بحسب الشرك، إن كان الشرك أصغر كما دلت على ذلك النصوص؛ فإنه لا يلزم من ذلك الخلود في النار، وإن كان أكبر؛ فإنه يلزم منه الخلود في النار.

لكن لو حملنا الحـديث على الشـرك الأكـبر في الموضـعين في قوله: (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخـل الجنـة) [1] ، وفي قولـه : (ومن لقي الله يشرك به شيئاً

- • فيه مسائل :

الأولى : الخوف من الشرك . الثانيـة : أن الريـاء من الشـرك . الثالثة : أنه من الشرك الأصغر .

دخل النار) [1] ؛ وقلنا : من لقي الله لا يشرك به شـركاً أكـبر دخـل الجنة ، وإن عذب قبل الدخول في النار بما يسـتحق؛ فيكـون مآلـه إلى الجنة، ومن لقيه يشرك به شركاً أكبر دخل النار مخلداً فيها لم نحتج إلى هذا التفصيل.

* * *

فيه مسائل :

- • الأولى : الخوف من الشرك . لقولـه : (إن اللـه لا يغفر أن يشرك به)، ولقوله : (واجنبني وبـني أن نعبـد الأصنام).
- • الثانية : أن الرياء من الشرك . لحـديث : (أخـوف ما أخاف عليكم الشـرك الأصـغر). فسـئل عنـه فقـال (الرياء)، وقد سبق بيـان أحكامـه بالنسـبة إلى إبطـال العبادة.
- • الثالثة : أنه من الشرك الأصغر ؛ لأن النـبي صـلى الله عليه وسلم لما سئل عنه قـال: (الريـاء)، فسـماه شركاً أصغر ، وهل يمكن أن يصل إلى الأكبر ؟

ظاهر الحديث لا يمكن؛ لأنـه قـال : (الشـرك الأصـغر)، فسـئل عنه؛ فقال : (الرياء).

الرابعة : أنه أخوف ما يخـاف منـه على الصـالحين . الخامسـة : قرب الجنة والنار . السادسة : الجمع بين قربهما في حديث واحد .

---

[1] سبق تخريجه (112).

[1] سبق تخريجه (ص 112).

السابعة : أنه من لقيه يشرك به شـيئاً ؛ دخـل النـار ، ولـو كـان من أعبد الناس.

لكن في عبـارات ابن القيم رحمـه اللـه أنـه إذا ذكـر الشـرك الأصـغر قـال : كيسـير الريـاء؛ فهـذا يـدل على أن كثـيره ليس من الأصغر ، لكن إن أراد بالكميـة؛ فنعم؛ لأنـه لـو كـان يـرائي في كـل عمل لكان مشركاً شركاً أكبر لعدم وجود الإخلاص في عمل يعمله، أما إذا أراد الكيفية؛ فظاهر الحديث أنه أصغر مطلقاً.

•• الرابعة : أنه أخوف ما يخاف منه على الصـالحين . وتؤخـذ من قوله: (أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) ، ولأنه قد يدخل في قلب الإنسان من غير شـعور لخفائـه وتطلـع النفس إليـه، فـإن كثيراً من النفوس تحب أن تمدح بالتعبد لله.

•• الخامسـة: قـرب الجنـة والنـار. لقولـه: (من لقي اللـه لا يشرك به شيئاً؛ دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً؛ دخل النار)0

•• السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحـد. (من لقي الله لا يشرك به شيئاً...) الحديث.

•• السابعة: أن من لقيه يشرك به شيئاً دخل النار، ولـو كـان من أعبد الناس. تؤخـذ من العمـوم في قولـه: (من لقي اللـه)؛ لأن (من) للعموم، لكن إن كان شركه أكـبر؛ لم يـدخل الجنـة وإن كـان أعبد الناس؛ لقوله تعالى: (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْـهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ)(المائدة: من الآية72) وإن كان أصغر؛ عذب

الثامنة : المسألة العظيمة سؤال الخليل لـه ولبنيـه وقايـة عبـادة الأصنام. التاسعة: اعتبـاره بحـال الأكـثر؛ لقولـه: (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْـلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ)(ابراهيم: من الآية36). العاشرة : فيـه تفسـير (لا إله إلا الله) كما ذكره البخاري. الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك.

بقدر ذنوبه ثم دخل الجنة.

•• الثامنة: المسألة العظيمة سؤال الخليل لـه ولبنيه وقاية عبادة الأصنام. تؤخذ من قوله تعالى : (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام).

•• التاسعة : اعتباره بحال الأكثر؛ لقوله: (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس). وفيه إشكال؛ إذ المؤلف يقول: بحال الأكثر، والآية: (كثيراً من الناس)، وفرق بين كثير وأكثر، ولهذا قال تعالى في بني آدم: (وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)(الاسراء: من الآية70)؛ فلم يقل على أكثر الخلق، ولا على الخلق؛ فالآدميون فضلوا على كثير ممن خلق الله، وليسوا أكرم الخلق على الله، ولكنه كرمهم.

•• العاشرة: فيه تفسير لا إله إلا الله كما ذكره البخاري. الظاهر أنها تؤخذ من جميع الباب؛ لأن لا إله إلا الله فيها نفس وإثبات.

•• الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك. لقوله: (ويغفر ما دون ذلك)، وقوله: (من لقي الله لا يشرك به شيئاً؛ دخل الجنة).

* * *

باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ) الآية (يوسف: من الآية108).

هذا الترتيب الذي ذكره المؤلف من أحسن ما يكون؛ لأنه لما ذكر توحيد الإنسان بنفسه ذكر دعوة غيره إلى ذلك؛ لأنه لا يتم الإيمان إلا إذا دعا إلى التوحيد، قال تعالى: (وَالْعَصْرِ إن الإنسان لفي خسر إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (سورة العصر).

فلا بد مع التوحيد من الدعوة إليـه، وإلا؛ كـان ناقصـاً، ولا ريب أن هذا الذي سلك سبيل التوحيـد لم يسـلكه إلا وهـو يـرى أنـه أفضـل سـبيل، وإذا كـان صـادقاً في اعتقـاده؛ فلابـد أن يكـون داعيـاً إليـه والـدعاء إلى شـهادة أن لا إلـه إلا اللـه من تمـام التوحيـد، ولا يتم التوحيد إلا به.

* * *

قوله: (قل هذه سبيلي)، المشار إليه ما جاء به النبي صـلى اللـه عليه وسلم من الشرع عبادة ودعوة إلى الله.

سبيل: طريقي.

قوله : (أدعو) ، حال من اليـاء في قولـه: (سـبيلي)، ويحتمـل أن تكون استئنافاً لبيان تلك السبيل.

....

وقوله: (إلى الله)؛ لأن الدعاة إلى الله ينقسمون إلى قسمين:

1ـ داع إلى الله.

2ـ داع إلى غيره.

فالـداعي إلى اللـه تعـالى هـو المخلص الـذي يريـد أن يوصـل الناس إلى الله تعالى.

والداعي إلى غيره قد يكون داعيـاً إلى نفسـه ، يـدعو إلى الحـق لأجل أن يعظم بين الناس ويحترم ، ولهذا تجده يغضب إذا لم يفعل الناس ما أمره به، ولا يغضـب إذا ارتكبـوا نهيـاً أعظم منـه، لكن لم يدع إلى تركه.

وقد يكون داعيـاً إلى رئيسـه كمـا يوجـد في كثـير من الـدول من علمــاء الضــلال من علمــاء الــدول، لا علمــاء الملــل، يــدعو إلى رؤسائهم.

من ذلك لما ظهرت الاشتراكية في البلاد العربية قام بعض علماء الضلال بالاستدلال عليها بآيات وأحاديث بعيدة الدلالة، بل ليس فيها دلالة؛ فهؤلاء دعوا إلى غير الله.

ومن دعا إلى الله ثم رأى الناس فارين منه ؛ فلا ييأس، ويترك الدعوة، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعلي: (انفذ على رسلك؛ فوالله؛ لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم) [1]؛ يعني: أن اهتداء رجل واحد من قبائل اليهود خير لك من حمر النعم، فإذا دعا إلى الله ولم يجب؛ فليكن غضبه من أجل أن الحق لم يتبع، لا لأنه لم يجب، فإذا كان يغضب لهذا: فمعناه أنه يدعو إلى الله، فإذا استجاب واحد؛ فقد أبرأ ذمته أيضاً،
....

وفي الحديث : (والنبي وليس معه أحد) [1]

ثم إنه يكفي من الدعوة إلى الحق والتحذير من الباطل أن يتبين للناس أن هذا حق وهذا باطل ؛ لأن الناس إذا سكتوا عن بيان الحق، وأقر الباطل مع طول الزمن؛ ينقلب الحق باطلاً، والباطل حق.

قوله: (على بصيرة)، أي: علم ؛ فتضمنت هذه الدعوة الإخلاص والعلم؛ لأن أكثر ما يفسد الدعوة عدم الإخلاص، أو عدم العلم، وليس المقصود بالعلم في قوله (على بصيرة) العلم بالشرع فقط، بل يشمل: العلم بالشرع، والعلم بحال المدعو، والعلم بالسبيل الموصل إلى المقصود، وهو الحكمة.

فيكون بصيراً بحكم الشرع، وبصيراً بحال المدعو، وبصيراً بالطريق الموصلة لتحقيق الدعوة، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ: (إنك تأتي قوماً أهل كتاب) [2] .وهذه ليست كلها من العلم بالحكم الشرعي؛ لأن علمي أن هذا الرجل قابل لدعوة باللين، وهذا قابل للدعوة بالشدة، وهذا عنده علم يمكن أن يقابلني بالشبهات أمر زائد على العلم بالحكم الشرعي، وكذلك العلم بالطرق التي تجلب المدعوين كالترغيب بكذا والتشجيع؛ كقوله

([1] يأتي (126).

([1] سبق تخريجه (ص6).

([2] البخاري: كتاب المغازي/ باب بعض أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الدعاء إلى الشهادتين.

صلى الله عليه وسلم:(من قتل قتيلاً؛ فله سلبه)[3] ، أوبالتأليف فالنبي صلى الله عليه وسلم أعطى المؤلفة قلوبهم في غزوة

وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن؛ قال له: (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله . . .

حنين إلى مئة بعير [1] ، فهذا كله من الحكمة؛ فالجاهل لا يصلح للدعوة، وليس محموداً ، وليست طريقته طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح.

قوله : (أنا ومن اتبعني)، ذكروا فيها رأيين:

الأول : (أنا) مبتدأ، وخبرها (على بصيرة)، (ومن اتبعني) معطوفة على (أنا)؛ أي: أنا ومن اتبعني على بصيرة؛ أي: في عبادتي ودعوتي.

الثاني: (أنا) توكيد للضمير المستتر في قوله: (أدعو) ؛ أي: أدعو أنا إلى الله ومن اتبعني يدعو أيضاً؛ أي: قل هذه سبيلي أدعو إلى الله ويدعو من اتبعني، وكلانا على بصيرة.

قوله: (وسبحان الله)، أي : أن أكون أدعو على غير بصيرة!

وإعراب (سبحان) : مفعول مطلق عامله محذوف تقديره أسبح.

قوله: (وما أنا من المشركين) ، محلها مما قبلها في المعني توكيد؛ لأن التوحيد معناه نفي الشرك.

* * *

قوله (أي: قول ابن عباس) : (بعث معاذاً)، أي: أرسله، وبعثه على صفة المعلم والحاكم والداعي، وبعثه في ربيع الأول سنة عشرة من الهجرة، وهذا هو المشهور، وبعثه هو وأبا موسى

---

[3] البخاري: كتاب المغازي/ باب قول الله تعالى: (ويوم حنين إذ أعجبتكم...) ، ومسلم : كتاب الجهاد/ باب استحقاق القاتل سلب القتيل.

[1] البخاري : كتاب الخمس / باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة، ومسلم: كتاب الزكاة/ باب إعطاء المؤلفة .

الأشعري رضي الله عنهما، بعث معاذاً إلى صنعاء وما حولها، وأبا موسى إلى عدن وما حولها، وأمرهما: (أن اجتمعا وتطاوعا ولا تفترقا، ويسرا ولا تعسرا، وبشرا وذكرا ولا تنفرا) [1].

قوله: (لما)، إعرابها شرطية، وهي حرف وجود لوجود، و (لو) : حرف امتناع لا متناع، و (لولا) حرف امتناع لوجود.

قوله: (إنك تأتي قوماً من أهل كتاب)، قال ذلك مرشداً له، وهذا دليل على معرفته صلى الله عليه وسلم بأحوال الناس، وما يعلمه من أحوالهم؛ فله طريقان:

1ـ الوحي. 2ـ العلم والتجربة.

قوله: (من) بيانية، والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل؛ فيكون المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وهم أكثر أهل اليمن في ذلك الوقت، وإن كان في اليمن مشركون؛ لكن الأكثر اليهود والنصارى، ولهذا اعتمد الأكثر.

وأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بذلك؛ لأمرين:

الأول: أن يكون بصيراً بأحوال من يدعو.

الثاني: أن يكون مستعداً لهم؛ لأنهم أهل كتاب، وعندهم علم.

قوله: (فليكن)، الفاء للاستئناف أو عاطفة، واللام للأمر، و(أول): اسم يكن ، وخبرها (شهادة) وقيل العكس، يعني (أول) خبر مقدم (وشهادة) اسم يكن مؤخراً.

والظاهر أنه يريد أن يبين أن أول ما يكون هي الشهادة، وإذا كان كذلك؛ يكون (أول) مرفوعاً على أنه اسم يكون؛ أي: أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: (شهادة)، الشهادة هنا من العلم، قال تعالى : إلا من شهد بالحق وهم يعلمون)(الزخرف:86)؛ فالشهادة هنا العلم والنطق باللسان؛ لأن الشاهد مخبر عن علم، وهذا المقام لا يكفي فيه مجرد الإخبار، بل لابد من علم وإخبار وقبول وإقرار وإذعان؛ أي انقياد.

---

[1] البخاري : كتاب المغازي/باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن.

فلو اعتقد بقلبه، ولم يقل بلسانه: أشهد أن لا إله إلا الله؛ فقد قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله: إنه ليس بملسم بالإجماع حتى ينطق بها؛ لأن كلمة أشهد تدل على الإخبار، والإخبار متضمن للنطق، فلابد من النطق؛ فالنية فقط لا تجزيء ، ولا تنفعه عند الله حتى ينطق، والنبي صلى الله عليه وسلم قال لعمه أبي طالب: (قل) [1] ، ولم يقل: اعتقد أن لا إله إلا الله.

قوله: (لا إله)، أي: لا معبود؛ فإله بمعنى مألوه؛ فهو فعال بمعنى مفعول، وعند المتكلمين: إله بمعنى آله؛ فهو اسم فاعل، وعليه يكون معنى لا إله؛ أي: لا قادر على الإختراع، وهذا باطل [2] ، ولو قيل بهذا المعنى؛ لكان المشركون الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم موحدين لأنهم يقرون به، قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله)(الزخرف:87)، وقال تعالى: (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله)(الزمر:38) .

(وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله)، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فإياك وكرائم أموالهم، واتقى دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب). أخرجاه [1] .

فإن قيل: كيف يقال: لا معبود إلا الله، والمشركون يعبدون أصنامهم؟!

أجيب: بأنهم يعبدونها بغير حق؛ فهم وإن سموها آلهة؛ فألوهيتها باطلة، وليست معبودات بحق، ولذلك إذا مسهم الضر؛ لجئوا إلى الله تعالى ، وأخلصوا له الدين، وعلى هذا لا تستحق أن تسمى آلهة.

([1]) البخاري: كتاب الجنائز/ باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت.

([2]) أنظر (ص 53).

([1]) تقدم تخريجه (119)0

فهم يعبدونها ويعترفون بأنهم لا يعبدونها إلا لأجل أن تقــربهم إلى اللــه فقـط؛ فجعلوهـا وسـيلة وذريعـة، وبهـذا التقـدير لا يـرد علينـا إشـكال في قـول الرسـل لقـومهم (واعبـدوا اللـه مـا لكم من إلـه غيره)(الأعراف:59)؛ لأن هذه المعبـودات لا تسـتحق أن تعبـد، بـل الإله المعبود حقاً هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

وفي قوله: (لا إله إلا الله) نفي الألوهية لغير اللـه ، وإثباتهـا للـه، ولهذا جاءت بطريق الحصر.

* * *

ولهما عن سهل بن سعد (رضي الله عنه) : أن رسول الله صـلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: (لأعطين الراية غـداً رجلاً يحب اللـه ورسوله، ويحبه الله ورسـوله؛ يفتح اللـه على يديـه). فبـات النـاس يدوكون ليلتهم؛ أيهم يعطاها، فلما أصبحوا؛ غـدوا على رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم ، كلهم يرجو أن يعطاها.

قولــه: (لأعطين)، هــذه جملــة مؤكــدة بثلاث مؤكــدات: القســم المقدر، واللام ، والنون، والتقدير: والله لأعطين.

قوله: (الراية)، العلم، وسمي راية؛ لأنه يرى، وهو ما يتخذه أمــير الجيش للعلامة على مكانه.

واللواء؛ قيل: إنه الراية، وقيل: ما لوي أعلاه، أو لوي كله؛ فيكون الفرق بينهما: أن الراية مفلولة لا تطوى، واللواء يطوى إما أعلاه أو كله، والمقصود منهما الدلالة، ولهذا يسمى علماً.

قوله: (غداً) ، يراد به ما بعد اليوم، والأمس يراد به ما قبله.

والأصل أنه يراد بالغـد مـا يلي يومـك، ويـراد بـالأمس الـذي يليـه يومك، وقد يراد بالغد ما وراء ذلك، قـال تعـالى: (ولتنظـر نفس مـا قدمت لغد)(الحشر:18)؛ أي: يوم القيامة.

وكذلك بالأمس قد يراد به ما وراء ذلك؛ أي: ما وراء اليـوم الـذي يليه يومك.

قوله: (يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله). أثبت المحبة للـه من الجـانبين، أي أن اللـه تعـالى يحب ويحب، وقـد أنكـر هـذا أهـل التعطيـل، وقـالوا: المـراد بمحبـة اللـه للعبـد إثابتـه أو إرادة إثابتـه، والمراد بمحبة العبد لله محبة ثوابه، وهذا تحريـــف
فقال: (أين علي بن أبي طالب؟). فقيل هو يشتكي عينيه. فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم.

للكلام عن ظاهره مخالف لإجماع السلف من الصحابة والتـابعين وأئمة الهدى من بعدهم، ومحبة الله تعالى ثابتة له حقيقـة وهي من صفاته الفعلية، وكل شيء من صفات الله يكون له سبب؛ فهـو من الصفات الفعليـة، والمحبـة لهـا سـبب؛ فقـد يبغض اللـه إنسـاناً في وقت ويحبه في وقت لسبب من الأسباب.

قولـه: (على يديـه)، أي يفتح خيـبر على يديـه، وفي ذلـك بشـارة بالنصر.

قوله: (يدركون)، أي: يخوضون، وجملة يدركون خبر بات.

قولـه: (غـدوا على رسـول اللـه)، أي: ذهبـوا إليـه في الغـدوة مبكرين، كلهم يرجو أن يعطاها لينال محبة الله ورسوله.

قولـه: (فقـال : أين علي؟) ، القائـل: الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم .

قوله: (يشتكي عينيه)، أي : يتألم منهما، ولكنه يشتكي إلى الله ؛ لأن عينيه مريضة.

وقوله: (فأرسلوا إليه): بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم .

قوله: (فأتى به)، كأنه رضـي اللـه عنـه قـد عمم على عينيـه؛ لأن قوله: (أتي به) أي : يقاد.

وقولـه: (كـأن لم يكن بـه وجـع)، أي : ليس بهمـا أثـر حمـرة ولا غيرها.

قوله: (فبرأ)، هذا من آيات الله الدالة على قدرته وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذا من مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي رضي الله عنه:

ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله؛ لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم) [1] (يدركون)؛ أي : يخوضون.

أنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله؛ لتخصيص النبي صلى الله عليه وسلم له ذلك من بين سائرالصحابة.

قوله: (انفذ على رسلك)، أي: مهلك، مأخوذ من رسل الناقة؛ أي: حليبها يحلب شيئاً فشيئاً، والمعنى: امس هويناً هويناً؛ لأن المقام خطير؛ لأنه يفضى من كمين، واليهود خبثاء أهل غدر.

قوله: (حتى تنزل بساحتهم)، أي: ما يقرب منهم وما حولهم، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين) [2] .

وهذا إذا كنا على الوصف الذي عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، أما إذا كنا على وصف القومية، فإننا لو نزلنا في أحضانهم؛ فمن الممكن أن يقوموا ونكون في الأسفل.

قوله: (ثم ادعهم)، أي: أهل خيبر، (إلى الإسلام)؛ أي: الاستسلام لله.

قوله: (وأخبرهم بما يجب عليهم)، أي: فلا تكفي الدعوة إلى الإسلام

---

[1] البخاري: كتاب الجهاد / باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضائل علي.

[2] البخاري : كتاب الأذان/ باب ما يحقن بالأذان من الدماء ، ومسلم: كتاب الحج/باب فضل المدينة.

فقط، بل يخبرهم بما يجب عليهم فيه حتى يقتنعوا به ويلـتزموا ، لكن على الترتيب الذي في حديث بعث معاذ.

وهذه المسألة يتردد الإنسان فيها: هـل يخـبرهم بمـا يجب عليهم من حق الله في الإسلام قبل أن يسلموا أو بعده؟

فإذا نظرنا إلى ظاهر حديث معاذ وحديث سهل هذا؛ فإننا نقـول: الأولى أن تدعوه للإسلام، وإذا أسلم تخبره.

وإذا نظرنـا إلى واقـع النـاس الآن، وأنهم لا يسـلمون عن اقتنـاع؛ فقـد يسـلم، وإذا أخبرتـه ربمـا يرجـع، قلنـا: يخـبرون أولاً بمـا يجب عليهم من حق الله فيه؛ لئلا يرتـدوا عن الإسـلام بعـد إخبـارهم بمـا يجب عليهم، وحينئذ يجب قتلهم لأنهم مرتدون.

ويحتمـل أن يقـال: تـترك هـذه المسـألة للواقـع ومـا تقتضـيه المصلحة من تقديم هذا أو هذا.

قوله: (لأن يهدي الله)، اللام واقعة في جـواب القسـم، وأن بفتح الهمـزة مصـدرية، ويهـدي مـؤول بالمصـدر مبتـدأ، و(خـير): خـبر، ونظيرها قوله تعالى: (وإن تصوموا خير لكم)(البقرة:184).

قوله: (حمـر النعم) بتسـكين الميم: جمـع أحمـر، وبالضـم: جمـع حمار، والمراد الأول.

وحمر النعم: هي الإبل الحمراء، وذكرها لأنها مرغوبة عند العرب، وهي أحسن وأنفس ما يكون من الإبل عندهم.

وقوله: (لأن يهدي الله بك)، ولم يقل: لأن تهدي؛ لأن الذي يهـدي هو الله.

* فيه مسائل :

الأول : أن الدعوة إلى الله من أتبع رسول الله صلى الله عليـه وسلم الثانية : التنبيـه على الإخلاص؛ لأن كثـيراً من النـاس لـو دعـا إلى الحق؛ فهو يدعو إلى نفسه.

والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق والدلالة.

وهل المراد الهداية من الكفر إلى الإسلام، أو يعم كل هداية؟

نقول: هو موجه إلى قوم يدعوهم إلى الإسلام، وهل نقـول: إن القرينة الحالية تقتضي التخصيص، وأن من اهتـدى على يديـه رجـل في مسألة فرعية من مسائل الدين لا يحصل له هذا الثواب بقرينـة المقام؛ لأن علياً موجه إلى قوم كفـار يـدعوهم إلى الإسـلام، واللـه أعلم

* * *

فيه مسائل :

* الأولى : أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتؤخذ من قوله تعـالى: (قـل هـذه سـبيلي أدعـو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني).

* الثانيـة: التنبيـه على الإخلاص ، وتؤخـذ من قولـه: (أدعـو إلى الله) ، ولهذا قـال: (لأن كثـيراً من النـاس لـو دعـا إلى الحـق؛ فهـو يدعو إلى نفسه)؛ فالذي يدعو إلى الله هو الذي لا يريد إلا أن يقـوم دين الله، والذي يدعو إلى

الثالثـة: أن البصـيرة من الفـرائض . الرابعـة: من دلائـل حسـن التوحيد كونه تنزيهاً للـه تعـالى عن المسـبة. الخامسـة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله. السادسة: وهي من أهمهـا: إبعـاد المسـلم عن المشركين؛ لئلا يصير منهم ، ولو لم يشرك.

نفسه هو الذي يريد أن يكون قوله هو المقبول، حقاً كان أم باطلاً.

* الثالثـة: أن البصـيرة من الفـرائض، وتؤخـذ من قولـه تعـالى: (أدعو إلى الله على بصـيرة)، ووجـه كـون البصـيرة من الفـرائض ؛ لأنه لا بد للداعية من العلم بما يدعو إليه، والدعوة فريضـة؛ فيكـون العلم بذلك فريضة.

* الرابعة: من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهاً لله عن المسبة، وتؤخـذ من قولـه تعـالى : (سـبحان اللـه ومـا أنـا من المشـركين)، فسبحان الله دليل على أنه واحد لكماله.

ومعـنى عن المسـبة؛ أي: وعن مماثلـة الخـالق للمخلـوق؛ إذ تمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصاً.

قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا؟

* الخامسة: أن من قبح الشـرك كونـه مسـبة اللـه، وتؤخـذ من قوله تعالى: (وما أنا من المشركين) بعد قوله: (وسبحان الله).

* السادسة ـ وهي من أهمها ـ: إبعـاد المسـلم عن المشـركين؛ لئلا يصـير منهم، ولـو لم يشـرك. لقولـه تعـالى: (ومـا أنـا من المشركين)، ولم يقل (وما أنا

السابعة: كـون التوحيـد أول واجب. الثامنـة: أنـه يبـدأ بـه قبـل كـل شيء، حتى الصلاة. التاسـعة: أن معـنى: (أن يوحـدوا اللـه): معـنى شهادة أن لا إله إلا الله. العاشرة: أن الإنسـان قـد يكـون من أهـل الكتاب وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولا يعمل بها.

مشـرك)؛ لأنـه إذا كـان بينهم ، ولـو لم يكن مشـرك ؛ فهـو في الظـاهر منهم ، و لهـذا لمـا قـال اللـه للملائكـة : (اسْـجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ)(البقرة: من الآية34)؛ توجه الخطاب له و لهم .

0•• السابعة : كون التوحيد أول واجب ، تؤخذ من قوله صـلى الله عليه وسلم : (فليكن أول ما تدعوهم إليه : شهادة أن لا إله إلا الله) ، و في رواية : (أن يوحدوا الله) .

و قال بعض العلماء : أول واجب النظر ، لكن الصواب أن أول واجب هو التوحيد؛ لأن معرفة الخالق دلت عليها الفطرة .

• الثامنة: أن يبدأ به قبل كل شئ تؤخذ من قوله صـلى الله عليه وسـلم:(ادعهم إلى الإسـلام ، و أخـبرهم بمـا يجب عليهم من حق الله تعالى فيه) .

- التاسعة : أن معنى أن يوحدوا الله معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، تؤخذ من تعبير الصحابي حيث عبر في الرواية بقولـه : (شهادة أن لا إله إلا الله) ، و في رواية عبر بقولـه : (أن يوحـدوا الله) .
- العاشرة : أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب و هو لا يعرفهـا أو يعرفهـا و لا يعمـل بهـا ، و مـراده : (لا يعرفهـا ، أو لا يعرفها) شهادة أن لا إله إلا الله ، و تؤخـذ من قولـه : (فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله) ؛ إذ لو

الحادية عشرة : التنبيـه على التعليم بالتـدريج . الثانيـة عشـرة : البداءة بالأهم فالأهم . الثالثة عشرة : مصـرف الزكـاة . الرابعـة عشرة : كشف العالم الشـبهة عن المتعلم . الخامسـة عشـرة : النهي عن كـرائم الأمـوال . السادسـة عشـرة : اتقـاء دعـوة المظلوم .

كانوا يعرفون لا إله إلا الله و يعملون بها ما احتاجوا إلى الـدعوة إليها .
- الحادية عشرة : التنبيـه على التعليم بالتـدريج . تؤخـذ من قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : (ادعهم إلى أن يوحدوا الله ، فإن هم أطاعوك لذلك ؛ فأعلمهم أن الله افـترض عليهم ...) إلخ الحديث .
- الثانية عشرة : البداءة بالأهم فالأهم . تؤخذ من أمـره صلى الله عليه وسلم معاذا بالتوحيد ليـدعو إليـه أولا ، ثم الصـلاة ، ثم الزكاة .
- الثالثـة عشـرة : مصـرف الزكـاة . تؤخـذ من قولـه صلى الله عليه وسلم : (فترد على فقرائهم) .
- الرابعة عشرة كشف العـالم الشـبهة عن المتعلم . المراد بالشبهة هنا : شبهة العلم ؛ أي : يكون عنده جهل .

تؤخـذ من قولـه : (إن اللـه افـترض عليهم صـدقة تؤخـذ من أغنيـائهم فـترد على فقـرائهم) ، فـبين أن هـذه الصـدقة تؤخـذ من الأغنياء ، و أن مصرفها الفقراء

• الخامسة عشرة : النهي عن كرائم الأموال . تؤخذ من قولــه : (فإيــاك وكــرائم الأمــوالهم) ؛ إذ إيــاك تفيــد التحــذير ، و التحذير يستلزم النهي .

• السادسة عشرة : اتقاء دعوة المظلوم . تؤخذ من قوله : (و اتق دعوة

السابعة عشرة : الإخبار بأنها لا تحجب . الثامنــة عشــرة : من أدلــة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين و سادات الأولياء من المشقة و الجوع و الوباء . التاسـعة عشـرة : قولـه : (لأعطين الرايـة ...) إلخ : علم من أعلام النبوة .

---

* السـابعة عشـرة : الإخبـار بأنهـا لا تحجب . تؤخـذ من قولـه : (فإنه ليس بينها و بين الله حجاب) ؛ فقـرن الـترغيب أو الـترهيب بالأحكام ، مما يحث النفس إن كان ترغيبا ، و يبعـدها و يزجرهـا إن كان ترهيبا ؛ لقوله : (اتق دعوة المظلوم)؛ فـالنفس قـد لا تتقي ، لكن إذا قيل : بينها و بين الله الحجاب ؛ خلفت و نفرت من ذلك .

* الثامنة عشرة : من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسـلين و سـادات الأوليـاء من المشـقة و الجـوع و الوبـاء . و الظـاهر أن المؤلف رحمه الله يريد الإشارة إلى قصـة خيـبر ؛ إذ وقـع فيهـا في عهد الرسول صلى الله عليه وسـلم جـوع عظيم ، حـتى إنهم أكلـوا الحمير و الثوم ، و أما الوباء ؛ فهو ما وقع في عهد على رضي اللـه عنه ، و أما المشقة فظاهرة .

ووجه كون ذلك من أدلة التوحيد : أن الصبر و التحمـل في مثـل هذه الأمور يدل على إخلاص الإنسان في توحيده و أن قصده الله ، و لذلك صبر على البلاء .

* التاسـعة عشـرة : قولـه : (لأعطين الرايـة) علم من أعلام النبوة . لأن هذا حصل فعلي بن أبي طالب يحب اللـه و رسـوله ، و يحبه الله و رسوله .

العشـرون : تفلـه في عينيـه علم من أعلامهـا أيضـا . الحاديـة و العشرون : فضيلة علي رضي الله عنه . الثانية و العشرون : فضـل الصحابه في دوكهم تلك الليلة و شغلهم عن بشـارة الفتح . الثالثـة و العشرون :الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها و منعهـا عمن سـعى . الرابعـة و العشـرون : الأدب في قولـه : (على رسـلك) . الخامسة و العشرون : الدعوة إلى الإسلام قبل القتال .

---

* العشرون : تفله في عينيه علم من أعلامها أيضـا . لأنـه بصـق في عينيه ؛ فبرأ كأن لم يكن به وجع .

* الحادية و العشـرون : فضـيلة علي بن أبي طـالب رضـي اللـه عنـه . و هـذا ظـاهر ؛ لأنـه يحب اللـه و رسـوله ، و يحبـه اللـه و رسوله .

* الثانية و العشرون : فضـل الصـحابة في دوكهم تلـك الليلـة و شـغلهم عن بشـارة الفتح . لأنهم انشـغلوا عن بشـارة الفتح بالتماسهم معرفة من يحب الله و رسوله ، و يحبه الله و رسوله .

*الثالثة و العشرون : الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها و منعها عمن سعى . لأن الصحابة غـدوا على رسـول اللـه مبكـرين ، كلهم يرجو أن يعطاها و لم يعطوها ، و علي بن أبي طـالب مـريض و لم يسع لها ، و مع ذلك أعطي الراية .

* الرابعـة و العشـرون : الأدب في قولـه : (على رسـلك) . ووجهه : أنه أمره بالتمهل و عدم التسرع .

* الخامسة و العشرون : الدعوة إلى الإسلام قبل القتال . لقوله : (انزل

السادسة و العشرون : أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك و قوتلوا . السابعة و العشـرون : الـدعوة بالحكمـة ؛ لقولـه : (أخـبرهم بمـا يجب عليهم) . الثامنـه و العشـرون : ثـواب من اهتـدى على يديـه رجل واحد . الثلاثون : الحلف على الفتيا .

بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام) .

- السادســـة و العشرون : أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك و قوتلوا .
- السابعة و العشرون : الـدعوة بالحكمـة ؛ لقولـه : (أخـبرهم بمـا يجب عليهم). لأن من الحكمة أن تتم الدعوة ، و ذلك بأن تأمره بالإسـلام أولا ، ثم تخـبره بما يجب عليه من حق الله ، و لا يكفي أن تأمره بالإسلام ؛ لأنه قـد يطبق هـذا الإسـلام الـذي أمرتـه بـه و قـد لا يطبقـه ، بـل لابـد من تعاهده حتى لا يرجع إلى الكفر.
- الثامنـة عشـرة : المعرفة بحق اللـه في الإسـلام . تؤخـذ من قولـه : (وأخـبرهم بمـا يجب عليهم من حق الله تعالى فيه).
- التاسعة و العشرون : ثواب من اهتدى على يديه رجل واحـد . لقولـه : (لأن يهـدي اللـه بـك رجلا واحـدا خـير من حمـر النعم) ؛ أي : خـير لـك من كـل مـا يستحسن في الدنيا ، و ليس المعنى كما قال بعضهم : خير لك من أن تتصدق بنعم حمر .
- الثلاثـون : الحلـف على الفتيـا . لقولـه : (فـو اللـه لأن يهـدي اللـه ...) إلخ ؛ فأقسـم النبي صلى الله عليه وسلم و هو لم يستقسم ، و الفائـدة هي حثـه على أن يهدي الله به والتوكيد عليه .

....

ولكن لا ينبغي الحلف على الفتيا إلا لمصلحة و فائدة ؛ لأنه قد يفهم السامع المفتي لم يحلف إلا لشك عنده .

والإمام أحمد رحمه الله أحيانا يقول في إجابته : إي و اللـه ، و قد أمر الله رسوله بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن :

في قولـه تعـالى : (وَيَسْـتَنْبِئُونَكَ أَحَـقٌّ هـو قُـلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقّ) (يونس: من الآية 53) وفي قوله تعالى : (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُـوا قُـلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنّ)(التغـابن: من الآية7) في قولـه تعـالى : (وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لا تَأْتِينَـا السَّـاعَةُ قُـلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ)(سـبأ: من الآية3)

فأذا كان في القسم مصلحة ابتداء ، أو جوابا لسؤال ؛ جاز و ربما يكون مطلوبا .

* * *

باب تفسير التوحيد و شهادة أن لا إله إلا الله

التفسـير معنـاه : الكشـف ة الإيضـاح ، مـأخوذ من قـولهم : فسـرت الثمـرة قشـرها ، ومن قـول الإنسـان : فسـرت ثـوبي ؛ فاتضح ما وراءه ، و منه تفسير القرآن الكريم .

و التوحيد تقدم تعريفه ([1]1)، و المراد به هنـا اعتقـاد أن اللـه واحد في ألوهيته .
و قولــه : (شــهادة أن لا إلــه إلا اللــه) ، معطــوف على التوحيد ؛ أي : و تفسيرشهادة أن لا إله إلا الله
و العطـف هنـا من بـاب عطـف المـترادفين ؛ لأن التوحيـد حقيقة هو شهادة أن لا إله إلا الله
و هذا الباب مهم لأنه لما سبق الكلام على التوحيد و فضله و الـدعوة إليـه ، كـأن النفس الآن اشـرأبت إلى بيـان مـا هـو هـذا التوحيد الذي بوب له هذه الأبواب (وجوبه ، و فضله ، و الـدعوة إليه) .
فيجاب بهذا الباب ، و هو تفسير التوحيد ، و قد ذكر المؤلـف خمس آيات :
وقول الله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَـدْعُونَ يَبْتَغُـونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِـيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ)(الاسراء: من الآية57).

---

* الآية الأولي : قوله تعالى : (أولئك) . (أولاء) : مبتدأ .
(الذين) : اسم موصول بدل منه .
(يدعون) : صله الموصول .
و جمله (يبتغون) : خـبر المبتـدأ ؛ أي : هـؤلاء الـذين يـدعوهم هؤلاء هم أنفسـهم يبتغـون إلى ربهم الوسـيلة أيهم أقـرب ؛ فكيـف تدعونهم و هم محتاجون مفتقرون ؟ ! فهـذا سـفه في الحقيقـة ، و هذا ينطبـق على كـل من دعي ، و هـو داع ؛ كعيسـى بن مـريم ، و الملائكة ، و الأولياء ، و الصالحين ، و أما الشجر و الحجر؛ فلا يدخل في الآية .

---

1 ([1]?) انظر : (ص1)

فهؤلاء الذين زعمتم أنهم أولياء من دون الله لا يملكون كشـف الضر و لا تحويله من مكان إلى مكان ؛ لأنهم هم بأنفسـهم يـدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، و قد قال تعـالى مبنيـا حـال هؤلاء المدعون : (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ* إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَـمِعُوا مَـا اسْـتَجَابُوا لَكُمْ وَيَـوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) (فاطر:13-14).

قولـه : (يـدعون) ؛ أي : دعـاء مسـألة ؛ كمن يـدعو عليـا عنـد وقوعهم في الشدائد ، و كمن يدعو النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم يقول :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ بـه   سـواك عنـد حلـول الحـادث العمم

و قوله : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ* إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي)(الزخرف: من الآية27)

و قد يكون دعاء عبادة ؛ كمن يتذلل لهم بـالتقرب ، و النـذر ، و الركوع ، و السجود .

قوله : (يبتغون) : يطلبون .

قوله : (الوسيلة) ؛ أي : الشيء الذي يوصلهم إلى الله ؛ يعني : يطلبون ما يكون وسيلة إلى الله ـ سبحانه و تعـالى ـ أيهم أقـرب إلى الله ، و كذلك أيضا يرجون رحمته و يخافون عذابه .

* وجه مناسبة الآية للباب باب تفسير التوحيد و شهادة أن لا إله إلا الله :

أن التوحيد يتضمن الـبراءة من الشـرك ، بحيث لا يـدعو مـع اللـه أحدا ؛ لا ملكا مقربا ، و لا نبيا مرسلا ، و هؤلاء الذين يدعون الأنبياء و الملائكة لم يتبرؤا من الشرك ، بل هم واقعون فيه ، ومن العجب أنهم يدعون من هم في حاجة إلى ما يقربهم إلى الله تعـالى ؛ فهم غير مستغنين عن الله بأنفسهم ؛ فكيف يغنون غيرهم ؟!

الآيـة الثانيـة و الثالثـة: قولـه تعـالى: (وإذ قـال إبـراهيم لأبيـه وقومه ...)الآيتين.

قولـه : (بـراء) : على وزن فعـال ، و هي صـفة مشـبهة من التبرؤ ، وهو التخلي ؛ أي : إنني متخل غاية التخلي عمـا تعبـدون إلا الذي فطرني ، و إبراهيم عليه الصلاة و السلام قوي في ذات الله ، فقال ذلك معلنا به لأبيه و قومه ، و أبوه هو آزر [1].

....

قولـه : (تعبـدون) : العبـادة هنـا التـذلل و الخضـوع ؛ لأن في قومـه من يعبـد الأصـنام ، و منهم من يعبـد الشـمس و القمـر و الكواكب .

قولـه : (إلا الـذي فطـرني) : جمـع بين النفي و الإثبـات ؛ فالنفي : (براء مما تعبـدون) ، و الإثبـات : (إلا الـذي فطـرني) ؛ فدل على أن التوحيد لا يتم إلا بالكفر بما سوى الله و الإيمان باللـه وحده ، (فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى) (البقرة : 256) ، و هؤلاء يعبـدون اللـه و يعبـدون غـيره؛ لأنه قال : (إلا الذي فطرني)، و الأصـل في الاسـتثناء الاتصـال إلا بدليل ، و مع ذلك تبرأ منهم .

وكـذا يوجـد في بعض البلـدان الإسـلامية من يصـلي و يـزكي و يصـوم و يحج ، و مـع ذلـك يـذهبون إلى القبـور يسـجدون لهـا و يركعون ؛ فهم كفار غير موحدين ، ولا يقبل منهم أي عمـل ، و هـذا من أخطر ما يكون على الشعوب الإسلامية ؛ لأن الكفر بمـا سـوى اللـه عنـدهم ليس بشـيء ، و هـذا جهـل منهم ، و تفريـط من علمائهم ؛ لأن العامي لا يأخذ إلا من عالمـه ، لكن بعض النـاس ــ و العياذ بالله ـ عالم دولة لا عالم ملة .

و في قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم: (إلا الذي فطرني) ، و لم يقل إلا الله فائدتان :

الأولى : الإشارة إلى علة إفراد اللـه و بالعبـادة ؛ لأنـه كمـا أنـه منفرد بالخلق؛ فيجب أن يفرد بالعبادة .

---

[1] انظر : (ص 83) .

الثانيـة : الإشـارة إلى بطلان الأصـنام ؛ لأنهـا لم تفطـركم حـتى تعبدوها ؛ ففيها تعليل للتوحيـد الجـامع بين النفي والإثبـات ، و هـذه من البلاغة التامة في تعبيرإبراهيم عليه السلام .
يستفاد من الآيـة أن التوحيـد لا يحصـل بعبـادة اللـه مـع غيره ، بل لابد من
و قولـــه:(اتَّخَـــذُوا أَحْبَـــارَهُمْ وَرُهْبَـــانَهُمْ أَرْبَابـــاً مِنْ دُونِ اللَّهِ) (التوبة:من الآية31).

إخلاصه لله ، و الناس في هذا المقام ثلاثة أقسام :
قسم يعبد الله وحده .
قسم يعبد غيره فقط .
قسم يعبد الله و غيره .
والأول فقط هو الموحد .

* * *

* الآية الرابعة : قوله تعالى:(اتخـذوا أحبـارهم ورهبـانهم أربابـا من دون الله ...) الآية.
قولــه : (أحبــارهم) : و المعطــوف عليهــا المفعــول الأول ل (اتخذوا) ، و الثاني: (أربابا) ؛ أي : هؤلاء اليهود و النصارى صيروا أحبارهم ورهبانهم أربابا.
و الأحبار : جمع حـبر ، و هـو العـالم ، و يقـال للعـالم أيضـا بحـر لكثرة علمه . والحبر ؛ بفتح الحاء ، و كسرها يقال : حَبر ، و حبر .
قوله تعالى : (ورهبانهم)؛ أي : عبادهم .
قوله : (أربابا) : جمع رب ، أي يجعلونهـا أربابـا من دون اللـه ؛ فيجعلوا الأحبار أربابا لأنهم يأتمرون بأمرهم في مخالفة أمـر اللـه ، فيطيعونهم في معصية الله .
و جعلوا الرهبان أربابا باتخاذهم أولياء يعبدونهم من دون الله .
قوله : (من دون الله) ؛ أي : من غير الله .
قوله : (والمسيح ابن مـريم) : معطـوف على أحبـارهم ؛ أي : اتخذوا المسيح
وقولـــه: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِـــذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْـــدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)(البقرة: من الآية165).

ابن مريم أيضاً رباً حيث قالوا: إنه ثالث ثلاثة.

قوله: (إلا ليعبدون؛ أي: يتذللوا بالطاعة لله وحده، الذي خلق المسيح والأحبار والرهبان والسماوات والأرض.

قوله: (لا إله إلا هو)؛ أي: لا معبود حق إلا هو.

قوله: (سبحانه): تنزيه لله عما يشركون.

وجه كون هذه الآية تفسيراً للتوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: أن الله أنكر عليهم اتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، وهذه الآية سيأتي فيها ترجمة كاملة في كلام المؤلف رحمه الله؛ فهؤلاء جعلوا الأحبار شركاء في الطاعة، كلما أمروا بشيء أطاعوهم، سواء وافق أمر الله أم لا.

إذاً؛ فتفسير التوحيد أيضاً بلا إله إلا الله يستلزم أن تكون طاعتك لله وحده، ولهذا على الرغم من تأكيد النبي صلى الله عليه وسلم لطاعة ولاة الأمر؛ قال: (إنما الطاعة في المعروف) [1] .

* * *

* الآية الخامسة: قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ . . .) الآية.

قوله: (من الناس): من للتبعيض، وعلامتها أن يصح أن يحل محلها بعض، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و(من يتخذ) مبتدأ مؤخر، أي من يجعل لله أنداداً، ومفعولها الأول (أنداداً) مؤخراً، ومفعولها الثاني (من دون الله) مقدماً.

وقوله: (يتخذ) : جاءت بالإفراد مراعاة للفظ (من).

وقوله: (يحبونهم): بالجمع مراعاة للمعنى.

---

[1] البخاري : كتاب الأحكام/ باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ومسلم: كتاب الإمام/ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية.

وقوله: (أنداداً): جمع ند، وهو الشبيه والنظير، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن قال له ما شاء الله وشئت : (أجعلتني لله نداً ؟! بل ما شاء الله وحده) [1] .

وقوله: (يحبونهم كحب الله): هذا وجه المشابهة؛ أي: الندية في المحبة يحبونهم كحب الله.

واختلف المفسرون في قوله: (كحب الله):

فقيل: يجعلون محبة الأصنام مساوية لمحبة الله، فيكون في قلوبهم محبة لله ومحبة للأصنام، ويجعلون محبة الأصنام كمحبة الله؛ فيكون المصدر مضافاً إلى مفعوله، أي يحبون الأصنام كحبهم الله.

وقيل: يحبون هذه الأصنام محبة شديدة كمحبة المؤمنين لله.

وسياق هذه الآية يؤيد القول الأول.

وقوله: (والذين آمنوا أشد حباً لله).

على الرأي الأول يكون معناها: والذين آمنوا أشد حباً لله من هؤلاء لله ؛ لأن محبة المؤمنين خالصة ، ومحبة هؤلاء شرك بين الله وبين أصنامهم.

وعلى الرأي الثاني معناها: والذين آمنوا أشد حباً لله من هؤلاء لأصنامهم؛ لأن محبة المؤمنين ثابتة في السراء والضراء على برهان صحيح، بخلاف المشركين ؛ فإن محبتهم لأصنامهم تتضاءل إذا مسهم الضر.

فما بالك برجل يحب غير الله أكثر من محبته لله ؟ ! وما بالك برجل يحب غير الله ولا يحب الله ؟ ! فهذا أقبح وأعظم ، وهذا موجود في كثير من المنتسبين للإسلام اليوم، فإنهم يحبون أولياءهم أكثر مما يحبون الله، ولهذا لو قيل له: احلف بالله؛ حلف صادقاً أو كاذباً ، أما الولي ؛ فلا يحلف به إلا صادقاً.

وتجد كثيراً منهم يأتون إلى مكة والمدينة ويرون أن زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم من زيارة البيت؛ لأنهم يجدون في نفوسهم حباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم كحب الله أو أعظم ، وهذا شرك؛ لأن الله يعلم أننا ما أحببنا رسول الله

---

[1] سبق (ص 45)

صلى الله عليه وسلم إلا لحب الله، ولأنه رسول الله، ما أحببناه لأنه محمد بن عبدالله لكننا أحببناه لأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فنحن نحبه بمحبة الله، لكن هؤلاء يجعلون محبة الله تابعة لمحبة الرسول صلى الله عليه وسلم إن أحبوا الله.

فهذه الآية فيها محنة عظيمة لكثير من قلوب المسلمين اليوم الذين يجعلون غير الله مثل الله في المحبة، وفيه أناس أيضاً أشركوا بالله في محبة غيره، لا على وجه العبادة الشرعية؛ لكن على وجه العبادة المذكورة في الحديث [1] ، وهي محبة الدرهم والدينار والخميصة والخميلة ، يوجد أناس لو فتشت عن قلوبهم؛ لوجدت قلوبهم ملأى من محبة متاع الدنيا، وحتى هذا الذي جاء يصلي هو في المسجد لكن قلبه مشغول بما يحبه من أمور الدنيا.

فهذا نوع من أنواع العبادة في الحقيقة، ولو حاسب الإنسان نفسه لماذا خلق؟ لعلم أنه خلق لعبادة الله، وأيضاً خلق لدار أخرى ليست هذه الدار؛ فهذه الدار مجاز يجوز الإنسان منها إلى الدار الأخرى، الدار التي خلق لها والتي يجب أن يعنى بالعلم لها، يا ليت شعري متى يوماً من الأيام فكر الإنسان ماذا عملت ؟ وكم بقي لي في هذه الدنيا؟ وماذا كسبت؟ الأيام تمضي ولا أدري هل أزددت قرباً من الله أو أم بعداً من الله؟ هل نحاسب أنفسنا عن هذا الأمر؟

فلابد لكل إنسان عاقل من غاية؛ فما هي غايته؟

نحن الآن نطلب العلم للتقرب إلى الله بطلبه، وإعلام أنفسنا، وإعلام غيرنا؛ فهل نحن كلما علمنا مسألة من المسائل طبقناها؟ نحن على كل حال نجد في أنفسنا قصوراً كثيراً وتقصيراً ، وهل نحن إذا علمنا مسألة ندعو عباد الله إليها؟

هذا أمر يحتاج إلى محاسبة، ولذلك؛ فإن على طالب العلم مسؤولية ليست هينة، عليه أكثر من زكاة المال؛ فيجب أن يعلم

---

[1] سبق (ص 23).

ويتحرك ويبث العلم والوعي في الأمة الإسلامية، وإلا انحـرفت عن شرع الله.

قال ابن القيم رحمه الله: كل الأمور تسير بالمحبة؛ فـأنت مثلاً لا تتحرك لشيء إلا وأنت تحبه، حتى اللقمة من الطعام لا تأكلهـا إلا لمحبتك لها.

ولهذا قيـل: إن جميـع الحركـات مبناهـا على المحبـة؛ فالمحبـة أساس العمل، فالإشراك في المحبة إشراك بالله.

* والمحبة أنواع :

الأول : المحبة لله، وهذه لا تنافي التوحيـد، بـل هي من كمالـه، فأوثق عرى الإيمان: الحب في الله ، والبغض في الله.

والمحبة لله هي أن تحب هذا الشيء؛ لأن الله يحبه، سواء كان شخصاً أو عملاً ، وهذا من تمام التوحيد.

قال مجنون ليلى:

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدار

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

الثاني : المحبة الطبيعية التي لا يؤثرها المـرء على محبـة اللـه؛ فهذه لا تنافي محبة الله؛ كمحبة الزوجة، والولد ، والمال، ولهذا لما سئل النبي صلى اللـه عليـه وسـلم : من أحب النـاس إليـك؟ قـال: (عائشة). قيل: فمن الرجال؟ قال: (أبوها) [1] .

ومن ذلك محبة الطعام والشراب واللباس.

الثالث : المحبة مع الله التي تنافي محبة اللـه ، وهي أن تكـون محبة غير الله كمحبة الله أو أكثر من محبة الله، بحيث إذا تعارضت محبة الله ومحبة غيره قدم محبـة غـير اللـه ، وذلـك إذا جعـل هـذه المحبة نداً لمحبة الله يقدمها على محبة الله أو يساويها بها.

---

[1] البخاري : كتاب فضائل الصحابة/ بـاب قـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم : (لو كنت متخـذاً خليلاً)، ومسلم : كتاب الفضائل / باب فضائل أبي بكر.

الشاهد من هذه الآية: أن الله جعل هـؤلاء الـذين سـاووا محبـة الله بمحبة غيره مشركين جاعلين لله أنداداً.

*   *   *

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسـلم ؛ أنـه قـال: (من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله؛ حرم مـا لـه ودمـه، وحسابه على الله عز وجل) [1] . وشرح هذه الترجمة مـا بعـدها من الأبواب.

قوله: (وفي الصـحيح)ـ لم يفصـح المؤلـف رحمـه اللـه بمـراده بالصحيح؛ أهو (صحيح البخاري) أم (صحيح مسلم)، أم أن المراد به الحديث الصحيح؛ سواء كان في (الصحيحين) معاً أم في أحدهما أم في غيرهما، وليس له اصطلاح في ذلك يحمـل عليـه عنـد الإطلاق، وعلى هذا يبحث عن الحديث في مظانه، وقـد ورد هـذا التعبـير في سياق المؤلف للحديث في مواضع أخرى، والمـراد بـه هنـا (صـحيح مسلم).

قوله صـلى اللـه عليـه وسـلم : (من قـال لا إلـه إلا اللـه) أي لا معبود حـق إلا اللـه، فلفـظ الجلالـة بـدل من الضـمير المسـتتر في الخبر، ومن يرى أن (لا) تعمل في المعرفة يقولون: هو الخبر.

قوله: (وكفر بما يعبـد من دون اللـه)، أن: بعبـادة من يعبـد من دون الله، قلنا ذلك؛ لأن عيسى بن مـريم كـان يعبـد من دون اللـه، ونحن نؤمن به، لكن لا نؤمن بعبادته ولا بأنه مسـتحق للعبـادة؛ كمـا قال تعـالى: (وَإِذْ قَـالَ اللَّهُ يَـا عِيسَـى ابْنَ مَـرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِـذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَـالَ سُـبْحَانَكَ مَـا يَكُـونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِـي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُـوبِ * مَـا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَـا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي

* فيه مسائل :

---

[1] مسلم : كتاب الإيمان/ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله.

فيـه أكـبر المسـائل وأهمهـا ، وهي تفسـير التوحيـد وتفسـير الشهادة، وبينها بأمور واضحة.

وَرَبَّكُمْ)(المائدة: 116) .

وفي قوله: (وكفر بما يعبد من دون الله) دليل على أنه لا يكفي مجرد التلفظ بلا إله إلا الله بل لا بـد أن تكفـر بعبـادة من يعبـد من دون الله، بل وتكفر أيضاً بكل كفر، فمن يقول: لا إله إلا الله، ويرى أن النصـارى واليهـود اليـوم على دين صـحيح؛ فليس بمسـلم، ومن يرى الأديان أفكاراً يختار منها مـا يريـد؛ فليس بمسـلم، بـل الأديـان عقائد مفروضة من قبل الله ـ عز وجـل ــ ، يتمشـى النـاس عليـه، ولهذا بنكر على بعض الناس في تعبيره بقوله: الفكر الإسلامي، بل الواجب أن يقال: الـدين الإسـلامي أو العقيـدة الإسـلامية، ولا بـأس بقول المفكر الإسلامي؛ لأنه وصف للشخص نفسـه لا للـدين الـذي هو عليه.

قوله: (وشرح هـذه الترجمـة)، المـراد بالشـرح هنـا: التفصـيل، والترجمة: هي التعبير بلغة عن لغة أخرى، ولكنهـا تطلـق باصـطلاح المؤلفين على العناوين والأبواب، فيقال: ترجم على كذا؛ أي: بـوب له.

* * *

قوله: (فيه أكبر المسائل وأهمها، وهي تفسير التوحيد).

فتفسير التوحيد أنه لا بد فيه من أمرين:

الأول: نفى الألوهية عما سوى الله ـ عز وجل ـ .

منها أية الإسراء : بين فيها الرد على المشركين الـذين يـدعون الصالحين ؛ ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

الثـاني : إثبـات الألوهيـة للـه وحـده؛ فلابـد من النفي والإثبـات لتحقيق التوحيد؛ لأن التوحيد جعل الشيء واحداً بالعقيـدة والعمـل، وهذا لا بد فيه من النفي والإثبات.

فإذا قلت: زيد قائم؛ أثبت له القيـام ولم توحـده، لكن إذا قلت: لا قائم إلا زيد؛ أثبت له القيام ووحدته به.

وإذا قلت: الله إله أثبت لـه الألوهيـة، لكن لم تنفهـا عن غـيره؛ فالتوحيد لم يتم، وإذا قلت: لا إله إلا الله، أثبت الألوهية لله ونفيتهـا عما سواه.

قولـه: (تفسـير الشـهادة). الشـهادة: هي التعبـير عمـا تيقنـه الإنسان بقلبه؛ فقول: أشهد أن لا إله إلا الله؛ أي : أنطلـق بلسـاني معبراً عما يكنه قلبي من اليقين، وهو أنه لا إله إلا الله.

قولـه: (منهـا آيـة الإسـراء) . وهي قولـه تعـالى: (أولئـك الـذين يدعون . . .) (الإسراء: 57)؛ فبين فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، وبين أن هذا هـو الشـرك الأكـبر؛ لأن الـدعاء من العبـادة، قـال تعـالى: (وَقَـالَ رَبُّكُمُ ادْعُـونِي أَسْـتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) (غافر:60) ؛ فـدل على أن الدعاء عبادة، لأن آخـر الكلام تعليـل لأولـه، فكـل من دعـا أحداً غير الله حياً أو ميتاً ؛ فهو مشرك شركاً أكبر.

ودعاء المخلوق ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

ومنها آية (بـراءة) : بين فيهـا أن أهـل الكتـاب اتخـذوا أحبـارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

وبين أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهاً واحداً، مـع أن تفسـيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء في المعصية، لا دعاؤهم إياهم.

الأول: جائز، وهو أن تدعو مخلوقاً بـأمر من الأمـور الـتي يمكن أن يدركها بأشياء محسوسة معلومة؛ فهـذا ليس من دعـاء العبـادة، بل هو من الأمور الجائزة، قال صلى الله عليه وسلم : (وإذا دعـاك فأجبه) [1] .

([1] البخاري : كتـاب الجنـائز/ بـاب الأمر باتبـاع الجنـائز، ومسـلم: كتـاب السـلام/ بـاب من حق المسـلم للمسلم رد السلام.

الثاني : أن تدعو مخلوقاً مطلقاً ، سواء كان حياً أو ميتاً فيمـا لا يقدر عليه إلا الله ؛ فهذا شرك أكبر لأنك جعلته نداً لله فيما لا يقـدر عليه إلا الله، مثل: يا فلان اجعل ما في بطن امرأتي ذكراً.

الثـالث : أن تـدعو مخلوقـاً ميتـاً لا يجيب بالوسـائل الحسـية المعلومة؛ فهذا شرك أكبر أيضاً لأنه لا يدعو من كان هذه حاله حتى يعتقد أن له تصرفاً خفياً في الكون.

قوله: (ومنها آية براءة بين فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبـارهم وهبانهم أربابـاً من دون اللـه) . وهـذا شـرك الطاعـة، وهـو بتوحيـد الربوبية ألصق من توحيد

ومنها قول الخليل عليه السلام للكفار: (إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إلا الذي فطرني) (الزخرف:26) فاستثنى من المعبودين ربه.

وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسـير شـهادة أن لا إلــه إلا اللــه، فقــال: (وَجَعَلَهَــا كَلِمَــةً بَاقِيَــةً فِي عَقِبِــهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الزخرف:28) .

الألوهية؛ لأن الحكم شرعياً كان أو كونيـاً إلى اللـه تعـالى؛ فهـو من تمام ربوبيته، قال تعالى: (وَمَـا اخْتَلَفْتُمْ فِيـهِ مِنْ شَـيْءٍ فَحُكْمُـهُ إِلَى اللَّهِ)(الشـورى: من الآية10)، وقـال تعـالى: (لـه الحكم وإليـه ترجعون)(القصص: 70).

والشيخ رحمه الله جعـل شـرك الطاعـة من الأكـبر، وهـذا فيـه تفصيل، وسيأتي إن شاء الله في بـاب من أطـاع الأمـراء والعلمـاء في تحليل ما حرم الله أو بالعكس.

قوله: (ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: (إنني بـراء ممـا تعبدون إلا الذي فطرني)؛ فاستثنى من المعبـودين ربـه. فـدل هـذا

على أن التوحيد لا بد فيه من نفي وإثبات: البراءة مما سـوى اللـه، وإخلاص العبادة لله وحده.

وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسـير شـهادة أن لا إلـه إلا اللـه ؛ فقـال: (وجعلهـا كلمـة باقيـة في عقبـه لعلهم يرجعون)، وهي لا إله إلا الله؛ فكـان معـنى قولـه: (إنـني بـراء ممـا تعبدون إلا الذي فطرني) هو معنى قول: لا إله إلا الله.

ومنهـا آيـة البقـرة في الكفـار الـذين قـال اللـه فيهم: (وَمَـا هُمْ بِخَــارِجِينَ مِنَ النَّارِ)(البقــرة: من الآية167) . ذكــر أنهم يحبــون أندادهم كحب الله ، فـدل على أنهم يحبـون اللـه حبـاً عظيمـاً، ولم يدخلهم في الإسلام؛ فكيـف بمن أحب النـد أكـبر من حب اللـه ؟ ! وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله ؟ !

قوله : (ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: (ومـا هم بخارجين من النار).

فجعل الله المحبة شركاً إذا أحب شيئاً سوى الله كمحبتـه للـه؛ فيكون مشركاً مع الله في المحبة، ولهذا يجب أن تكون محبـة اللـه خالصة لا يشاركه فيها أحـد حـتى محبـة الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم ، فلولا أنه رسول ما وجبت طاعته ولا محبته إلا كما نحب أي مؤمن، ولا يمنع الإنسان من محبة غـير اللـه ، بـل لـه أن يحب كـل شيء تباح محبته؛ كالولـد ، والزوجـة ، ولكن لا يجعـل ذلـك كمحبـة الله.

قـال المؤلـف: (فكيـف بمن أحب النـد أكـبر من حب اللـه ؟! وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله ؟!).

فالأقسام أربعة:

الأول: أن يحب الله حباً أشد من غيره؛ فهذا هو التوحيد.
الثاني: أن يحب غير الله كمحبة الله، وهذا شرك.
الثالث: أن يحب غير الله أشد حباً من الله، وهذا أعظم مما قبله.
الرابع: أن يحب غير الله وليس في قلبه محبة لله تعالى، وهذا أعظم وأطم.
ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : (من قال: لا إله إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله؛ حرم ما له ودمه، وحسابه على الله).
وهذا من أعظم ما يبين معنى (لا إله إلا الله)؛ فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله.

والمحبة لها أسباب ومتعلقات، وتختلف باختلاف متعلقها ، كما أن الفرح يختلف باختلاف متعلقه وأسبابه، فعندما يفرح بالطرب؛ فليس هذا كفرحه بذكر الله ونحوه.
حتى نوع المحبة يختلف، يحب والده ويحب ولده وبينهما فرق، ويحب الله ويحب ولده، ولكن بين المحبتين فرق.
فجميع الأمور الباطنة في المحبة والفرح والحزن تختلف باختلاف متعلقها، وسيأتي إن شاء الله لهذا البحث مزيد تفصيل عند قول المؤلف: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً).
قوله:(ومنها: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من قال: لا إله إلا الله) إلخ.
إذاً؛ فلا بد من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، قال تعالى: (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) (البقرة: من الآية256).
قوله: (وكفر بما يعبد من دون الله) . أي: كفر بالأصنام، وأنكر أن تكون عبادتها حقاً؛ يكفي أن يقول: لا إله إلا الله ، ولا أعبد صنماً ، بل لا بد أن

يقول: الأصنام التي تعبد من دون الله أكفر بها وبعبادتها.

فمثلاً لا يكفي أن يقول: لا إلـه إلا اللـه ولا أعبـد اللات، ولكن لا بد أن يكفر بهـا ويقـول: إن عبادتهـا ليسـت بحـق، وإلا؛ كـان مقـراً بالكفر.

فمن رضي دين النصارى ديناً دينون الله به؛ فهـو كـافر لأنـه إذا ساوى غير دين الإسلام مع الإسلام؛ فقد كـذب قولـه تعـالى: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْأِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ)(آل عمران: من الآية85).

وبهذا يكون كافراً ، وبهـذا نعـرف الخطـر العظيم الـذي أصـاب المسلمين اليـوم بـاختلاطهم مـع النصـارى، والنصـارى يـدعون إلى دينهم صباحاً ومساءً، والمسلمون لا يتحركون، بل بعض المسـلمين الـذين مـا عرفـوا الإسـلام حقيقـة يلينـون لهـؤلاء ، (وَدُّوا لَـوْ تُـدْهِنُ فَيُـدْهِنُونَ) (القلم:9) ، وهـذا من المحنـة الـتي أصـابت المسـلمين الآن، وآلت بهم إلى هذا الذل الذي صاروا فيه.

* * *

باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

قولـــه: (من الشـــرك)، من هنـــا للتبعيض؛ أي: أن هـــذا بعض الشرك، وليس كل الشرك، والشـرك: اسـم جنس يشـمل الأصـغر

والأكبر، ولبس هذه الأشياء قد يكون أصغر وقد يكون أكـبر بحسـب اعتقاد لابسـها، وكـان لبس هـذه الأشـياء من الشـرك؛ لأن كـل من أثبت سبباً لم يجعله الله سبباً شـرعياً ولا قـدرياً؛ فقـد جعـل نفسـه شريكاً مع الله.

فمثلاً : قراءة الفاتحة سبب شرعي للشفاء.

وأكل المسهل سـبب حسـي لانطلاق البطن، وهـو قـدري؛ لأنـه يعلم بالتجارب.

والناس في الأسباب طرفان ووسط:

الأول: من ينكر الأسباب، وهم كـل من قـال بنفي حكمـة اللـه؛ كالجبرية، والأشعرية.

الثاني: من يغلو في إثبات الأسباب حتى يجعلوا ما ليس بسـبب سبباً، وهؤلاء هم عامة الخرافيين من الصوفية ونحوهم.

الثـالث: من يـؤمن بالأسـباب وتأثيراتهـا، ولكنهم لا يثبتـون من الأسباب إلا ما أثبته الله سبحانه ورسوله، سواء كان سبباً شرعياً أو كونياً.

ولا شك أن هؤلاء هم الذين آمنوا إيماناً حقيقياً ، وآمنوا بحكمته؛ حيث ربطوا الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها، وهـذا من تمـام الحكمة.

ولبس الحلقة ونحوها إن اعتقد لابسها أنها مـؤثرة بنفسـها دون الله؛ فهو مشرك شركاً أكبر في توحيد الربوبية؛ لأنـه اعتقـد أن مـع الله خالقاً غيره.

وإن اعتقد أنهـا سـبباً ولكنـه ليس مـؤثراً بنفسـه؛ فهـو مشـرك شركاً أصغر لأنه لما اعتقد أن ما ليس بسبب سبباً؛ فقد شارك الله تعالى في الحكم لهـذا الشـيء بأنـه سـبب، واللـه تعـالى لم يجعلـه سبباً.

وطريق العلم بأن الشيء سبب:

إما عن طريق الشرع، وذلك كالعسل (فيه شفاء للناس) (النحل:69)، وكقراءة القرآن فيها شفاء للناس، قال الله تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)(الاسراء: من الآية82).

وإما عن طريق القدر، كما إذا جربنا هذا الشيء فوجدناه نافعاً في هذا الألم او المرض، ولكن لا بد أن يكون أثره ظاهراً مباشراً كما لو اكتوى بالنار فبريء بذلك مثلاً ؛ فهذا سبب ظاهر بين، وإنما قلنا هذا لئلا يقول قائل: أنا جربت هذا وانتفعت به، وهو لم يكن مباشراً؛ كالحلقة، فقد يلبسها إنسان وهو يعتقد أنها نافعة، فينتفع لان للانفعال النفسي للشيء أثراً بيناً؛ فقد يقرأ إنسان على مريض فلا يرتاح له، ثم يأتي آخر يعتقد أن قراءته نافعة، فيقرأ عليه الآية نفسها فيرتاح له ويشعر بخفة الألم، كذلك الذين يلبسون الحلق ويربطون الخيوط، قد يحسون بخفة الألم أو اندفاعه أو ارتفاعه بناءً على اعتقادهم نفعها.

وخفة الألم لمن اعتقد نفع تلك الحلقة مجرد شعور نفسي، والشعور النفسي ليس طريقاً شرعياً لإثبات الأسباب، كما أن الإلهام ليس طريقاً للتشريع.

وقول الله تعالى : (قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّه

قوله: (لبس الحلقة والخيط)، الحلقة: من حديد أو ذهب أو فضة أو ما أشبه ذلك ، والخيط معروف.

قوله: (ونحوهما)، كالمرصعات، وكمن يصنع شكلاً معيناً من نحاس أو غيره لدفع البلاء، أو يعلق على نفسه شيئاً من أجزاء الحيوانات، والناس كانوا يعلقون القرب البالية على السيارات ونحوها لدفع العين، حتى إذا رآها الشخص نفرت نفسه فلا يعين.

قوله: (لرفع البلاء، أو دفعه)، الفرق بينهما: أن الرفع بعد نزول البلاء، والدفع قبل نزول البلاء.

وشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب لا ينكر السبب الصحيح للرفع أو الدفع، وإنما ينكر السبب غير الصحيح.

*   *   *

وقول الله تعالى: (أفرأيتم)، أي: أخبروني، وهذا تفسير باللازم؛ لأن من رأى أخبر، وإلا؛ فهي استفهام عن رؤية، قال تعالى: (أرأيت الذي يكذب بالدين)(الماعون:1)؛ أي: أخبرني ما حال من كذب بالدين؟ وهي تنصب مفعولين: الأول مفرد، والثاني جملة استفهامية.

وقوله: (ما)، المفعول الأول لرأيتم، والمفعول الثاني جملة: (إن أرادني الله بضر).

بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ)(الزمر: من الآية38).

وقوله: (تدعون)، المراد بالدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة؛ فهم يدعون هذه الأصنام دعاء عبادة، فيتعبدون لها بالنذر والذبح والركوع والسجود، ويدعونها دعاء مسألة لدفع الضرر أو جلب النفع.

فالله سبحانه إذا أراد ضراً لا تستطيع الأصنام أن تكشفه، وإن أراده برحمة لا تستطيع أن تمسك الرحمة؛ فهي لا تكشف الضرر ولا تمنع النفع؛ فلماذا تعبد ؟!

وقوله: (كاشفات)، يشمل الدفع والرفع؛ فهي لا تكشف الضر بدفعه وإبعاده، ولا تكشفه برفعه وإزالته.

وقوله: (قل حسبي الله)، أي: كافيني، والحسب: الكفاية، ومنه قوله تعالى: (جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً) (النبأ:36)، من الحسب، وهو الكفاية، وحسبي: مبتدأ، ولفظ الجلالة خبر، وهذا أبلغ.

وقيل العكس، والراجح الأول؛ لوجهين:

الأول: أن الأصل عدم التقديم والتأخير.

الثاني: أن قولك: حسبي الله فيه حصر الحسب في الله، أي حسبي الله لا غيره؛ فهو كقولك: لا حسب لي إلا الله ، بخلاف قولك: الله حسبي؛ فليس فيه الحصر المذكور؛ فلا يدل على حصر الحسب في الله.

قوله: (عليه يتوكل المتوكلـون) . قـدم الجـار والمجـرور لإفـادة الحصر؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

والمعنى ان المتوكل حقيقة هـو المتوكـل على اللـه، أمـا الـذي يتوكل على الأصنام والأوليـاء والأضـرحة؛ فليس بمتوكـل على اللـه تعالى.

عن عمران بن حصين رضي الله عنه؛ أن النبي صلى الله عليـه وسلم رأى رجلاً في يده حلقة من صفر، فقال: (ما هذه)؟ قال: من الواهنة. فقال: (انزعها؛ فإنها لا تزيدك إلا وهنـاً، فإنـك لـو مت وهي عليك؛ ما أفلحت أبداً). رواه أحمد بسند لا بأس به [1].

وهذا لا ينافي أن يوكل الإنسان إنساناً في شيء ويعتمـد عليـه؛ لأن هناك فرقاً بين التوكل على الإنسان الـذي يفعـل شـيئاً بـأمرك، وبين توكلك على الله؛ لأن توكلك على الله اعتقادك أن بيـده النفـع والضر، وأنك متذلل ، معتمد عليه، مفتقر إليه، مفوض أمرك إليه.

والشاهد من هذه الآية: أن الأصنام لا تنفع أصحابها لا بجلب نفع و لا بدفع ضر ؛ فليست أسباب لذلك ، فيقـاس عليهـا كـل مـا ليس بسبب شرعي أو قدري ؛ فيعتبر اتخاذه سببا إشراكا بالله .

و هناك شاهد آخر في قوله : (حسبي الله) ؛ فإن فيه تفويض الكفاية إلى الله دون الأسباب الوهمية ، و أما الأسباب الحقيقة ؛ فلا ينافي تعاطيها توكل العبد على الله تعالى و تفويض الأمر إليه ؛ لأنها من عنده .

* * *

....

---

[1] مسند الإمام أحمد (4/445) ـ واللفظ له ـ ، وابن ماجة (كتاب الطب، باب تعليق التمائم) وليس فيه : (فإنك لو مت ...) إلخ . وفي (الزوائد) : (إسناده حسن؛ لأ، مبارك هذا هو ابن فضالة). ورواه ابن حبان أيضاً (1410) بلفظ (إنك إن نمت وهي عليك وكلت إليها). ومن طريق أبي عامر الخراز عن الحسن عن عمران بنحوه ، رواه ابن حبان(1411) والحاكم (4/216)، وصححه ووافقه الذهبي.

قولـه في عمـران : (رأى رجلا) . لم يـبين اسـمه ؛ لأن المهم بيان القضية و حكمها ، لكن ورد ما يـدل على أنـه عمـران نفسـه ، لكنه أبهم نفسه .

قوله : (حلقة من صفر ، فقال : ماهـذا ؟ قـال : من الواهنـة) ، و الحلقـة و الصـفر معروفـان ، و أمـا الواهنـة ؛ فوجـع في الـذراع أو العضد .

(مـا أفلحت) : الفلاح هـو النجـاة من المرهـوب و حصـول المطلوب .

هذا الحديث مناسب للباب مناسبة تامة ؛ لأن هـذا الرجـل لبس حلقة من صفر؛ إما لدفع البلاء أو لرفعه .

و الظاهر أنه لرفعه ؛ لقوله : (لا تزيدك إلا و هنـا) ، و الزيـادة تكون مبنية على أصل .

ففي الحديث دليل على عدة فوائد :

1-أنه ينبغي لمن أراد إنكار المنكر أن يسـأل أولا عن الحـال ؛ لأنه قد يظن ماليس بمنكرا ، و دليله أن الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم قال : (ما هذه) .

و الاستفهام هنا للاستعلام فيمـا يظهـر و ليس للإنكـار ، و قـول الرجل : (من الواهنة) : من للسببية ؛ أي : لبستها بسب الواهنة ، و هي مرض يوهن الإنسان و يضعفه، قـد يكـون في الجسـم كلـه و قد يكون في بعض الأعضاء كما سبق .

2-وجوب إزالة المنكر ؛ لقوله : (انزعهـا) ، فـامره بنزعهـا ؛ لأن لبسها منكر ، و أيـد ذلـك بقولـه : (إنهـا لا تزيـدك إلا و هنـا) ؛ أي : و هنا في النفس لا في الجسم ، وربما تزيده و هنا في الجسم ، أمـا وهن النفس ؛ فلأن الإنسـان إذا تعلقت نفسـه بهـذه الأمـور ضعفت و اعتمدت عليها و نسيت الاعتمـاد على اللـه ـ عـز وجـل ـ والانفعال النفسي له أثر كبير في إضعاف الإنسان ؛ فأحيانـا يتـوهم الصحيح أنه مريض فمريض ، و أحيانا يتناسى الإنسان المرض وهـو مريض

وله عن عقبـة بن عـامر مرفوعـا : (من تعلـق تميمـة ؛ فلا أتم الله له و من تعلق ودعة ؛ فلاودع الله له) [1]

فيصبح صحيحا ؛ فانفعال النفس بالشيء له أثر بالغ ، و لهذا تجد بعض الذين يصابون بالأمراض النفسية يكون أصل إصابتهم ضعف النفس من أول الأمر ، حتى يظن الإنسان أنه مريض بكذا أو بكذا ؛ فيزداد عليه الوهم حتى يصبح الموهوم حقيقة .

فهذا الذي لبس الحلقة من الواهنة لا تزيده إلا و هنا ؛ لأنه سوف يعتقد أنها مادامت عليه فهو سالم فإذا نزعها عاد إليه الوهن ، وهذا بلا شك ضعف في النفس.

3-أن الأسباب التي لا أثر لها يقتضى الشرع أو العادة أو التجربة لا ينتفع بها الإنسان .

4-أن لبس الحلقة و شبهها لدفع البلاء أو رفعه من الشرك ؛ لقوله : (لو مت و هي عليك ما أفلحت أبدا) ، و انتفاء الفلاح دليل على الخيبة و الخسران . و لكن هل هذا شرك أكبر أو أصغر؟

سبق لنا عند الترجمة أنه يختلف بحسب اعتقاد صاحبه .

5-أن الأعمال بالخواتيم ؛ لقوله : (لو مت و هي عليك)؛ فعرف أنه لو أقلع عنها قبل الموت لم تضر لأن الإنسان إذا تاب قبل ان يموت صار كمن لا ذنب له .

* * *

وفي رواية : (من تعلق تميمة ؛ فقد أشرك) [1]

ولابن أبي حاتم عن حذيفة : (أنه رأى رجلا في يده خيط من الحمى ، وتلا قوله : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (يوسف:106).

قوله : (من تعلق تميمة) : أي : علق بها قلبه و اعتمد عليها في جلب النفع ودفع الضرر . و التميمة : شيء يعلق على الأولاد من خرز أو غيره يتقون به العين .

وقوله : (فلا أتم الله له) . الجمله خبرية بمعنى الدعاء ، و يحتمل أن تكون خبرية محضة ، و كلا الاحتمالين دال على أن التميمة محرمة ، سواء نفى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتم الله له أودعا بأن لا يتم الله له ؛ فإن كان الرسول صلى الله عليه وسلم أراد به الخبر فإننا نخبر بما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ، و إلا ؛ فإننا ندعو بما ندعو بما دعا به الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومثل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (ومن تعلــق ودعــة ؛ فلا ودع الله له) .

والودعة : واحدة الودع، وهي أحجـار تؤخـذ من البحـر يعلقونهـا لدفع العين، ويزعمون أن الإنسـان إذا علـق هـذه الودعـة لم تصـبه العين ، أو لا يصبه الجن .

قولــه : (لا ودع اللــه لـــه) ، أي : لا تركــه اللــه في دعــة و سكون ، وضد الدعة والسكون القلق و الألم .

وقيل : لا ترك الله له خيرا ؛ فعومل بنقيض قصده .

وقوله: (فقد أشرك)، ذا الشرك يكون أكبر إن اعتقد أنهـا ترفـع أو تدفع بذاتها دون أمر الله ، و إلا ؛ فهو أصغر .

قوله: (من الحمى)، (من) هنا للسببية؛ أي : في يده خيط لبسه من أجل الحمى لتبرد عليه ، أو يشفي منها.

*فيه مسائل :

الأولى : التغليظ في لبس الحلقة و الخيط و نحوهما لمثل ذلك

الثانية : ان الصحابي لو مات و هي عليه ؛ ما أفلح . فيـه شـاهد لكلام الصحابة : أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر .

قولـه: (فقطعـه) أي : قطـع الخيـط ؛ ، وفعلـه هـذا من تغيـير المنكر باليد ، وهـذا يـدل على غـيرة السـلف الصـالح و قـوتهم في تغيير المنكر باليد و غيرها.

و قوله : وتلا قولـه تعـالى : (ومـا يـؤمن أكـثرهم باللـه إلا وهم مشركون) ، أي و تلا حذيفة هـذه الآيـة . و المـراد بهـا المشـركون الذين يؤمنون بتوحيد الربوبية و يكفرون بتوحيد الألوهية .

قولـه : (وهم مشـركون) في محـل نصـب على الحـال ؛ أي : وهم متلبسون بالشرك ، وكلام حذيفة في رجل مسـلم لبس خيطـا لتبريـد الحمى أو الشـفاء منهـا . وفيـه دليـل على أن الإنسـان قـد يجتمع فيه إيمان وشـرك،و لكن ليس الشـرك الأكـبر ؛ لأن الشـرك الأكبر لا يجتمع مع الإيمان ، ولكن المراد هنا الشرك الأصغر ، وهـذا أمر معلوم

*   *   *

قوله : (فيه مسائل) ، أي : في الباب مسائل :

الأولى : التغليـظ في لبس الحلقـة و الخيـط ونحوهمـا لمثـل ذلك ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (انزعها ـ لا تزيدك إلا وهنـا ـــ، لو مت وهي عليك مـا أفلحت أبـدا)، وهـذا تغليـظ عظيم في لبس هذه الأشياء والتعلق بها .

- الثانية : أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح ، هـذا وهو صحابي فكيف بمن دون الصحابي ؟! فهو أبعد عن الفلاح .

الثالثة : أنه لم يعذر بالجهالة .

قال المؤلف : (فيه شاهد لكلام الصحابة : أن الشرك الأصغر أكـبر من الكبائر).
قولـه : (لكلام الصـحابة)؛ أي : لقـولهم ، وهـو كـذلك ؛ فالشـرك الأصغر أكبر من الكبائر ، قال ابن مسـعود رضـي اللـه عنـه : (لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلى من أن أحلف بغيره صـادقا) [1] ، وذلـك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكبيرة ؛ لأن الشرك لا يغفر ولو كان أصغر ، بخلاف الكبائر ؛ فإنها تحت المشيئة .
*الثالثة : أنه لم يعذر بالجهالة . هذا فيه نظر ؛ لأن قوله صـلى اللـه عليه وسلم : (لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا) ليس بصـريح أنـه لو مات قبل العلم ، بل ظاهره: (لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا)؛ أي : بعد أن علمت و أمرت بنزعهاـ
هذه المسألة تحتـاج إلى تفصـيل ؛ فنقـول : الجهـل نوعـان : جهـل يعذر فيه الإنسان ، وجهل لا يعذر فيه ، فما كـان ناشـئا عن تفريـط وإهمال مع قيـام المقتضـي للتعلم ؛ فإنـه لا يعـذر فيـه ، سـواء في الكفر أو في المعاصي ، وما كان ناشئا عن خلاف ذلـك ، أي أنـه لم يهمل ولم يفرط ولم يقم المقتضي للتعلم بـأن كـان لم يطـرأ على بالـه أن هـذا الشـيء ؛ فإنـه يعـذر فيـه ، فـان كـان منتسـبا إلى الإسلام ؛ لم يضـره ، وإن كـان منتسـبا إلى الكفـر ؛ فهـو كـافر في الدنيا ، لكن في الآخـرة أمـره إلى اللـه على القـول الـراجح ، فـإن أطاع دخل الجنة ، و إن عصى دخل النار.

الرابعة : أنها لا تنفع في العاجلة ؛ بل تضر ، لقولـه : (لا تزيـدك إلا وهنا) . الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك .

فعلى هذا من نشأ ببادية بعيدة ليس عنده علماء ولم يخطر بباله أن هذا الشيء حرام ، أو أن هذا الشيء واجب ؛ فهذا يعذر ، وله أمثلة :

ومنها: رجل بلغ وهو صغير وهو في بادية ليس عنده عالم ، ولم يسمع عن العلم شيئا ، ويظن أن الإنسان لا تجب عليه العبادات إلا إذا بلغ خمس عشرة سنة، فبقي بعد بلوغه حتى تم له خمس عشرة سنة وهو لا يصوم ولا يصلي ولا يتطهر من جنابة ؛ فهذا لا نأمره بالقضاء لأنه معذور بجهله الذي لم يفرط فيه بالتعلم ولم يطرأ له على بال ، وكذلك لو كانت أنثى أتاها الحيض وهي صغيرة وليس عندها من تسأل ولم يطرأ على بالها أن هذا الشيء واجب إلا إذا تم لها خمس عشرة سنة؛ فإنها تعذر إذا كانت لا تصوم و لا تصلي

وأما من كان بالعكس كالساكن في المدن يستطيع أن يسأل ، لكن عنده تهاون و غفلة ؛ فهذا لا يعذر ؛ لأن الغالب في المدن أن هذه الأحكام لا تخفى عليه ويوجد فيها علماء يستطيع أن يسألهم بكل سهولة ؛ فهو مفرط ،فيلزمه القضاء و لا يعذر بالجهل .

- الربعة : الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك ، أي : ينبغي أن ينكر إنكارا مغلظا على من فعل مثل هذا ، ووجه ذلك سياق الحديث الذي أشار إليه المؤلف ،و أيضا قوله : (من تعلق تميمة ؛ فلا أتم الله له) .

السادسة : التصريح بأن من تعلق شيئا ؛ وكل إليه . السابعة : التصريح بان من تعلق تميمة ؛ فقد أشرك . الثامنة : أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك . التاسعة : تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر ؛ كما ذكر ابن عباس في آية البقرة .

---

* السادسة : التصريح بأن من تعلق شيئا وكل إليـه . تؤخـذ من قوله : (من تعلق تميمة ؛ فلا أتم الله له) إذا جعلنا الجملة خبرية ، وأن من تعلق تميمة ؛ فإن الله لا يتم له ، فيكـون موكـولا إلى هـذه التميمـة ، ومن وكـل إلى مخلـوق ؛ فقـد خـذل ، ولكنهـا في البـاب الذي بعده صريحة ، (من تعلق شيئا وكل إليه)[1]

* السابعة : التصريح بأن من تعلق تميمـة ؛ فقـد أشـرك . وهـو إحدى الروايتين في حديث عقبة بن عامر .

* الثامنة : أن تعليق الخيط من الحمى من ذلـك . يؤخـذ من فعل حذيفة أنـه رأى رجلا في يـده خيـط من الحمى فقطعـه ، وتلا قوله تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) .

* التاســعة : تلاوة حذيفـــة الآيـــة دليـــل على أن الصـــحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر كما ذكـر ابن عباس في سورة البقرة .

العاشرة : أن تعليـق الـودع من العين من ذلـك . الحاديـة عشـرة : الدعاء على من تعلق تميمة أن لا يتم له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له ؛ أي : ترك له .

أي : أن قولــه تعــالى : (ومــا يــؤمن أكــثرهم باللــه إلا وهم مشركين) في الشرك الأكبر ، لكنهم يستدلون بالآيات الـواردة في الشرك الأكـبر على الأصـغر ؛ لأن الأصـغر شـرك في الحقيقـة وإن كان لا يخرج من الملة ، ولهذا نقول : الشرك نوعان : أصغر و أكبر

و قوله : (كما من ذكر ابن عباس في آية البقرة) وهي قولــه تعــالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِــذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْـدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُـوا أَشَــدُّ حُبّـاً لِلَّهِ)(البقــرة: من الآية165)؛ فجعـل المحبة التي تكون كمحبة الله من اتخاذ الند لله ـ عز وجل ـ.

---

[1] مسند الإمام أحمد (4/130) ، والترمذي (أبواب الطب ، باب ما في كراهة التعليق (7302) .

* العاشــرة : أن تعليــق الــودع من العين من ذلــك ، و قولــه : (من ذلك) ؛ أي : من تعليق التمائم الشركية ؛ لأنه لا أثر لها ثــابت شرعا ولا قدرا .

* الحادية عشرة : الدعاء على من تعلــق تميمــة أن اللــه لا يتم له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له ؛ أي : ترك الله له . تؤخـذ من دعاء النبي صلى الله عليه وسـلم على هـؤلاء الـذين اتخـذوا تمـائم وودعا ، ليس هذا بغريب أن نؤمر بالدعاء على من خالف وعصــى ؛ فقد قـال النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم : (إذا سـمعتم من ينشـد الضالة في المسجد ؛ فقولوا : لا ردهـا اللـه عليـك) [1] ، وإذا رأيتم من يبيع أم يبتاع في المسجد؛فقولوا : لا ....

أربح الله تجارتك) (1) .

فهنا أيضا تقول له : لا أتم اللــه لــك ، ولكن الحـديث إنمـا قالـه الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل العموم ؛ فلا نخاطب هذا بالتصريح و نقول لشخص رأينا عليه تميمة : لا أتم الله لــك ، وذلــك لأن مخاطبتنا الفاعل بالتصريح و التعيين سوف يكون سببا لنفوره ، ولكن نقول : دع التمائم أو الودع ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (من تعلق تميمة ؛ فلا أتم الله لــه ، ومن تعلــق ودعــة ؛ فلا ودع الله له) .

---

(1) مسلم : كتاب المساجد /باب النهي عن نشد الضالة في المسجد .

(1) الترمذي : كتاب البيوع /باب النهي عن البيع في المسجد ، 2/472 ، وحسـنه و صـححه الحـاكم ، ووافقه الذهبي ، و قال الألباني : (حديث صحيح) الإرواء 5/134 .

باب ما جاء في الرقي و التمائم

في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه ؛ أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره ، فأرسل رسولا : (أن يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت)[1].

قول المؤلف : باب ما جاء في الرقى و التمائم

لم يذكر المؤلف أن هذا الباب من الشرك ؛ لأن الحكم فيه يختلف عن حكم لبس الحلقة و الخيط ، ولهذا جزم المؤلف في الباب الأول أنها من الشرك بدون استثناء ، أما هذا الباب ؛ فلم يذكر أنها شرك ؛ لأن من الرقى ما ليس بشرك ، و لهذا قال : (باب ما جاء في الرقى و التمائم) .

قوله : (شرك) ، جمع رقية ، وهي القراءة ؛ فيقال : رقى : رقى عليه ـ بالألف ـ من القراءة ، ورقي عليه ـ بالياء ـ من الصعود .

قوله : (التمائم) ، جمع تميمة ، وسميت تميمة ؛ لأنهم يرون أنه يتم بها دفع العين .

قوله : (أسفاره) ، السفر : مفارقة محل الإقامة ، وسمي سفرا ؛ لأمرين:

---

[1] البخاري : كتاب الجهاد /باب ما قيل في الجرس و نحوه في أعناق الإبل ، و مسلم : كتاب اللباس /باب كراهة قلادة الوتر في رقبة البعير .

....

الأول : حسـي، وهـو أنـه يسـفر ويظهـر عن بلـده لخروجـه من البنيان.

الثاني: معنوي، وهو أنه يسـفر عن أخلاق الرجـال؛ أي: يكشـف عنهـا وكثـير من النـاس لا تعـرف أخلاقهم وعـاداتهم وطبـائعهم إلا بالأسفار.

قوله: (قلادة من وتر، أو قلادة)، شك من الراوي، والأول أرجح؛ لأن القلائد كانت تتخـذ من الأوتـار، ويعتقـدون أن ذلـك يـدفع العين عن البعير، وهذا اعتقاد فاسد؛ لأنه تعلق بما ليس بسبب، وقد سبق أن التعلق بما ليس بسبب شرعي أو حسي شرك؛ لأنه يتعلقه أثبت للأشياء سبباً لم يثبته اللـه لا بشـرعه ولا بقـدره، ولهـذا أمـر النـبي صلى الله عليه وسلم أن نقطع هذه القلائد.

أما إذا كانت هذه القلادة من غير وتـر، وإنمـا تسـتعمل للقيـادة كالزمـام؛ فهـذا لا بـأس بـه لعـدم الاعتقـاد الفاسـد، وكـان النـاس يعلمون ذلك كثيراً من الصوف أو غيره.

قوله: (في رقبـة بعـير)، ذكـر البعـير؛ لأن هـذا هـو الـذي كـان منتشـراً حينـذاك؛ فهـذا القيـد بنـاءً على الواقـع عنـدهم؛ فيكـون كالتمثيل، وليس بمخصص.

* يستفاد من الحديث:

1- أنه ينبغي لكبير القوم أن يكون مراعياً لأحـوالهم؛ فيتفقـدهم وينظر في أحوالهم.

2- أنه يجب عليـه رعـايتهم بمـا تقتضـيه الشـريعة؛ فـإذا فعلـوا محرماً منعهم منه، وإن تهاونوا في واجب حثهم عليه.

3- أنه لا يجوز أن تعلق في أعناق الإبل أشـياء تجعـل سـبباً في جلب منفعة أو دفع مضـرة، وهي ليسـت كـذلك لا شـرعاً ولا قـدراً؛ لأنه شرك ، ولا

وعن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) . رواه أحمد وأبو داود [1] .

يلزم أن تكون القلادة في القربة، بل لو جعلت في اليد أو الرجل؛ فلها حكم الرقبة؛ لأن العلة هي هذه القلادة، وليس مكان وضعها؛ فالمكان لا يؤثر.

4- أنه يجب على من يستطيع تغيير المنكر باليد أن يغيره بيده.

* * *

قوله: (إن الرقى) ، جمع رقية ، وهذه ليست على عمومها، بل هي عام أريد به خاص، وهو الرقى بغير ما ورد به الشرع، أما ما ورد به الشرع؛ فليست من الشرك، قال صلى الله عليه وسلم في الفاتحة: (وما يدريك أنها رقية) [2] .

وهل المراد بالرقى في الحديث ما لم يدر به الشرع ولو كانت مباحة، أو المراد ما كان في شرك ؟

الجواب: الثاني؛ لأن كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا يناقض بعضه بعضاً؛ فالرقى المشروعة التي ورد بها الشرع جائزة.

وكذا الرقى المباحة التي يرقى بها الإنسان المريض بدعاء من عنده ليس فيه شرك جائز أيضاً.

قوله: (التمائم)، فسرها المؤلف بقوله: (شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين) ، وهي من الشرك؛ لأن الشارع لم يجعلها سبباً تتقى به العين.

وإذا كان الإنسان يلبس أبناءه ملابس رثة وبالية خوفاً من العين؛ فهل هذا جائز؟

---

[1] مسند الإمام أحمد (1/381) وحسن إسنادة أحمد شاكر (3615)، وأبو داود (كتاب الطب، باب في تعليق التمائم، 5/212)، والحاكم في (الرقى والتمائم، 4/418) ــ وقال: (صحيح الإسناد على شرط الشيخين)، وأقره الذهبي.

[2] سبق (ص 87).

الظاهر أنه لا بأس به؛ لأنه لم يفعل شيئاً، وإنما ترك شيئاً، وهـو التحسين والتجميل، وقد ذكر ابن القيم في (زاد المعـاد) أن عثمـان رأى صبياً مليحاً، فقال: دسموا نونته، والنونـة: هي الـتي تخـرج في الوجه عندما يضحك الصبي كالنقوة، ومعنى دسموا؛ أي: سودوا.

وأمـا الخـط: وهي أوراق من القـرآن تجمـع وتوضـع في جلـد ويخاط عليها، ويلبسها الطفل على يـده أو رقبتـه؛ ففيهـا خلاف بين العلماء.

وظاهر الحديث: أنها ممنوعة، ولا تجوز.

ومن ذلـك أن بعضـهم يكتب القـرآن كلـه بحـروف صـغيرة في أوراق صـغيرة، ويضـعها في صـندوق صـغير، ويعلقهـا على الصـبي، وهذا مع أنـه محـدث؛ فهـو إهانـة للقـرآن الكـريم؛ لأن هـذا الصـبي سوف يسيل عليه لعابه، وربما يتلوث بالنجاسة، ويدخل بـه الحمـام والأماكن القذرة، وهذا كله إهانة للقرآن.

ومـع الأسـف أن بعض النـاس اتخـذوا من العبـادات نوعـاً من التـبرك فقـط؛ مثـل مـا يشـاهد من أن بعض النـاس يمسـح الـركن اليماني من باب التبرك لا التعبـد، وهـذا جهـل، وقـد قـال عمـر في الحجر: (إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك) [1]

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعـاً: (من تعلـق شـيئاً؛ وكـل إليـه) رواه أحمد والترمذي [1] .

قوله: (التولة)، شيء يعلقونه على الـزوج، يزعمـون أنـه يحبب الزوجة إلى زوجها والزوج إلى امرأته، وهذا شرك؛ لأنه ليس بسبب شرعي ولا قدري للمحبة.

ومثل ذلك الدبلة، والدبلة: خاتم يشترى عند الـزواج يوضـع في يد الزوج، وإذا ألقاه الزوج؛ قالت المرأة: إنه لا يحبها؛ فهم يعتقدون فيه النفع والضرر، ويقولون: إنه ما دام في يد الزوج؛ فإنه يعني أن العلاقة بينهما ثابتة، والعكس بالعكس، فإذا وجدت هذه النيـة؛ فإنـه

([1] البخاري: كتاب الحج/باب تقبيل الحجر، ومسلم: كتاب الحج/ باب استحباب تقبيل الحجر.

([1] تقدم تخريجه (165).

من الشرك الأصغر، وإن لم توجد هذه النية ـ وهي بعيدة ألا تصحبها ـ ؛ ففيه تشبه بالنصارى، فإنها مأخوذة منهم.

وإن كانت من الذهب؛ فهي بالنسبة للرجل فيها محذور ثالث وهو لبس الذهب؛ فهي إما من الشرك، أو مضاهاة النصارى، أو تحريم النوع إن كانت للرجال، فإن خلت من ذلك فهي جائزة لأنها خاتم من الخواتم.

وقوله: (شرك)، هل هي شرك أصغر أو أكبر؟

نقول: بحسب ما يريد الإنسان منها إن أتخذها معتقداً أن المسبب للمحبة هو الله؛ فهي شرك أصغر، وإن اعتقد أنها تفعل بنفسها؛ فهي شرك اكبر.

* * *

قوله: (من تعلق)، أي: اعتمد عليه وجعله همه ومبلغ علمه، وصار يعلق رجاءه به وزوال خوفه به.

قوله: (شيئاً) نكرة في سياق الشرط؛ فتعم جميع الأشياء، فمن تعلق بالله ـ سبحانه وتعالى ــ ، وجعل رغبته ورجاءه فيه وخوفه منه؛ فإن الله تعالى يقول: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُه) (الطلاق: من الآية3)؛ أي؛ كافية، ولهذا كان من دعاء الرسل وأتباعهم عند المصائب والشدائد: (حسبنا الله ونعم الوكيل)، قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد وأصحابه حين قيل لهم: (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ) [1] (آل عمران: من الآية173).

قوله: (وكل إيه)، أي: أسند إليه، وفوض.

* أقسام التعلق بغير الله

الأول: ما ينافي التوحيد من أصله، وهو أن يتعلق بشيء لا يمكن أن يكون له تأثير، ويعتمد عليه اعتماداً معرضاً عن الله، مثل تعلق عباد القبور بمن فيها عند حلول المصائب، ولهذا إذا مستهم

---

[1] البخاري : كتاب التفسير/ باب (الذين قال لهم الناس ....) .

الشراء الشديدة يقولون: يا فلان ! أنقذنا؛ فهـذا لا شـك أنـه شـرك أكبر مخرج من الملة.

الثـاني: مـا ينـافي كمـال التوحيـد، وهـو أن يعتمـد على سـبب شرعي صحيح من الغفلة عن المسـبب، وهـو اللـه ــ عـز وجـل ــ ، وعدم صرف قلبه إليه؛ فهذا نوع من الشرك، ولا نقول شرك أكـبر؛ لأن هذا السبب جعله الله سبباً.

الثالث: أن يتعلق بالسبب تعلقاً مجـرداً لكونـه سـبباً فقـط، مـع اعتماده الأصلي على الله؛ فيعتقد أن هذا السبب من الله، وأن الله لو شاء لأبطل أثره،

(التمائم): شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين.

لكن إذا كـان المعلـق من القـرآن؛ فـرخص فيـه بعض السـلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسـعود رضي الله عنه.

ولو شاء لأبقاه، وأنه لا أقر للسبب إلا بمشيئة اللـه ــ عـز وجـل ـ ؛ فهذا لا ينافي التوحيد لا كمالاً ولا أصلاً، وعلى هذا لا إثم فيه.

ومـع وجـود الأسـباب الشـرعية الصـحيحة ينبغي للإنسـان أن لا يعلق نفسه بالسبب ، بل يعلقها بالله.

فالموظف الذي يتعلق قلبه بمرتبه تعلقاً كـاملاً، مـع الغفلـة عن المسبب، وهو الله، قد وقع في نوع من الشـرك، أمـا إذا اعتقـد أن المـرتب سـبب والمسـبب هـو اللـه ــ سـبحانه وتعـالى ــ ، وجعـل الاعتمـاد على اللـه، وهـو يشـعر أن المـرتب سـبب؛ فهـذا لا ينـافي التوكل.

وقد كان الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم يأخـذ بالأسـباب مـع اعتماده على المسببن وهو الله ـ عز وجل ـ .

وجاء في الحديث: (من تعلق)، ولم يقل: من علق؛ لأن المتعلق بالشيء يتعلق به بقلبه وبنفسه، بحيث ينزل خوفه ورجاءه وأمله به وليس كذلك من علق.

قوله: (إذا كان المعلق من القرآن . . .) إلخ.

إذا كان المعلق من القرآن أو الأدعية المباحة والأذكار الواردة ؛ فهذه

المسألة اختلف فيها السلف رحمهم الله؛ فمنهم من رخص في ذلك لعموم قوله تعالى: (وَنُنَـزِّلُ مِنَ الْقُـرْآنِ مَـا هُـوَ شِـفَاءٌ وَرَحْمَـةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)(الاسراء: من الآية82)، ولم يذكر الوسيلة الـتي نتوصـل بها إلى الاستشفاء بهذا القرآن؛ فدل على أن كل وسيلة يتوصل بها إلى ذلك فهي جائزة، كما لو كان القرآن دواء حسياً.

ومنهم من منع ذلك وقال: لا يجوز تعليق القرآن للاستشفاء به؛ لأن الاستشـفاء بـالقرآن ورد على صـفة معينـة، وهي القـراءة بـه، بمعـنى أنـك تقـرأ على المـريض بـه؛ فلا نتجاوزهـا، فلـو جعلنـا الاستشفاء بالقرآن على صفة لم ترد؛ فمعنى ذلك أننـا فعلنـا سـبباً ليس مشروعاً [1] ، وقد نقلـه المؤلـف رحمـه اللـه عن ابن مسـعود رضي الله عنه.

ولولا الشعور النفسي بأن تعليق القـرآن سـبب للشـفاء؛ لكـان انتفاء السببية على هذه الصورة أمراً ظاهراً ؛ فإن التعليق ليس لـه علاقة بالمرض، بخلاف النفث على مكان الألم؛ فإنه يتأثر بذلك.

ولهـذا نقـول؛ الأقـرب أن يقـال: إنـه لا ينبغي أن تعلـق الآيـات للاستشفاء بهـا، لا يسـما وأن هـذا المعلـق قـد يفعـل أشـياء تنـافي قدسـية القـرآن؛ كالغيبـة مثلاً، ودخـول بيت الخلاء، وأيضـاً إذا علـق وشعر أن به شفاء استغنى به عن القراءة المشـروعة؛ فمثلاً: علـق آيـة الكرسـي على صـدره، وقـال: مـا دام أن آيـة الكرسـي على صدري فلن أقرأها، فيسـتغنى بغـير المشـروع عن المشـروع، وقـد يشـعر بالاسـتغناء عن القـراءة المشـروعة إذا كـان القـرأن على صدره.

([1] انظر : (مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد العثيمين) ، (1/58).

و (الرقى): هي التي تسمى العزائم، وخص منها الـدليل مـا خلا من الشرك؛ فقد رخص فيه رسول الله صلى الله عليـه وسـلم من العين والحمة.

و (التولة): هي شيء يصـنعونه يزعمـون أنـه يحبب المـرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته.

وإذا كان صبيا؛ فربما بـال ووصـلت الرطوبـة إلى هـذا المعلـق، وأيضاً لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه شيء.

فـالأقرب أن يقـال : إنــه لا يفعــل ، أمــا أن يصــل إلى درجــة التحريم؛ فأنا أتوقـف فيـه، لكن إذا تضـمن محظـوراً؛ فإنـه محرمـاً بسبب ذلك المحظور.

* * *

قوله: (الـتي تسـمى العـزائم). أي: في عـرف النـاس ، وعـزم عليه؛ أي: قرأ عليه، وهذه عزيمة؛ أي قراءة.

قولـه: (وخص منهـا الـدليل مـا خلا من الشـرك)، أي: الأشـياء الخالية من الشرك؛ فهي جائزة، سواء كـان ممـا ورد بلفظـه مثـل: (اللهم رب الناس ! أذهب الباس، اشـف أنت الشـافي . . .) [1] ، أو لم يـرد بلفظـه مثـل: (اللهم عافـه، اللهم اشـفه)، وإن كـان فيهـا شرك؛ فإنها غير جائزة ، مثل: (يا جني ! أنقـده ، ويـا فلان الميت ! اشفه)، ونحو ذلك.

قوله: (من العين والحمة)، سـبق تعريفهمـا في بـاب من حقـق التوحيد دخل الجنة.

---

[1] البخـاري: كتـاب المرضـى/بـاب دعـاء العائد للمـريض، ومسـلم: كتـاب السـلام/بـاب اسـتحباب رقية المريض.

وظاهر كلام المؤلـف أن الـدليل يـرخص بجـواز القـراءة إلا في هذين الأمرين: (العين، والحمة)، لكن ورد بغيرهما؛ فقد كـان النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ينفخ على يديـه عنـد منامـه بـالمعوذات، ويمسح بهما مـا اسـتطاع من جسـده [1] ، وهـذا من الرقيـة، وليس عيباً ولا حمة.

ولهـذا يـرى بعض أهـل العلم الـترخيص في الرقيـة من القـرآن للعين والحمة وغيرهما عام، ويقول: إن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا رقية إلا من عين أو حمـة)؛ أي: لا اسـترقاء إلا من عين أو حمة ، والاسترقاء: طلب الرقيـة؛ فالمصـيب بـالعين ــ وهـو (العائن) ـ يطلب منه أن يقرأ على المعيون.

وكذلك الحمة يطلب الإنسان من غيره أن يقرأ عليه؛ لأنه مفيـد كما في حديث أبي سعيد في قصة السرية [2] .

* شروط جواز الرقية :

الأول: أن لا يعتقد أنها تنفع بذاتها دون الله، فإن اعتقد أنها تنفع بذاتها من دون الله؛ فهو محرم، بل شرك، بـل يعتقـد أنهـا سـبب لا تنفع إلا بإذن الله.

الثاني: أن لا تكون مما يخالف الشرع ؛ كمـا إذا كـانت متضـمنة دعاء غير الله، أو استغاثة بالجن، وما أشبه ذلك؛ فإنها محرمـة، بـل شرك.

الثــالث: أن تكــون مفهومــة معلومــة، فــإن كــانت من جنس الطلاسم

وروي أحمد عن رويفع؛ قـال: قـال لي رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسلم : (يا رويفع ! لعل الحياة ستطول بك؛ فـأخبر النـاس أن من عقد لحيته، أو تقلد وتراً، أو استنجى برجيع دابــة أو عظم؛ فــإن محمداً بري منه) [1]

---

[1] البخاري: كتاب فضائل القرآن / بـاب فضل المعـوذات ، ومسـلم: كتـاب السـلام/بـاب رقية المـريض بالمعوذات والنفث.

[2] سق (ص 87).

[1] مسند الإمام أحمد (4/108 ، 109).

والشعوذة؛ فإنها لا تجوز.

أما بالنسبة للتمائم؛ فإن كـانت من أمـر محـرم، أو اعتقـد أنهـا نافعة لذاتها، أو كانت بكتابة لا تفهم؛ فإنها لا تجوز بكل حال.

وإن تمت فيها الشروط الثلاثة السـابقة في الرقيـة؛ فـإن أهـل العلم اختلفوا فيها كما سبق.

*   *   *

قوله: (من عقد لحيتـه)، اللحيـة عنـد العـرب كـانت لا تقص ولا تحلق، كما أن ذلك هو السنة، لكنهم كانوا يعقدون لحاهم لأسباب:

منها: الافتخار والعظمة، فتجد أحدهم يعقد أطرافهـا، أو يعقـدها من الوسـط عقـدة واحـدة ليعلم أنـه رجـل عظيم، وأنـه سـيد في قومه.

الثـاني: الخـوف من العين؛ لأنهـا إذا كـانت حسـنة وجميلـة ثم عقدت أصبحت قبيحة، فمن عقدها لذلك؛ فإن الرسـول صـلى اللـه عليه وسلم بريء منه.

وبعض العامـة إذا جـاءهم طعـام من السـوق أخـذوا شـيئاً منـه يرمونه في الأرض؛ دفعاً للعين، وهذا اعتقاد فاسـد ومخـالف لقـول النبي صلى الله عليه وسلم:

وعن سعيد بن جبير؛ قال : (من قطـع تميمـة من إنسـان؛ كـان كعدل رقبة) . رواه وكيع [1].

(إذا سقطت لقمة أحدكم؛ فليمط ما بها من الأذى، وليأكلها) [2]

.

قولـه: (أو تقلـد وتـراً) ، الـوتر : سـلك من العصـب يؤخـذ من الشاة، وتتخذ للقوس وتراً، ويستعملونها في أعنـاق إبلهم أو خيلهم، أو في أعناقهم، يزعمون أنه يمنع العين، وهذا من الشرك.

---

[1] مصنف ابن أبي شيبة: كتاب الطب/ باب في تعليق التمائم والرقى.

[2] مسلم: كتاب الأشربة/ باب استحباب لعق الأيادي والقصعة.

قوله: (أو استنجى برجيع دابة) ، الاستنجاء: مأخوذ من النجو، وهو إزالة أثر الخارج من السبيلين؛ لأن الإنسان الذي يتمسح بعد الخلاء يزيل أثره.

ورجيع الدابة: هو روثها.

قوله: (أو عظم). العظم معروف، وإنما تبرأ النبي صلى الله عليه وسلم ممن استنجى بهما؛ لأن الروث علف بهائم الجن والعظم طعامهم، يجدونه أوفر ما يكون لحماً.

وكل ذنب قرن بالبراءة من فاعله؛ فهو من كبائر الذنوب، كما هو معروف عند أهل العلم.

الشاهد من هذا الحديث قوله: (من تقلد وتراً).

* * *

- قوله: وعن سعيد بن جبير؛ قال: (من قطع تميمة . . .) الحديث.

قوله : (كعدل رقية) بفتح العين لأنه من غير الجنس، والمعادلة من الجنس

وله عن إبراهيم ؛ قال : (كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن) [1] .

بكسر العين، ووجه المشابهة بين قطع التميمة وعتق الرقبة: أنه إذا قطع التميمة من إنسان؛ فكأنه أعتقه من الشرك، ففكه من النار ، ولكن يقطعها بالتي هي أحسن؛ لأن العنف يؤدي إلى المشاحنة والشقاق، إلا إن كان ذا شأن كالأمير، والقاضي، ونحوه ممن له سلطة؛ فله أن يقطعها مباشرة.

* * *

قوله: (كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن)، وقد سبق أن هذا رأي ابن مسعود رضي الله عنه؛ فأصحابه يرون ما يراه.

قوله: (وله عن إبراهيم)، وهو إبراهيم النخعي.

---

[1] مصنف ابن أبي شيبة: كتاب الطب/ باب في تعليق التمائم والرقى.

قوله: (كانوا)، الضمير يعود إلى أصحاب ابن مسـعود ؛ لأهم هم قرناء إبراهيم النخعي.

قوله: (التمائم)، هي ما يعلق على المـريض أو الصـحيح/ سـواء من القـرآن أو غـيره للاستشـفاء أو لاتقـاء العين، أو مـا يعلـق على الحيوانات.

وفي هذا الوقت أصبح تعليق القرآن لا للاستشفاء ، بـل لمجـرد التبرك والزينة؛ كالقلائـد الذهبيـة، أو الحلي الـتي يكتب عليهـا لفـظ الجلالة، أو آية الكرسي، أو القرآن كاملاً ؛ فهذا كله من البدع.

* فيه مسائل :

الأولى: تفسير الرقى والتمائم. الثانية: تفسير التولة. الثالثـة: أن هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء.

فالقرآن ما نزل ليستشفى به على هذا الوجـه، إنمـا يستشـفى به على ما جاء به الشرع.

*   *   *

* قوله: الأولى : تفسير الرقى والتمائم، وقد سبق ذلك.

* الثانية: تفسير التولـة، وقـد سـبق ذلـك، وعنـدي أن منهـا مـا يسمى بالدبلة إن اعتقدوا أنها صلة بين المرء وزوجته.

- الثالثة: أن هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء، ظاهر كلامه حتى القرى، وهذا فيه نظر؛ لأن الــرقى ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنـه يـرقي ويـرقى [1] ، ولكنـه لا يسـتوقي؛ أي: لا يطلب الرقيـة؛ فإطلاقهـا بالنسـبة للرقى فيه نظر، وقـد سـبق للمؤلـف رحمـه اللـه أن الـدليل خص منها مـا خلا من الشـرك، وبالنسـبة للتمـائم، فعلى رأي الجمهور فيه نظر أيضاً.

---

(1) (ص 91) .

وأمـا على رأي ابن مسـعود؛ فصـحيح، وبالنسـبة للتولـة؛ فهي شرك بدون استثناء.

الرابعـة: أن الرقيـة بـالكلام الحـق من العين والحمـة ليس من ذلك . الخامسـة: أن التميمـة إذا كـانت من القـرآن؛ فقـد اختلـف العلماء؛ هل هي من ذلك أم لا ؟ السادسـة: أن تعليـق الأوتـار على الدواب عن العين من ذلك.

---

* الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين أو الحمة ليس من ذلك.

قوله : (الكلام الحق) ، ضده الباطل ، وكذا المجهـول الـذي لا يعلم أنه حق أو باطل .

و المؤلـف رحمـه اللـه تعـالى خصـص العين أو الحمـة فقـط استنادا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لا رقية إلا من عين أو حمة) [1] ، ولكن الصحيح أنه يشمل غيرهما ؛ كالسحر .

* الخامسـة : أن التميمـة إذا كـانت من القـرآن ؛ فقـد اختلـف العلماء : هـل هي من ذلـك أم لا ؟ قولـه : (ذلـك) المشـار إليـه : التمائم المحرمة .

وقد سبق بيان هذا الخلاف [2]،و الأحـوط مـذهب ابن مسـعود ؛ لأن الأصل عدم المشروعية حتى يتبين ذلك من السنة .

السادسة : أن تعليق الأوتار على الـدواب عن العين من ذلـك ، أي : من الشرك .

السابعة : الوعيد الشديد على من تعلق وتـرا . الثامنـة : فضـل ثواب من قطع تميمة من إنسان

---

(1) (ص94) .

(2) انظر : (ص174) .

* (تنبيه) :

ظهــر في الأســواق في الآونــة الأخــيرة حلقــة من النحــاس يقولون : إنها تنفع من الروماتيزم ، يزعمون أن الإنسان إذا وضـعها على عضده وفيه رومـاتيزم نفعتـه من هـذا الرومـاتيزم ، ولا نـدري هل هذا صحيح أم لا ؟ لكن الأصل أنه ليس بصحيح لأنه ليس عنــدنا دليل شرعي ولا حسي يدل على ذلك ، وهي لا تــؤثر على الجســم؛ فليس فيها مادة دهنية حتى نقول: إن الجسم يشرب هذه المـادة و ينتفع بها؛ فالأصل أنها ممنوعة حـتى يثبت لنـا بـدليل صـحيح صـريح واضح أن لها اتصالا مباشرا بهذا الروماتيزم حتى ينتفع بها .

* السابعة : الوعيد الشديد على من تعلق وتـرا ، وذلـك لـبراءة الرسول صلى الله عليه وسلم ممن تعلـق وتـبراً ، بـل ظـاهره أنـه كفـر مخـرج من الملـة، قـال تعـالى: (وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُـولِهِ إِلَى النَّاسِ يَـوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَـرِ أَنَّ اللَّهَ بَـرِيءٌ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ وَرَسُــولُهُ) (التوبة: من الآي3)، لكن قال أهل العلم: إن البراءة هنـا بـراءة من هذا الفعل؛ كقوله صلى الله عليه وسـلم : (من غشــنا؛ فليس منـا) [1] .

- الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان، لقول سـعيد بن جبـير: (كـان كعـدل رقبـة)، ولكن هـل قولـه حجة أو لا ؟

إن قيل: ليس بحجـة؛ فكيـف يقـول المؤلـف: فضـل ثـواب من قطع تميمة

التاسعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف مـا تقـدم من الاختلاف؛ لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود.

من إنسان ؟ !

فيقال: إنه إنما كان كذلك؛ لأنه إنقـاذ لـه من رق الشـرك؛ فهـو كمن أعتقه، بل أبلغ.

---

(1) مسلم: كتاب الإيمان/ باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من غشنا فليس منا).

فهو من باب القياس، فمن أنقذ نفساً من الشرك؛ فهو كمن أنقذها من الرق لأنه أنقذه من رق الشيطان والهوى.

* فائدة :

إذا قال التابعي: من السنة كذا ؛ فهل يعتبر موقوفاً متصلاً ويكون المراد من السنة أي سنة الصحابة، أو يكون مرفوعاً مرسلاً.

وتقدم لنا أنه ينبغي أن يفصل في هذا، وإن التابعي إذا قاله محتجاً به؛ فإنه يكون مرفوعاً مرسلاً، أما إذا قاله في سياق غير الاحتجاج؛ فهذا قد يقال: إنه من باب الموقوف الذي ينسب إلى الصحابي.

* التاسعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف؛ لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود، وليس مراده الصحابة، ولا التابعين عموماً.

* * *

باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما

قوله: (تبرك)، تفعل من البركة، والبركة: هي كثرة الخير وثبوته، وهي مأخوذة من البركة بالكسر، والبركة: مجمع الماء، ومجمع الماء يتميز عن مجرى الماء بأمرين:

1 – الكثرة.

2 – الثبوت.

والتبرك طلب البركة، وطلب البركة لا يخلو من أمرين:

1 – أن يكون التبرك بأمر شرعي معلوم؛ مثل القرآن، قال تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ)(صّ: من الآية29) ، فمن بركته أن من أخذ به حصل له الفتح، فأنقذ الله بذلك أمماً كثيرة من

الشرك، ومن بركته أن الحرف الواحد بعشـر حسـنات، وهـذا يـوفر للإنسان الوقت والجهد، إلى غير ذلك من بركاته الكثيرة.

2 – أن يكـون بـأمر حسـي معلـوم؛ مثـل: التعليم، والـدعاء، ونحوه؛ فهذا الرجل يتـبرك بعلمـه ودعوتـه إلى الخـير؛ فيكـون هـذا بركة لأننا نلنا منه خيراً كثيراً.

وقال أسيد بن خضير: (ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر) [1] ؛ فإن الله يجري على بعض الناس من أمور الخـير مـا لا يجريـه على يد الآخر.

وهناك بركات موهومة باطلـة؛ مثـل مـا يزعمـه الـدجالون : أن فلاناً الميـت

الذي يزعمون أنه ولي أنزل عليكم من بركتـه ومـا أشـبه ذلـك؛ فهذه بركة باطلـة، لا أثـر لهـا ، وقـد يكـون للشـيطان أثـر في هـذا الأمر، لكنها لا تعدو أن تكون آثاراً حسية، بحيث إن الشيطان يخــدم هذا الشيخ؛ فيكون في ذلك فتنه.

أما كيفية معرفة هـل هـذه من البركـات الباطلـة أو الصـحيحة؛ فيعـرف ذلـك بحـال الشـخص، فـإن كـان من أوليـاء اللـه المتقين المتبعين للسنة المبتعدين عن البدعة؛ فإن الله قد يجعل على يديـه من الخير والبركة ما لا يحصل لغيره.

ومن ذلك مـا جعـل اللـه على يـد شـيخ الإسـلام ابن تيميـه من البركة التي انتفع بها الناس في حياته وبعد موته.

أما إن كان مخالفـاً للكتـاب والسـنة، أو يـدعو إلى باطـل؛ فـإن بركته موهومـة، وقـد تضـعها الشـياطين لـه مسـاعدة على باطلـه، وذلك مثل ما يحصل لبعضهم أنه يقف مع الناس في عرفة ثم يـأتي إلى بلده ويضحي مع أهل بلده.

---

(1) البخاري: كتاب فضائل الصحابة / باب قوله صلى الله عليه وسلم : (لو كنت متخذاً خليلاً)، ومسلم: كتاب الحيض/ باب التيمم.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه: إن الشياطين تحملهم لكي يغتر بهم الناس، وهؤلاء وقع منهم مخالفات، منها: عدم إتمام الحج، ومنها أنهم يمرون بالميقات ولا يحرمون منه [1] .

قوله: (شجر)، اسم جنس؛ فيشمل أي شجرة تكون، ومن حسنات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما رأى الناس ينتابون الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان أمر بقطعها.

قوله: (وحجر)، اسم جنس يشمل أي حجر كان حتى الصخرة التي في بيت المقدس؛ فلا يتبرك بها، وكذا الحجر الأسود لا يتبرك به، وإنما يتعبد لله

وقول الله تعالى (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى) الآيات (النجم:19).

بمسحه وتقبيله؛ اتباعاً للرسول صلى الله عليه وسلم ، وبذلك تحصل بركة الثواب.

ولهذا قال عمر رضي الله عنه، (إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك؛ ما قبلتك) [1] .

فتقبيله عبادة محضة خلافاً للعامة، يظنون أن به بركة حسية، ولذلك إذا استلمه بعض هؤلاء مسح على جميع بدنه تبركاً بذلك.

قوله: (ونحوهما)، أي: من البيوت، والقباب، والحجر؛ حتى حجرة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فلا يتمسح بها تبركاً، لكن لو مسح الحديد لينظر هل هو أملس أو لا ؛ فلا باس ، إلا إن خشي أن يقتدي به ؛ فلا يمسحه.

* * *

قوله : (أفرأيتم اللات والعزى) ، لما ذكر الله ـ عز وجل ـ المعراج بقوله: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . . .) (النجم:1 ـ 2)، قال: (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) (النجم:18)؛ أي رأى النبي صلى الله عليه وسلم من آيات الله الكبرى. وقد

---

[1] (مجموع الفتاوى) (1/83).

[1] سبق (171) .

اختلف العلماء في قوله: (الكـبرى): هـل هي مفعـول لــ (رأى) ، أو صفة لـ (آيات) ؟

وقوله: (الكبرى) قيل: إنهـا مفعـول لــ (رأى) ، والتقـدير : لقـد رأى من آيات الله الكبرى.

فعلى الأول: يكون المعنى: أنه رأى الكبرى من الآيات.

وعلى الثاني: يكون المعنى: أنه رأى بعض الآيات الكبرى ، وهذا هو الصحيح، أن الكبرى صفة لـ (آيات) ، وليست مفعولاً لـــ (رأى) ؛ إذ إن ما رآه ليس أكبر آيات الله.

وبعد أن ذكر الله ما رأى النبي صلى الله عليه وسـلم من هـذه الآيات؛ قال: (أفرأيتم اللات والعـزى * ومنـاة الثالثـة الأخـرى)؛ أي: أخبروني ما شأنها، وما حالها بالنسبة إلى هذه الآيات العظيمة، إنهـا ليست بشيء.

والاستفهام : للاستخفاف والاستهجان بهذه الأصنام.

قوله: (اللات)، تقرأ بتشديد التاء وتخفيفها، والتشديد قراءة ابن عباس؛ فعلى قراءة التشديد تكون اسم فاعل من اللت، وكان هـذا الصنم أصله رجـل يلت السـويق للحجـاج؛ أي: يجعـل فيـه السـمن، ويطعمه الحجاج، فلما مات عكفوا على قبره وجعلوه صنماً.

وأما على قراءة التخفيف؛ فـإن اللات مشـتقة من اللـه، أو من الإلـه ؛ فهم اشـتقوا من أسـماء اللـه اسـماً لهـذا الصـنم، وسـموه اللات ، وهي لأهل الطائف ومن حولهم من العرب.

وقوله: (العزى)، مؤنث أعز ، وهو صنم يعبده قريش وبنو كنانة مشتق من اسم الله العزيز كان بنخلة بين مكة والطائف.

قوله: (ومناة)، قيل: مشتقة من المنان، وقيل: من منى؛ لكثرة ما يمنى عنده من الدماء بمعنى يراق، ومنه سميت منى؛ لكثرة مـا يراق فيها من الدماء.

وكان هذا الصنم بين مكة والمدينة لهذيل وخزاعة، وكان الأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج.

قولــه: (الثالثــة الأخــرى)، إشــارة إلى أن الــتي تعظمونهــا ، وتذبحون

عندها، وتكثر إراقة الدماء حولهـا: أنهـا أخـرى بمعـنى متـأخرة؛ أي: ذميمة حقيرة: مأخوذة من قولهم: فلان أخر؛ أي: ذميم ، حقير، متأخر.

فهذه الأصنام الثلاثة المعبودة عند العرب ما حالها بالنسـبة لمـا رأى النبي صلى الله عليه وسلم ؟

لا شي ، وإنمـا ذكـر هـذه الأصـنام الثلاثـة لأنهـا أشـهر الأصـنام وأعظمها عند العرب.

قوله: (الأيات)، أي: أكمل الآيات بعدها.

قوله: (ألكم الذكر وله الأنثى)، هذا أيضاً اسـتفهام إنكـاري على المشركين الـذين يجعلـون للـه البنـات ولهم البـنين، فـإذا ولـد لهم الذكر فرحوا واستبشروا به، وإذا ولـدت الأنـثى ظـل وجـه الإنسـان منهم مسوداً، وهو كظيم، ومـع ذلـك يقولـون: الملائكـة بنـات اللـه؛ فيجعلون البنات لله ـ والعياذ بالله ـ ولهم ما يشتهون.

قوله: (تلك إذاً قسمة ضيزى)، ضيزى: جـائرة؛ لأنـه على الأقـل إذا أردتم القسمة؛ فاجعلوا لكم من البنات نصـيباً، واجعلـوا للـه من البـنين نصـيباً أمـا أن تجعلـوا مـا تختارونـه لأنفسـكم، وهم البنـون، وتجعلون ما تكرهون لله؛ فهذه قسمة جائرة.

قوله: (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآبـاؤكم مـا أنـزل اللـه بها من سـلطان)، الضـمير في (هي) يعـود إلى الأصـنام ؛ أي: هـذه الأصنام (اللات والعزى ومناة) التي سميتموها آلهة واتخذتموها آلهة تعبدونها هي مجرد أسماء سـميتموها، ولكن مـا أنـزل اللـه بهـا من سلطان؛ أي: من حجة ودليل.

بل أبطلها الله ـ سبحانه ـ ، قال تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَـقُّ وَأَنَّ مَـا يَـدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ هُـوَ الْبَاطِـلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُـوَ الْعَلِيُّ الْكَبِـيرُ) (الحج:62).

وأصل السلطان في اللغة العربية: ما به سلطة، فإن كان في مقام العلم؛ فهو العلم، وإن كان في مقام القدوة؛ فهو القدوة، وإن كان في مقام الأمر والنهي؛ فهو من له الأمر والنهي؛ فمثلاً قوله تعالى (لا تنفذون إلا بسلطان)(الرحمن:33) ؛ أي: بقدرة وقوة، ومثل قوله تعالى: (ما أنزل الله بها من سلطان)(النجم: 23)؛أي:من حجة وبرهان.

وفي الحديث (السلطان ولي من لا ولي له) [1] ؛ أي: من له الأمر والنهي.

قوله: (إن يتبعون إلا الظن) ، (إن)هنا بمعنى ما ، وعلامة إن التي بمعنى ما أن تأتي بعدها إلا، قال تعالى: (إن هذا إلا ملك كريم)(يوسف:31)، يعني ما هذا إلا ملك كريم، وقال تعالى (إن هذا إلا قول البشر)(المدثر:25)؛ أي: ما هو إلا قول البشر، وقال تعالى : (إن يتبعون إلا الظن)(النجم: 23)؛ أي: ما يتبعون إلا الظن.

والظن الذي يتبعونه هو أنها آلهة، وأن لله البنات ولهم البنون، والظن لا يغني من الحق شيئاً ؛ كما قال تعالى في آية أخرى.

قوله: (وما تهوى الأنفس)، كذلك أيضاَ يتبعون ما تهوى الأنفس، وهذا أضر شيء على الإنسان أن يتبع ما تهوى؛ فالإنسان الذي يعبد الله بالهوى؛ فإنه لا يعبد الله حقاً، إنما يعبد عقله وهواه، قال تعالى : (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)(الجاثية: من الآية23)، لكن الذي يعبد الله

وعن أبي واقد الليثي؛ قال: (خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا :

---

[1] مسند الإمام أحمد (1/47) وسنن أبي داود: كتاب النكاح/ باب في الولي، 2/568 ــ وسكت عنه ــ ، والترمزي: كتاب النكاح / باب لا نكاح إلا بولي ، رقم 1102 ـ وقال : (حديث حسن) ـ .

بالهدى لا بالهوى هو الذي على الحق.

قوله:(ولقد جاءهم من ربهم الهـدى)، أي:على يـد النـبي صـلى الله عليه وسلم ؛ فكان الأجدر بهم أن يتبعوا الهدى دون الهوى.

الأجدر بهم أن يتبعوا الهدى دون الهوى.

* مناسبة الآية للترجمة:

أنهم يعتقدون أن هـذه الأصـنام تنفعهم وتضـرهم، ولهـذا يـأتون إليها؛ يدعونها، ويذبحون لها، ويتقربون إليها، وقـد يبتلي اللـه المـرء فيحصل له ما يريد من اندفاع ضر أو جلب نفع بهـذا الشـرك؛ ابتلاء من الله وامتحاناً، وهذا قد تقدم لنا لـه نظـائر أن اللـه يبتلي المـرء بتيسير أسباب المعصية له حتى يعلم سبحانه من يخافه بالغيب.

*   *   *

قوله: (خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم) ، أي: بعد غـزوة الفتح؛ لأن النبي صلى اللـه عليـه وسـلم لمـا فتح مكـة تجمعت لـه ثقيف وهوازن بجمع عظيم كثير جداً.

فقصدهم صلى الله عليه وسلم ومعه اثنا عشر ألفاً: ألفـان من أهل مكة، وعشـرة آلاف جـاء بهم من المدينـة، فلمـا توجهـوا بهـذه الكثرة العظيمة؛ قالوا: لن نغلب اليوم من قلـة. فـأعجبوا بكـثرتهم، ولكن بين اللـه أن النصـر من عنـده سـبحانه وليس بـالكثرة، قـال تعالى: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ

يـا رسـول اللـه ! اجعـل لنـا ذات أنـواط كمـا لهم ذات أنـواط . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الله أكبر ! إنهـا السـنن ! قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اجْعَلْ لَنَـا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)(لأعراف: من الآية138) . لتركبن سنن من كان من قبلكم) . رواه الترمزي وصححه [1] .

كَثْـــرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَـــيْئاً وَضَـــاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَـــا رَحُبَتْ . . .) الآيتين (التوبـة:25)، ثم لمـا انحـدروا من وادي حـنين وجدوا أن المشركين قد كمنوا لهم في الوادي؛ فحصـل مـا حصـل،

---

[1] مسند الإمام أحمد (5/218)، والترمذي: أبواب الفتن/ باب ما جاء: (لتركبن سنن من كـان قبلكم) ، 6/343 ـ وقال (حسن صحيح).

وتفرق المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبـق معه إلا نحو مئة رجل، وفي آخر الأمر كان النصر للنـبي صـلى اللـه عليه وسلم ، والحمد لله.

قوله: (حدثاء)، جمع حديث ؛ أي: أننـا قريبـو عهـد بكفـر، وإنمـا ذكـر ذلـك رضـي اللـه عنـه للاعتـذار لطلبهم وسـؤالهم ، ولـو وقـر الإيمان في قلوبهم لم يسألوا هذا السؤال.

قوله: (يعكفون عندها)، أي: يقيمون عليهـا، والعكـوف: ملازمـة الشيء، ومنه قوله تعـالى: (وأنتم عـاكفون في المسـاجد)(البقـرة: 187).

قوله: (ينوطون)، أي: يعلقون بها أسلحتهم تبركاً.

قوله: (يقال: لها ذات أنـواط)، أي: أنهـا تلقب بهـذا اللقب لأنـه تناط فيها الأسلحة، وتعلق عليها رجاء بركتها؛ فالصحابة رضـي اللـه عنهم قالوا للنبي

صلى الله عليـه وسـلم : (اجعـل لنـا ذات أنـواط كمـا لهم ذات أنواط)؛ أي: سدرة نعلق أسلحتنا عليها تبركاً بها؛ فقال النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم : (اللـه أكـبر) ، كـبر تعظيمـاً لهـذا الطلب؛ أي: استعظاماً له، وتعجباً لا فرحاً به، كيف يقولون هذا القول وهم آمنوا بأنه لا إله إلا الله ؟ !

لكن: (إنها السنن)؛ أي: الطرق التي يسلكها العباد.

قوله: (قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (اجعل لنا إلهـاً كمـا لهم آلهـة) ، أي: إن الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم قاس مـا قالـه الصـحابة رضـي اللـه عنهم على مـا قالـه بنـو إسرائل لموسـى حين قـالوا: اجعـل لنـا إلهـاً كمـا لهم آلهـة؛ فـأنتم طلبتم ذات أنواط كما أن لهؤلاء المشركين ذات أنواط.

وقوله عليه الصلاة والسـلام: (والـذي نفسـي بيـده)، المـراد ان نفسه بيد الله، لا من جهـة إماتتهـا وإحيائهـا فحسـب؛ بـل من جهـة

تدبيرها وتصريفها أيضاً، ما من دابة إلا هو آخــذ بناصــيتها ــ ســبحانه وتعالى ـ .

قوله: (لتركبن سنن من كان قبلكم) ، أي: لتفعلن مثل فعلهم، ولتقولن مثل قولهم، وهذه الجملة لا يراد بها الإقرار، وإنما يراد بهـا التحذير؛ لأنه من المعلوم أن سنن من كان قبلنا مما جـرى تشـبيهه سنن ضالة، حيث طلبـوا آلهـة مـع اللـه؛ فـأراد النـبي عليـه الصـلاة والسلام أن يحذر أمته أن تـركب سـنن من كـان قبلهـا من الضـلال والغي.

والشاهد من هذا الحديث قولهم: (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط)؛ فأنكر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم .

* * *

* فيه مسائل :

الأولى : تفسير آيـة النجم. الثانيـة: معرفـة صـورة الأمـر الـذي طلبوا. الثالثة: كونهم لم يفعلوا. الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك؛ لظنهم أنه يحبه.

فيه مسائل:

* الأولى : تفسير آية النجم، أي: قولـه تعـالى : (أفـرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الـذكر ولـه الأنـثى * تلـك إذاً قسمة ضيزى * إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآبـاؤكم مـا أنـزل الله بها من سلطان . . .) الآيـة، وسـبق تفسـيرها، وأن اللـه تعـالى أنكــر على هــؤلاء الــذين يعبــدون اللات والعــزى، وأتى بصــيغة الاستفهام الدالة على التحقير والتصغير لهذه الأصنام.

* الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا ، وهو أنهم طلبــوا من النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم أن يجعـل لهم ذات أنـواط كمـا أن للمشركين ذات أنواط، وهم إنما أرادوا أن يتبركوا بهذه الشــجرة لا أن يعبدوها؛ فدل ذلـك على أن التـبرك بالأشـجار ممنـوع، وأن هـذا من سنن الضالين السابقين من الأمم.

* الثالة: كونهم لم يفعلوا، أي: لم يعلقوا أنواطاً على الشــجرة، ويطلبون من الرسول صلى الله عليـه وسـلم أن يقـرهم على هـذا

العمل، بل طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم ذلك.

* الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه، (بذلك)؛ أي: بتعليق الأسلحة ونحوها على الشجرة التي يعينها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولهذا

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا؛ فغيرهم أولى بالجهل. السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم. السابعة: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعذرهم، بل رد عليهم بقوله: (الله أكبر ! إنها السنن ! لتتبعن سنن من كان قبلكم)؛ فغلظ الأمر بهذه الثلاث.

طلبوا ذلك من الرسول لتكتسب بهذا معنى العبادة.

* الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا؛ فغيرهم أولى بالجهل، لأن الصحابة لا شك أعلم الناس بدين الله، فإذا كان الصحابة يجهلون أن التبرك بهذا نوع من اتخاذها إلهاً؛ فغيرهم من باب أولى، وقصد المؤلف رحمه الله بهذا أن لا نغتر بعمل الناس؛ لأن عمل الناس قد يكون عن جهل؛ فالعبرة بما دل عليه الشرع لا بعمل الناس.

* السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم، وهذا معلوم من الآيات، مثل قوله تعالى : (لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى)(الحديد: من الآية10)؛ فالصحابة رضي الله عنهم لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة وأسباب المغفرة ما ليس لغيرهم، ومع ذلك لم يعذرهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الطلب.

* السابعة : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعذرهم، بل رد عليهم بقوله: (الله أكبر ! إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم)؛ فغلظ الأمر بهذه الثلاث، وهي قوله: (الله أكبر)، وقوله: (إنها السنن)، وقوله (لتركبن سنن من كان قبلكم)؛ فغلظ الأمر بهذا لأن التكبير استعظاماً للأمر الذي طلبوه، و(إنها السنن): تحذير، و(لتركبن

الثامنـة: الأمـر الكبـير ــ وهـو المقصـود ــ أنـه أخـبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى: اجعل لنا إلهـاً. التاسـعة: أن نفي هذا من معنى (لا إله إلا الله) مع دقته وخفائه على أولئك.

العاشرة: أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

سنن من قبلكم) كذلك أيضاً تحذير.

- الثامنة: الأمر الكبير وهو المقصود أنه أخبر أنه كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى: (اجعـل لنـا إلهـاً كمـا لهم آلهـة)، فهـؤلاء طلبـوا سـدرة يتـبركون بهـا كمـا يتـبرك المشركون بها ، و أولئك طلبوا إلهـا كمـا لهم آلهـة ؛ فيكـون في كلا الطلبين منافاة للتوحيد ؛ لأن التبرك بالشجر نـوع من الشرك ، واتخاذه إلها شرك واضح .
- التاسعة : أن نفي هذا من معنى : لا إله إلا الله ، مع دقته وخفائـه على أولئـك ، أي : أن التـبرك بالأشـجار و نحوها من معنى لا إله إلا الله ؛ فإن لا إلـه إلا اللـه تنفي كـل إله سوى الله ، وتنفي الأولوهية عما سوى الله ـ عز وجل ـ ؛ فكذلك البركة لا تكون من غير الله ـ سبحانه و تعالى ـ .

العاشرة : أنه حلف على الفتيا وهو لا يحلف إلا لمصـلحة ، أي : أن النبي صلى الله عليه وسلم حلف على الفتيا في قوله : (قلتم ، والذي نفسي بيده) ، و النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم لا يحلـف إلا لمصـلحة ، أو دفـع مضـرة ومفسـدة ؛ فليس ممن يحلـف على أي سبب يكون ، كما هي عادة بعض الناس .

الحادية عشرة : أن الشرك فيه أصغر و أكبر ؛ لأنهم لم يرتــدوا بهذا .

---

* الحاديـة عشـرة : أن الشـرك فيـه أصـغر و أكـبر ؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا ، حيث لم يطلبوا جعل ذات الأنواط لعبادتها ، بل للتبرك بها ، والشرك فيه أصغر وأكبر ، وفيه خفي و جلي .

فالشرك الأكبر : ما يخرج الإنسان من الملة .

والشرك الأصغر : مادون ذلك .

لكن كلمة (مادون ذلك) ليست ميزانا واضحا . ولذلك اختلف العلماء في ضابط الشرك الأصغر على قولين :

القول الأول : أن الشرك الأصغر كل شيء أطلق الشارع عليه أنه شرك ودلت النصوص على أنه ليس من الأكبر ، مثل : (من حلف بغير الله ؛ فقد أشرك) [1]؛ فالشرك هنا أصغر ؛ لأنه دلت النصوص على أن، أن مجرد الحلف بغير الله لا يخرج من الملة

القول الثاني : أن الشرك الأصغر : ما كان وسيلة للأكبر ، وإن لم يطلق الشرع عليه اسم الشرك ، مثل : أن يعتمد الإنسان على شيء كاعتماده على الله ،

لكنه لم يتخذه إلها ؛ فهذا شرك أصغر ؛ لأن هذا الاعتماد الذي يكون كاعتماده على الله يؤدي به في النهاية إلى الشرك الأكبر ، وهذا التعريف أوسع من الأول ؛ لأن الأول يمنع أن تطلق على شيء أنه شرك إلا إذا كان لديك

....

دليل ، و الثاني يجعل كل ما كان وسيلة للشرك فهو شرك ، وربما نقول على هذا التعريف : إن المعاصي كلها شرك أصغر ؛ لأن الحامل عليها الهوى ، وقد قال تعالى:(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)(الجاثية: من الآية23)، ولهذا أطلق النبي صلى الله عليه وسلم الشرك على تارك الصلاة ، مع أنه لم يشرك ؛ فقال : (بين الرجل وبين الشرك و الكفر : ترك الصلاة)[1] .

فالحاصل أن المؤلف رحمه الله يقول : إن الشرك فيه أكبر وأصغر ؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا ، وسبق وجه ذلك .

---

[1] مسند الإمام أحمد (2/125) ، وسنن أبي داود : كتاب الأيمان / باب من كراهية الحلف بالآباء ـ وسكت عنه ـ ، و الترمذي : النذور / باب كراهية الحلف بغير الله تعالى ـوحسنه ـ.

[1] مسلم : كتاب الإيمان / باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة .

الجلي و الخفي ؛ فبعضهم قال : إن الجلي و الخفي هو الأكبر و الأصغر ، وبعضهم قال : الجلي ما ظهر للناس من أصغر أو أكبر ؛ كالحلف بغير الله ، والسجود للصنم .

والخفي : مالا يعلمه الناس من أصغر أو أكبر ؛ كالرياء ، واعتقاد أن مع الله إله آخر .

وقد يقال : إن الجلي ما انجلى أمره وظهر كونه شركا ؛ ولو كان أصغر ، و الخفي : ما سوى ذلك .

وأيهما الذي لا يغفر ؟

قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله : إن الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر ؛ لعموم قوله : (إن الله لا يغفر أن يشرك به) (النساء 116) ، (وأن يشرك به) مؤول بمصدر تقديره : شركا به ، وهو نكرة في سياق النفي ؛ فيفيد العموم

الثانية عشرة : قولهم : (ونحن حدثاء عهد بكفر) ؛ فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك . الثالثة عشرة : التكبير عند التعجب ؛ خلافا لمن كرهه .

وقال بعض العلماء : لأن الشرك الأصغر داخل تحت المشيئة ، وإن المراد بقوله : (أن الشرك به) الشرك الأكبر ، وأما الشرك الأصغر ؛ فإنه يغفر لأنه لا يخرج من الملة ، وكل ذنب لا يخرج من الملة ؛ فإنه تحت المشيئة ، وعلى كل ؛ فصاحب الشرك الأصغر على خطر، وهو أكبرمن كبائر الذنوب ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : (لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا)[1].

* الثالثة عشرة : قوله : (ونحن حدثاء عهد بكفر ...)، معناه : أنه يعتذر عما طلبوا ، حيث طلبوا أن يجعل لهم ذات أنواط ؛ فهم يعتذرون لجهلهم بكونهم حدثاء عهد بكفر ، و أما غيرهم ممن سبق إسلامه ؛ فلا يجهل ذلك .

وعلى هذا ؛ فنقول : إنه ينبغي للإنسان أن يقدم العذر عن قوله أو فعله حتى لا يعرض نفسه إلى القول أو الظن بما ليس فيه ، ويدل لذلك حديث صفية حين شيعها الرسول صلى الله عليه

---

[1] تقدم (ص163).

وسلم وهو معتكف ، فمر رجلان من الأنصار ، فقال : (إنها صفية بنت حيي)[2] .

• الثالثة عشرة : التكبير عند التعجب ... إلخ تؤخذ من قوله : (الله أكبر)؛ أي : الله أكبر و أعظم من أن يشرك به ، وفي رواية الترمذي أنه قال : (سبحان الله)؛ أي : تنزيها لله عما لا يليق به .

الرابعة عشرة : سد الذرائع . الخامسة عشرة : النهي عن التشبه بأهل الجاهلية . السادسة عشرة : الغضب عند التعليم . السابعة عشرة : القاعدة الكلية لقوله : (إنها السنن) .

• الرابعة عشرة : سد الذرائع ، الذرائع : الطرق الموصلة إلى الشيء ، وذرائع الشيء : وسائله وطرقه.

والذرائع نوعان :

أ-ذرائع إلى أمور مطلوبة ؛ فهذه لا تسد ، بل تفتح وتطلب .

ب-ذرائع إلى أمور مذمومة ؛ فهذه تسد ، وهو مراد المؤلف رحمه الله تعالى .

وذات الأنواط وسيلة إلى الشرك الأكبر ، فإذا وضعوا عليها أسلحتهم وتبركوا بها ؛ يتدرج بهم الشيطان إلى عبادتها وسؤالهم حوائجهم منها مباشرة ، فلهذا سد النبي صلى الله عليه وسلم الذرائع .

* الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية ، تؤخذ من قوله : (قلتم كما قالت بنو إسرائيل)؛ فأنكر عليهم ، وبهذا نعرف أن الجاهلية لا تختص بمن كان قبل زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، بل كل من جهل الحق وعمل عمل الجاهلين ؛ فهو من أهل الجاهلية .

---

[2] البخاري : كتاب الاعتكاف / باب هل يخرج المعتكف ، ومسلم : كتاب السلام / باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليا بامرأة ...

* السادسة عشرة : الغضب عند التعليم ، و الحديث ليس بصريح في ذلك ، وربما يؤخذ من قرائن قوله : (الله أكبر ! إنها السنن ...) ؛ لأن قوة هذا الكلام تفيد الغضب .

• السابعة عشرة : القاعدة الكلية لقوله : (إنها السنن) ، أي : الطرق ، وأن

الثامنة عشرة : أن هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر.

هذه الأمة ستتبع طرق من كان قبلها ، وهذا لا يعني الحل و الإباحة ، ولكنه للتحذير ؛ كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (ستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار ؛ إلا واحدة)[1] ،وقال : (ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر و الحرير ....)[2] الحديث ، وقال : (إن الظعينة تذهب من كذا إلى كذا لا تخشى إلا الله)[3] ،وما أشبه ذلك من الأمور التي اخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن وقوعها مع تحريمها .

*الثامنة عشرة : أن هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر ، يعني اتباع سنن من كان قبلنا .

فإن قال قائل : إن النبي صلى الله عليه وسلم قد خطب الناس بعرفة ، و قال: (إن الشيطان قد أيس ان يعبده المصلون في جزيرة العرب)[4] ؛ فكيف تقع عبادته .

فالجواب : أن إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بيأسه لا يدل على عدم الوقوع ، بل يجوز أن يقع ، على خلاف ما توقعه الشيطان ؛ لأن الشيطان لما حصلت الفتوحات ، وقوي الإسلام ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ؛ يئس أن يعبد سوى الله في هذه الجزيرة ، ولكن حكمة الله تأبى إلا أن يكون ذلك ، وهذا نقوله

---

[1] تقدم (ص31) .

[2] البخاري تعليقا : كتاب الأشربة /باب فيمن يستحل الخمر و يسميه بغير اسمه .

[3] البخاري : كتاب المناقب / باب علامات النبوة .

[4] مسلم : كتاب صفات المنافقين /باب تحريش الشيطان .

ولابد ؛ لئلا يقال : إن جميع الأفعال التي تقع في الجزيرة ا لعربية لا يمكن أن تكون

التاسعة عشرة : أن كل ما ذم الله به اليهود و النصارى في القرآن؛ أنه لنا.

شركا ، ومعلوم أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله جدد التوحيد في الجزيرة العربية ، وأن الناس كانوا في ذلك الوقت فيهم المشرك و غير المشرك.

فالحديث أخبر عما وقع في نفس الشيطان ذلك الوقت ، ولكنه لا يدل على عدم الوقوع ، وهذا الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (لتركبن سنن من كان قبلكم) ، وهو يخاطب الصحابة وهم في جزيرة العرب .

*التاسعة عشرة : أن ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا هذا ليس على إطلاقه و ظاهره ، بل يحمل قوله : (لنا) ؛ أي : لبعضنا ، ويكون المراد به المجموع لا الجميع ؛ كما قال العلماء في قوله تعالى : يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُ)(الأنعام: من الآية130)،و الرسل كانوا من الإنس فقط.

فإذا وقع تشبه باليهود و النصارى ؛ فإن الذم الذي يكون لهم يكون لنا ، وما من أحد من الناس غالبا إلا وفيه شبه باليهود أو النصارى ؛ فالذي يعصي الله على بصيرة فيه شبه من اليهود ، و الذي يعبد الله على ضلاله فيه شبه من النصارى ، و الذي يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فيه شبه من اليهود ، وهلم جرا .

وإن أراد أن كل ما ذم به اليهود و النصارى ؛ فهو لهذه الأمة على سبيل العموم ؛ فلا .

العشرون : أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر ، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر : أما (من ربك ؟) فواضح ،

وأمـــا (من نبيـــك ؟) ؛ فمن إخبـــاره بأنبـــاء الغيب ، وأمـــا (مـــا دينك ؟) ؛ فمن قولهم : (اجعل لنا إلها...)إلى آخره .

---

* العشـــرون : أنـــه متقـــرر عنـــدهم أن العبـــادات مبناهـــا على الأمر ... إلخ ، وهذا واضح ؛ فالعبـادات مبناهـا على الأمـر ، فمـا لم يثبت فيه أمر الشارع ؛ فهو بدعة ، قال صلى الله عليه وسلم:(من عمل عملا ليس عليه أمرنا ؛ فهو رد)[1] ، وقال : (إياكم ومحـدثات الأمور ؛ فإن كل بدعة ضلالة)[2].

فمن تعبـد بعبـادة طـولب بالـدليل ؛ لأن الأصـل في العبـادات الحظر و المنع ، إلا ما قام الدليل على مشروعيتها .

وأما الأكـل و المعـاملات و الآداب و اللبـاس و غيرهـا؛ فالأصـل فيها الإباحة؛ إلا ما قام الدليل على تحريمه .

و قوله : (مسائل القبر الـتي يسـأل فيهـا الإنسـان في قـبره : من ربك ؟ من نبيك ؟ ما دينك ؟)

ففي هذه القصة دليل على مسائل القبر الثلاث ،و ليس مـراده أن فيها دليلا

الحاديـة و العشـرون : أن سـنة أهـل الكتـاب مذمومـة كسـنة المشـركين . الثانيـة و العشـرون : ان المنتقـل من الباطـل الـذي اعتـاده قلبـه لا يـؤمن أن يكـون في قلبـه بقيـة من تلـك العـادة ؛ لقوله : (ونحن حدثاء عهد بكفر) .

على أن الإنسان يسـأل في قـبره ، بـل فيهـا دليـل على إثبـات الربوبية و النبوة و العبادة .

أما (من ربك) ؛ فواضح ، يعني أنه لا رب إلا الله تعالى .

---

[1] مسلم : كتاب الأقضية /باب نقض الأحكام الباطلة.

[2] مسند الإمام أحمد (4/126)، وسنن أبي داود : كتاب السنة /باب لزوم السنة ، 5/13، و الترمذي : العلم /باب الأخذ بالسنة ، رقم 2678-وقال : (حسن صحيح) -.

أما (من نبيك) ؛ فمن إخباره بالغيب ، قال صلى الله عليه وسلم : (لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة)[1]؛ فوقع كما أخبر .

أما (ما دينك) ؛ فمن قولهم : (اجعل لنا إلها)؛ أي : مألوها معبودا ، و العبادة هي الدين .

والمؤلف محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فهمه دقيق جدا لمعاني النصوص؛ فأحيانا يصعب على الإنسان بيان وجه استنباط المسألة من الدليل .

- الحادية و العشرون : أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين ، تؤخذ من قوله : (كما قالت بنو إسرائيل لموسى) .

* الثانية و العشرون : أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العبادة ، وهذا صحيح ؛ فالإنسان المنتقل من شيء ، سواء كان باطلا أو لا ؛ لا يؤمن ان يكون في قلبه بقية منه، وهذه البقية لا تزول إلا بعد مدة؛ لقوله: (ونحن حدثاء عهد بكفر)؛ فكأنه يقول: ما سألناه

إلا لأن عندنا بقية من بقايا الجاهلية، ولهذا كان من الحكمة تغريب الزاني بعد جلده عن مكان الجريمة؛ لئلا يعود إليها.

فالإنسان ينبغي أن يبتعد عن مواطن الكفر والشرك والفسوق؛ حتى لا يقع في قلبه شيء منها.

* * *

---

(1) تقدم (ص 192) .

باب ما جاء في الذبح لغير الله

قوله: (في الذبح)، أي: ذبح البهائم.

قوله: (لغير الله)، اللام للتعليل، والقصد: أي قاصداً بذبحه غير الله، والذبح لغير الله ينقسم إلى قسمين:

1ـ أن يذبح لغير الله تقرباً وتعظماً؛ فهذا لا يخرج من الملة، بل هو من الأمور العادية التي قد تكون مطلوبة أحياناً وغير مطلوبة أحياناً؛ فالأصل أنها مباحة.

ومراد المؤلف هنا القسم الأول.

فلو قدم السلطان إلى بلد، فذبحنا له، فإن كان تقرباً وتعظيماً؛ فإنه شرك أكبر، وتحرم هذه الذبائح، وعلامة ذلك: أننا نذبحها في وجهه ثم ندعها.

أما لو ذبحنا له إكراماً وضيافة، وطبخت وأكلت؛ فهذا من باب الإكرام، وليس بشرك.

وقوله: (لغير الله) يشمل الأنبياء، والملائكة، والأولياء، وغيرهم؛ فكل من ذبح لغير الله تقرباً وتعظماً؛ فإنـه داخـل في هـذه الكلمـة بأي شيء كان.

وقوله في الترجمة: (باب ما جـاء في الـذبح لغـير اللـه)، أشـار إلى الـدليل دون الحكم، ومثـل هـذه الترجمـة يـترجم بهـا العلمـاء للأمور التي لا يجزمون بحكمها، أو التي فيهـا تفصـيل، وأمـا الأمـور التي يجزمون بها؛ فإنهم يقولونها

وقول الله تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَـايَ وَمَمَـاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لا شَرِيكَ لَهُ) الآية (الأنعام: 162-163).

بالجزم؛ مثل بـاب وجـوب الصـلاة، وبـاب تحـريم الغيبـة، ونحـو ذلك.

والمؤلف رحمه الله تعالى لا شك أنـه يـرى تحـريم الـذبح لغـير الله على سبيل التقرب والتعظيم، وأنـه شـرك أكـبر، لكنـه أراد أن يمرن الطالب على أخـذ الحكم من الـدليل، وهـذا نـوع من التربيـة العلمية؛ فإن المعلم أو المؤلف يدع الحكم مفتوحاً، ثم يأتي بالأدلـة لأجل أن يكل الحكم إلى الطالب؛ فيحكم به على حسـب مـا سـيق له من هذه الأدلة، وقد ذكر المؤلف في هذا الباب ثلاث آيات:

* * *

الآيـة الأولى: قولـه: (قـل): الخطـاب للنـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ، أي: قـل لهـؤلاء المشـركين معلنـاً لهم قيامـك بالتوحيـد الخالص؛ لأن هذه السورة مكية.

قولـه: (إن صـلاتي)، الصـلاة في اللغـة: الـدعاء، وفي الشـرع: عبادة الله ذات أقوال وأفعـال معلومـة، مفتتحـة بـالتكبير، مختتمـة بالتسليم.

قولــه: (ونســكي)، مفتتحــة لغــة: العبــادة، وفي الشــرع: ذبح القربان.

فهـل تحمـل هـذه الآيـة على المعـنى اللغـوي أو على المعـنى الشرعي؟

سبق أن ما جاء في لسان الشرع يحمل على الحقيقة الشرعية؛ كما أن ما جاء في لسان العرف؛ فهو محمول على الحقيقة العرفية وفي لسان العرب على الحقيقة اللغوية.

فعندما أقول لشخص: عندك شاه؟ يفهم الأنثى من الضأن، لكن في اللغة العربية الشاة تطلق على الواحدة من الضأن والمعز، ذكراً كان أو أنثى،

وعلى هذا؛ فيحمل النسك في الآية على المعنى الشرعي.

وقيل: تحمل على المعنى اللغوي؛ لأنه أعم؛ فالنسك العبادة، كأنه يقول: أنا لا أدعو إلا الله، ولا أعبد إلا الله، وهذا عام للدعاء والتعبد.

وإذا حملت على المعنى الشرعي؛ صارت خاصة في نوع من العبادات، وهي: الصلاة، والنسك، ويكون هذا كمثال، فإن الصلاة أعلى العبادات البدنية، والذبح أعلى العبادات المالية؛ لأنه على سبيل التعظيم لا يقع إلا قربة، هكذا قرر شيخ الإسلام ابن تيميه في هذه المسألة.

ويحتاج إلى مناقشة في مسألة أن القربان أعلى أنواع العبادات المالية؛ فإن الزكاة لا شك أنها أعظم ، وهي عبادة مالية.

وهناك رأي ثالث يقول: إن الصلاة هي الصلاة المعروفة شرعاَ، والنسك: العبادة مطلقاً، ويكون ذلك من عطف العام على الخاص.

قوله: (محياي ومماتي)، أي: حياتي وموتي؛ أي: التصرف في وتدبير أمري حياً وميتاً لله.

وفي قوله: (صلاتي ونسكي) إثبات توحيد العبادة.

وفي قوله: (محياي ومماتي) إثبات توحيد الربوبية.

قوله: (الله)، خبر إن، والله: علم على الذات الإلهية، وأصله: الإله، فحذفت الهمزة؛ لكثرة الاستعمال تخفيفا.

وهو بمعنى مألوه؛ فهو فعال بمعنى مفعول، مثل غراس بمعنى مغروس، وفراش بمعنى مفروش ، والمألوه: المحبوب المعظم.

قوله: (رب العالمين)، والمـراد بــ (العـالمين): مـا سـوى اللـه، وسمي بذلك؛ لأنه علم على خالقه.

قال الشاعر:

فواعجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آيـــة تدل على أنه واحــد

وهي تطلق على العالمين بهذا المعـنى، وتطلـق على العـالمين في وقت معين، مثل قولـه تعـالى: (وَأَنِّي فَضَّـلْتُكُمْ عَلَى الْعَـالَمِينَ) (البقرة: من الآية47) ؛ يعني: عالمي زمانهم.

والرب هنا: المالك المتصرف، وهذه ربوبية مطلقة.

الآية الثانية: قوله: (لا شريك له)، الجملة حالية من قوله: (لله)؛ أي: حال كونه لا شريك له، والله ـ سبحانه ـ لا شريك له في عبادته ولا في ربوبيته ولا في أسمائه وصـفاته، ولهـذا قـال تعـالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)(الشورى: من الآية11).

وقد ضل من زعم أن لله شـركاء كمن عبـد الأصـنام أو عيسـى بن مـريم عليـه السـلام، وكـذلك بعض غلاة الشـعراء الـذين جعلـوا المخلوق بمنزلة الخالق؛ كقوله بعضهم يخاطب ممدوحاً له:

فكن كمن شئت يا من لا شبيه له وكيف شئت فما خلق يدانيك

وكقـول البوصـيري في قصـيدته في مـدح الرسـول صـلى اللـه عليه وسلم :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن آخذاً يوم المعاد يدي فضلاً وإلا فقل يا زلة القــدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وهـذا من أعظم الشـرك؛ لأنـه جعـل الـدنيا والآخـرة من جـود الرسول، ومقتضاه أن الله جل ذكره ليس له فيهما شيء.

وقال: إن (من علومك علم اللوح والقلم)، يعني: وليس ذلك كل علومك؛ فما بقي لله علم ولا تدبير ـ والعياذ بالله ـ .

قوله: (بذلك)، الجار والمجرور متعلق بــ (أمرت)؛ فيكون دالاً على الحصر والتخصيص، وإنما خص بذلك؛ لأنه أعظم المأمورات، وهو الإخلاص لله تعالى ونفي الشرك، فكأنه ما أمر إلا بهذا، ومعلوم أن من أخلص لله تعالى؛ فسيقوم بعبادة الله ــ سبحانه وتعالى ـ في جميع الأمور.

قوله: (أمرت)، إبهام الفاعل هنا من باب التعظيم والتفخيم، وإلا؛ فمن المعلوم أن الآمر هو الله تعالى.

قوله: (وأنا أول المسلمين)، يحتمل أن المراد الأولية الزمنية، فيتعين أن تكون أولية إضافية ويكون المراد أنا أول المسلمين من هذه الأمة؛ لأنه سبقه في الزمن من أسلموا.

ويحتمل أن المراد الأولية المعنوية؛ فإن أعظم الناس إسلاماً وأتمهم انقياداً هو الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فتكون الأولية أولية مطلقة.

ومثل هذا التعبير يقع كثيراً أن تقع الأولية أولية معنوية، مثل أن تقول: أنا أول من يصدق بهذا الشيء، وإن كان غيرك قد صدق قبلك، لكن تريد أنك أسبق الناس تصديقاً بذلك، ولن يكون عندك إنكاراً أبداً، ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : (نحن أولى بالشك من إبراهيم حينما قال : (رب أرني كيف تحيي الموتى)(البقرة: 260)ـ [1] ؛ فليس معناه أن إبراهيم شاك، لكن إن قدر أن يحصل شك؛ فنحن

وقول : (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) (الكوثر:2).

أولى بالشك منه، وإلا؛ فلسنا نحن شاكين، وكذلك إبراهيم ليس شاكاً.

قوله: (المسلمين)، الإسلام عند الإطلاق يشمل الإيمان؛ لأن المراد به الاستسلام لله ظاهراً وباطناً، ويدل لذلك قوله تعالى:

([1] البخاري : كتاب الأنبياء/باب قوله تعالى (ونبئهم عن ضيف إبراهيم)، ومسلم: كتاب الفضائل/ باب من فضائل إبراهيم عليه السلام.

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ)(البقرة: من الآية112) ، وهذا إسلام الباطن.

وقوله: (وهو محسن)، هذا إسلام الظاهر، وكذا قوله تعالى: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْأِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ)(آل عمران: من الآية 85) يشمل الإسلام الباطن والظاهر، وإذا ذكر الإيمان دخل فيه الإسلام، قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَار)(التوبة: من الآية72).

ومتى وجد الإيمان حقاً لزم من وجوده الإسلام.

واما إذا قرنا جميعاً صار الإسلام في الظاهر والإيمان في الباطن، مثل حديث جبريل، وفيه: أخبرني عن الإسلام؛ فأخبره عن أعمال ظاهرة، وأخبرني عن الإيمان؛ فأخبره عن أعمال باطنة [1] .

وكذا قوله تعالى: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)(الحجرات: من الآية 14).

والشاهد من الآية التي ذكرها المؤلف: أن الذبح لا بد أن يكن خالصاً لله. الآية الثالثة : قوله: (فصل) ، الفاء للسببية عاطفة على قوله : (إنا

أعطيناك الكوثر)(الكوثر:1)؛ أي بسبب إعطائنا لك ذلك صل لربك وانحر شكراً لله تعالى على هذه النعمة.

والمراد بالصلاة هنا الصلاة المعروفة شرعاً.

وقوله: (وانحر)، المراد بالنحر: الذبح، أي اجعل نحرك لله كما أن صلاتك له؛ فأفادت هذه الآية الكريمة أن النحر من العبادة، ولهذا أمر الله به وقرنه بالصلاة.

---

[1] البخاري: كتاب الإيمان/باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم . . . ، ومسلم : كتاب الإيمان/باب الإيمان والإسلام والإحسان.

وقوله: (وانحر)، مطلق؛ فيدخل فيه كل ما ثبت في الشرع مشروعيته، وهي ثلاثة أشياء: الأضاحي، والهدايا، والعقائق؛ فهذه الثلاثة يطلب من الإنسان أن يفعلها.

أما الهدايا؛ فمنها واجب، ومنها مستحب، فالواجب كما في التمتع: (فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ) (البقرة: من الآية196)، وكما في المحصر: (فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ)(البقرة: من الآية196)، وكما في حلق الرأس : (فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ)(البقرة: من الآية196)، هذا إن صح أن نقول : إنها هدي ، ولكن الأولى أن نسميها فدية كما سماها الله ـ عز وجل ـ ؛ لأنها بمنزلة الكفارة.

وأما الأضاحي؛ فاختلف العلماء فيها:

فمنهم من قال: إنها واجبة.

ومنهم من قال: إنها مستحبة.

وأكثر أهل العلم على أنها مستحبة، وأنه يكره للقادر تركها.

ومذهب أبي حنيفة رحمه الله أنها واجبة على القادر، واختاره شيخ الإسلام ابن تيميه.

عن علي رضي الله عنه؛ قال: (حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات:

والأضحية ليست عن الأموات كما يفهمه العوام، بل هي للأحياء، وأما الأموات؛ فليس من المشروع أن يضحى لهم استقلالا ، إلا إن أوصوا به ؛ فعلى ما أوصوا به لأن ذلك لم يرد عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأما العقيقة : وهي التي تذبح عن المولود في يوم سابعه إن كان ذكرا فاثنتان ، وإن كان أنثي فواحدة ، وتجزيء الواحدة مع الإعسار في الذكور . وهي سنة عند أكثر أهل العلم ، وقال بعض أهل العلم : إنها واجبة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (كل غلام مرتهن بعقيقته)[1] .

* * *

---

[1] مسند الإمام أحمد (5/7)، والترمذي : كتاب الأضحية /باب في العقيقة ـ وقال : (حديث حسن صحيح) ، وصححه الألباني في الإرواء ، 4/385.

قوله : (كلمات) : جمع كلمة ، والكلمة في اصطلاح النحويين : القول المفرد. أما في اللغة ؛ فهي كـل قـول مفيـد، قـال الرسـول صلى الله عليه وسلم: (أصدق كلمة قالها شاعر : ألا كل شـيء مـا خلا الله باطل)[2] ، وقال تعالى:(كلا إنها كلمـة هـو قائلهـا) ، وهي قوله : (رَبِّ ارْجِعُون لَعَلِّي أَعْمَلُ صَـالِحاً فِيمَـا تَـرَكْتُ)(المؤمنـون: من الآية99-100) .

قال شيخ الإسلام : لا تطلق الكلمـة في اللغـة العربيـة إلا على الجملة المفيدة.

لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثا ، لعن الله من غير منار الأرض) رواه مسلم[1] .

قوله : (لعن اللـه) ، اللعن من اللـه : الطـرد و الإبعـاد عن رحمـه الله ، فإذا قيل : لعنه الله ؛ فالمعنى : طرده و أبعـده عن رحمتـه ، وإذا قيل : اللهم العن فلانـا ؛ فـالمعنى أبعـده عن رحمتـك واطـرده عنها .

قوله : (من ذبح لغير الله) ، عام يشمل من ذبح بعيرا ، أو بقــرة ، أو دجاجة ، أو غيرها .

قوله : (لغير الله) ، يشمل كل من سوى الله حتى لـو ذبح لنـبي ، أو ملك ، أو جني ، أو غيرهم .

وقوله : (لعن) يحتمل أن يكون الجملة خبرية ، وأن الرسول صـلى الله عليه وسلم يخبر أن اللـه لعن من ذبح لغـير اللـه ، ويحتمـل أن تكون إنشائية بلفـظ الخـبر ؛ أي: اللهم العن من ذبح لغـير اللـه ، و الخبر أبلغ ؛ لأن الدعاء قد يستجاب ، وقد لا يستجاب.

قوله : (والديه) ، يشمل الأب و الأم ، ومن فوقهما ؛ لأن الجد أب ، كما أن أولاد الابن و البنت أبناء في وجوب الاحترام لأصولهم .

---

[2] البخاري : كتاب الأدب /باب ما ييجوز من الشعر و الرجز ، ومسلم : في أوائل كتاب الشعر .

1) مسلم كتاب الأضاحي /باب تحريم الذبح لغير الله .

و المسألة هنا ليست مالية، بل هي من الحقوق، ولعن الأدنى أشد من لعن الأعلى ؛ لأنه أولى بالبر ، ولعنه ينافي البر .

قوله : (من لعن والديه) ، أي : سبهما وشتمهما ؛ فاللعن من الإنسان السب و الشتم ، فإذا سببت إنسانا أو شتمته ؛ فهذا لعنه النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : كيف يلعن

الرجل والديه ؟ قال : (يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه)[1]

وأخذ الفقهاء من هذا الحديث قاعدة ، وهي : أن السبب بمنزلة المباشرة في الإثم ؛ وإن كان يخالف في الضمان على تفصيل في ذلك عند أهل العلم .

قوله : (من آوى محدثا) ، أي : ضمه إليه وحماه ، والإحداث : يشمل الإحداث في الدين ؛ كالبدع التي أحدثها الجهمية والمعتزلة ، وغيرهم .

والإحداث في الأمر : أي في شؤون الأمة ؛ كالجرائم وشبهها ، فمن آوى محدثا ؛ فهو ملعون ، وكذا من ناصرهم ؛ لأن الإيواء أن تأويه لكف الأذى عنه ، فمن ناصره ؛ فهو أشد و أعظم .

والمحدث أشد منه ؛ لأنه إذا كان إيواؤه سببا للعنه ؛ فإن نفس فعله جرم أعظم . ففيه التحذير من البدع و الإحداث في الدين ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل بدعة ضلالة)[2]، وظاهر الحديث : ولو كان أمرا يسيرا .

قوله:(منار الأرض) ، أي : علاماتها ومراسيمها التي تحدد بين الجيران ، فمن غيرها ظلما ؛ فهو ملعون ، وما أكثر الذين يغيرون منار الأرض ، ولاسيما إذا زادت قيمتها ، وما علموا أن الرسول

---

(1) البخاري كتاب الأدب /باب لا يسب الرجل والديه ، ومسلم : كتاب الإيمان /باب بيان الكبائر

(2) سبق (ص203).

صلى الله عليه وسلم يقول : (من اقتطع شبرا من الأرض ظلمـا ؛ طوقه من سبع أرضين) [3]؛ فالأمر عظيم ، مع أن هذا الذي يقتطع من الأرض ويغير المنار ، ويأخذ ما لا يستحق لا يدري : قـد يسـتفيد منها في دنياه ، وقد يموت قبل ذلك ، وقد يسلط عليه آفة تأخذ مـا أخذ

وعن طارق بن شهاب ؛ أن رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم قال : (دخل الجنة رجـل في ذبـاب ودخـل النـار رجـل في ذبـاب) قالوا:وكيف ذلك يا رسول اللـه ؟ قـال : (مـر رجلان على قـوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب لـه شـيئا ، فقـالوا لأحـدهما: قـرب . قال : ليس عندى شيء أقربه . قالوا له : قرب ولـو ذبابـا . فقـرب ذبابا ، فخلوا سبيله ، فدخل النار . وقالوا للآخر : قرب . فقال : مـا كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل . فضـربوا عنقـه ، فـدخل الجنة) رواه أحمد.[1]

فالحاصل : أن هـذا دليـل على أن تغيـير منـار الأرض من كبـائر الذنوب،ولهذا قرنه النبي صلى الله عليه وسلم بالشرك و بـالعقوق وبالإحداث؛ مما يـدل على أن أمـره عظيم ، وأنـه يجب على المـرء أن يحذر منه ، وأن يخاف الله ـ سبحانه و تعالى ـ حتى لا يقع فيه .

* * *

قوله : (عن طارق بن شهاب) .

في الحديث علتان :

الأولى : أن طـارق بن شـهاب اتفقـوا على أنـه لم يسـمع من النبي صلى اللـه عليـه وسـلم ، واختلفـوا في صـحبته ، و الأكـثرون على أنه صحابي .

---

[3] سبق (ص75).

[1] رواه الإمام أحمد في (الزهد) (ص15،16).

لكن إذا قلنا : إنـه صـحابي ؛ فلا يضـر عـدم سـماعه من النـبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن

مرسل الصحابي حجة ، وإن كان غير صحابي ؛ فإنه مرسل غير صحابي، وهو من أقسام الضعيف .

الثانيـــة : أن الحـــديث معنعن من قبـــل الأعمش ، وهـــو من المدلسين ، وهذه آفة في الحديث ؛ فالحديث في النفس منه شيء من أجل هاتين العلتين .

ثم للحديث علـه ثالثـة ، وهي أن الإمـام أحمـد رواه عن طـارق عن سـلمان موقوفـا من قولـه ، وكـذا أبـو نعيم وابن أبي شـيبة ؛ فيحتمل أن سلمان أخذه عن بني إسرائيل

قوله : (في ذباب) ، في : السـببية ، وليسـت للظرفيـة ؛ أي : بسبب ذباب، ونظيره قول النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم : (دخلت النار امرأة في هرة حبستها....) الحديث ؛ أي : بسبب هرة .

قوله : (فدخل النار) ، مع أنه ذبح شـيئا حقـيرا لا يؤكـل ، لكن لما نوى التقرب به إلى هذا الصنم ؛ صار مشركا ، فدخل النار .

• فيه مسائل :
الأولى : تفسير (قل أن صلتي و نسكي) . الثانية : تفسير (فصل لربك وانحر) . الثالثة : البداءة بلعنة من ذبح لغير الله . الرابعة : لعن من لعن والديه، ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك .

فيه مسائل :
* الأولى : تفسير (قل إن صلاتي ونسكي) ، وقد سبق ذلك في أول الباب.
الثانية : تفسير : (فصل لربك وانحر) ، وقد سبق ذلك في أول الباب.
*الثالثة : البداءة بلعنة من ذبح لغير الله ، بدأ به ؛ لأنه من الشرك ، والله إذا ذكر الحقوق يبدأ أولا بالتوحيد ؛ لأن حق الله أعظم الحقوق ، قال تعالى: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)(النساء: من الآية36)، وقال تعالى : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَان)(الاسراء: من الآية2)، وينبغي أن يبدأ في المناهي والعقوبات بالشرك وعقوبته .
الرابعة : لعن من لعن والديه .
ولعن الرجل للرجل له معنيان :
الأول : الدعاء عليه باللعن .
الثاني : سبه و شتمه ؛لأن الرسول صلى الله عليه وسلم فسره بقوله:(يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه)[1].

---

[1] سبق (ص215) .

الخامسة : لعن من آوى محدثا ، وهو الرجل يحـدث شـيئا يجب فيه حق اللـه؛ فيلتجىء إلى من يجـيره من ذلـك . السادسـة : لعن من غير منار الأرض ، وهي المراسيم الـتي تفـرق بين حقـك وحـق جارك من الأرض ، فتغيرها بتقـدم أو تـأخير. السـابعة : الفـرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم .

---

* الخامسـة : لعن من آوى محـدثا ، وقـد سـبق أنـه يشـمل الإحداث في الدين و الجرائم ، فمن آوى محدثا ببدعة ؛ فهـو داخـل في ذلك ، ومن آوى محدثا بجريمة ؛ فهو داخل في ذلك .

* السادسة : لعن من غير منار الأرض ، وسواء كانت بينك وبين جارك، أو بينك وبين السوق مثلا ؛ لأن الحديث عام .

* السابعة : الفـرق بين لعن المعين ولعن أهـل المعاصـي على سبيل العموم، فالأول ممنـوع ، والثـاني جـائز ، فـإذا رأيت من آوى محدثا ؛ فلا تقل لعنك الله ، بل قل : لعن اللـه من آوى محـدثا على سبيل العموم ، والدليل على ذلك أن النبي صلى اللـه عليـه وسـلم لمـا صـار يلعن أناسـا من المشـركين من أهـل الجاهليـة بقولـه : (اللهم العن فلانـا وفلانـا و فلانـا) نهي عن ذلـك بقولـه تعـالى : (لَيْسَ لَـكَ مِنَ الْأَمْـرِ شَـيْءٌ أَوْ يَتُـوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَـذِّبَهُمْ فَـإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)[1] (آل عمـران:128)؛ فـالمعين ليس لـك أن تلعنـه ، وكم من إنسان صار على وصف يستحق به اللعنة ثم تاب فتاب

---

[1] البخاري : كتاب التفسير /باب قول الله تعالى : (وليس لك من الأمر شيء) .

الثامنة : هذه القصة العظيمة ، وهي قصة الذباب . التاسعة : كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده ، بل فعله تخلصا من شرهم.

الله عليه ، إذن يؤخذ هذا من دليل منفصل ، وكأن المؤلف رحمه الله قال : الأصل عدم جواز إطلاق اللعن ؛ فجاء هذا الحديث لاعنا للعموم ، فيبقى الخصوص على أصله ؛ لأن المسلم ليس بالطعان ولا باللعان ، والرسول صلى الله عليه وسلم ليس طعانا ولا لعانا ، ولعل هذا وجه أخذ الحكم من الحديث ، وإلا ؛ فالحديث لا تفريق فيه .

* الثامنة : هذه القصة العظيمة وهي قصة الذباب ، كأن المؤلف رحمه الله يصحح الحديث ، ولهذا بنى عليه حكما ، و الحكم المأخوذ من فرع عن صحته، والقصة معروفة .

* التاسعة : كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده ، بل فعله تخلصا من شرهم ، هذه المسألة ليست مسلمة ، فإن قوله : قرب ولو ذبابا يقتضي أنه فعله قاصدا التقرب ، أما لو فعله تخلصا من شرهم فإنه لا يكفر لعدم قصد التقرب ، ولهذا قال الفقهاء : لو أكره على طلاق امرأته فطلق تبعا لقول المكره ؛ لم يقع الطلاق ، بخلاف ما لو نوى الطلاق ؛ فإن الطلاق يقع ، وإن طلق دفعا للإكراه؛ لم يقع، وهذا حق لقوله صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات)[1] .

وظاهر القصة أن الرجل ذبح بنية التقرب ؛ لأن الأصل أن الفعل المبني

---

[1] البخاري : كتاب بدء الوحي /باب كيف كان بدء الوحي ، ومسلم : كتاب الإمارة /باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إنما الأعمال بالنيات) .

العاشرة : معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين ؛ كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلبهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر ؟!

على طلب يكون موافقا لهذا الطلب .

ونحن نرى خلاف ما يرى المؤلف رحمه الله ، أي أنه لو فعله بقصد التخلص ولو ينو التقرب لهذا الصنم لا يكفر ؛ لعموم قوله تعالى : (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً)(النحل: من الآية106).

وهذا الذي فعل ما يوجب الكفر تخلصا مطمئن قلبه بالإيمان .

والصواب أيضا : أنه لا فرق بين القول المكره عليه والفعل ، وإن كان بعض العلماء يفرق ويقول : إذا أكره على القول لم يكفر ، وإذا أكره على الفعل كفر ، ويستدل بقصة الذباب ، وقصة الذباب فيها نظر من حيث صحتها ، وفيها نظر من حيث الدلالة ؛ لما سبق أن الفعل المبني على طلب يكون موافقا لهذا الطلب .

ولو فرض أن الرجل تقرب بالذباب تخلصا من شرهم ؛ فإن لدينا نصا محكما في الموضوع ، وهو قوله تعالى : (من كفر بالله ....) (النحل : 1069 الآية ، ولم يقل : بالقول ، فما دام عندنا نص قرآني صريح ؛ فإنه لو وردت السنة صحيحة على وجه مشتبه ؛ فإنها تحمل على النص المحكم.

الخلاصة أن من أكره على الكفر ؛ لم يكن كافرا ما دام قلبه مطمئنا بالإيمان ولم يشرح بالكفر صدرا .

*العاشرة : معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين ... إلخ ، وقد بينها المؤلف رحمه الله تعالى .

....

* مسألة :

هل الأولى للإنسان إذا أكره على الكفر أن يصبر ولو قتل، أو يوافق ظاهراً ويتأول؟

هذه المسألة فيها تفصيل:

أولاً: أن يوافق ظاهراً وباطناً، وهذا لا يجوز لأنه ردة.

ثانياً: أن يوافق ظاهراً لا باطناً، ولكن يقصد التخلص من الإكراه؛ فهذا جائز.

ثالثاً: أن لا يوافق لا ظاهراً ولا باطناً ويقتل وهذا جائز، وهو من الصبر.

لكن أيهما أولى أن يصبر ولو قتل، أو أن يوافق ظاهراً؟

فيه تفصيل:

إذا كان موافقة الإكراه لا يترتب عليه ضرر في الدين للعامة؛ فإن الأولى أن يوافق ظاهراً، لا سيما إذا كان بقاؤه فيه مصلحة للناس، مثل: صاحب المال الباذل فيما ينفع أو العلم النافع وما أشبه ذلك، حتى وإن لم يكن فيه مصلحة؛ ففي بقائه على الإسلام زيادة عمل، وهو خير، وهو قد رخص له أن يكفر ظاهراً عند الإكراه؛ فالأولى أن يتأول، ويوافق ظاهراً لا باطناً.

أما إذا كان في موافقته وعدم صبره ضرر على الإسلام؛ فإنه يصبر، وقد يجب الصبر؛ لأنه من باب الصبر على الجهاد في سبيل الله، وليس من باب إبقاء النفس، ولهذا لما شكى الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم ما يجدونه من مضايقة المشركين؛ قص عليهم قصة الرجل فيمن كان قبلنا بأن الإنسان كان يمشط ما بين لحمه وجلده بأمشاط الحديد [1] ويصبر، فكأنه يقول لهم: اصبروا على الأذى.

---

[1] البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم؛ لأنه لـو كـان كـافراً؛ لم يقل: (دخل النار في ذباب). الثانية عشرة: فيـه شـاهد للحـديث الصحيح: (الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك) [1]

ولـو حصـل من الصـحابة رضـي اللـه عنهم في ذلـك الـوقت موافقــة للمشــركين وهم قلــة؛ لحصــل بــذلك ضــرر عظيم على الإسلام.

والإمـام أحمـد رحمـه اللـه في المحنـة المشـهورة لـو وافقهم ظاهراً؛ لحصل في ذلك مضرة على الإسلام.

* الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم؛ لأنه لو كان كافراً لم يقل: دخل النار في ذباب، وهذا صـحيح، أي أنـه كـان مسـلماَ ثم كفر بتقريبه للصنم؛

فكان تقريبه هو السبب في دخوله النار.

ولو كان كافراً قبل أن يقرب الذباب؛ لكان دخولـه النـار لكفـره أولى، لا بتقريبه الذباب.

* الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: (الجنة أقــرب إلى أحــدكم من شــراك نعلــه، والنــار مثــل ذلــك)، والغــرض من هــذا: الترغيب والترهيب، فإذا علم أن الجنة أقرب إليه من شراك النعل؛ فإنه ينشط على السعي، فيقول: ليست بعيـدة؛ كقولـه صـلى اللـه عليه وسلم لما سئل عما يدخل الجنة ويباعد من النار، فقال: (لقــد سألت

الثالثة عشـرة: معرفـة أن عمـل القلب هـو المقصـود الأعظم، حتى عند عبدة الأصنام.

---

[1] البخاري : كتاب الرقاق/باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله.

عن عظيم، وأنه ليسير على من يسره الله عليه) [1] ، والنار إذا قيل له : إنها أقرب من شراك النعل يخاف، ويتوقى في مشـيه لئلا يزل فيهلـك، ورب كلمـة توصـل الإنسـان إلى أعلى علـيين، وكلمـة أخرى توصله إلى أسفل سافلين.

* الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هـو المقصـود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان، والحقيقة أن هذه المسألة مع التاسعة فيهـا شبه تناقض؛ لأنه في هذه المسألة أحـال الحكم على عمـل القلب، وفي التاسعة أحاله على الظاهر؛ فقال: بسـبب ذلـك الـذباب الـذي لم يقصده بـل فعلـه تخلصـاً من شـرهم، ومقتضـى ذلـك أن باطنـه سـليم، وهنـا يقـول: إن العمـل بعمـل القلب، ولا شـك أن مـا قالـه المؤلف رحمه الله حق بالنسبة إلى أن المدار على القلب.

والحقيقة أن العمل مـركب على القلب، والنـاس يختلفـون في أعمال القلوب أكثر من اختلافهم في أعمال الأبدان، والفـرق بينهم قصـداً وذلاً أعظم من الفـرق بين أعمـالهم البدنيـة؛ لأن من النـاس من يعبد الله لكن عنده من الاستكبار ما لا يذل معه ولا يذعن لكـل حق، وبعضهم يكون عنـده ذل للحـق، لكن عنـده نقص في القصـد؛ فتح عنده نوعاً من الرياء مثلاً.

فأعمال القلب وأقوالـه لهـا أهميـة عظيمـة، فعلى الإنسـان أن يخلصها لله.

وأقوال القلب هي اعتقاداته؛ كالإيمـان باللـه، وملائكتـه، وكتبـه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وأعماله هي تحركاتـه؛ كـالحب ، والخـوف، والرجـاء، والتوكـل، والاستعانة، وما أشبه ذلك.

---

(1) مسند الإمام أحمد (5/231)، والترمذي : كتاب الإيمان / باب ما جاء في حرمة الصلاة ـ وقال: (حسن صحيح) ـ .

والدواء لـذلك: القـرآن والسـنة، والرجـوع إلى سـيرة الرسـول صلى الله عليه وسلم بمعرفة أحواله وأقواله وجهاده ودعوتـه، هـذا مما يعين على جهاد القلب.

ومن أسباب صلاح القلب أن لا تشغل قلبك بالدنيا.

* * *

باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالى: (لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً)(التوبة: من الآية108).

هـذا الانتقـال من المؤلـف من أحسـن مـا يكـون؛ ففي البـاب السابق ذكر الذبح لغير الله؛ فنفس الفعل لغير الله.

وفي هذا الباب ذكر الذبح لله، ولكنه في مكان يذبح فيه لغيره، كمن يريد أن يضحي لله في مكان يذبح فيـه للأصـنام؛ فلا يجـوز أن تذبح فيه؛ لأنه موافقـة للمشـركين في ظـاهر الحـال، وربمـا أدخـل الشيطان في قلبـك نيـة سـيئة؛ فتعتقـد أن الـذبح في هـذا المكـان أفضل، وما أشبه ذلك، وهذا خطر.

* * *

قوله: (لا تقم فيه)، ضمير الغيبة يعود إلى مسجد الضرار، حيث بني على نيـة فاسـدة، قـال تعـالى: (الَّذِينَ اتَّخَـذُوا مَسْـجِداً ضِـرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقـاً بَيْنَ الْمُـؤْمِنِينَ وَإِرْصَـادَاً لِمَنْ حَـارَبَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ)

(التوبة: من الآية107) ، والمتخـذون هم المنـافقون، وغرضـهم من ذلك :

1ـ مضارة مسجد قباء: ولهذا يسمى مسجد الضرار.

2ـ الكفر بالله: لأنه يقرر فيه الكفر ـ والعياذ بالله ــ؛ لأن الـذين اتخذوه هم المنافقون.

3ـ التفريق بين المؤمنين: فبدلاً من أن يصلي في مسـجد قبـاء صف أو صفان يصلي فيه نصف صف، والباقون في المسجد الآخر، والشرع له نظر في

اجتماع المؤمنين.

4ـ الإرصاد لمن حـارب اللـه ورسـوله يقـال: إن رجلاً ذهب إلى الشام، وهو أبو عـامر الفاسـق، وكـان بينـه وبين المنـافقين الـذين اتخذوا المسجد مراسـلات، فاتخـذوا هـذا المسـجد بتوجيهـات منـه، فيجتمعون فيـه لتقريـر مـا يريدونـه من المكـر والخديعـة للرسـول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قال الله تعالى: (وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَـا إِلَّا الْحُسْنَى)(التوبة: من الآية107)؛ فهذه سـنة المنـافقين: الأيمـان الكاذبة.

(إن): نافيــة، بــدليل وقــوع الاســتثناء بعــدها، أي: مــا أردنــا إلا الحســنى، والجــواب عن هــذا اليمين الكــاذب: (وَاللَّهُ يَشْــهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)(التوبة: من الآية10).

فشهد الله تعالى على كـذبهم؛ لأن مـا يسـرونه في قلـوبهم ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب؛ فكأن هذا المضمر في قلوبهم بالنسبة إلى الله أمر مشهود يرى بالعين؛ كما قـال اللـه تعـالى في سورة المنافقين: (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَـاذِبُونَ)(المنـافقون: من الآية1).

قوله: (لا تقم فيه)، لا: ناهية، وتقم: مجـزوم بلا الناهيـة وعلامـة جزمة السكون، وحذفت الـواو ؛ لانـه سـكن آخـره، والـواو سـاكنة؛ فحذفت تخلصاً من التقاء الساكنين.

قوله: (أبداً) إشارة إلى أن هذا المسجد سيبقى مسجد نفاق.

قوله: (لمسجد أسـس على التقـوى)، اللام: للابتـداء، ومسـجد: مبتـدأ وخـبره: (أحــق أن تقــوم فيــه)، وفي هــذا التنكــير تعظيم

للمسجد، بدليل قوله: (أسس على التقوى)(التوبة:109)؛ أى جعلت التقوى أساساً له، فقام عليه.

وهذه الأحقية ليست على بابها، وهو أن اسم التفضيل يدل على مفضل ومفضل عليه اشتراكاً في أصل الوصف؛ لأنه لا حق لمسجد الضرار أن يقام

فيه، وهذا (أعني: كون الطرف المفضل عليه ليس فيه شيء من الأصل الذي وقع فيه التفضيل) موجود في القرآن كثيراً؛ كقوله تعالى: (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً) (الفرقان: 24) .

قوله: (فيه)، أي: في هذا المسجد المؤسس على التقوى.

قوله: (يحبون أن يتطهروا)، بخلاف من كان في مسجد الضرار؛ فإنهم رجس؛ كما قال الله تعالى في المنافقين (سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ) (التوبة: من الآية95) .

قوله:(يتطهروا)، يشمل طهارة القلب من النفاق والحسد والغل وغير ذلك، وطهارة البدن من الأقذار والنجاسات والأحداث.

قوله: (والله يحب المطهرين)، هذه محبة حقيقية ثابتة لله ـ عز وجل ـ تليق بجلاله وعظمته، ولا تماثل محبة المخلوقين، وأهل التعطيل يقولون: المراد بالمحبة: الثواب أو إرادته؛ فيفسرونها إما بالفعل أو إرادته، وهذا خطأ.

وقوله: (المطهرين) أصله المتطهرين، وأدغمت التاء بالطاء لعلة تصريفية معروفة.

* وجه المناسبة من الآية:

أنه لما كان مسجد الضرار مما اتخذ للمعاصي ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين؛ نهى الله رسوله أن يقوم فيه، مع أن صلاته فيه لله؛ فدل على أن كل مكان يعصى الله فيه أنه لا يقام فيه، فهذا المسجد متخذ للصلاة، لكنه محل معصية؛ فلا تقام فيه الصلاة.

وكذا لو أراد إنسان أن يذبح في مكان يذبح فيه لغير الله كان حراماً ؛ لأنه يشبه الصلاة في مسجد الضرار.

وعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه؛ قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال: (هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟ . قالوا: لا . قال: (فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟). قالوا: لا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أوف بنذرك؛ فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم). رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما [1] .

وقريب من ذلك النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ لأنهما وقتان يسجد فيهما الكفار للشمس؛ فهذا باعتبار الزمن والوقت، والحديث الذي ذكره المؤلف باعتبار المكان.

* * *

قوله: (نذر)، النذر في اللغة: الإلزام والعهد.

واصطلاحاً: إلزام المكلف نفسه لله شيئاً غير واجب.

وقال بعضهم: لا نحتاج أن نقيد بغير واجب، وأنه إذا نذر والواجب صح النذر وصار المنذور واجباً من وجهين: من جهة النذر، ومن جهة الشرع، ويترتب على ذلك وجوب الكفارة إذا لم يحصل الوفاء.

والنذر في الأصل مكروه، بل إن بعض أهل العلم يميل إلى تحريمه؛ بأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عنه، وقال: (لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل) [2] ، ولأنه إلزام

لنفس الإنسان بما جعله الله في حل منه، وفي ذلك زيادة تكليف على نفسه.

ولأن الغالب أن الذي ينذر يندم، وتجده يسأل العلماء يميناً وشمالاً يريد الخلاص مما نذر لثقله ومشقته عليه، ولا سيما ما

---

(1) مسند الإمام أحمد (3/419)، وسنن أبي داود: كتاب الأيمان والنذور/باب ما يؤمن به من الوفاء بالنذر.

(2) البخاري: كتاب القدر/ باب إلقاء العبد النذر إلى القدر، ومسلم: كتاب النذر/ باب النهي عن النذر.

يفعله بعض العامة إذا مرض، أو تأخر له حاجة يريدها؛ تجده ينذر كأنه يقول: إن الله لا ينعم عليه بجلب خير أو دفع الضرر إلا بهذا النذر.

قوله: (إبلاً)، اسم جمع لا واحد له من لفظه، لكن له واحد من معناه، وهو البعير.

قوله: (ببوانه)، الباء بمعنى في، وهي للظرفية، والمعنى: بمكان يسمى بوانة.

قوله: (هل كان فيها وثن)، الوثن: كل ما عبد من دون الله؛ من شجر، أو حجر، سواء نحت أو لم ينحت.

والصنم يختص بما صنعه الآدمي.

قوله: (يعبد)، صفة لقوله: (وثن)، وهو بيان للواقع؛ لأن الأوثان هي التي تعبد من دون الله.

قوله: (قالوا: لا)، السائل واحد، لكنه لما كان عنده ناس أجابوا النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا مانع أن يكون المجيب غير المسؤول.

قوله: (عيد)، العيد: اسم لما يعود أو يتكرر، والعود بمعنى الرجوع؛ أي: هل اعتاد أهل الجاهلية أن يأتوا إلى هذا المكان ويتخذوا هذا اليوم عيداً وإن لم يكن فيه وثن؟ قالوا: لا . فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أمرين: عن الشرك، ووسائله.

فالشرك: هل كان فيها وثن؟ ووسائله: هل كان فيها عيد من أعيادهم؟

قوله: (أوف بنذرك)، فعل أمر مبني على حذف حرف العلة الياء، والكسرة دليل عليها.

وهل المراد به المعنى الحقيقي أو المراد به الإباحة؟

الجواب: يحتمل أن يراد به الإباحة، ويحتمل أن يراد به المعنى الحقيقي؛ فبالنسبة لنحر الإبل المراد به المعنى الحقيقي.

وبالنسبة للمكان المراد به الإباحة؛ لأنه لا يتعين أن يذبحها في ذلك المكان؛ إذ إنه لا يتعين أي مكان في الأرض إلا ما تميز بفضل، والمتميز بفضل المساجد الثلاثة؛ فالأمر هنا بالنسبة لنحر الإبل من حيث هو نحر اجب.

وبالنسبة للمكان؛ فالأمر للإباحة، بدليل أنه سأل هذين السؤالين، فلو أجيب بنعم؛ لقال: لا توف، فإذا كان المقام يحتمل النهي والترخيص؛ فالأمر للإباحة.

وقوله: (أوف بنذرك) علل صلى الله عليه وسلم ذلك بانتفاء المانع؛ فقال: (فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله).

قوله: (لا وفاء)، لا: نافية للجنس، وفاء: اسمها، لنذر: خبرها.

قوله: (في معصية الله)، صفة لنذر؛ أي: لا يمكن أن توفي بنذر في معصية الله؛ لأنه لا يتقرب إلى الله بمعصيته، وليست المعصية مباحة حتى يقال افعلها.

* أقسام النذر:

الأول: ما يجب الوفاء به، وهو نذر الطاعة؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : (من نذر أن يطع الله؛ فليطعه) [1] .

الثاني: ما يحرم الوفاء به، وهو نذر المعصية لقوله صلى الله عليه وسلم : (ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) [1] ، وقوله: (فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله) [2].

الثالث: ما يجري مجرى اليمين، وهو نذر المباح؛ فيخير بين فعله وكفارة اليمين، مثل لو نذر أن يلبس هذا الثوب؛ فإن شاء لبسه وإن شاء لم يلبسه، وكفر كفارة يمين.

الرابع: نذر اللجاج والغضب، وسمي بهذا الاسم؛ لأن اللجاج والغضب يحملان عليه غالباً، وليس بلازم أن يكون هناك لجاج غضب، وهو الذي يقصد به معنى اليمين، الحث، أو المنع، أو التصديق، أو التكذيب.

مثل لو قال: حصل اليوم كذا وكذا، فقال الآخر: لم يحصل، فقال: إن كان حاصلاً؛ فعلي لله نذر أن أصوم سنة؛ فالغرض من هذا النذر التكذيب، فإذا تبين أنه حاصل؛ فالناذر مخير بين أن يصوم

---

[1] البخاري: كتاب الأيمان والنذور/ باب النذر في الطاعة.

[1] البخاري : كتاب الأيمان والنذور/ باب النذر في الطاعة.

[2] مسلم: كتاب النذر/ باب لا وفاء لنذر في معصية الله.

سنة، وبين أن يكفر كفارة يمين؛ لأنه إن صام فقد وفى بنـذره، وإن لم يصم حنث، والحانث في اليمين يكفر كفارة يمين.

الخامس: نذر المكروه، فيكره الوفاء به، وعليه كفارة يمين.

السادس: النذر المطلق، وهو الذي ذكر فيه صـيغة النـذر؛ مثـل أن يقول: لله علي نـذر فهـذا كفارتـه كفـارة يمين كمـا قـال النـبي صلى الله عليه وسلم : (كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين) [3] .

* مسألـة هل ينعقد نذر المعصيـة؟

الجـواب: نعم، ينعقـد، ولهـذا قـال الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم : (من نذر أن يعصي الله؛ فلا يعصه) [1] ، ولـو قـال: من نـذر أن يعصي الله فلا نذر لـه؛ لكـان لا ينعقـد؛ ففي قولـه: (فلا يعصـه) دليل على أنه ينعقد لكن لا ينفذ.

وإذا انعقد هل تلزمه كفارة أو لا ؟

اختلف في ذلك أهل العلم، وفيها روايتان عن الإمام أحمد:

فقال بعض العلماء: إنه لا تلزمه الكفارة، واستدلوا بقول النـبي صلى الله عليه وسلم (لا وفاء لنذر في معصية الله) [2] .

وبقوله صلى الله عليه وسـلم : (ومن نـذر أن يعصـي اللـه؛ فلا يعصه)، ولم يذكر النبي صلى اللـه عليـه وسـلم كفـارة، ولـو كـانت واجبة؛ لذكرها.

القول الثاني: تجب الكفـارة، وهـو المشـهور من المـذهب؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر في حديث آخر غير الحديثين أن كفارتـه كفـارة يمين [3] وكـون الأمـر لا يـذكر في حـديث لا يقتضـي عدمـه؛ فعـدم الـذكر ليس ذكـراً للعـدم، نعم، لـو قـال الرسـول: لا كفـارة؛ صـار في الحـديثين تعـارض، وحينئـذ نطلب الـترجيح، لكن الرسول لم ينف الكفارة، بل سكت والسكوت لا ينـافي المنطـوق؛ فالسـكوت وعـدم الـذكر يكـون اعتمـاداً على مـا تقـدم، فـإن كـان الرسول قاله قبل أن ينهى هذا الرجل؛ فاعتماداً عليه لم يقله؛ لأنـه

([3] رواه ابن ماجة والترمذي وصححه، وأصله في مسلم.

([1] تقدم (ص 232).

([2] تقدم(ص 232).

([3] تقدم (ص 232).

ليس بلازم أن كل مسألة فيها قيد أو تخصيص يذكرها الرسول عنـد كل عموم، فلو كان يلزم هذا؛ لكـانت تطـول السـنة، لكن الرسـول صلى الله عليه وسلم إذا ذكر حديثاً عاماً وله ما يخصصه في مكـان آخر حمل عليه وإن

لم يذكره حين تكلم بالعموم.

وأيضاً من حيث القياس لـو ان الإنسـان أقسـم ليفعلن محرمـاً، وقـال: واللـه؛ لأفعلن هـذا الشـيء وهـو محـرم؛ فلا يفعلـه، ويكفـر كفارة يمين، مع أنه أقسم على فعل محرم، والنذر شبيه بالقسـم ، وعلى هذا؛ فكفارته كفارة يمين، وهذا القول أصح.

وقولـه: (ولا فيمـا لا يملـك ابن آدم) الـذي لا يملكـه ابن آدم يحتمل معنيين :

الأول : مالا يملك فعله شرعا ؛ كما لو قال : لله على أن أعتـق عبد فلان ؛ فلا يصح لأنه لا يملك إعتاقه .

الثاني : ما لا يملك فعله قدرا ، كما لو قـال : للـه على نـذر أن أطير بيدي؛ فهذا لا يصح لأنه لا يملكه .

والفقهاء رحمهم الله يمثلون بمثل هذا للمستحيل .

* ويستفاد من الحديث :

أنه لا يذبح بمكان يذبح فيه لغير اللـه ، وهـو مـا سـاقه المؤلـف من أجله ، والحكمة من ذلك ما يلي :

الأول : أنه يؤدي إلى التشبيه بالكفار

الثاني : أنه يؤدي إلى الاعتزاز بهـذا الفعـل ؛ لأن من رأك تـذبح بمكان يذبح فيه المشركون ظن أن فعل المشركين جائز .

الثالث : أن هؤلاء المشركين سوف يقـوون على فعلهم إذا رأوا من يفعـل مثلهم، ولاشـك أن تقويـة المشـركين من الأمـور المحظـورة ، وإغـاظتهم من الأعمـال الصـالحة ، قـال تعـالى : (وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ)(التوبة: من الآية120)

*فيه مسائل :

الأولي : تفسير قوله : (لا تقم فيه أبدا) . الثانية : أن المعصية قد تؤثر في الأرض ، وكذلك الطاعة . الثالثة : رد المسألة المشكلة إلى المسألة
البينة ؛ ليزول الإشكال .

فيه مسائل :

- الأولي : تفسير قوله تعالى : (لا تقم فيه أبدا) ، وقد سبق ذلك في أول الباب .
- الثانية : أن المعصية قد تؤثر في الأرض ، وكذلك الطاعة ، أي : لما كانت هذه الأرض مكان شرك ؛ حرم أن يعمل الإنسان ما يشبه الشرك فيها لمشابهة المشركين .

أما بالنسبة للصلاة في الكنيسة ؛ فإن الصلاة تخالف صلاة أهل الكنيسة ؛ لا يكون الإنسان متشبها بهذا العمل ، بخلاف الذبح في مكان يذبح فيه لغير الله ، فإن الفعل واحد بنوعه وجنسه ، ولهذا لو أراد إنسان أن يصلي في مكان يذبح فيه لغير الله لجاز ذلك ؛ لأنه ليس من نوع العبادة التي يفعلها المشركون في هذا المكان .

وكذا الطاعة تؤثر في الأرض ، ولهذا؛ فإن المساجد أفضل من الأسواق ، والقديم منها أفضل من الجديد .

* الثالثة : رد المسألة المشكلة إلى البينة ليزول الإشكال ، فالمنع من الذبح في هذا المكان أمر مشكل، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم بين ذلك بالاستفصال.

الرابعة : استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك . الخامسة : أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع . السادسة : المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ، ولو بعد زواله .

---

* الرابعة : استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم استفصل ، لكن هل يجب الاستفصال على كل حال ، أو إذا وجد الاحتمال ؟

الجواب : لا يجب إذا وجد الاحتمال ؛ لأننا لو استفصلنا في كل مسألة ؛ لطال الأمر .

مثلا : لو سألنا سائل عن عقد بيع لم يلزم أن نستفصل عن الثمن : هل هو معلوم ؟ وعن المثمن : هل هو معلوم ؟ وهل وقع البيع أو معلقا أو غير معلق ؟ وهل كان ملكا للبائع ؟ وكيف ملكه ؟ وهل انتفت موانعه أو لا ؟

أما إذا وجد الاحتمال ؛ فيجب الاستفصال ، مثل : أن يسأل عن رجل مات عن بنت وأخ وعم شقيق ؛ فيجب الاستفصال عن الأخ:هل هو شقيق أو لأم ؟ فإن كان لأم ؛ سقط ، وأخذ الباقي العم ، وإلا ؛ سقط العم ، وأخذ الباقي الأخ .

- • الخامسة : أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع لقوله:(أوف بنذرك)، وسواء كانت هذه الموانع واقعة أو متوقعة

فالواقعة : أن يكون فيها وثن أو عيد من الجاهلية .

والمتوقعة : أن يخشى من الذبح في هذا المكان تعظيمه ، فإذا خشي ؛ كان ممنوعا ، مثل : لو أراد أن يذبح عند جبل ؛ فالأصل أنه جائز ، لكن لو خشي أن العوام يعتقدون أن في هذا المكان مزية ؛ كان ممنوعا .

- • السادسة : المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ، ولو بعد زواله ،

السابعة : المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ، ولو بعد زواله .

الثامنة : أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة ؛ لأنه نذر معصية .

التاسعة : الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ، ولو لم يقصده .

العاشرة : لا نذر في معصية .

لقوله : (هل كـان فيهـا وثن من أوثـان الجاهليـة ؟) ؛ لأن (كـان) فعل ماض ،
والمحظور بعد زوال الوثن باق ؛ لأنه ربما يعاد .

*السابعة : المنع منه إذا كان فيها عيـد من أعيـادهم ، ولـو بعـد زواله ، لقوله: (فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟)

*الثامنة : أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة ؛ لأنـه نـذر معصية ، لقوله : (فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله) .

*التاسعة : الحذر من مشابهة المشـركين في أعيـادهم ولـو لم يقصـده ، وقـد نص شـيخ الإسـلام ابن تيميـه على أن حصـول التشبه لا يشترط فيه القصد ؛ فإنه يمنع منـه ولـو لم يقصـده ، لكن مع القصد يكون أشد إثما ، ولهذا قال شيخ الإسلام محمـد بن عبد الوهاب : ولو لم يقصده .

*العاشرة : لا نذر في معصية الله ،هكذا قال المؤلف ، ولفـظ الحديث المذكور : (لا وفاء لنذر) ، وبينها فرق .

فإذا قيل : لا نذر في معصية ؛ فالمعنى أن النذر لا ينعقـد ، وإذا قيل : لا وفاء ؛ فالمعنى ان النذر ينعقد ، لكن لا يوفى ، وقـد وردت السنة بهذا وبهذا .

لكن : (لا نـذر) يحمـل على أن المـراد لا وفـاء لنـذر ؛ لقولـه صلى الله عليه وسلم في الحديث

الحادية عشرة : لا نذر لابن آدم فيما لا يملك .

الصحيح : (ومن نذر أن يعصي الله ؛ فلا يعصه)[1].

---

[1] تقدم (ص232) .

الحادية عشرة : لا نذر لابن آدم فيما لا يملك ، يقال فيه ما قيل في : لا نذر في معصية .

والمعنى : لا وفاء لنذر فيما لا يملك ابن آدم ، ويشتمل ما لا يملكه شرعا ، وما لا يملكه يقدرا

* * *

باب من الشرك النذر لغير الله

وقول الله تعالى : (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ)(الإنسان: من الآية7).

النذر لغير الله مثل أن يقول : لفلان علي نذر ، أو لهذا القبر علي نذر ، أو لجبريل علي نذر ، يريد بذلك التقرب إليهم ، وما أشبه ذلك

و الفرق بينه و بين المعصية : أن النذر لغير الله ليس لله أصلا ، ونذر المعصية لله ، ولكنه على معصية من معاصيه ، مثل أن يقول : لله علي نذر أن أفعل كذا وكذا من معاصي الله ؛ فيكون النذر و المنذور معصية ، ونظير هذا الحلف بالله على شيء محرم ، و الحلف بغير الله ؛ فالحلف بغير الله مثل : والنبي ؛ لأفعلن كذا و كذا ، ونظيره النذر لغير الله ، و الحلف بالله على محرم؛ مثل : والله ؛ لأسرقن ، ونظيره نذر المعصية ، وحكم النذر

لغير الله شركا ؛ لأنه عبادة للمنذور له ، وإذا كان عبادة ؛ فقد صرفها لغير الله فيكون مشركا .

وهذا النذر لغير الله لا ينعقد إطلاقا ، و لا تجب فيه كفارة ، بل هو شرك تجب التوبة منه ؛ كالحلف بغير الله ؛ فلا ينعقد ، وليس فيه كفارة .

وأما نذر المعصية ؛ فينعقد ، لكن لا يجوز الوفاء به ، وعليه كفارة يمين ؛ كالحلف بالله على المحرم ينعقد ، وفيه كفارة .

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين :

* * *

- لأولى : قوله : (يوفون بالنذر) ، هذه الآية سيقت لمدح الأبرار ، (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً) (الانسان:5) .

وقوله : (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ) (البقرة: من الآية270).

ومدحهم بهذا يقتضي أن يكون عبادة ؛ لأن الإنسان لا يمدح ولا يستحق دخول الجنة إلا بفعل شيء يكون عبادة .

ولو أعقب المؤلف هذه الآية بقوله تعالى : (وليوفون نذورهم) (الحج : 29) ؛ لكان أوضح ؛ لأن قوله : (وليوفون نذورهم) أمر ، والأمر بوفائه يدل على أنه عبادة ؛ لأنه العبادة ما أمر به شرعا .

وجه استدلال المؤلف بالآية على أن النذر لغير الله من الشرك : أن الله تعالى أثنى عليهم بذلك ، وجعله من الأسباب التي بها يدخلون الجنة ، ولا يكون سببا يدخلون به الجنة إلا وهو عبادة ؛ فيقتضي أن صرفه لغير الله شرك .

- الآية الثانية قوله : (وما أنفقتم) .

(ما) : شرطية ، و (أنفقتم) : فعل الشرط ، وجوابه : (فإن الله يعلمه).

قوله : (من نفقة) ، بيان لـ (ما) في قوله : (ما أنفقتم) ، و النفقة : بذل المال، وقد يكون في الخير ، وقد يكون في غيره .

قوله : (أو نذرتم) ، معطوف على قوله : (وما أنفقتم) .

قوله : (فإن الله يعلمه) ، تعليق الشيء بعلم الله دليل على أنه محل جزاء؛ إذ لا نعلم فائدة لهذا الإخبار بالعلم إلا لترتب الجزاء عليه ، وترتب الجزاء عليه يدل على أنه من العبادة التي يجازى الإنسان عليها ، وهذا وجه استدلال المؤلف بهذه الآية .

* * *

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من نذر أن يطيع الله ؛ فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله ؛ فلا يعصه)[1] .

قوله : (وفي الصحيح) ، سبق الكلام على مثل هذا التعبير في باب تفسير التوحيد (ص146) .

قوله : (من نذر) ، جملة شرطية تفيد العموم ، وهل تشمل الصغير ؟

قال بعض العلماء : تشمله ؛ فينعقد النذر منه .

وقيل : لا تشمله ؛ لأن الصغير ليس أهلا للإلزام ولا للالتزام ، وبناء على هذا يخرج الصغير من هذا العموم ؛ لأنه ليس أهلا للإلزام ولا للالتزام.

قوله : (أن يطيع الله) ، الطاعة : هي موافقة الأمر؛ أي : توافق الله فيما يريد منك إن أمرك ؛ فالطاعة فعل المأمور به ، وإن نهاك ؛ فالطاعة ترك المنهي عنه ، هذا معنى الطاعة إذا جاءت مفردة .

أما إذا قيل : طاعة و معصية ؛ فالطاعة لفعل الأوامر ، والمعصية لفعل النواهي .

---

[1] البخاري : كتاب الأيمان و النذور /باب النذر في الطاعة .

قولــه : (فليطعــه) ، الفــاء واقعــة في جــواب الشــرط ؛ لأن الجملة إنشائية طلبية ، واللام لام الأمر .

وظاهر الحديث : يشمل ما إذا كانت الطاعــة المنــذورة جنســها واجب ؛ كالصـــلاة و الحج وغيرهمـــا ، أو غـــير واجب ؛ كتعليم العلم وغيره .

وقال بعض أهل العلم : لا يجب الوفاء بالنــذر إلا إذا كــان جنس الطاعة واجبا ، وعموم الحديث يرد عليهم .

وظاهر الحديث أيضا يشمل من نذر طاعة نذرا مطلقا ليس لــه سبب ، مثل: (لله علي أن أصوم ثلاثة أيام) .

ومن نذر نذرا معلقــا ، مثــل : إن نجحت ؛ فللــه علي أن أصــوم ثلاثة أيام .

ومن فرق بينهما ؛ فليس بجيد لأن الحديث عام .

واعلم أن النذر لا يأتي بخير ولو كان بطاعة ، وإنما يستخرج به من البخيل[1] ، ولهذا نهى عنه النبي صلى الله عليه وســلم ، وبعض العلماء يحرمه ، وإليــه يميــل شــيخ الإســلام ابن تيميــه للنهي عنــه ، ولأنك تلزم نفسك بأمر أنت في عافيــة منــه ، وكم من إنســان نــذر وأخيرا ندم ، وربما لم يفعل .

ويدل لقوة القول بتحــريم النــذر قولــه تعــالى : (وَأَقْسَـمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنّ)(النور: من الآية53)؛ فهذا الــتزام موكد بالقسم ، فيشبه النذر .

قال الله تعالى : (قُلْ لا تُقْسِـمُوا طَاعَـةٌ مَعْرُوفَـةٌ)(النـور: من الآية53)؛ أي: عليكم طاعة معروفة بدون يمين ، والإنسان الــذي لا يفعل الطاعة إلا بنذر ، أو حلف على نفسه يعني أن الطاعة ثقيلة عليه .

---

(1) تقدم (ص229) .

وممـا يـدل على قـوة القـول بـالتحريم أيضـا خصوصـا النـذر المعلق : أن النادر كأنه غير واثق بالله ـ عز وجـل ــ ؛ فكأنـه يعتقـد أن الله لا يعطيه الشفاء إلا إذا أعطـاه مقابلـة ولهـذا إذا أيسـوا من البرء ذهبوا ينذرون ، وفي سوء ظن بالله ـ عز وجل ـ .
و القول بالتحريم قول وجيه .

*فيه مسائل :
الأولى : وجوب الوفاء بالنذر . الثانية : إذا ثبت كونه عبادة لله ، فصـرفه إلى غـير اللـه شـرك . الثالثـة : أن نـذر المعصـية لا يجـوز الوفاء به .

فإن قيل : كيف تحرمون ما أثنى الله على من وفى به ؟
فالجواب : أننا لا نقول: إن الوفاء هو المحرم حـتى يقـال : إننـا هدمنا النص ، إنما نقـول : المحـرم أو المكـروه كراهـة شـديدة هـو عقد النذر ، وفرق بين عقده ووفائه ؛ فالعقد ابتدائي ، و الوفـاء في ثاني الحال تنفيذ لما نذر .
قولـه : (ومن نــذر أن يعصــي اللــه فلا يعصــه) ، لا : ناهيــة ، والنهي بحسب المعصية ، فإن كانت حراما ؛ فالوفاء بالنذر حــرام ، وإن كانت المعصية مكروهة؛ فالوفاء بالنذر مكــروه ؛ لأن المعصــية الوقوع فيمـا نهي عنـه ، والمنهي عنـه ينقسـم عنـد أهـل العلم إلى قسمين : منهي عنه نهي تحريم ، ومنهي عنه نهي تنزيه .
* * *
فيه مسائل :
*الأولى : وجـوب الوفـاء بالنـذر ، يعـني : نـذر الطاعـة فقـط ؛ لقوله : (من نذر أن يطيـع اللـه ؛ فليطعـه) ، ولقـول المؤلـف في المسألة الثالثة : إن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به .
*الثانية : إذا ثبت كونه عبـادة ؛ فصـرفه إلى غـير اللـه شـرك ، وهذه قاعدة في توحيد العبادة ، فأي فعل كان عبادة ؛ فصرفه لغير الله شرك .
*الثالثة : أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به ، لقولـه صـلى اللـه عليه وسلم : (من نذر أن يعصي الله ؛ فلا يعصه) .

باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ (الجـن:6).

قوله : (من الشرك) ، من : للتبغيض ، وهذه الترجمة ليست على إطلاقها؛ لأنه إذا استعاذ بشخص مما يقدر عليه ؛ فإنه جائز ؛ كالاستعانة .

* * *

قولـه تعـالى: (وأنـه كـان رجـال من الإنس)، الـواو: حـرف عطف ، و (أن) : فتحت همزتهـا بسـبب عطفهـا على قولـه : (أنـه استمع نفر من الجن).

قال ابن مالك :

وهمز إن افتح لسد مصدر مسدها وفي سوى ذاك اكسر

فيؤول بمصدر ، أي : قل أوحي إلي اسـتماع نفـر وكـون رجـال من الإنس يعوذون برجال من الجن .

قوله : (من الإنس) ، صفة لرجال ؛ لأن رجال نكرة ، وما بعـد النكرة صفة لها .

قوله : (يعوذون) ، الجملة خبر كان ، ويقال : عاذ به ولاذ بـه ؛ فالعياذ مما يخاف ، واللياذ فيما يؤمل ، وعليه قول الشاعر يخاطب ممدوحه ، ولا يصلح ما قاله إلا لله :

يا من ألوذ به فيما أأملـه ومن أعوذ به مما أحــاذره
لا يجـبر النـاس عظمـا أنتكاسـره ولا يهيضـون عظمـا أنت جابره

قوله : (يعوذون برجـال من الجن) ، أي : يلتجئـون إليهم ممـا يحاذرونه، يظنون أنهم يعيـذونهم ، ولكن زادوهم رهقـا ؛ أي : خوفـا وذعرا ، وكانت العرب في الجاهليـة إذا نزلـوا في واد نـادوا بـأعلى أصواتهم : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه .

قوله : (رهقا) ، أي : ذعرا وخوفا ، بل الرهق أشـد من مجـرد الذعر و الخوف ؛ فكـأنهم مـع ذعـرهم وخـوفهم أرهقهم وأضـعفهم شيء ؛ فالذعر و الخوف في القلوب والرهق في الأبدان .

وهذه الآية تدل على أن الاستعاذة بـالجن حـرام ؛ لأنهـا لا تفيـد المستعيذ، بل تزيده رهقا ؛ فعـوقب بنقيض قصـده ، وهـذا ظـاهر ؛ فتكون الواو ضمير الجن والهاء ضمير الإنس .

وقيــل: إن الإنس زادوا الجن رهقــا؛ أي:اســتكبارا وتــوا، ولكن الصحيح الأول.

قوله : (برجال من الجن) ، يستفاد منه أن للجن رجـالا ، ولهم إناث ، وربما يجامع الرجـل من الجن الأنـثى من بـني آدم ، وكـذلك العكس الرجل من بني آدم قد يجـامع الأنـثى من الجن ، وقـد ذكـر الفقهاء الخلاف في وجوب الغسل بهذا الجماع .

والفقهـاء يقولـون في بـاب الغسـل : لـو قـالت : إن بهـا جنيـا يجامعها كالرجل ؛ وجب عليها الغسل ، وأما أن الرجل يجامع الأنثى من الجن ؛ فقد قيل ذلك ، لكن لم أره في كلام أهـل العلم ، وإنمـا أساطير تقال ، والله أعلم .

وعن خولـة بنت حكيم قـالت: سـمعت رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم يقـول: (من نـزل مـنزلاً، فقـال: أعـوذ بكلمـات اللـه

التامات من شر ما خلـق؛ لم يضـره شـيء حـتى يرحـل من منزلـه ذلك) رواه مسلم [1].

لكن علينـا أن نصـدق بوجـودهم، وأنهم مكلفـون، وبـأن منهم الصـالحين ومنهم دون ذلـك، وبـأن منهم المسـلمين والقاسـطين، وبأن منهم رجالاً ونساء.

وجه الاستشهاد بالآيـة: ذم المسـتعيذين بغـير اللـه، والمسـتعيذ بالشيء لا شك أنه قد علق رجاءه به، واعتمد عليـه، وهـذا نـوع من الشرك.

*   *   *

قولـه: (كلمـات)، من جمـوع القلـة؛ لأنـه جمـع مـؤنث سـالم، وجموع القلة من ثلاثة إلى عشرة، والكثرة ما فوق ذلك.

وقيل: جموع الكثرة من ثلاثة إلى ما لا نهايـة لـه؛ فيكـون جمـع القلة والكثرة يتفقان في الابتداء، ويختلفان في الانتهاء.

قال ابن مالك:

أفعله أفعل ثم فعلـــــه   ثمت أفعال جموع قلـــه

وبعض ذي بكثرة وضعاً يفي   كأرجل والعكس جاء كالصفي

والراجح: أن جموع القلة تدل على الكثرة بالدليل.

و(كلمـات): جمـع قلـة دال على الكـثرة لوجـود الـدليل، قـال تعالى : (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَـاتِ رَبِّي لَنَفِـدَ الْبَحْـرُ قَبْـلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ

مَدَداً) (الكهف:109).

وأبلـغ من هـذا قولـه تعـالى: (وَلَـوْ أَنَّمَـا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَـجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُـدُّهُ مِنْ بَعْـدِهِ سَـبْعَةُ أَبْحُـرٍ مَـا نَفِـدَتْ كَلِمَـاتُ اللَّهِ) (لقمان: من الآية27).

والمراد بالكلمات هنا: الكلمات الكونية والشرعية.

---

[1] مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء.

وقوله: (من نـزل مـنزلاً) يشـمل من نزلـه على سـبيل الإقامـة الدائمة، أو الطارئة، بدليل أنه نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم.

وقوله: (من نـزل مـنزلاً) يشـمل من نزلـه على سـبيل الإقامـة الدائمة، أو الطارئة بدليل أنه نكرة في سياق الشرط، والنكـرة في سـياق الشـرط تفيـد العمـوم. وقولـه: (أعـوذ) بمعـنى: ألتجئ وأعتصم.

1ـ الصدق في الأخبار.

2ـ العدل في الأحكام.

قال الله تعالى: (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً)(الأنعام:115).

قوله: (من شر ما خلق)، أي: من شر الذي خلق؛ لأن الله خلق كل شيء: الخير والشر، ولكن الشر لا ينسب إليه؛ لأنه خلق الشـر لحكمة، فعاد بهذه الحكمة خيراً، فكان خيراً.

وعلى هذا نقول: الشر ليس في فعـل اللـه، بـل في مفعولاتـه؛ أي: مخلوقاته.

وعلى هذا تكون (ما) موصولة لا غير؛ أي: من شر الـذي خلـق؛ لأنك لو أولتها إلى المصدرية وقلت: من شر خلقك؛ لكان الخلق هنا مصـدراً يجـوز أن يـراد بـه الفعـل، ويجـوز أيضـاً المفعـول، لكن لـو جعلتهـا اسـماً موصـولاً تعين أن يكـون المـراد بهـا المفعـول، وهـو المخلوق.

وليس كل ما خلق الله فيه شر، لكن تستعيذ من شره إن كـان فيه؛ شر لأن مخلوقات الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي:

1ـ شر محض إبليس باعتبار ذاتيهما، أمـا باعتبـار الحكمـة الـتي خلقهما الله من أجلها؛ فهي خير.

2ـ خير محض؛ كالجنة، والرسل، والملائكة.

3ـ فيه شر وخير؛ كالإنس، والجن، والحيوان.

وأنت إنما تستعيذ من شر ما فيه شر.

قوله: (لم يضره شيء)، نكرة في سياق النفي؛ فتفيـد العمـوم من شـر كـل ذي شـر من الجن والإنس وغـيرهم والظـاهر الخفي حتى يرتحل من منزله؛ لأن هذا خبر لا يمكن أن يتخلف مخبره؛ لأنه

كلام الصادق المصدوق، لكن إن تخلف؛ فهو لوجود مـانع لا لقصـور السبب أو تخلف الخبر.

ونظير ذلك كل ما أخـبر بـه النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم من الأسباب الشرعية إذا فعلت ولم يحصل المسبب فليس ذلـك لخلـل في السبب، ولكن لوجود مانع، مثل:

قراءة الفاتحـة على المرضـى شـفاء، ويقرأهـا بعض النـاس ولا يشفى المريض، وليس ذلك قصوراً في السبب، بل لوجود مانع بين السبب وأثره.

ومنه: التسمية عند الجماع؛ فإنهـا تمنـع ضـرر الشـيطان للولـد، وقد توجد التسـمية ويضـر الشـيطان الولـد؛ لوجـود مـانع يمنـع من حصول أثر هذا السبب، فعليك أن تفتش ما هـو المـانع حـتى تزيلـه فيحصل لك أثر السبب.

قال القرطـبي: وقـد جـربت ذلـك؛ حـتى إني نسـيت ذات يـوم، فدخلت منزلي ولم أقل ذلك، فلدغتني عقرب.

والشاهد من الحديث: قوله: (أعوذ بكلمات الله).

والمؤلف يقول في الترجمة: الاستعاذة بغير الله، وهنا اسـتعاذة بالكلمات، ولم يستعذ بالله؛ فلماذا ؟

أجيب: أن كلمات الله صفة من صـفاته، ولهـذا اسـتدل العلمـاء بهــذا الحــديث على أن كلام اللــه من صــفاته غــير مخلــوق؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز في مثل هذا الأمر، ولو كانت الكلمـات مخلوقة ما أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى الاستعاذة بها.

ولهذا كان المراد من كلام المؤلف: الاستعاذة بغير اللـه؛ أي: أو صفة من صفاته.

وفي الحديث: (أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجـد وأحـاذر) [1]، وهنـا اسـتعاذ بعـزة اللـه وقدرتـه، ولم يسـتعذ باللـه، والعـزة والقدرة من صفات الله، وهي ليست مخلوقة.

ولهذا يجوز القسم بالله وبصفاته؛ لأنها غير مخلوقة.

أما القسم بالآيات،فإن أراد الآيـات الشـرعية؛ فجـائز، وإن أراد الآيات الكونية؛ فغير جائز.

---

[1] مسلم: كتاب السلام/باب استحباب وضع يده على موضع الألم.

أما الاستعاذة بالمخلوق؛ ففيها تفصيل، فإن كان المخلوق لا يقدر عليه؛ فهي من الشرك، قال شيخ الإسلام ابن تيميه: (لا يجوز الاستعاذة بالمخلوق عند أحد من الأئمة)، وهذا ليس على إطلاقه، بل مرادهم مما لا يقدر عليه إلا الله؛ لأنه لا يعصمك من الشر الذي لا يقدر عليه إلا الله؛ سوى الله.

ومن ذلك أيضاً الاستعاذة بأصحاب القبور؛ فإنهم لا ينفعون ولا يضرون؛ فالاستعاذة بهم شرك أكبر، سواء كان عند قبورهم أم بعيداً عنهم.

أما الاستعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه؛ فهي جائزة، وقد أشار إلى ذلك الشارح الشيخ سليمان في (تيسير العزيز الحميد)، وهو مقتضى الأحاديث

الواردة في (صحيح مسلم) لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الفتن؛ قال: (فمن وجد من ذلك ملجأ؛ فليعذ به) [1] .

وكذلك قصة المرأة التي عاذت بأم سلمة [2] ، والغلام الذي عاذ بالنبي صلى الله عليه وسلم [3] ، وكذلك في قصة الذين يستعيذون بالحرم والكعبة [4] ، وما أشبه ذلك.

وهذا هو مقتضى النظر، فإذا اعترضني قطاع طريق، فعذت بإنسان يستطيع أن يخلصني منهم؛ فلا شيء فيه.

لكن تعليق القلب بالمخلوق لا شك أنه من الشرك، فإذا علقت قلبك ورجاءك وخوفك وجميع أمورك بشخص معين، وجعلته ملجأ؛ فهذا شرك؛ لأن هذا لا يكون إلا لله.

وعلى هذا؛ فكلام الشيخ رحمه الله في قوله؛ (إن الأئمة لا يجوزون الاستعاذة بمخلوق) مقيد بما لا يقدر عليه إلا الله، ولولا أن

---

[1] البخاري: كتاب الفتن/باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، ومسلم: كتاب الفتن/باب نزول الفتن.

[2] مسلم: كتاب الحدود/ باب حد قطع السارق الشريف وغيره ....

[3] مسلم: كتاب الأيمان/ باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده.

[4] مسلم: كتاب الفتن/ باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت

النصوص وردت بالتفصيل لأخذنا الكلام على إطلاقه، وقلنا: لا يجـوز الاستعاذة بغير الله مطلقاً.

* * *

- فيه مسائـــل :

الأولى : تفسـير آيـة الجن. الثانيـة: كونـه من الشـرك. الثالثـة: الاستدلال على ذلـك بالحـديث ؛ لأن العلمـاء يسـتدلون بـه على أن كلمات الله غـير مخلوقـة؛ قـالوا: لأن الاسـتعاذة بـالمخلوق شـرك. الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره. الخامسة: أن كون الشـيء يحصل به منفعة دنيوية؛ من كف شر أو جلب نفع؛ لا يـدل على أنــه ليس من الشرك.

فيه مسائـل :

- الأولى : تفسير آية الجن ، وقد سبق ذلك في أول الباب.
- الثانية : كونه من الشرك، أي: الاستعاذة بغير الله، وقد سبق التفصيل في ذلك .
- الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحـديث؛ لأن العلمـاء يستدلون بـه على أن كلمـات اللــه غـير مخلوقـة؛ لأن الاسـتعاذة بالمخلوق شرك، وجه الاستشهاد: أن الاسـتعاذة بكلمـات اللــه لا تخرج عن كونها استعاذة بالله؛ لأنها صفة من صفاته.
- الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصـاره، أي: فائدته، وهي أنه لا يضرك شيء ما دمت في هذا المنزل.
- الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيويـة من كـف شـر أو جلب نفـع، لا يـدل على أنـه ليس من الشـرك، ومعنى كلامه: أنه قد يكون الشيء من الشـرك، ولـو حصـل لـك فيــه منفعــة؛ فلا يلــزم من حصــول النفــع أن ينتفي الشــرك؛ فالإنسان قد ينتفع بما هو شرك.

مثال ذلك: الجن؛ فقد يعيذونك، وهذا شرك مع أن فيه منفعة.

مثال آخر: قد يسجد إنسان لملك، فيهبه أموالاً وقصوراً، وهذا شرك مع أن فيه منفعة، ومن ذلك ما يحصل لغلاة المداحين لملوكهم لأجل العطاء؛ فلا يخرجهم ذلك عن كونهم مشركين.

قال بعضهم:

فكن كما شئت يا من لا نظير له وكيف شئت فما خلق يدانيك

وفي الحديث فائدة، وهي: أن الشرع لا يبطل أمراً من أمور الجاهلية إلا ذكر ما هو خير منه؛ ففي الجاهلية كانوا يستعيذون بالجن، فأبدل بهذه الكلمات، وهي: أن يستعيذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.

وهذه الطريقة هي الطريقة السليمة التي ينبغي أن يكون عليها الداعية، أنه إذا سد الناس باب الشر؛ وجب عليه أن يفتح لهم باب الخير، ولا يقول: حرام، ويسكت، بل يقول: هذا حرام، وافعل كذا وكذا من المباح بدلاً عنه، وهذا له أمثلة في القرآن والسنة.

فمن القرآن قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا)(البقرة: من الآية104) ، فلما نهاهم عن قول (راعنا) ذكر لهم ما يقوم مقامه وهو (أنظرنا).

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : لمن نهاه عن بيع الصاع من التمر الطيب بالصاعين، والصاعين بالثلاثة:(بع الجمع بالدراهم، واشتر بالدراهم جنيباً)[1]

فلما منعه من المحذور؛ فتح له الباب السليم الذي لا محذور فيه.

* * *

باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

قوله: (من الشرك)، من : للتبعيض ؛ فيدل على أن الشرك ليس مختصا بهذا الأمر .

---

[1] البخاري : كتاب البيوع/باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل.

و الاستغاثة : طلب الغوث ، وهو إزالة الشدة .

وكلام المؤلف رحمه الله ليس على إطلاقه ، بل يقيد بما لا يقدر عليه المستغاث به ، إما لكونه ميتا ، أو غائبا ، أو يكون الشيء مما لا يقدر على أزالته إلا الله تعالى، فلو استغاث بميت ليدفع عنه أو بغائب أو بحي حاضر لينزل المطر، فهذا كله من الشرك ، و لو استغاث بحي حاضر فيما يقدر عليه كان جائزا ، قال الله تعالى: (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ)(القصص: من الآية15).

وإذا طلبت من أحد الغوث وهو قادر عليه ؛ فإنه يجب عليك تصحيحا لتوحيدك أن تعتقد أنه مجرد سبب ، وأنه لا تأثير له بذاته في إزالة الشدة ؛ لأنك ربما تعتمد عليه وتنسى خالق السبب ، وهذا قادح في كمال التوحيد .

قوله : (أو يدعو غيره) ، معطوف على قوله : (أن يستغيث) ؛ فيكون المعنى : من الشرك أن يدعو غير الله ، وذلك لأن الدعاء من العبادة ، قال الله تعالى : (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) (غافر:60) ، (عبادتي) ؛ أي دعائي ؛ فسمى الله الدعاء عبادة .

وقال صلى الله عليه وسلم : (إن الدعاء هو العبادة)[1] .

والدعاء ينقسم إلى قسمين :

1-ما يقع عبادة ، وهذا صرفه لغير الله شرك ، وهو المقرون بالرهبة و الرغبة ، والحب ، و التضرع .

---

[1] مسند الإمام أحمد (4/267) ، والترمذي : الدعوات /باب الدعاء مخ العبادة ، وقال : (حديث حسن صحيح) ، والحاكم (1/490) ـ وصححه ووافقه الذهبي ـ.

2-ما لا يقع عبادة ؛ فهذا يجوز أن يوجه إلى المخلوق ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من دعاكم فأجيبوه)[2]،وقال : (إذا دعاك فأجبه)[3]، وعلى هذا ؛ فمراد المؤلف بقوله : (أو يدعو غيره) دعاء العبادة أو دعاء المسألة فيما لا يمكن للمسئول إجابته .

قوله : (أن يستغيث) ، أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مبتدأ مؤخر، وخبرها مقدم ، وهو قوله : من الشرك ، و التقدير : من الشرك بغير الله ، والمبتدأ يكون صريحا ومؤولا .

فالمبتدأ الصريح مثل : زيد قائم ، والمؤول مثل : (وأن تصوموا خير لكم) (البقرة 184) ؛ أي : وصوموا خير لكم .

وقوله : (أو يدعو) هذا من باب عطف العام على الخاص ؛ لأن الاستغاثة دعاء بإزالة الشدة فقط ، والدعاء عام لكونه لجلب منفعة ، أو لدفع مضرة .

وقد ذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب عدة آيات :

* * *

وقول الله تعالى (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) (يونس:106).

- ▪ الآية الأولى قوله : (ولا تدع من دون الله) .

ظاهر سياق الآية أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وسواء كان خاصا به أو عاما له ولغيره ؛ فإن بعض العلماء قال : لا يصح أن يكون للرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يستحيل أن يقع منه ذلك ، والآية على تقدير قل ، وهذا ضعيف جدا ، وإخراج للآيات عن سياقها .

والصواب : أنه خاص بالرسول صلى الله عليه وسلم والحكم له ولغيره ، وأما عام لكل من يصح خطابه ويدخل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكونه يوجه إليه مثل هذا الخطاب لا يقتضي أن يكون ممكنا منه ، قال تعالى : (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (الزمر:65)؛

---

[2] تقدم (ص110) .

[3] تقدم (ص149) .

فالخطاب له ولجميع الرسل ، ولا يمكن أن يقع منه باعتبـار حالـه لا باعتبار كونه إنسانا وبشرا .

إذا؛ فالحكمة من النهي أن يكون غيره متأسـيا بـه ، فـإذا كـان النهي موجها إلى من لا يمكن منه باعتبار حاله ؛ فهو إلى من يمكن منه من باب أولى .

وقوله : (ولا تدع من دون الله) ، الدعاء : طلب ما ينفع ، أو طلب دفع ما يضر ، وهو نوعان كما قال أهل العلم :

الأول:دعاءعبادة وهو أن يكون قائمـا بأمراللـه؛لأن القـائم بـأمر الله –كالمصلي، و الصائم ، والمزكي – يريد بذلك الثـواب و النجـاة من العقاب ، ففعله متضـمن للـدعاء بلسـان الحـال ، وقـد يصـحب فعله هذا دعاء بلسان المقال .

الثاني : دعـاء مسـألة ، وهـو طلب مـا ينفـع ، أو طلب دفـع مـا يضره .

فالأول لا يجوز صرفه لغير الله ، والثاني فيه تفصيل سبق .

قوله : (من دون الله) ، أي : سوى الله .

قوله : (مالا ينفعك) ، أي : ما لا يجلب لك النفع لو عبدته .

(ولا يضرك) : قيل : لا يـدفع عنـك الضـر ، وقيـل : لـو تـركت عبادته لا يضرك ؛ لأنه لا يستطيع الانتقام ، وهو الظاهر من اللفظ .

قوله : (ولا تدع من دون الله مـا لا ينفعـك ولا يضـرك) ؛ أي : لأنه لا ينفعك و لا يضرك ، وهذا القيد ليس شـرطا بحيث يكـون لـه مفهوم ؛ فيكون لـك أن تـدعو من ينفعـك ويضـرك ، بـل هـو لبيـان الواقع ؛ لأن المدعو من دون الله لا يحصل منه نفع ولا ضرر ، قـال الله تعالى: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْـتَجِيبُ لَـهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَـافِلُونَ *وَإِذَا حُشِـرَ النَّاسُ كَـانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) (الاحقاف:5،6).

ومن القيد الذي ليس بشرط ، بل هو لبيـان الواقـع قولـه تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُـدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) (البقرة: من الآية21).

فإن قوله: (والذي خلقكم و الذين من قبلكم) لبيـان الواقـع ؛ إذ ليس هناك رب ثان لم يخلقنا والذين من قبلنا .

ومنه قوله تعـالى : (وَرَبَـائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُـورِكُمْ)(النسـاء: من الآية23)؛ فهذا بيان للواقع الأغلب .

ومنه قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْـتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)(لأنفال: من الآية24)؛ فهـذا بيـان للواقـع ؛ إذ دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم إيانا كله لما يحينا .

وكل قيد يراد به بيان الواقع؛ فإنه كالتعليـل للحكم؛ فمثلا قولـه تعالى: (يا

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم)(البقرة: من الآية21)

وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اسـتجيبوا للـه وللرسـول إذا دعاكم لما يحييكم) ؛ أي : لأنه لا يدعوكم إلا لما يحييكم .

وكذلك قوله تعـالى : (ولا تـدع من دون اللـه مـا لا ينفعـك و لا يضرك)؛ أي : لأنه لا ينفعك ولا يضرك ؛ فعلى هذا لا يكون هذا القيد شرطا ، وهذه يسميها بعض الناس صفة كاشفة .

قوله : (فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) ، أي : إن دعــوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، والخطاب للرسول صلى اللـه عليه وسلم .

(إن) : شرطية ، وجواب الشرط جملة : (فإنك إذا) .

و(إذا) ؛ أي : حال فعلك من الظالمين ، وهو قيـد ، لأن (إذا) للظرف الحاضـر ، أي : فإنـك حـال فعلـه من الظـالمين ، لكن قـد تتوب منه فيزول عنـك وصـف الظلم ؛ فالإنسـان قبـل الفعـل ليس بظالم ، وبعد التوبـة ليس بظـالم ، لكن حين فعـل المعصـية يكـون ظالما كما قال صلى الله عليه وسلم : (لا يزني الزاني حين يــزني وهو مؤمن)[1] ؛ فنفى الإيمان عنه حال الفعل .

ونـوع الظلم هنـا ظلم شـرك ، قـال اللـه تعـالى : (إِنَّ الشِّـرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)(لقمــان: من الآية13)، وعـــبر اللـــه بقولـــه : (من الظالمين) ، ولم يقل : من المشركين ؛ لأجل أن يـبين أن الشـرك ظلم ؛ لأن كون الداعي لغير الله مشركا أمر بين ، لكن كونه ظالما قد لا يكون بينا من الآية .

---

[1] سبق (ص66) .

* * *

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ)(يونس: من الآية 107).

---

* الآيـة الثانيـة قولـه : (وإن يمسسـك)، أي : يصـيبك بضـر ؛ كالمرض ، و الفقر ، ونحوه .

قولـــه : (فلا كاشـــف لـــه إلا هـــو) . (لا): نافيـــة للجنس و اسمها : (كاشف)، وخبرها:(له)، و(إلا هو) بدل، وإن قلنا بجواز كون خبرها معرفة صار (هو) الخبر .

أي : ما أحـد يكشـفه أبـدا إذا مسـك اللـه بضـر إلا اللـه ، وهـذا كقول النبي صلى الله عليه وسـلم : (واعلم أن الأمـة لـو اجتمعـوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك)[1] .

قوله : (وإن يردك بخير) ، هنا قال (يردك) ، وفي الضر قال : (يمسسك) فهل هذا من باب تنويع العبارة ، أو هناك فرق معنوي ؟

الجـواب : هنـاك فـرق معنـوي ، وهـو أن الأشـياء المكروهـة لا تنسب إلى إرادة الله ، بل تنسب إلى فعله ؛ أي : مفعوله .

فـالمس من فعـل اللـه ، والضـر من مفعولاتـه ؛ فاللـه لا يريـد الضر لذاته ، بل يريده لغيره ؛ لمـا يـترتب عليـه من الخـير ، ولمـا وراء ذلـك من الحكم البالغـة ، وفي الحـديث القدسـي : (إن من عبادي من لو أغنيته أفسده الغنى)[2] .

---

[1] مسند الإمام أحمد (1/293)ـ –وصححه أحمد شاكر (2669)، والترمذي: أبـواب صـفة القيامة /بـاب ولكن يا حنظلة ساعة و ساعة ، 7/203-وقال : (حديث حسن صحيح) -.

[2] من حديث أنس ، رواه : الطبراني .

أما الخير ؛ فهو مراد لله لذاته ، ومفعول لـه ، ويقـرب من هـذا ما في سورة الجن:(وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَـرٌّ أُرِيـدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً) (الجـن:10) .

فإذا أصيب الإنسان بمرض؛ فالله لم يرد بـه الضـرر لذاتـه، بـل أراد المرض ، وهو يضره ، لكن لم يـرد ضـرره ، بـل أراد خـيرا من وراء ذلـك ، وقـد تكـون الحكمـة ظـاهرة في نفس المصـاب، وقـد تكون ظاهرة في غيره؛ كما قال الله تعالى : (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِـيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَـدِيدُ الْعِقَـابِ) (لأنفـال: 25) .

فـالمهم أنـه ليس لنـا أن نتحجـر حكمـة اللـه ؛ لأنهـا أوسـع من عقولنا ، لكننا نعلم علم اليقين أن اللـه لا يريـد الضـرر لأنـه ضـرر ؛ فالضرر عند الله ليس مرادا لذاته ، بل لغـيره ، ولا يـترتب عليـه إلا الخير ، أما الخير ؛ فهو مراد لذاتـه ، ومفعـول لـه ، واللـه أعلم بمـا أراد بكلامه ، لكن هذا الذي يتبين لي .

قوله : (فلا راد لفضله) ، أي : لا يسـتطيع أن يـرد فضـل اللـه أبدا ، ولو اجتمعت الأمة على ذلك ، وفي الحديث: (اللهم ! لا مـانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت)[1] .

وعليـه ؛ فنعتمـد على اللـه في جلب النـافع ، ودفـع المضـار ، وبقـاء مـا أنعم علينـا بـه ، ونعلم أن الأمـة مهمـا بلغت من المكـر والكيد والحيل لتمنع فضل الله؛ فإنها لا تستطيع .

قوله : (يصيب به من يشاء) ، الضمير إما أن يعود إلى الفضل ؛ لأنه أقرب ، أو إلى الخير ؛ لأنه هو الذي يتحدث عنـه ، ولا يختلـف المعنى بذلك .

قولـه : (من يشـاء) ، كـل فعـل مقيـد بالمشـيئة ؛ فإنـه مقيـد بالحكمة ؛ لأن

وقوله : (فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ)(العنكبوت: من الآية17).

مشيئة الله ليست مجردة يفعل ما يشاء لمجرد أنه يفعله فقط ؛ لأن من صـفات اللـه الحكمـة ، ومن أسـمائه الحكيم ، قـال اللـه تعالى : (وَمَا تَشَـاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ عَلِيمـاً حَكِيمـاً) (الانسان:30).

---

[1] البخاري : كتاب صفة الصلاة / باب الذكر بعد الصلاة ، ومسلم : كتاب المساجد /باب استحباب الـذكر بعد الصلاة.

قوله : (وهو الغفور الرحيم) ، أي : ذو المغفـرة ، والمغفـرة : ستر الذنب والتجاوز عنـه ، مـأخوذ من المغفـر ، وهـو مـا يتقي بـه السهام ، والمغفرة فيه ستر ووقاية .

والرحيم ؛ أي : ذو الرحمة ، وهي صفة تليق بالله ـ عز وجل ـ ، تقتضي الإحسان والإنعام .

الشاهد قوله : (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعـك ولا يضـرك) في الآية الأولى ؛ فقد نبه الله نبيه أن من يدعو أحدا من دون الله (أي : من سواه)) لا ينفعه و لا يضره .

قوله في الآية الثانية : (وإن يمسسك الله ضـر فلا كاشـف لـه فلا هو) .

* * *

▪ ▪ الآية الثالثة قوله : (فابتغوا عند الله الرزق) .

لو أتي المؤلف بأول الآية : (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا) لكان أولى ؛ فهم يعبدون هذه الأوثان من شجر وحجر وغيرها ، وهي لا تملك لهم رزقا أبدا ، لو دعوها إلى يوم القيامة ما أحضرت لهم ولا حبة بر ، ولا دفعت عنهم أدنى مرض أو فقر، فإذا كانت لا تملك الرزق؛ فالذي يملكه هو الله ، ولهذا قال : (فابتغوا عند الله الرزق)؛ أي : اطلبوا عند الله الرزق ؛

لأنه سبحانه هو الذي لا ينقضي ما عنده ، (مَا عِنْـدَكُمْ يَنْفَـدُ وَمَـا عِنْدَ اللَّهِ بَاق)(النحل: من الآية96)، والرزق هو العطاء كما قال الله تعالى : (فارزقوهم منه) .

قوله: (عند الله) : عند الله : حـال من الـرزق ، وقـدم الحـال مع أن موضعها التأخير عن صاحبها لإفادة الحصـر؛ إذ إن تقـديم مـا حقه التأخير يفيد الحصر؛ أي : فابتغوا الرزق حال كونه عنـد اللـه لا عند غيره .

قوله : (واعبدوه) ، أي : تذللوا بالطاعة ؛ لأن العبادة مــأخوذة من التعبيد، وهو التذليل ، ومنه قولهم : طريـق معبـد ؛ أي : مـذلل للسـالكين ، قـد أزيـل عنـه الأحجـار والأشـجار المؤذيـة ؛ لأنكم إذا

تذللتم له بالطاعة ؛ فهو من أسباب الرزق ، قال تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ)(الطلاق: من الآية3،4)؛ فأمر أن نطلب الرزق عنده، ثم أعقبه بقوله: (واعبدوه) إشارة إلى أن تحقيق العبادة من طلب الرزق ؛ لأن العابد ما دام يؤمن أن من يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ؛ فعبادته تتضمن طلب الرزق بلسان الحال .

قوله : (واشكروا له) ، إذا أضاف الله الشكر له متعديا باللام ؛ فهو إشارة إلى الإخلاص ؛ أي : واشكروا نعمة الله لله ؛ فاللام هنا لإفادة الإخلاص ؛ لأن الشاكر قد يشكر الله لبقاء النعمة ، وهذا لا بأس به ، ولكن كونه شكر لله وتأتي إرادة بقاء النعمة تبعاً هذا هو الأكمل والأفضل.

والشكر فسروه بأنه: القيام بطاعة المنعم، وقالوا: إنه يكون في ثلاثة مواضع:

1ـ في القلب، وهو أن يعترف بقلبه أن هذه النعمة من الله، فيرى لله فضلاً عليه بها، قال تعالى: (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) (النحل: من الآية53)، وأعظم نعمة هي نعمة الإسلام، قال تعالى: (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا

عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)(الحجرات: من الآية17)، وقال تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)(آل عمران: من الآية 164).

2ــ اللسان، وهو أن يتحدث بها على وجه الثناء على الله والاعتراف وعدم الجحود، لا على سبيل الفخر والخيلاء والترفع على عباد الله؛ فيتحدث بالغنى لا ليكسر خاطر الفقير، بل لأجل الثناء على الله، وهذا جائز كما في قصة الأعمى من بني إسرائيل لما ذكرهم الملك بنعمة الله، قال: (نعم، كنت أعمى فرد الله علي بصري، وكنت فقيراً فأعطاني الله المال)؛ فهذا من باب التحدث بنعمة الله.

والنبي صلى الله عليه وسلم تحدث بنعمة الله عليه بالسيادة المطلقة: فقال: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة) [1]

([1] مسلم: كتاب الفضائل/ باب تفضيل النبي صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق.

3ـ الجوارح، وهو أن يستعملها بطاعة المنعم، وعلى حسب ما يختص بهذه النعمة.
فمثلاً: شكر الله على نعمة العلم: أن تعمل به، وتعلمه الناس.
وشكر الله على نعمة المال: أن تصرفه بطاعة الله، وتنفع الناس به.
وشكر الله على نعمة الطعام: أن تستعمله فيما خلق له، وهو تغذية البدن؛ فلا تبني من العجين قصراً مثلاً؛ فهو لم يخلق لهذا الشيء.
قوله: (إليه ترجعون)، الجار والمجرور متعلق بـ (ترجعون)، وتقديمه دل على الحصر، أي أن رجوعنا إلى الله ـ سبحانه ـ ، وهو الذي سيحاسبنا

وقوله: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)(الاحقاف: من الآية5) .

على ما حملنا إياه من الأمر بالعبادة، والأمر بالشكر، وطلب الرزق منه.
والشاهد من هذه الآية: (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ)(العنكبوت: من الآية17)؛ فالفقير يستغيث بالله لكي ينجيه من الفقر، والله هو الذي يستحق الشكر، وإذا كانت هذه الأصنام لا تملك الرزق؛ فكيف تستغيث بها ؟ !
* الآية الرابعة قوله تعالى: (ومن أضل) ، (من): اسم استفهام مبتدأ، و(أضل) : اسم تفضيل؛ أي: لا أحد أضل من هذا.
والضلال: أنه يتيه الإنسان عن الطريق الصحيح.
وإذا كان الاستفهام مراد به النفي كان أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يحوله من نفي إلى تحد؛ أي: بين لي عن أحد أضل ممن يدعو من دون الله ؟ فهو متضمن للتحدي، وهو أبلغ من قوله: لا أضل ممن يدعو؛ لأنه هذا نفي مجرد، وذلك نفي مشرب معنى التحدي.

قولـه: (ممن يـدعو)، متعلـق بأضـل، ويـراد بالـدعاء هنـا دعـاء المسألة ودعاء العبادة.

قوله: (من دون الله)، أي: سواه.

قولـه: (من لا يسـتجيب لـه إلى يـوم القيامـة)، (من): مفعـول يدعو؛ أي لو بقي كل عمر الـدنيا يـدعو مـا اسـتجاب لـه، قـال اللـه تعالى : (إنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا

دُعَـاءَكُمْ وَلَـوْ سَـمِعُوا مَـا اسْـتَجَابُوا لَكُمْ وَيَـوْمَ الْقِيَامَـةِ يَكْفُـرُونَ بِشِرْكِكُمْ)(فـاطر: من الآية14)، والخـبر هنـا عن اللـه تعـالى، قـال تعـالى: (وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْـلُ خَبِـيرٍ)(فـاطر: من الآية14)، يعـني: نفسـه سبحانه وتعالى.

وقوله: (من لا يسـتجيب) أتى بــ (من)، وهي للعاقـل، مـع أنهم يعبدون الأصنام والأحجار والأشجار، وهي عاقلـة؛ لأنهم لمـا عبـدوها نزلوها منزلة العاقل، فخوطبوا بمقتضـى مـا يـدعون؛ لأنـه أبلـغ في إقامة الحجة عليهم في أنهم يدعون من يرونهم عقلاء، ومع ذلــك لا يستجيبون لهم، وهذا من بلاغة القـرآن؛ لأنـه خـاطبهم بمـا تقتضـيه حالهم ليقيم الحجة عليهم؛ إذ لـو قيـل: مـا لا يسـتجيب لـه؛ لقـالوا: هناك عذر في عدم الاستجابة لأنهم غير عقلاء.

قوله: (وهم عن دعـائهم)، الضـمير في قولـه: (هم) يعـود على (من) باعتبـار المعـنى؛ لأنهم جماعـة، وضـمير يسـتجيب يعـود على (من) باعتبار اللفظ؛ لأنه مفرد، فأفرد الضـمير باعتبـار لفـظ (من)، وجمعه باعتبار لفظ (من)، وجمعه باعتبـار المعـنى؛ لأن (من) تعـود على الأصنام، وهي جماعة، و(من) قـد يـراعى لفظهـا ومعناهـا في كلام واحد.

ومنه قوله تعالى: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْـهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَـداً قَـدْ أَحْسَـنَ اللَّهُ لَـهُ رِزْقـاً) (الطلاق: من الآية11)؛ فهنا راعي اللفظ، ثم المعنى، ثم اللفظ.

قوله: (عن دعائهم)، الضمير في دعـائهم يعـود إلى المـدعوين، وهل المعنى: (وهم)؛ أي: الأصنام، (عن دعائهم)، أي: دعاء الداعين

إيـاهم، فيكـون من بـاب إضـافة المصـدر إلى مفعولـه، أو المعـنى: و(هم) عن دعاء العابـدين لهم؛ فيكـون (دعـاء) مضـافاً إلى فاعلـه، والمفعول محذوف ؟

الأول أبلغ، أي عن دعاء العابدين إياهم أبلـغ من دعـاء العابـدين على ســبيل الإطلاق، فــإذا قلت: (عن دعــائهم)؛ أي: عن دعـــاء العابـدين إيـاهم، وجعلت الضـمير هنـا يعـود على المـدعوين؛ صـار المعني أن هذه الأصنام غافلة عن دعوة هـؤلاء إيـاهم، ويكـون هـذا أبلغ في أن هذه الأصنام لا تفيد شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة.

قوله: (وإذا حشر الناس)، أي: يوم القيامة، (كانوا لهم أعداء) ، هل المعـنى: كـان العابـدون للمعبـودين أعـداء، أو كـان المعبـودون للعابدين أعداء؟

الجواب: يشمل المعنيين، وهذا من بلاغة القرآن.

الشاهد: قوله: (من لا يستجيب له إلى يوم القيامة)، فـإذا كـان من سوى اللـه لا يسـتجيب إلى يـوم القيامـة؛ فكيـف يليـق بـك أن تستغيث به دون الله؟ ! فبطل تعلق هؤلاء العابدين بمعبوداتهم.

فالذي يـأتي للبـدوي أو للدسـوقي في مصـر، فيقـول: المـدد ! المدد ! أو: أغثني؛ لا يغني عنه شـيئاً، ولكن قـد يبتلى فيأتيـه المـدد عند حصول هذا الشيء لا بهذا الشيء، وفرق بين ما يأتي بالشــيء وما يأتي عند الشيء.

مثال ذلك: امرأة دعت البدوي أن تحمـل، فلمـا جامعهـا زوجهـا حملت، وكانت سـابقاً لا تحمـل؛ فنقـول هنـا: إن الحمـل لم يحصـل بدعاء البدوي، وإنما حصل عنده لقوله تعـالى: (من لا يسـتجيب لـه إلى يوم القيامة).

أو يـــأتي للجيلاني في العـــراق، أو ابن عـــربي في ســـوريا، فيستغيث به؛ فإنه لا ينتفع، ولو بقي الواحـد منهم إلى يـوم القيامـة يدعو ما أجابه أحد.

والعجب أنهم في العـراق يقولـون: عنـدنا الحسـين، فيطوفـون بقبره ويسألونه، وفي مصر كذلك، وفي سوريا كـذلك ، وهـذا سـفه في العقول ،

وقوله : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ)(النمــل: من الآية62).

وضلال في الدين، والعامة قد لا يلامون في الواقــع، لكن الــذي يلام من عنده علم من العلماء ومن غير العلماء.

*   *   *

* الآية الخامسة قوله تعالى : (أمن)، أم: منقطعة، والفــرق بين المنقطعة والمتصلة ما يلي :

1ـ المنقطعة بمعنى بل، والمتصلة بمعنى أو.

2ـ المتصلة لا بد فيهـا من ذكـر المعـادل، والمتصـلة لا يشـترط فيها ذكر المعادل.

مثال ذلك: أعندك زيد أم عمرو؟ فهـذه متصـلة، وقولـه تعـالى: (أَمْ خُلِقُـوا مِنْ غَيْـرِ شَـيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَـالِقُونَ) (الطـور:35) متصـلة، وقوله تعالى:)أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْـطَرَّ إِذَا دَعَـاهُ)(النمـل: من الآية62) منقطعة؛ لأنه لم يذكر لها معادل؛ فهي بمعنى بل والهمزة.

قوله: (المضطر)، أصلها: المضترـ أي: الذي أصابه الضرر، قال تعالى: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّـرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الـرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَـهُ)(الانبيـاء: من الآية84)؛ فلا يجيب المضـطر إلا اللـه، لكن قيـده بقولـه: (إذا دعـاه)، أمـا إذا لم يدعـه؛ فقـد يكشـف اللـه ضره، وقد لا يكشفه.

قوله: (ويكشف السوء)، أي: يزيل السـوء، والسـوء: مـا يسـوء المرء، وهو دون الضرورة؛ لأن الإنسان قد يساء بما لا يضــره، لكن كل ضرورة سوء.

وقوله: (ويكشف السوء) هل هي متعلقة بما قبلها في المعـنى، وإنــه إذا أجابــه كشــف ســوءه، أو هي مســتقلة يجيب المضــطر إذا دعاه ثم أمر آخر يكشف السوء؟

الجواب: المعنى الأخير أعم؛ لأنها تشمل كشف سوء المضــطر وغيره،

ومن دعا الله ومن لم يدعه، وعلى التقدير الأول تكون خاصة بكشف سوء المضطر، ومعلوم أنه كلما كان المعنى أعم كان أولى، ويؤيد العموم قوله: (ويجعلكم خلفاء الأرض).

قوله: (ويجعلكم خلفاء الأرض) ، الذين يجعلهم الله خلفاء الأرض هم عباد الله الصالحون ، قال تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (الانبياء: 105)،وقال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً) (النور: من الآية55).

قوله: (أإله مع الله)، الاستفهام للإنكار أو بمعنى النفي، وهما متقاربان أي: هل أحد مع الله يفعل ذلك؟!

الجواب: لا ، وإذا كان كذلك؛ فيجب أن تصرف العبادة لله وحده، وكذلك الدعاء؛ فالواجب على العبد أن يوجه السؤال إلى الله تعالى، ولا يطلب من أحد أن يزيل ضرورته ويكشف سوءه وهو لا يستطيع.

* إشكال وجوابه:

وهو أن الإنسان المضطر يسأل غير الله ويستجاب له، كمن اضطر إلى طعام وطلب من صاحب الطعام أن يعطيه فأعطاه؛ فهل يجوز أم لا؟

الجواب: أن هذا جائز، لكن يجب أن نعتقد أن هذا مجرد سبب لا أنه مستقل؛ فالله جعل لكل شيء سبباً، فيمكن أن يصرف الله قلبه فلا يعطيك، ويمكن أن تأكل ولا تشبع فلا تزول ضرورتك، ويمكن أن يسخره الله ويعطيك.

* * *

روى الطبراني بإسناده [1] : أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق.

---

[1] الطبراني في (المعجم الكبير)، كما في (معجم الزوائد) (10/159).

قوله: (بإسناده)، يشير إلى أن هذا الإسناد ليس على شرط الصحيح، أو المتفق عليه بين الناس، بل هو إسناده الخاص، وعليه؛ فيجب أن يراجع هذا الإسناد فليس كل إسناد محدث قد تمت فيه شروط القبول.

وذكر الهيثمي في (مجمع الزوائد): (إن رجاله رجال الصحيح)؛ غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث، وابن لهيعة خلط في آخر عمره لاحتراق كتبه)، ولم يذكر المؤلف الصحابي، وفي الشرح هو عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

قوله: (في زمن النبي)، أي: عهده، وكان الكافر أولاً يعلن كفره ولا يبالي، ولما قوي المسلمون بعد غزوة بدر خاف الكفار؛ فصاروا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

قوله: (منافق)، المنافق: هو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وهؤلاء ظهروا بعد غزوة بدر.

ولم يسم المنافق في هذا الحديث؛ فيحتمل أنه عبد الله بن أبي؛ لأنه مشهور بإيذاء المسلمين، ويحتمل غيره.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله).

واعلم أن أذية المنافقين للمسلمين ليست بالضرب أو القتل؛ لأنهم يتظاهرون بمحبة المسلمين، ولكن بالقول والتعريض كما صنعوا في قصة الإفك.

قوله: (فقال بعضهم)، أي: الصحابة.

قوله: (نستغيث)، أي: نطلب الغوث وهو إزالة الشدة.

قوله: (من هذا المنافق)، إما بزجره، أو تعزيزه، أو بما يناسب المقام.

وفي الحديث إيجاز حذف دل عليه السياق؛ أي: فقاموا إلى رسول الله، فقالوا: يا رسول الله ! إنا نستغيث بك من هذا المنافق.

قوله: (إنه لا يستغاث بي) ، ظاهر هذه الجملة النفي مطلقاً، ويحتمل أن المراد: لا يستغاث به في هذه القضية المعينة.

فعلى الأول: يكون نفي الاستغاثة من باب سد الذرائع والتــأدب في اللفــظ، وليس من بــاب الحكم بــالعموم؛ لأن نفي الاســتغاثة بالرســول صــلى اللــه عليــه وســلم ليس على إطلاقــه، بــل تجــوز الاستغاثة به فيما يقدر عليه.

أما إذا قلنا: إن النفي عائد إلى القضية المعنيــة الــتي اســتغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسـلم منهـا؛ فإنـه يكـون على الحقيقـة، أي: على النفي الحقيقي، أي: لا يستغاث بي في مثل هذه القضــية؛ لأن النــبي صــلى اللــه عليــه وســلم كــان يعامــل المنــافقين معاملــة المسلمين، ولا يمكنه حسب الحكم الظاهر للمنـافقين أن ينتقم من هذا المنافق انتقاماً ظاهراً؛ إذ إن المنـافقين يسـتترون، وعلى هـذا؛ فلا يستغاث للتخلص من المنافق إلا بالله.

* * *

- • فيه مسائـل:

الأولى : أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العـام على الخاص. الثانية: تفسير قوله: (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعـك ولا يضرك). الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.

فيه مسائل :

* الأولى : أن عطـف الـدعاء على الاسـتغاثة من عطـف العـام على الخـاص، يعـني: حيث قـال في الترجمـة بـاب من الشـرك أن يستغيث بغير اللـه أو يـدعو غـيره، ووجـه ذلـك أن الاسـتغاثة طلب إزالــة الشــدة والــدعاء طلب ذلــك وغــيره، إذاً الاســتغاثة نــوع من الدعاء، والدعاء أعم؛ فهو من باب عطف العام على الخاص، وهـذا سـائغ في اللغـة العربيـة؛ فهـو كقولـه تعـالى: (يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ)(الحج: من الآية77).

* الثانية : تفسير قوله: (ولا تدع من دون اللــه مــا لا ينفعـك ولا يضرك)، الخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة، بدليل الآيات التي قبلها، قال تعالى: (وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَـكَ لِلـدِّينِ حَنِيفـاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (يونس:105).

فإن قيل: كيف ينهاه الله عن أمر لا يمكن أن يقع منع شرعاً؟

أجيب: إن الغـرض هـو التنديـد بمن فعـل ذلـك، كأنـه يقـول: لا تسلك هذا الطريق التي سلكها أهـل الضـلال، وإن كـان الرسـول لا يمكن أن يقع منه ذلك شرعاً.

* الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر، يؤخذ من قوله تعالى: (فَإِنْ فَعَلْتَ

الرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاء لغيره؛ صـار من الظـالمين. الخامسة: تفسير الآية التي بعدها. السادسة: كون ذلـك لا ينفـع في الدنيا مع كونه كفراً. السابعة: تفسير الآية الثالثة. الثامنـة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله؛ كما أن الجنة لا تطلب إلا منه.

فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ)، مضافاً إلى قوله تعالى: (إِنَّ الشِّـرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)(لقمان: من الآية13).

* الرابعـة: أن أصـلح النـاس لـو فعلـه إرضـاء لغـيره؛ صـار من الظالمين، تؤخذ من كون الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو أصلح الناس، فلو فعل ذلك إرضاء لغيره؛ صـار من الظـالمين، حتى ولو فعله مجاملة لإنسـان مشـرك، فـدعا صـاحب قـبر إرضـاء لذلك المشـرك؛ فإنـه يكـون مشـركاً؛ إذ لا تجـوز المحابـاة في دين الله.

* الخامسة: تفسير الآيـة الـتي بعـدها، وهي قولـه تعـالى: (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ . . .) الآية (الأنعام: من الآية 17)، فإذا كان لا يكشف الضر إلا اللـه؛ وجب أن تكـون العبـادة لـه وحده والاستغاثة به وحده.

* السادسة: كون ذلك لا ينفع في الـدنيا مـع كونـه كفـراً، تؤخـذ من قوله تعالى: (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو)، فلم ينتفع من دعائه هذا؛ فخسر الدنيا بذلك، والآخره بكفره.

* السابعة: تفسير الآية الثالثة، وهي قوله تعـالى: (فـابتغوا عنـد الله الرزق). وقوله: (عند الله) حال من الرزق، وعليه يكـون ابتغـاء الرزق عند الله وحدة.

* الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنــة لا تطلب إلا

التاسعة: تفسير الآية الرابعة . العاشرة : أنه لا أضل ممن دعا غير الله   الحادية عشرة : أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه . الثانية عشرة : أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعدواته له . الثالثة عشرة : تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو .

منه، تؤخذ من قوله تعالى : (واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) ؛ لأن العبادة سبب لدخول الجنة ، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله : (إليه ترجعون) .

- التاسعة : تفسير الآية الرابعة ،وهي من قوله تعالى : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)(الاحقاف: من الآية5) .
- العاشرة : أنه لا أضل ممن غير الله ، تؤخذ من قوله تعالى : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَ)(الاحقاف: من الآية5)؛ لأن الاستفهام هنا بمعنى النفي .
- الحادية عشرة : أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه ، لقوله تعالى: (وهم عن دعائهم غافلون) ، (وهم) ؛ أي : دعاء الداعين ، أو عن دعاء الداعين إياهم ؛ فالاحتمال في الضمير الثاني وهو قوله : (عن دعائهم) ، أما الضمير الأول ؛ فإنه يعود إلى المدعون لا ريب ، وقد سبق بيانه بالتفصيل .

*الثانية عشرة :أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له ، تؤخذ من قوله تعالى : (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) (الاحقاف:6) .

*الثالثة عشرة : تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو ، تؤخذ من قوله تعالى :

الرابعة عشرة : كفر المدعو بتلك العبادة . الخامسة عشرة : هي سبب كونه أضل الناس . السادسة عشرة : تفسير الآية الخامسة . السابعة عشرة : الأمر العجيب ، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله ، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين .

(وكانوا بعبادتهم كافرين) .

- الرابعة عشرة : كفر المدعو بتلك العبادة ، معـنى كفـر المدعو : رده وإنكاره ، فـإذا كـان يـوم القيامـة تـبرأ منـه وأنكـره . تؤخذ من قوله : (وكانوا بعبادتهم كافرين) .
- الخامسة عشرة : هي سبب كونه أضل الناس ، وذلك لأمور ، وهي :

1-أنه يدعو من دون الله من لا يستجيب له .
2-أن المدعوين غافلون عن دعائهم .
3-أنه إذا حشر الناس كانوا له أعداء.
4 -أنه كافر بعبادتهم .

- السادسة عشرة : تفسير الآيـة الخامسـة ، وهي قولـه تعالى : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) وقد سـبق ذلك .
- السـابعة عشـرة : الأمـر العجيب ، وهـو إقـرار عبـدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله ....إلخ ، وهـو كمـا قـال رحمـه اللـه : وهـذا موجـود الآن ؛ فمن النـاس من يسـجد للأصـنام الـتي صنعوها بأنفسهم تعظيما ، فإذا وقعوا في الشدة دعو الله مخلصين له الدين ، وكان عليهم أن يلجؤوا للأصنام لو كانت عبادتها

الثامنة عشرة : حماية المصطفى صـلى اللـه عليـه وسـلم حمى التوحيد و التأدب مع الله .

حقــا ، إلا أن من المشــركين اليــوم من هــو أشــد شــركا من المشركين السابقين، فإذا وقعوا في الشـدة دعـو أوليـاءهم ؛ كعلي والحسين ، وإذا كان الأمر سهلا دعوا الله، وإذا حلفوا حلفا هم فيــه صادقون حلفوا بعلي أو غيره من أوليائهم ، وإذا حلفوا حلفا هم فيه كاذبون حلفوا بالله ولم يبالوا .

- الثامنـة عشـرة : حمايـة المصـطفى حمى التوحيـد ، والتأدب مع اللـه . اختـار المؤلـف أن قولـه : (لايسـتغاث بي) من باب التأدب بالألفاظ ، والبعد عن التعلق بغير الله ، وأن يكون تعلق الإنسان دائما بالله وحده ؛ فهو يعلم الأمة أن تلجـأ إلى اللـه وحـده إذا وقعت في الشدائد ، ولا تستغيث إلا به وحده .

* * *

باب قول الله تعالى :

(أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَـيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُـونَ *وَلا يَسْـتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً)(لأعراف: من الآية 191،192).

---

* مناسبة الباب لما قبله :

لما ذكر رحمه الله الاستعاذة و الاستغاثة بغير الله ــ عـز وجـل ـ ؛ ذكر البراهين الدالة على بطلان عبادة ما سوى الله ، ولهذا جعل الترجمة لهذا الباب نفس الدليل ، وذكر رحمه الله ثلاث آيات :

* * *

- الآيـة الأولى و الثانيـة قولـه : (أيشـركون) ، الاستفهام للإنكار والتوبيخ؛ أي : يشركونه مع الله .

قوله : (ما لا يخلق) ، هنا عبر بـ (ما) دون (من) ، وفي قوله : (وَمَنْ أَضَـــلُّ مِمَّنْ يَـــدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْـــتَجِيبُ لَـــهُ) (الاحقاف: من الآية5) عبر بـ (من) .

والمناسبة ظاهرة ؛ لأن الداعين هناك نزلـوهم منزلـة العاقـل ، أما هنا؛ فالمدعو جماد ؛ لأن الذي لا يخلق شـيئا ولا يصـنعه جمـاد لا يفيد .

قوله : (شيئا) ، نكرة في سياق النفي ؛ فتفيد العموم .

قوله : (وهم يخلقون) ، وصف هذه الأصنام بالعجز والنقص .

والرب المعبود لا يمكن أن يكون مخلوقا ، بل هـو الخـالق ؛ فلا يجوز عليه الحدوث ولا الفناء .

والمخلوق : حادث ، والحادث يجـوز عليـه العـدم ؛ لأن مـا جـاز انعدامه أولا؛ جاز عقلا انعدامه آخرا .

فكيف يعبد هؤلاء من دون الله ؛ إذ المخلوق هو بنفسـه مفتقـر إلى خالقه وهو حادث بعد أن لم يكن ؛ فهو ناقص في إيجاده وبقائه ؟!

- • إشكال وجوابه :

قولـه : (مـا لا يخلـق) الضـمير بـالإفراد ، وقولـه : (وهم يخلقون) الضمير بالجمع ؛ فما الجواب ؟

أجيب : بـأن قولـه : (مـا لا يخلـق) عـاد الضـمير على (مـا) باعتبار اللفظ ؛ لأن (ما) اسم موصول ، لفظها مفرد ، لكن معناها الجمع ؛ فهي صـالحة بلفظهـا للمفـرد ، وبمعناهـا للجمـع ؛ كقولـه : (من لا يستجيب له) .

قوله:(وهم يخلقون) عاد الضمير على (مـا) باعتبـار المعـنى ؛ كقوله: (وهم عن دعائهم غافلون) .

قولـه : (ولا يسـتطيعون لهم نصـرا) ، أي : لا يقـدرون على نصرهم لو هاجمهم عدو ؛ لأن هؤلاء المعبودين قاصرون .

والنصر : الدفع عن المخذول بحيث ينتصر على عدوه.

قولـه : (ولا أنفسـهم ينصـرون) ، بنصـب أنفسـهم على أنـه مفعول مقدم ، وليس من بـاب الاشـتغال ؛ لأن العامـل لم يشـتغل بضمير السابق .

أي : زيـادة على ذلـك هم عـاجزون عن الانتصـار لأنفسـهم ؛ فكيف ينصرون غيرهم ؟!

فبين الله عجز هذه الأصنام ، وأنها لا تصلح أن تكون معبودة من أربعة وجوه ، هي :

وقوله:(وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ)(فاطر: من الآية13).

1-أنها لا تخلق ، ومن لا يخلق لا يستحق أن يعبد.
2-أنهم مخلوقون من العدم ؛ فهم مفتقرون إلى غيرهم ابتداء ودواما .
3-أنهم لا يستطعون نصر الداعين لهم ، وقوله : (لا يستطيعون) أبلغ من قوله : (لا ينصرونهم) ؛ لأنه لو قال : (لا ينصرونهم) ؛ فقد يقول قائل : لكنهم يستطيعون ، لكن لما قال : (لا يستطيعون لهم نصرا) كان أبلغ لظهور عجزهم .
4-أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم .

* * *

- الآية الثالثة قوله : (والذين تدعون من دونه) .

يشمل دعاء المسالة ، ودعاء العبادة ، و (من دونه) ؛ أي : سوى الله .

قوله : (ما يملكون من قطمير) ، (ما) : نافية ، (من) حرف زائد لفظا، وقيل : لا ينبغي أن يقال : حرف جر زائد في القرآن ، بل يقال : من : حرف صلة ، وهذا فيه نظر ؛ لأن الحروف الزائدة لها معنى ، وهو التوكيد ، وإنما يقال: زائد من حيث الإعراب ، وجملة (ما يملكون) خبر المبتدأ الذي هو (الذين).

وقوله : (من قطمير) ، القطمير : سلب نواة التمرة .

وفي النواة ثلاثة أشياء ذكرها الله في القرآن لبيان حقارة الشيء .

القطمير : وهو اللفافة الرقيقة التي على النواة .

الفتيل : وهو سلك يكون في الشق الذي في النواة .
النقير : وهي النقرة التي تكون على ظهر النواة .
فهؤلاء لا يملكون من قطمير ، فإن قيل : أليس الإنسان يملـك النخل كله كاملا ؟
أجيب : إنه يملكه ، ولكنه ملك ناقص ليس حقيقا ؛ فلا يتصـرف فيه إلاعلى حسب ما جاء به الشـرع ، فلا يملـك مثلا إحراقـه للنهي عن إضاعة المال .
قوله : (إن تدعوهم) ، جملة شـرطية ، تـدعو : فعـل الشـرط مجزوم بحذف النون ، والواو فاعل ، وأصلها : تدعونهم .
قوله : (لا يسـمعوا دعـاءكم) جـواب الشـرط مجـزوم بحـذف النون ، والواو فاعل .
قوله : (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) ، أي : إن هـذه الأصـنام لو دعوتموها ما سمعت ، ولو فرض أنها سمعت ما استجابت ؛ لأنها لا تقدر على ذلك ، ولهذا قال إبراهيم عليـه السـلام لأبيـه : (يَـا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْـكَ شَـيْئاً)(مـريم: من الآية 42).
فـإذا كـانت كـذلك ؛ فـأي شـيء يـدعو إلى أن تـدعى من دون اللـه ؟ ! بـل هـذا سـفه ، قـال اللـه تعـالى : (وَمَنْ يَـرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)(البقرة: من الآية130) قوله : (ويـوم القيامة يكفرون بشـرككم) هـو كقولـه تعـالى : (وَإِذَا حُشِـرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) (الاحقاف:6) .
فهـؤلاء المعبـودون إن كـانوا يبعثـون ويحشـرون ؛ فكفـرهم بشركهم ظاهر كمن يعبد عزيزا و المسيح .
وإن كانوا أحجارا وأشجارا ونحوها ؛ فيحتمل أن يشـملها ظـاهر الآية، وهو أن الله يأتي بهـذه الأحجـار ونحوهـا ؛ فتكفـر بشـرك من يشرك بها ، ويؤيده

قولــه تعــالى:(إِنَّكُمْ وَمَـا تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَـبُ جَهَنَّم) (الانبياء:من الآية98) ، وما ثبت في (الصـحيحين) عن النـبي صـلى الله عليه وسلم (أنه عند بعث الناس يقال لكل أمة : لتتبع كل أمـة مـا كـانت تعبـد من دون اللـه)[1] ؛ فـالحجر يكـون أمـامهم يـوم القيامة ، ويكون له كلام ينطـق بـه ، ويكفـر بشـركهم ، فـإذا كـانت المعبودات تحضر وتحصب في النار إهانة لعابديها وتحضر لتتبـع إلى النار ؛ فلا غرو أن تكفر بعابديها إذا أحضرت .

قوله : (ولا ينبئك مثل خبير) (فـاطر 14) ، هـذا مثـال يضـرب لمن أخبر بخبر ورأى شكا عند خاطبه به ؛ فيقـول : ولا ينبئـك مثـل خبير ، معناه : أنه لا يخبرك بالخبر مثل خبير به ، وهو اللـه ؛ لأنـه لا يعلم أحد ما يكون في يوم القيامة إلا الله ، وخبره خـبر صـدق؛ لأن الله تعالى يقول:(ومن أصدق من الله قيلا)(النساء :122).

والخبير : العالم ببواطن الأمور .

- مسألة :

هل يسمع الأموات السلام ويردونه على من سلم عليهم ؟

اختلف في ذلك على قولين :

القول الأول : أن الأموات لا يسمعون السلام ، وأن قول النــبي صلى الله عليه وسلم حين زيارة القبور:(السلام عليكم) دعــاء لا يقصد به المخاطبة ، ثم على فـرض أنهم يسـمعون كمـا جـاء الحديث الذي صححه ابن عبد البر وأقره ابن القيم :

(الإنسان إذا سلم على شـخص يعرفـه في الـدنيا رد اللـه عليـه روحه فرد السلام)[1] وعلى تقدير صـحة هـذا الحـديث إذا كـانوا يسمعون السلام ويردونه؛ فلا يلزم أن يسـمعوا كـل شـيء ، ثم لـو فـرض أنهم يسـمعون غـير السـلام ؛ فـإن اللـه صـرح بـأن المـدعوين من دون اللـه لا يسـمعون دعـاء من يـدعونهم ؛ فلا يمكن أن نقول : أنهم يسمعون دعاء من يدعون ؛ لأن هذا كفـر

([1] البخاري : كتاب التوحيد /باب قول الله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة)، ومسلم : كتـاب الإيمـان /بـاب معرفة طريق الرؤية .

(1)ذكره السيوطي في (الجامع الصغير) ، 2/151، وابن عبد البر في (الاستذكار) ، 2/164، وانظر (الروح) لابن القيم (1/167) ، وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (24/331) .

(2) (2)مسلم : كتاب الجنائز /باب ما يقال عند دخول القبور .

بالقرآن ؛ فتبين هـذا أنـه لا تعـارض بين قولـه صـلى اللـه عليـه وسلم : (السلام عليكم دار قوم مؤمنين)[2] وبين هذه الآية .

وأما قولـه : (ولـو سـمعوا) ؛ فمعنـاه : لـو سـمعوا فرضـا مـا استجابوا لكم ؛ لأنهم لا يستطيعون .

القول الثاني : أن الأموات يسمعون .

واسـتدلوا على ذلـك بالخطـاب الواقـع في سـلام الزائـر لهم بالمقبرة .

وبما ثبت في (الصحيح) من أن المشيعين إذا انصـرفوا سـمع المشيع قرع نعالهم[3] .

والجـواب عن هـذين الـدليلين : أمـا الأول ؛ فإنـه لا يلـزم من السلام عليهم أن يسـمعوا ، ولهـذا كـان المسـلمون يسـلمون على النبي صلى الله عليه وسلم في حياته في التشهد[4] ،

وهو لا يسمعهم قطعا .

وفي الصحيح ، عن أنس قال : شج النبي صلى الله عليه وسلم يـوم أحـد ، وكسـرت رباعيتـه ، فقـال : (كيـف يفلح قـوم شـجوا نبيهم ؟) ، فنزلت : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْء)(آل عمران: من الآية 128)[1].

أما الثاني؛ فهو وارد في وقت خاص، وهو انصـراف المشـيعين بعـد الدفن. وعلى كل؛ فالقولان متكافئان، والله أعلم بالحال.

*   *   *

قوله: (وفي الصحيح) ، سبق الكلام على مثل هذا العتبير.

قوله: (أحد)، جبل معروف شمالي المدينة، ولا يقـال: المنـورة؛ لأن كل بلد دخلـه الإسـلام فهـو منـور بالإسـلام، ولأن ذلـك لم يكن

---

(3)البخاري /كتاب الجنائز /باب الميت يسمع خفق النعال ، ومسلم : كتاب الجنة ونعيمها /باب عرض مقعد الميت..

(4)البخاري /كتاب الاستئذان /باب السلام اسم من أسماء الله تعالى ، ومسلم : كتاب الصلاة /باب التشهد في الصلاة..

(

(

(1) البخاري : تعلقا (الفتح ، 7/365) ، ومسلم موصولا : كتاب الجهاد /باب غزوة أحد .

معروفاً عند السف، وكذلك جاء اسمها في القـرآن بالمدينـة فقـط، لكن لو قيل: المدينة النبوية لحاجة تمييزها؛ فلا بـأس، وهـذا الجبـل حصلت فيه وقعة في السنة الثالثة من الهجرة في شوال هزم فيها المسلمون بسبب ما حصل منهم من مخالفة أمر النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ؛ كمـا أشـار اللـه إلى ذلـك بقولـه: (حَتَّى إِذَا فَشِـلْتُمْ وَتَنَـازَعْتُمْ فِي الْأَمْـرِ وَعَصَـيْتُمْ مِنْ بَعْـدِ مَـا أَرَاكُمْ مَـا تُحِبُّون)(آل عمران: من الآية152)، وجـواب الشـرط محـذوف تقـديره: حصـل لكم ما تكرهون.

وقد حصلت هزيمة المسلمين لمعصية واحـدة، ونحن الآن نريـد الانتصـار والمعاصـي كثـيرة عنـدنا، ولهـذا لا يمكن أن نفـرح بنصـر مادمنا على هذه الحال؛

إلا أن يرفق الله بنا ويصلحنا جميعاً.

قوله: (شج)، الشجة: الجرح في الرأس والوجه خاصة.

قوله: (وكسرت رباعيته) ، السنان المتوسـطان يسـميان ثنايـا، وما يليهما يسميان رباعيتين.

قوله: (فقال: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟ !)، الاستفهام يراد به الاستبعاد؛ أي: بعيد أن يفلح قـوم شـجوا نـبيهم صـلى اللـه عليـه وسلم .

قوله : (يفلح) من الفلاح، وهـو الفـوز بـالمطلوب، والنجـاة من المرهوب.

قوله : (فـنزلت: (ليس لـك من الأمـر شـيئ)، أي: نـزلت هـذه الآية، والخطاب فيها للرسول صلى الله عليه وسلم .

و (شيء) : نكرة في سياق النفي؛ فتعم.

قوله: (الأمر)؛ أي: الشأن، والمراد: شأن الخلق، فشأن الخلـق إلى خالقهم، حتى النبي صلى الله عليه وسلم ليس له فيهم شيء.

ففي الآية خطاب للرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم وقـد شـج وجهه، وكسرت رباعيته، ومع ذلـك مـا عـذره اللـه ــ سـبحانه ــ في كلمة واحدة: (كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟)، فإذا كان الأمر كذلك؛ فمـا بالــك بمن ســواه؟ فليس لهم من الأمــر شــيء؛ كالأصــنام،

والأوثان، والأولياء، والأنبياء؛ فالأمر كله لله وحده، كما أنه الخالق وحده، والحمد لله الذي لم يجعل أمرنا إلى أحد سواه؛ لأن المخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً؛ فكيف يملك لغيره؟!

ونستفيد من هذا الحديث أنه يجب الحذر من إطلاق اللسان فيما إذا رأى الإنسان مبتلى بالمعاصي؛ فلا نستبعد رحمة الله منه، فإن الله تعالى قد يتوب عليه.

وفيه : عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ـ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر ـ :

فهؤلاء الذين شجوا نبيهم لما استبعد النبي صلى الله عليه وسلم فلاحهم؛ قيل له: (ليس لك من الأمر شيء).

والرجل المطيع الذي يمر بالمعاصي من بني إسرائيل ويقول: (والله؛ لا يغفر الله لفلان. قال الله له: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ قد غفرت له وأحبطت عملك) [1] ؛ فيجب على الإنسان أن يمسك اللسان لأن زلته عظيمة، ثم إننا نشاهد أو نسمع قوماً كانوا من أكفر عباد الله وأشدهم عداوة انقلبوا أولياء لله، فإذا كان كذلك؛ فلماذا نستبعد رحمة الله من قوم كانوا عتاة ؟ !

وما دام الإنسان لم يمت؛ فكل شيء ممكن، كما أن المسلم ـ نسأل الله الحماية ـ قد يزيغ قلبه لما كان فيه من سريرة فاسدة.

فالمهم أن هذا الحديث يجب أن يتخذ عبرة للمعتبر في أنك لا تستبعد رحمة الله من أي إنسان كان عاصياً.

قوله: (فنزلت)، الفاء للسببية، وعليه؛ فيكون سبب نزول هذه الآية هذا الكلام: (كيف يلفح قوم شجوا وجه نبيهم ؟ !).

* * *

قوله: (وفيه)، أي الصحيح.

قوله: (إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر)، قيد مكان

---

[1] مسلم : كتاب البر والصلة/ باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله.

(اللهم العن فلاناً وفلاناً) بعدما يقـول: سـمع اللـه لمن حمـده، ربنـا ولك الحمد)، فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء) [1]

الدعاء من الصلوات بالفجر، ومكانة من الركعات بالأخيرة، ومكانــة من الركعة بما بعد الرفع من الركوع.

قوله: (يقـول: اللهم العن فلانـاً وفلانـاً)، اللعن: الطـرد والإبعـاد عن رحمة الله؛ أي: أبعدهم عن رحمتك، وأطردهم منها.

و(فلاناً وفلاناً): بينه في الروايـة الثانيـة أنهم: صـفوان بن أميـة، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام.

قوله: (بعدما يقول: سمع اللـه لمن حمـده، ربنـا ولـك الحمـد)، أي: يقول ذلك إذا رفع رأسه وقال: سمع الله لمن حمده، ربنا ولـك الحمد.

قوله: (فأنزل الله: "ليس لك من الأمر شيء")، هنا قال: (فأنزل)، وفي الحديث السابق قال: (فنزلت)، وكلها بالفاء، وعلى هذا يكـون سبب نزول الآية دعوة النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم على هـؤلاء، وقوله: (كيف يفلح قوم شجوا نـبيهم ؟)، ولا مـانع أن يكـون لـنزول الآية سببان.

وقـد أسـلم هـؤلاء الثلاثـة وحسـن إسـلامهم رضـي اللـه عنهم؛ فتأمـل الآن أن العـداوة قـد تنقلب ولايـة؛ لأن القلـوب بيـد اللـه ـ سبحانه وتعالى ـ ، ولو أن الأمر كان على ظن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لبقي هؤلاء على الكفـر حـتى المـوت، إذ لـو قبلت الـدعوة عليهم، وطردوا عن الرحمة؛ لم يبق إلا العذاب.

وفي روايــة يــدعو على صــفوان بن أميــة وســهيل بن عمــرو والحارث ابن هشام، فنزلت: (ليس لك من الأمر شيء) [1] .

ولكن النبي صلى اللـه عليـه وسـلم ليس لـه من الأمـر شـيء؛ فالأمر كله لله، ولهذا هدى الله هؤلاء القوم، وصاروا من أولياء الله

---

[1] البخاري : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/باب (ليس لك من الأمر شيء).

[1] البخاري: كتاب المغازي/باب (ليس لك من الأمر شيء) مرسلاً ، ووصله الإمـام أحمد في (المسـند) 2/93 .

الذابين عن دينه، بعد أن كانوا من أعداء الله القائمين صده، والله ـ سبحانه ـ يمن على من يشاء من عباده.

وليس بعيداً من ذلك قصة أصيرم بن عبد الأشهل الأنصاري، حيث كان معروفاً بالعداوة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما جاءت وقعة أحد ألقى الله الإسلام في قلبه دون أن يعلم به النبي صلى الله عليه وسلم أو احد من قومه، وخرج للجهاد وقتل شهيداً، فلما انتهت المعركة جعل الناس يتفقدون قتلاهم؛ فإذا هو في آخر رمق، فقالوا: ما جاء بك يا فلان؟ أحدث على قومك، أم رغبة في الإسلام؟ قال: بل رغبة في الإسلام، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ فأخبروا عني رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأخبروه، فقال: (هو من أهل الجنة)؛ فهذا الرجل لم يصل لله ركعة واحدة ، ومع هذا جعله الله من اهل الجنة؛ فالله حكيم يهدي من يشاء لحكمته، ويضل من يشاء لحكمة؛ فالمهم أننا لا نستبعد رحمة الله ـ عز وجل ــ من أي إنسان.

* * *

وفيه: عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (الشعراء:214) ؛ فقال: (يا معشر قريش (أو كلمة نحوها) اشتروا أنفسكم؛ لا أغني عنكم من الله شيئاً.

قول: (قام)، أي: خطيباً.

قوله: (أنزل عليه)، أي: أنزل عليه بواسطة جبريل: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ) (الشعراء:214).

قوله: (أنذر)، أي: حذر وخوف، والإنذار: الإعلام المقرون بتخويف.

قوله: (عشيرتك)، العشيرة: قبيلة الرجل من الجد الرابع فما دون.

قوله: (الأقربين)، أي: الأقرب فالأقرب؛ فأول من يدخل في عشيرة الرجل أولاده، ثم آباؤه، ثم إخوانه، ثم أعمامه، وهكذا.

ويؤخذ من هذا أن الأقرب فالأقرب أولى بالإنذار؛ لأن الحكم المعلق على وصف يقوى بقوة هذا الوصف ، وذلك أن الوصف الموجب للحكم كلما كان أظهر وأبين؛ كان الحكم فيه أظهر وأبين.

وقوله: (حين أنزل عليه) يفيد أنه لم يتأخر صلى الله عليه وسلم، بل قام، فقال: (يا معشر قريش!)؛ أي: يا جماعة قريش.

وقريش: هو فهر بن النضر بن مالك، أحد أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم.

قوله: (أو كلمة نحوها)، أي: أو قال كلمة نحوها، أي شبهها، وهذا من احتراز الرواة أنهم إذا شكوا أدنى شك قالوا: أو كما قال، أو كلمة نحوها، وما أشبه ذلك! وعليه فـ (أو): للشك والتردد.

قوله: (اشتروا أنفسكم)، أي: أنقذوها؛ لأن المشتري نفسه كأنه أنقذها من

يا عباس بن عبد المطلب ! لا أغني عنك من الله شيئاً. يا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! لا أغني عنك من الله من شيئاً. ويا فاطمة بنت محمد ! سليني من مالي ما شئت ؛ لا أغني عنك من الله شيئا) [1] .

هلاك، والمشتري راغب، ولهذا عبر بالاشتراء كأنه يقول: اشتروا أنفسكم راغبين.

وفي قوله: (اشتروا أنفسكم) من الحض على هذا الأمر ما هو ظاهر؛ لأن المشتري يكون راغباً.

قوله: (لا أغني عنكم من الله شيئاً)، هذا هو الشاهد؛ أي: لا أدفع أو لا أنفع، أي: لا أنفعكم بدفع شيء عنكم دون الله، ولا أمنعكم من شيء أراده الله لكم؛ لأن الأمر بيد الله، ولهذا أمر الله نبيه بذلك؛ فقال: (قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً)(الجن:21-22) .

قوله: (شيئاً)، نكرة في سياق النفي؛ فتعم أي شيء.

---

[1] البخاري: كتاب التفسير/باب (وأنذر عشيرتك الأقربين)، ومسلم: كتاب الإيمان/باب (وأنذر عشيرتك الأقربين).

قوله: (يا عباس بن عبدالمطلب)، هو عم النبي صلى الله عليه وسلم، وعبدالمطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم، وعباس؛ بالضم؛ لأن المنادي إذا كان معرفة يبنى على الضم، ونعته إذا كان مضافاً ينصب، وهنا ابن عبدالمطلب مضاف، ولهذا نصب.

فإن قيل: كيف يقول النبي صلى الله عليه وسلم: عبدالمطلب أنه لا يجوز أن يضاف عبد إلا إلى الله ـ عز وجل ـ ؟

فالجواب: إن هذا ليس إنشاء، بل هو خبر؛ فاسمه عبدالمطلب، ولم يسمه النبي صلى الله عليه وسلم لكن اشتهر بعبدالمطلب، ولهذا انتمى إليه الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فقال:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبدالمطلب [1]

فلو فرض أن لك أباً يسمى عبدالمطلب، أو عبدالعزى؛ فإنك تنتسب إليه، ولا يعد هذا إقراراً، ولكنه خبر عن أمر واقع؛ كما لو قلت: كفر فلان، ونافق فلان، وما أشبه ذلك، ولكن إذا كان موجوداً غيرنا اسمه إذا كان لا يجوز.

قوله: (لا أغنى عنك من الله شيئاً) ، أي: لا أنفعك بشيء دون الله، ولا أمنعك من شيء أراده الله لك؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم لا يغني عن أحد شيئاً حتى عن أبيه وأمه.

قوله: (يا صفية عمة رسول الله !) ، يقال في إعرابها كما قيل في عباس بن عبدالمطلب.

قوله: (يا فاطمة بنت محمد ! سليني من مالي ما شئت)، أي: اطلبي من مالي ما شئت ؛ فلن أمنعك لأنه صلى الله عليه وسلم مالك لما له، ولكن بالنسبة لحق الله قال : (لا أغني عنك من الله شيئاً).

فهذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم لأقاربه الأقربين: عمه، وعمته، وابنته؛ فما بالك بمن هم أبعد ؟ ! فعدم إغنائه عنهم شيئاً من باب أولى؛ فهؤلاء الذين يتعلقون بالرسول صلى الله عليه

---

[1] البخاري: كتاب الجهاد/باب من صف أصحابه عند الهزيمة، ومسلم: كتاب الجهاد/ باب غزوة حنين.

وسلم ويلوذون به الموجودين في هذا الزمن وقبله قد غرهم الشيطان واجتالهم عن طريق الحق؛ لأنهم تعلقوا بما ليس بمتعلق؛ إذ الذي ينفع بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم هو الإيمان به واتباعه.

* فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين. الثانية: قصة أحد. الثالثة: قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمنون في الصلاة.

أما دعاؤه والتعلق به رجاؤه فيما يؤمل، وخشية فيما يخاف منه؛ فهذا شرك بالله ، وهو مما يبعد عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن النجاة من عذاب الله.

ففي الحديث امتثال النبي صلى الله عليه وسلم لأمر ربه في قوله تعالى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ) (الشعراء:214)، فإنه قام بهذا الامر أتم القيام؛ فدعا وعم وخصص، وبين أنه لا ينجي أحداً من عذاب الله بأي وسيلة، بل الذي ينجي هو الإيمان به واتباع ما جاء به.

وإذا كان القرب من النبي صلى الله عليه وسلم لا يغني عن القريب شيئاً؛ دل ذلك على منع التوسل بجاه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن جاه النبي صلى الله عليه وسلم لا ينتفع به إلا النبي صلى الله عليه وسلم ، ولهذا كان أصح قولي أهل العلم تحريم التوسل بجاه النبي صلى الله عليه وسلم .

* * *

فيه مسائل :

* الأولى: تفسير الآيتين ، وهما آيتا الأعراف، ويتفق ذلك في أول الباب، والاستفهام فيهما للتوبيخ والإنكار، وكذلك سبق تفسير الآية الثالثة آية فاطر.

* الثانية: قصة أحد، يعني: حيث شج النبي صلى الله عليه وسلم ... الحديث..

* الثالثة: قنوت سيد المرسلين...إلخ، أراد المؤلف بهذه المسألة أن النبي

الرابعة : أن المدعو عليهم كفار.

صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين، وأصحابه سادت الأولياء، ومع هذا ما أنقذوا أنفسهم؛ فكيف ينقذون غيرهم ؟ ! وليس مراده رحمه الله مجرد إثبات القنوت والتأمين عليه، ولهذا جاءت العبارات بسيد وسادات؛ فلا أحد من هذه الأمة أقرب إلى الله من الرسول وأصحابه، ومع ذلك يلجئون إلى الله ـ سبحانه ـ في كشف الكربات، ومن كانت هذه حاله؛ فكيف يمكن أن يلجأ إليه في كشف الكربات ؟ ! فليس مراد المؤلف إثبات مسألة فقهية.

* الرابعة: أن المدعو عليهم كفار، تؤخذ من قوله تعالى : (أو يتوب عليهم) ؛ فهذا دليل على أنهم الآن ليسوا على حال مرضية، ومن المعلوم أن صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وقت الدعاء عليهم كانوا كفاراً.

وهذه المسألة ــ أي أن المدعو عليهم كفار ــ ترمي إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم وإن كان يرى أنه دعا عليهم بحق؛ فقد قطع الله ـ سبحانه وتعالىـ أن يكون له من الأمر شيء لأنه قد يقول قائل: إذا كانوا كفاراً؛ أليس يملك الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو عليهم ؟

نقول: حتى في هذه الحال لا يملك من أمرهم شيئاً، هذا وجه قول المؤلف أن المدعو عليهم كفار، وليس مراده الإعلام بكفرهم؛ لأن هذا معلوم لا يستحق أن يعنون له، بل المراد في هذه الحال الذي كان هؤلاء كفاراً لم يملك النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً بالنسبة إليهم.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار؛ منها: شجهم نبيهم، وحرصهم على قتله، ومنها التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم. السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: (ليس لك من الأمر شيء). السابعة: قوله: (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) ، فتاب عليهم؛ فآمنوا.

* الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفـار، أي: إنهم مع كفرهم كانوا معتدين، ومـع ذلـك قيـل لـه في حقهم: (ليس لـك من الأمر شـيء)، وإلا؛ فهم شـجوا النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم، ومثلوا بالقتلى مثـل حمـزة بن عبـدالمطلب، وكـذلك أيضـاً حرصـوا على قتل النبي صلى الله عليه وسـلم، مـع أن كـل هـؤلاء فيهم من بني عمهم، وفيهم من الأنصار.
* السادسـة: أنـزل اللـه عليـه في ذلـك: (ليس لـك من الأمـر شيء)، أي: مع ما تقـدم من الأمـور الـتي تقتضـي أن يكـون للنـبي صلى الله عليه وسلم حق بأن يدعو عليهم أنزل الله: (ليس لك من الأمر شيء)؛ فالأمر لله وحده، فإذا كان الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم قد قطع عنه هذا الشيء؛ فغيره من باب أولى.
* السابعة: قوله: (أو يتوب عليهم)، فتاب عليهم، فـآمنوا، وهـذا دليل على كمال سلطان الله وقدرته؛ فهؤلاء الـذين جـرى منهم مـا جرى تاب الله عليهم وآمنوا؛ لأن الأمر كله بيده سبحانه، وهو الـذي يذل من يشاء ويعز من يشاء، ومن ذلـك مـا جـرى من عمـر رضـي الله عنه قبل إسلامه من العداوة الظاهرة للإسلام، ومـا جـرى منـه بعد إسلامه من الولاية والنصرة لدين الله تعالى؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم ومن دونـه لا يسـتطيعون أن يغـيروا شـيئاً من أمـر الله.

الثامنة: القنوت في النوازل.

---

* الثامنة: القنـوت في النـوازل، وهـذه هي المسـألة الفقهيـة، فإذا نزل بالمسلمين نازلة؛ فإنه ينبغي أن يُدعى لهم حتى تنكشف.
وهذا القنـوت مشـروع في كـل الصـلوات، كمـا في حـديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه أحمد وغـيره [1] ؛ إلا أن الفقهـاء رحمهم الله استثنوا الطاعون، وقالوا: لا يقنت له لعـدم ورود ذلـك،

---

[1] مسند الإمام أحمد (1/301) ، والحاكم (1/255) ، وصححه ووافقه الذهبي.

وقد وقع في عهد عمر [2] رضي الله عنه ولم يقنت، ولأنه شهادة؛ فلا ينبغي الدعاء برفع سبب الشهادة.

وظاهر السنة أن القنوت إنما يشرع في النوازل التي تكون من غير الله، مثل: إيذاء المسلمين والتضييق عليهم، أما ما كان من فعل الله؛ فإنه يشرع له ما جاءت به السنة، مثل الكسوف؛ فيشرع له صلاة الكسوف، والزلازل شرع لها صلاة الكسوف كما فعل ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذه صلاة الآيات، والجدب يشرع له الاستسقاء، وهكذا.

وما علمت لساعتي هذه أن القنوت شرع لأمر نزل من الله، بل يدعى له بالأدعية الواردة الخاصة، لكن إذا ضيق على المسلمين وأوذوا وما أشبه ذلك؛ فإنه يقنت اتباعاً للسنة في هذا الأمر.

ثم من الذي يقنت: الإمام الأعظم، أو إمام كل مسجد، أو كل مصل؟

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

المذهب: أن الذي يقنت هو الإمام الأعظم فقط الذي هو الرئيس الأعلى للدولة.

وقيل: يقنت كل إمام مسجد.

وقيل:يقنت كل مصل،وهو الصحيح؛ لعموم قول النبي صلى الله عليه وسلم : (صلوا كما رأيتموني أصلي) [1] ، وهذا يتناول قنوته صلى الله عليه وسلم عند النوازل.

* التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وهم: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام؛ فسماهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، لكن هل هذا مشروع أو جائز؟

([2] البخاري: كتاب الحيل/باب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون ... ، ومسلم: كتاب السلام/باب الطاعون والطيرة.

([1] البخاري : كتاب الأذان/باب الأذان للمسافرين.

الجواب : هذا جائز، وعليه، فإذا كان في تسمية المــدعو عليهم مصـلحة؛ كـانت التسـمية أولى، ولـو دعـاء، والـدعاء مخاطبـة اللـه تعالى، ولا يدخل في عموم قوله صلى اللـه عليـه وسـلم: (إن هـذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس)[2].

مسألة: هـل الـذي نهي عنـه الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم الدعاء أو لعن المعينين؟

الجـواب: المنهي عنـه هـو لعن الكفـار في الـدعاء على وجـه التعيين، أما لعنهم عموماً؛ فلا بأس به، وقد ثبت عن أبي هريرة أنـه كـان يقنت ويلعن الكفـرة عمومـاً، ولفـظ مـا ورد عن أبي هريـرة رضي الله عنه؛ أنه قال: (لأقربن

صلاة النبي صلى الله عليه وسلم، فكـان أبـو هريـرة يقنت في الركعة الأخرى من صلاة الظهر وصلاة العشاء وصلاة الصـبح بعـدما يقول: سمع الله لمن حمده؛ فيـدعو للمؤمـنين ويلعن الكفـار) [1] ، ولا بـأس بـدعائنا على الكـافر بقولنـا: اللهم ! أرح المسـلمين منـه، واكفهم شره، واجعل شره في نحره، ونحو ذلك.

أما الدعاء بالهلاك لعموم الكفار؛ فإنه محل نظر، ولهذا لم يـدع النبي صلى الله عليه وسلم على قريش بالهلاك ، بل قال: (اللهم ! عليك بهم، اللهم ! اجعلهـا عليهم سـنين كسـني يوسـف) [2] ، وهـذا دعاء عليهم بالتضييق، والتضييق قد يكون من مصلحة الظالم بحيث يرجع إلى الله من ظلمه.

فالمهم أن الدعاء بالهلاك لجميع الكفار عندي تردد فيه.

وقد يستدل بدعاء خبيب حيث قـال: (اللهم أحصـهم عـدداً، ولا تبـق منهم أحداً) [3] على جواز ذلك؛ لأنه وقع في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

([2] مسلم: كتاب المساجد/باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته.

([1] البخاري: كتاب صفة الصلاة/ باب فضل اللهم ربنا ولك الحمد، ومسلم: كتاب المساجد/باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة.

([2] البخـاري: كتـاب الاستسـقاء/بـاب دعـاء النـبي صـلى الله عليه وسـلم : (اجعلها عليهم سـنين كسـني يوسف)، ومسلم: كتاب المساجد/باب استحباب القنوت . . . .

([3] البخاري: كتاب المغازي/باب فضل من شهد بدراً.

ولأن الأمـر وقـع كمـا دعـا؛ فإنـه مـا بقي منهم أحـد على رأس الحول، ولم ينكر الله تعالى ذلك، ولا أنكره النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم، بل إن إجابة الله دعاءه يدل على رضاه به وإقراره عليه.

فهذا قد يستدل به على جواز الدعاء على الكفـار بـالهلاك، لكن يحتاج أن ينظر في القصة؛ فقد يكون لها أسباب خاصة لا تتأتى في كل شيء.

العاشرة: لعن المعين في القنوت. الحادية عشرة: قصته صـلى الله عليه وسلم لما أنزل عليه: (وأنذر عشـيرتك الأقـربين). الثانيـة عشرة: جده صلى الله عليه وسـلم في هـذا الأمـر؛ بحيث فعـل مـا نسب بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

ثم إن خبيبـاً دعـا بـالهلاك لفئـة محصـورة من الكفـار لا لجميـع الكفار.

وفيـه أيضـاً إن صـح الحـديث: دعـاؤه على عتبـة بن أبي لهب: (اللهم ! سـلط عليـه كلبـاً من كلابـك) [1] فيـه دليـل على الـدعاء بالهلاك، لكن هذا على شخص معين لا على جميع الكفار.

* العاشـرة: لعن المعين في القنـوت، هـذا غـريب، فـإن أراد المؤلف رحمه الله أن هذا أمر وقـع، ثم نهى عنـه؛ فلا إشـكال، وإن أراد أنه يستفاد من هـذا جـواز لعن المعين في القنـوت أبـداً؛ فهـذا فيه نظر لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك.

* الحادية عشرة: قصته صلى الله عليه وسلم لما أنزل عليــه: (وأنذر عشيرتك الأقـربين) ، وهي أنـه لمـا نـزلت عليـه الآيـة نـادى قريشاً؛ فعم، ثم خصص، فامتثل أمر الله في هذه الآية.

* الثانية عشرة: جده صـلى اللـه عليـه وسـلم في هـذا الأمـر، بحيث فعل مـا نسـب بسـببه إلى الجنـون، أي: اجتهـاده صـلى اللـه عليه وسلم في هذا الأمر، بحيث قالوا: إن محمداً جن، كيف يجمعنا وينادينا هذا النداء ؟ !

---

(1) الحاكم في (المستدرك) (كتاب التفسير، تفسير سورة أبي لهب، 2/539)، وقال: (صحيح الإسـناد)، ولم يخرجاه)، ووافقه الذهبي.

الثالثة عشرة : قوله للأبعـد والأقـرب: (لا أغـني عنـك من اللـه شيئاً)، حتى قال: (يـا فاطمـة بنت محمـد ! لا أغـني عنـك من اللـه شيئاً). فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغـني شـيئاً عن سـيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان بأنه لا يقول إلا الحق ن ثم نظر فيمـا وقع في قلوب خواص الناس اليوم ؛ تـبين لـه تـرك التوحيـد وغربـة الدين.

وقول: (وكذلك لو يفعلـه مسـلم الآن)، أي لـو أن إنسـاناً جمـع الناس، ثم قام يحذرهم كتحذير النبي صلى الله عليه وسلم؛ لقالوا: مجنون، إلا إذا كـان معتـاداً عنـد النـاس، قـال تعـالى: (وَتِلْـكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)(آل عمران: من الآية140)، وقال تعـالى: (يقلب الله الليل والنهار)(النور:44)؛ فهذا يختلف بـاختلاف البلاد والزمـان، ثم إنه يجب على الإنسان أن يبذل جهده واجتهـاده في الـدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والنبي صلى الله عليه وسلم قـام بهذا الأمر ولم يبال بما رمي به من الجنون.

* الثالثة عشرة: قوله للأبعـد : (لا أغـني عنـك من اللـه شـيئاً)، صدق رحمه الله فيما قال؛ فإنه إذا كان هذا القائل سيد المرسلين، وقاله لسيدة نساء العالمين، ثم نحن نؤمن أن الرسـول صـلى اللـه عليه وسلم لا يقول إلا الحق، وأنه لا يغني عن ابنته شـيئاً؛ تـبين لنـا الآن أن مـا يفعلـه خـواص النـاس تـرك للتوحيـد؛ لأنـه يوجـد أنـاس خـواص يـرون أنفسـهم علمـاء، ويـراهم من حـولهم علمـاء وأهلاً للتقليد، يدعون الرسول صلى الله عليه وسلم لكشف الضـر وجلب النفع دعوة صريحة، ويرددون:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

وغير ذلك من الشـرك، وإذا أنكـر عليهم ذلـك ردوا إلى المنكـر بأنه لا

يعرف حق الرسول صلى الله عليه وسلم ومقامة عنـد اللـه ، وأنـه سيد الكون، ومـا خلقت الجن والإنس إلا من أجلـه، وأنـه خلـق من

نور العرش، ويلبسون بذلك على العامة، فيصدقهم البعض لجهلهم، ولو جاءهم من يدعوهم إلى التوحيد لم يستجيبوا له؛ لأن سيدهم وعالمهم على خلاف التوحيد، (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ)(البقرة: من الآية145)، ثم إن المؤمن عاطفته وميله للرسول صلى الله عليه وسلم أمر لا ينكر، لكن الإنسان لا ينبغي له أن يحكم العاطفة، بل يجب عليه أن يتبع ما دل عليه الكتاب والسنة وأيده العقل الصريح السالم من الشبهات والشهوات.

ولهذا نعى الله ـ سبحانه ـ على الكفار الذين اتبعوا ما ألفوا عليه آباءهم بأنهم لا يعقلون، وكلام المؤلف حق؛ فإن من تأمل ما عليه الناس اليوم في كثير من البلدان الإسلامية تبين له ترك التوحيد وغربة الدين.

* * *

باب قول الله تعالى :

(حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)(سبأ: من الآية23).

---

* مناسبة الترجمة :

أن هذا من البراهين الدالة على أنه لا يستحق أحد أن يكون شريكا مع الله؛ لأن الملائكة وهم أقرب ما يكون من الخلق لله ـ عز وجل ـ ، ما عدا خواص بني آدم يحصل منهم عند كلام الله ـ سبحانه ـ الفزع .

* * *

قولـه تعـالى : (حـتى إذا فـزع عن قلـوبهم) ، قـال ذلـك و لم يقل : (فزعت قلوبهم) ، إذ (عن) تفيد المجاوزة ، والمعـنى : جاوز الفزع قلوبهم ؛ أي : أزيل الفزع عن قلوبهم .

الفــزع : الخــوف المفــاجئ ؛لأن الخــوف المســتمر لا يســمى فزعا .

وأصله : النهوض من الخوف .

وقولــه تعــالى : (عن قلــوبهم) ؛ أي : قلــوب الملائكــة ؛ لأن الضمير يعود عليهم بدليل ما سيأتي من حديث أبي هريرة ، ولا أحد من الخلــق أعلم بتفسـير القــرآن من الرســول صــلى اللــه عليــه وسلم .

قولــه تعــالى : (قــالوا مــاذا قــال ربكم) جــواب الشــرط ، والمعـنى : قـال بعضـهم لبعض : وإنمـا قلنـا ذلـك لأن الكلام قـائلا ومقولا له ، فلو جعلنا الضمير في

قالوا عائدا على الجميع ؛ فـأين المقـول لـه ؟ والمعـنى : أي شـيء قال ربكم ؟

وإعراب ماذا على أوجه :

1-ما : اسم استفهام مبتدأ ، وذا : اسم موصول خـبر ؛ أي : مـا الذي .

2-ماذا : اسم استفهام مركب من ما و ذا .

3-ما اسم استفهام ، وذا زائدة ، قال ابن مالك :

ومثل ماذا بعدما استفهام   أو من إذا لم تلغ في الكلام

وقوله : (قالوا الحق) ، أي : قال المسؤولون .

والحق : صفة لمصدر محذوف مع عامله ، والتقدير قال القــول الحق .

والمعنى : أن الله ـ سبحانه ـ قال القول الحق لأنه سبحانه هــو الحق، ولا يصدر عنه إلا الحق ، ولا يقول ولا يفعل إلا الحق.

والحق في الكلام هو الصدق في الأخبار ، والعدل في الأحكام ؛ كما قال الله تعالى : (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً)(الأنعـام: من الآية115).

ولا يفهم من قوله : (قالوا الحق) أنه قـد يكـون قولـه بـاطلا ، بل هو بيان للواقع ، فإن قيـل : مـا دام بيانـا للواقـع ومعروفـا عنـد الملائكة أنه لا يقول إلا الحق؛ فلماذا الاستفهام ؟!

أجيب : أن هذا من باب الثناء على الله بما قال ، وأنـه سـبحانه لا يقول إلا الحق .

قولــه تعــالى:(وهــو العلي الكبــير) ، أي : العلي في ذاتــه وصــفاته ، والكبــير : ذو الكبريــاء ، وهي العظمــة الــتي لا يــداينها شيء ، أي العظيم الذي لا أعظم منه .

مناسبة الآية للتوحيد : أنه إذا كان منفردا في العظمة والكبرياء ؛ فيجب أن يكون منفردا في العبادة .

والعلو قسمان :

الأول : علو الصفات ، وقد أجمع عليه كل من ينتسـب للإسـلام حتى الجهمية ونحوهم .

الثاني : علو الذات ، وقـد أنكـره كثـير من المنتسـبين للإسـلام مثل الجهمية وبعض الأشاعرة غير المحققين منهم ؛ فإن المحققين منهم أثبتوا علو الذات .

وعلوه لا ينافي مع كونه مع الخلق يعلمهم ويسـمعهم ويـراهم ؛ لأنه ليس كمثله شيء في جميع صفاته .

وفي الآية فوائد :

1-أن الملائكة يخافون الله ؛ كمـا قـال تعـالى : (يَخَـافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ)(النحل: من الآية50).

2-إثبات القلوب للملائكة ؛ لقوله : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) .

3-إثبات أنهم أجسام وليسوا أرواحا مجردة من الجسمية ،وهو أمر معلوم بالضـرورة ، قـال تعـالى : (جَاعِـلِ الْمَلائِكَـةِ رُسُـلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ)(فاطر: من الآية1) ،وقد رأى النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم

جبريل له ست مئة جناح قد سد الأفق[1] ؛ فالقول بأنهم أرواح فقط إنكار لهم في الواقع ، وهو قول باطل .
لكنهم لا يأكلون ولا يشربون ، وإنما أكلهم وشربهم التسبيح بدليل قوله تعالى : (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ) (الانبياء:20)؛ ففي هذا دليل على أن ليلهم ونهارهم مملؤان بذلك ، ولهذا جاء : (يسبحون الليل) ، ولم يقل يسبحون في الليل ؛ أي : أن تسبيحهم دائم ، والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به.

4-أن لهم عقولا ؛ إذ إن القلوب هي محل العقول خلافا لمن قال : إنهم لا يعقلون ، ولأنهم يسبحون الله ، ويطوفون بالبيت المعمور .

5-إثبات القول لله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وأنه متعلق بمشيئته ؛ لأنه جاء بالشرط : (إذا فزع) ، وإذا الشرطية تدل على حدوث الشرط والمشروط ، خلافا للأشاعرة الذين يقولون : إن الله لا يتكلم بمشيئة ، وإنما كلامه هو المعنى القائم بنفسه ؛ فهو قائم بالله أزلي أبدي ؛ كقيام العلم والقدرة والسمع والبصر .

ولا ريب أن هذا باطل ، وأن حقيقته إنكار كلام الله ، ولهذا يقولون : أن الله يتكلم بكلام نفسي أزلي أبدي ، كما يقولون : هذا الكلام الذي سمعه موسى ، وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم ، ونزل به جبريل على الرسول صلى الله عليه وسلم شيء مخلوق للتعبير عن كلام الله القائم بنفسه.

وهذا في الحقيقة قوله الجهمية؛ كما قال بعض المحققين من الأشاعرة: ليس بيننا وبين الجمهية فرق، فإننا اتفقنا على أن هذا الذي بين دفتي المصحف مخلوق، لكن نحن قلنا عبارة عن كلام الله، وهم قالوا: هو كلام الله.

6ـ إثبات أن قول الله حق، وهذا جاء في القرآن: (وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ)(الأحزاب: من الآية4) ، وقال: (فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ) (صّ:84)؛ فالله تعالى لا يقول إلا حقاً؛ لأنه هو الحق، ولا يصدر عن الحق إلا الحق.

* * *

---

[1] البخاري : كتاب التفسير /باب قول الله تعالى : (فكان قاب قوسين) ، ومسلم : كتاب الإيمان /باب في ذكر سدرة المنتهى .

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ؛ ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، ينفذهم ذلك ، (حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)(سبأ: من الآية23) .

قوله : (وفي الصحيح) ، سبق الكلام عليها .

قوله : (قضي الله الأمر في السماء) ، المراد بالأمر الشأن ، ويكون القضاء بالقول ؛ لقوله تعالى : (إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) (آل عمران : 47) .

قوله : (خضعانا) ، أي : خضوعا ؛ لقوله : (كأنه) ؛ أي : صوت القول في وقعه على قلوبهم .

قوله: (صفوان) هو الحجر الأملس الصلب ، والسلسلة عليه يكون لها صوت عظيم .

وليس المراد تشبيه صوت الله تعالى بهذا ؛ لأن الله (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (الشورى : 11) ، بل المراد تشبيه ما يحصل لهم من الفزع عندما يسمعون كلامه بفزع من يسمع سلسلة على صفوان.

قوله : (ينفذهم ذلك) ، النفوذ : هو الدخول في الشيء ، ومنه : نفذ السهم

في الرمية ؛ أي دخل فيها ، والمعنى : إن هذا الصوت يبلغ منهم كل مبلغ .

قوله : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) ، أي : أزيل عنها الفزع .

قوله : (قالوا) ، أي : قال بعضهم لبعض .

قوله : (ماذا قال ربكم قالوا الحق)، أي: قالوا : قال الحق ؛ أي : قال

القــول الحــق ؛ فــالحق صــفة لمصــدر محــذوف مــع عاملــه ، تقديره : قال القول الحـق ، وهـذا الجـواب الـذي يقولونـه هـل هم يقولونه لأنهم سمعوا ما قال وعلموا أنه حق ، وأنهم كـانوا يعلمـون أنه لا يقول إلا الحق ؟

يحتمل أن يكونوا قد علموا ما قال ، وقالوا : إنه الحق ؛ فيكـون هذا عائدا إلى الوحي الذي تكلم الله به .

ويحتمل أنهم قالوا ذلك لعلمهم أن الله ـ سـبحانه ــ لا يقـول إلا الحق ؛ فلذلك قالوا هذا لأن ذلك صفته سبحانه وتعالى .

وهذا الحديث مطـابق للآيـة تمامـا ، وعلى هـذا يجب أن يكـون هـذا تفسـير الآيـة، ولا يقبـل لأي قائـل أن يفسـرها بغـيره ؛ لأن تفسـير القرآن إذا كان بالقرآن

أو السنة ؛ فإنه نص لا يمكن لأحد أن يتجاوزه .

وأما تفسير الصحابي ؛ فإنه حجة عنـد أكـثر المفسـرين ، وأمـا التابعين ؛ فـإن أكـثر العلمـاء يقـول : إنـه ليس بحجـة إلا من اختص منهم بشــيء ؛ كمجاهــد ؛ فإنــه عــرض المصــحف على ابن عبــاس عشرين مرة أو أكثر ، يقف عند كل آية ويسـأله عن معناهـا ، وأمـا من بعد التـابعين ؛ فليس تفسـيره حجـة على غـيره ، لكن إن أيـده سياق القرآن كان العمدة سياق القرآن .

فلا يقبل أن يقال : إذا فزع عن قلوب الناس يوم القيامـة ، بـل نقول : الرسول صلى الله عليه وسلم فسـر الآيـة بتفسـير غيـبي لا مجال للاجتهاد فيه ، وما كان غيبيا وجاء بـه النص ؛ فـالواجب علينـا قبوله ، ولهذا نقول في مسألة ما يعذر فيه بالاجتهـاد ومـا لا يعـذر : إنه ليس عائدا على أن هذا من الأصول وهذا من الفروع؛ كمـا قـال بعض العلماء : الأصول لا مجـال للاجتهـاد فيهـا ، ويخطئ المخـالف مطلقا ، بخلاف الفروع .

فيسـمعها مسـترق السـمع ، ومسـترق السـمع هكـذا بعضـه فـوق بعض ، وصـفة سـفيان بكفـه، فحرفهـا وبـدد بين أصـابعه ، فيسـمع الكلمة ، فيلقيها إلى من تحته

لكن شيخ الإسلام ابن تيميه أنكر تقسيم الدين إلى أصول وفروع ، ويدل على بطلان هذا التقسيم : أن الصلاة عند الذين يقسمون من الفروع ، مع أنها من أجل الأصول .

والصواب : أن مدار الإنكار على ما للاجتهاد فيه مجال وما لا مجال فيه؛ فالأمور الغيبية ينكر على المخالف فيها ولا يعذر ، سواء كانت تتعلق بصفات الله أو اليوم الآخر أو غير ذلك ؛ لأنه لا مجال للاجتهاد فيها .

أما الأمور العملية التي للاجتهاد فيها مجال ؛ فلا ينكر على المخالف فيها إلا إذا خالف نصا صريحا ، وإن كان يصح تضليله بهذه المخالفة ؛ كقول ابن مسعود في بنت وبنت ابن وأخت : (للبنت النصف ، ولابنه الابن السدس ، تكملة الثلثين ، وما بقي ؛ فللأخت) ؛ وذكر له قسمة أبي موسى : (للابنة النصف ، وللأخت النصف) ، وقوله : (ائت ابن مسعود ؛ فسيتابعني) ؛ فأخبر ابن مسعود بذلك ، فقال : (قد ضللت إذا ، وما أنا من المهتدين)[1] .

قوله : (فيسمعها مسترق السمع) ، أي : هذه الكلمة التي تكلمت بها الملائكة .

و(مسترق) : مفرد مضاف ؛ فيعم جميع المسترقين .

وتأمل كلمة (مسترق) ؛ ففيها دليل على أنه يبادر ، فكأنه يختلسها اختلاسا بسرعة ، ويؤيده قوله:(إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) (الصافات:10).

ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ،

قوله : (ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض) ، يحتمل أن يكون هذا من كلامه صلى الله عليه وسلم ، أو من كلام أبي هريرة ، أو من كلام سفيان .

---

[1] البخاري : كتاب الفرائض /باب ميراث ابنة ابن مع ابنة .

قوله : (وصفه سفيان بكفه) ، أي : أنها واحد فوق الثاني ، أي الأصـابع: فـالجن يـتراكبون واحـدا فـوق الآخـر ، إلى أن يصـلوا إلى السماء، فيقعدون لكل واحـد مقعـد خـاص ، قـال تعـالى : (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِـدَ لِلسَّـمْعِ فَمَنْ يَسْـتَمِعِ الْآنَ يَجِـدْ لَـهُ شِـهَاباً رَصَـداً) (الجـن:9).

قوله : (فيسمع الكلمـة ، فيلقيهـا إلى من تحتـه) ، أي : سـمع أعلى المسترقين الكلمة ، فيلقيها إلى من تحتـه؛ أي : يخـبره بهـا ، و(من) : اسـم موصـول ، وقولـه : (تحتـه) شـبه جملـة صـلة الموصول لأنه ظرف .

قوله : (ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها) ، أي : يلقي الكلمة آخرهم الذي في الأرض على لسان الساحر أو الكاهن .

والسحر:عزائم ورقى و تعوذات تؤثر في بدن المسـحور وقلبـه وعقله وتفكيره .

والكاهن : هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل .

وقد التبس على بعض طلبة العلم ؛ فظنوا أنه كل من يخبر عن الغيب ولو فيما مضـى ؛ فهـو كـاهن ، لكن مـا مضـى ممـا يقـع في الأرض ليس غيبـا مطلقـا ، بـل هـو غيب نسـبي ، مثـل مـا يقـع في المسجد يعـد غيبـا بالنسـبة لمن في الشـارع ، وليس غيبـا بالنسـبة لمن في المسجد .

وقد يتصل الإنسان بجني ، فيخبره عما حدث في الأرض ولو كان بعيدا ؛

فربمـا أدركـه الشـهاب قبـل أن يلقيهـا ، وربمـا ألقاهـا قبـل أن يدركه ،

فيسـتخدم الجن ، لكن ليس على وجـه محـرم ؛ فلا يسـمى كاهنا ؛ لأن الكاهن من يخبر عن المغيبات في المستقبل .

وقيل : الذي يخبر عما في الضمير ، وهـو نـوع من الكهانـة في الواقع ، إذا لم يستند إلى فراسة ثاقبة ، أما إذا كان يخـبر عمـا في الضمير استنادا إلى فراسة ؛ فإنه ليس من الكهانة في شـيء ؛ لأن بعض الناس قد يفهم مـا في الإنسـان اعتمـادا على أسـارير وجهـه ولمحاته ، وإن كان لا يعلمه على وجـه التفصـيل ، لكن يعلمـه على سبيل الإجمال .

فمن يخبر عمـا وقـع في الأرض ليس من الكهـان، ولكن ينظـر في حاله، فإذا كان غير موثوق في دينه ؛ فإننا لا نصـدقه ؛ لأن اللـه تعالى يقول : (يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنْ جَـاءَكُمْ فَاسِـقٌ بِنَبَـأٍ فَتَبَيَّنُـوا) (الحجرات: من الآية6) .

وإن كان موثوقا في دينه ، ونعلم أنه لا يتوصل إلى ذلك بمحرم من شرك أو غيره ؛ فإننا لا ندخله في الكهان الـذين يحـرم الرجـوع إلى قولهم ، ومن يخبر بأشياء وقعت في مكان ولم يطلع عليها أحد دون أن يكون موجـودا فيـه ؛ فلا يسـمى كاهنـا ؛ لأنـه لم يخـبر عن مغيب مستقبل يمكن أن يكون عنده جني يخبره ، والجني قد يخدم بني آدم بغير المحرم؛ إما محبة لله ـ عـز وجـل ـ ، أو لعلم يحصـله منه ، أو لغير ذلك من الأغراض المباحة .

والسحرة قد يكون لهم من الجن من يسترق لهم السمع .

ولا يصـل هـؤلاء المسـترقون إلا إلى السـماء الـدنيا ؛ لقولـه تعالى : (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظـاً)(الانبيـاء: من الآية32)؛ فلا يمكن نفوذه إلى ما فوقه .

فيكذب معها مئة كذبة ، فيقال : أليس قـد قـال لنـا يـوم كـذا و كذا : كذا و كذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء)[1]

قولـه : (فربمـا أدركـه الشـهاب ......إلخ) ، الشـهاب : جـزء منفصل من النجوم ، ثاقب ، قوي ، ينفذ فيما يصطدم به .

قال العلماء في التفسير قوله تعالى : (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الـدُّنْيَا بِمَصَـابِيحَ وَجَعَلْنَاهَـا رُجُومـاً لِلشَّـيَاطِينِ)(الملـك: من الآية5)؛ أي :

---

(1) البخاري : كتاب التفسير /باب (حتى إذا فزع عن قلوبهم) .

جعلنا شهابها الذي ينطلق منها ؛ فهذا من باب عود الضمير إلى الجزء لا إلى الكل .

فالشهب : نيازك تنطلق من النجوم .

وهي كما قال أهل الفلك : تنزل إلى الأرض ، وقد تحدث تصدعا فيها. أما النجم ، فلو وصل إلى الأرض ؛ لأحرقها .

واختلف العلماء : هل المسترقون انقطعوا عن الاستراق بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأبد ، أو انقطعوا في وقته فقط ؟

الثاني هو الأقرب : أنهم انقطعوا في وقت البعثة فقط ، حتى لا يلتبس كلام الكهان بالوحي ، ثم بعد ذلك زال السبب الذي من أجله انقطعوا .

قوله : (فيكذب معها مئة كذبة) ، هل هذا على سبيل التحديد ، أو المراد المبالغة ، أي أنه يكذب معها كذبات كثيرة ؟

الثاني هو الأقرب ، وقد تزيد عن ذلك وقد تنقص ؛ فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟

والناس في هذه الأمور الغريبة على حسب ما أخبر به المخبر يأخذون كل ما يقوله صدقا ، فإذا أخبر بشيء فوقع ، ثم أخبر بشيء ثان ؛ قالوا : إذن لابد أن يصدق .

- فوائد الحديث :

1-إثبات القول لله ـ عز وجل ـ .

2-عظمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

3- إثبات الأجنحة للملائكة .

4-خوف الملائكة من الله ـ عز وجل ـ وخضوعهم له .

5-أن الملائكة يتكلمون و يعقلون .

6-أنه لا يصدر عن الله إلا الحق

7-أن الله ــ سبحانه ــ يمكن هؤلاء الجن من الوصول إلى السماء فتنة للناس ، وهي ما يلقونه على الكهان ، فيحصل بذلك فتنة ، والله ـ عز وجل ـ حكيم .

وقد يوجد الله أشياء تكون ضلالا لبعض الناس ، لكنها لبعضهم هدى امتحانا وابتلاء .
8- كثرة الجن ؛ لأنهم يترادفون إلى السماء ، ومعنى ذلك أنهم كثيرون جدا ، وأجسامهم خفيفة يطيرون طيرانا .
وذكر ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيميه في السحرة الذين يستخدمون الجن وتطير بهم : أنهم يصبحون يوم عرفة في بلادهم ويقفون مع الناس في عرفة ، وهذا ممكن الآن في الطائرات ، لكن في ذلك الوقت ليس هناك طائرات ؛ فتحملهم الشياطين ، ويجعلون للناس المكانس التي تكنس بها

وعن النواس بن سمعان (رضي الله عنه) ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي ؛ أخذت السماوات منه رجفة (أو قال : رعدة شديدة) خوفا من الله عز وجل .

البيوت ، ويقول : أنا أركب المكنسة وأطير بها إلى مكة ؛ فيفعلون هذا ، وشيخ الإسلام يقول : إن هؤلاء كذبة ومستخدمون للشياطين ، ويسيئون حتى من الناحية العملية ؛ لأنهم يمرون الميقات ولا يحرمون منه .
9-أن الكهان من أكذب الناس ، ولهذا يضيفون إلى ما سمعوا كذبات كثيرة يضللون بها الناس ، ويتوصلون بها إلى باطلهم تارة بالترهيب وتارة بالترغيب، كأن يقولوا : ستقوم القيامة يوم كذا وكذا ، وسيجري عليك كذا من موت أو سرقة مال ونحو ذلك .
10-أن الساحر يصور للمسحور غير الواقع ، وفي هذا تحذير من أهل التمويه والتلبيس ، وأنهم إن صدقوا في شيء ؛ فيجب الحذر منهم بكل حال .

* * *

* قوله : (وعن النواس .....) ، هذا الحديث لم يخرجه المؤلف ، لكن قد ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم ، وذكر فيه علة ؛ وهي في سنده الوليد بن مسلم ، وهو مدلس ، وقد رواه عن شيخه بالعنعنة ؛ فيكون في الحديث ضعف، إلا أنه قد روى مسلم

[1] وأحمد من الحديث ابن عباس حديثا قد يكون شاهدا له ، حيث أخبر أن الله إذا تكلم بالوحي سمعه حملة العرش ، فسبحوا،

فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا و خروا لله سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء ؛ سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟

ثم سمعه أهل كل سماء ، فيسبحون كما سبح أهل السماء السابعة ، حتى يصل إلى السماء الدنيا ، فتخطفه الجن أو الشياطين .

وهذا وإن لم يكن فيه ذكر رجفة السماء أو السجود ؛ لكن يدل على أن له أصلا .

قوله : (إذا أراد أن يوحي بالأمر) ، أي : بالشأن .

قوله : (تكلم بالوحي) ، جملة شرطية تقتضي تأخر المشروط عن الشرط؛ فالإرادة سابقة ، والكلام لاحق ؛ فيكون فيه رد على الأشاعرة الذين يقولون : إن الله لا يتكلم بإرادة، وإن كلامه أزلي؛ كالسمع والبصر؛ ففيه إثبات الكلام الحادث ، ولا ينقص كمال الله إذا قلنا : إنه يتكلم بما شاء ، كيف شاء ، متى شاء ، بل هذا صفة كمال ، لكن النقص أن يقال : إنه يتكلم بحرف وصوت، إنما الكلام معنى قائم بنفسه .

قوله : (أخذت السماوات منه رجفة) ، السماوات : مفعول به جمع مؤنث سالم ، أو ملحق به ؛ فيكون منصوبا بالكسرة ، ورجفة : فاعل .

قوله : (أو قال : رعدة شديدة) ، شك من الراوي ، وإنما تأخذ السماوات الرجفة أو الرعدة ؛ لأنه سبحانه عظيم يخافه كل شيء ، حتى السماوات التي ليس فيها روح .

---

[1] (كتاب السلام /باب تحريم الكهانة).

قوله : (فإذا سمع ذلك أهل السماوات ؛ صعقوا وخروا لله سجدا) .

فيقول : قال الحق ، وهو العلي الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل)[1]

فإن قيل : كيف يمكن أن يصعقوا ويخروا سجدا ؟

فالجواب : أن الصعق هنا ـ والله أعلم ـ يكون قبل السجود ، فإذا أفاقوا سجدوا .

قوله : (فيكون أول من يرفع رأسه جبريل) ، أول : بالنصب على أنها خبر مقدم ، وجبريل بالرفع على أنها اسم يكون مؤخرا .

قوله : (بما أراد) ، أي : بما شاء ؛ لأن الله تعالى يتكلم بمشيئة .

قوله : (ثم يمر جبريل على الملائكة)، لأنه يريد النزول من عند الله إلى حيث أمره الله أن ينتهي إليه بالوحي .

قوله : (قال الحق وهو العلي الكبير) ، سبق في تفسير ذلك أنه يحتمل قال الحق في هذه القضية المعنية ، أو قال الحق ؛ لأن من عادته سبحانه ألا يقول إلا الحق ، وأيا كان ؛ فإن جبريل لا يخبر الملائكة بما أوحي الله إليه ، بل يقول: قال الحق مبهما ، ولهذا سمي عليه السلام بالأمين ، والأمين : هو الذي لا يبوح بالسر.

قوله : (وهو العلي الكبير) ، تقدم الكلام عليه .

قوله : (فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل) ، أي : قال الحق ، وهو العلي الكبير .

قوله : (فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله ـ عز وجل ـ) ، أي: يصل بالوحي إلى حيث أمره الله من الأنبياء والرسل .

من فوائد الحديث :

---

[1] تفسير ابن جرير الطبري (22/91) ، وابن كثير في تفسيره (6/504).

1- إثبات الإرادة لقوله : (إذا أراد الله) وهي قسمان : شرعية وكونية.

والفرق بينهما أولا : من حيث المتعلق ؛ فالإرادة الشرعية تتعلق بما يحبه الله ـ عز و جل ـ ، سواء وقع أو لم يقع ، وأما الكونية ؛ فتتعلق بما يقع ، سواء كان يحبه الله أو مما لا يحبه .

ثانيا : الفرق بينهما من حيث الحكم ، أي حصول المراد ؛ فالشرعية لا يلزم منها وقوع المراد ، أما الكونية ؛ فيلزم منها وقوع المراد .

فقوله تعالى : (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُم)(النساء: من الآية 27) هذه إردة شرعية ؛ لأنها لو كانت كونية لتاب على كل الناس ، وأيضا متعلقها فيما يحبه الله وهو التوبة .

وقوله (إن كان الله يريد أن يغويكم)(هود:34) هذه كونية؛ لأن الله لا يريد الإغواء شرعاً، أما كوناً وقدراً؛ فقد يريده.

وقوله: (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ)(النساء: من الآية26) هذه كونية، لكنها في الأصل شرعية؛ لأنه قال: (ويتوب عليكم)(النساء:26).

وقوله تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) (البقرة: من الآية185) هذه شرعية؛ لأن قوله: (ولا يريد بكم العسر) لا يمكن أن تكون كونية؛ إذ إن العسر يقع ولو كان الله لا يريده قدراً وكوناً؛ لم يقع.

2- أن المخلوقات وإن كانت جماداً تحس بعظمة الخالق، قال تعالى: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)(الاسراء: من الآية44).

3- إثبات أن الملائكة يتكلمون ويفهمون ويعقلون لأنهم يسألون: (ماذا قال ربكم)؟ ويجابون: قال(الحق)، خلافاً لمن قال: إنهم لا يوصفون

بذلك؛ فيلزم من قولهم هذا أننا تلقينا الشـريعة ممن لا عقـول لهم، وهذا قدح في الشريعة بلا ريب.

4- إثبات تعدد السماوات؛ لقوله (كلما مر بسماء).

5- أن لكل سماء ملائكة متخصصين؛ لقوله: (سأله ملائكتها).

6- فضيلة جبريل عليه السلام حيث إنه المعروف بأمانة الوحي، ولهـذا قـال ورقـة بن نوفـل: (هـذا هـو النـاموس الـذي كـان يـأتي موسى) [1] ، والناموس بالعبرية بمعنى صاحب السر.

7- أمانـة جبريـل عليـه السـلام، حيث ينتهي بـالوحي إلى حيث أمره الله ـ عز وجل ـ ؛ فيكون فيه رد على الرافضة الكفـرة الـذين يقولون: بأن جبريل أمر أن يوحي إلى علي فأوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقولون: خان الأمين فصدها عن حيدرة، وحيدرة لقب لعلي بن أبي طالب؛ لأنه كان يقول في غزوة خيـبر: أنـا الـذي سمتني أمي حيدرة [2] .

وفي هذا تناقض منهم؛ لأن وصفه بالأمانة يقتضي عدم الخيانة.

8- إثبات العزة والجلال لله ـ عز وجل ــ ؛ لقولـه: (عـز وجـل)، والعزة بمعنى الغلة والقوة، وللعزيز ثلاثة معان:

1 1 - عزيز: بمعنى ممتنع أن يناله أحد بسوء

2 2 - عزيز: بمعنى ذي قدر لا يشاركه في أحد.

3 3 - عزيز: بمعنى غالب قاهر.

*فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآية. الثانيـة: مـا فيهـا من الحجـة على إبطـال الشرك، خصوصاً من تعلق على الصـالحين، وهي الآيـة الـتي قيـل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

قال ابن القيم في النونية:

وهو العزيز فلن يرام جنابه أني يرام جناب ذي السلطان

وهو العزيز القاهر الغلاب لم يغلبه شيء هذه صفتـان

---

(1) البخاري: كتاب بدء الوحي/باب بدء الوحي، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بدء الوحي.

(2) مسلم: كتاب الجهاد/باب غزوة ذي قرد.

وهو العزيز بقوة هي وصفه فالعز حينئذ ثلاث معــان
وأما جل: فالجلال بمعنى العظمة التي ليس فوقها عظمة.

* * *

فيها مسائل :

* الأولى: تفسـير الآيـة، أي قولـه تعـالى: (حـتى إذا فـزع عن قلوبهم...) الآية، وقد سبق تفسيرها.

* الثانيـة: مـا فيـه من الحجـة على إبطـال الشـرك، وذلـك أن الملائكة وهم من هم في القـوة والعظمـة يصـعقون ويفزعـون من تعظيم الله؛ فكيف بالأصنام التي تعبد من دون الله وهي أقـل منهم بكثير؛ فكيف يتعلق الإنسان بها ؟ !

ولذلك قيل: إن هذه الآيـة هي الـتي تقطـع عـروق الشـرك من القلب؛ لأن الإنسان إذا عرف عظمـة الـرب سـبحانه حيث ترتجـف السـماوات ويصـعق أهلهـا بمجـرد تكلمـه بـالوحي؛ فكيـف يمكن للإنسان أن يشرك بالله شيئاً مخلوقاً ربمـا يصـنعه بيـده حـتى كـان جهال العرب يصنعون آلهة من التمرإذا جاع أحدهم أكلها؟!

الثالثة: تفسير قوله: (قالوا الحق وهـو العلي الكبـير). الرابعـة: سـبب سـؤالهم عن ذلـك. الخامسـة: أن جبريـل يجيبهم بعـد ذلـك بقوله: (قـال كـذا وكـذا). السادسـة: ذكـر أن أول من يرفـع رأسـه جبريل. السابعة: أنـه يقـول لأهـل السـماوات كلهم لأنهم يسـألونه. الثامنة: أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم.

وينزل أحدهم بـالوادي فيأخـذ أربعـة أحجـار: ثلاثـة يجعلـه تحت القدر، والرابع ـ وهو أحسنها ـ يجعلها إلهاً له.

* الثالثة: تفسير قوله: (قالوا الحق وهـو العلي الكبـير)، وسـبق تفسيرها.

* الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك، فالسـؤال: مـاذا قـال ربكم؟ وسببه شدة خوفهم منه وفزعهم خوفاً من أن يكون قـد قـال فيهم ما لا يطيقونه من التعذيب.

* الخامسة: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله: قال كذا وكذا؛ أي: يقول: قال الحق.

* السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل، لحديث النواس بن سمعان، وفيه فضيلة جبريل.

*السابعة: أنه يقول لأهل السماوات كلهم لأنهم يسألونه، وفي هذا دليل على عظمته بينهم.

* الثامنة: أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم، تؤخذ من قوله: (فإذا سمع ذلك أهل السماوات؛ صعقوا وخروا لله سجداً).

التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله. العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله. الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين. الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضاً. الثالثة عشرة: إرسال الشهب. الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.

---

* التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله: (أخذت السماوات منه رجفة)؛ أي: لأجله تعظيماً لله.

* العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره، أي: لا أحد يتولى إيصال الوحي غير جبريل حتى يوصله إلى حيث أمره به؛ لأنه الأمين على الوحي.

*الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين، أي: الذين يسترقون ما يسمع في السماوات، فيلقونه على الكهان، فيزيد فيه الكهان وينقصون.

* الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضاً، وصفها سفيان رحمه الله بأن حرف يده وبدد بين أصابعة.

* الثالثة عشرة: إرسال الشهب، يعني: التي تحرق مسترقي السمع، قال تعالى: (إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ) (الحجر:18).

- الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل ان يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان. السادسة عشرة: كونه يكذب معها مئة كذبة. السابعة عشرة: أنه لم يصدق كذبة إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

---

* الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان، لأنه يأتي بما سمع من السماء ويزيد عليه، وإذا وقع ما في السماء؛ صار صادقاً.

* اعتراض وجوابــه:

كيف يسمع المسترقون الكلمة وعندما يسأل الملائكة جبريل يجابون بقال الحق فقط؟

والجواب: إن الوحي لا يعلمه أهل السماء، بل هو من الله إلى جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

أما الأمور القدرية التي يتكلم الله بها؛ فليست خاصة بجبريل، بل ربما يعلمها أهل السماء مفصلة، ثم يسمعها مسترقو السمع.

* السادسة عشرة: كونه يكذب معها مئة كذبة، أي: يكذب مع الكلمة التي تلقاها من المسترق.

وقوله: (مئة كذبة) هذا على سبيل المبالغة كما سبق وليس على سبيل التحديد.

- السابعة عشرة: أنه لم يصدق إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء، وأما ما قاله من عنده؛ فهو تخرص؛ فالكلمة التي سمعها تصدق، والذي يضيفه كله كذب يموه به على الناس.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل ! كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمئة ؟ ! التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض

تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها. والعشرون: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة.

---

* الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمئة؟! وهذا صحيح، وليس صفة عامة لعامة الناس، بل لأهل الجهل والسفة؛ فهم يتعلقون بالكاهن من أجل صدقه مرة واحدة، وأما مئة كذبة؛ فلا يعتبرون بها، ولا شك أن بعض السفهاء يغترون بالصالح المغمور بالمفاسد، ولكن لا يغتر به أهل العقل والإيمان ولهذا لما نزل قوله تعالى: (يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)(البقرة: من الآية219)، تركهما كثير من الصحابة اعتباراً بالموازنة، والعاقل لا يمكن إذا وازن بين الأشياء أن يرجح جانب المفسدة؛ فهو وإن لم يأت الشرع بالتعيين يعرف ويميز بين المضار والمنافع.

* التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها ..الخ، الكلمة: هي الصدق؛ لأنها هي التي تروج بضاعتهم، ولو كانت بضاعتهم كلها كذباً ما راجت بين الناس.

* العشرون: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة: هم الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري وسموا معطلة لأنهم يعطلون النصوص عن المعنى المراد بها ويعطلون ما وصف الله به نفسه. والمراد تعطيل أكثر ذلك

فإنهم يعطلون أكثر الصفات ولا يعطلون جميعها، بخلاف المعتزلة؛ فالمعتزلة ينكرون الصفات ويؤمنون بالأسماء، هؤلاء عامتهم، وإلا؛ فغلاتهم ينكرون حتى الأسماء، وأما الأشاعرة؛ فهم معطلة اعتباراً بالأكثر؛ لأنهم لا يثبتون من الصفات إلا سبعاً، وصفاته تعالى لا تحصى، وإثباتهم لهذه السبع ليس كإثبات السلف؛ فمثلاً: الكلام عند أهل السنة أن الله يتكلم بمشيئته بصوت وحرف.

والأشاعرة قالوا: الكلام لازم لذاته كلزومه الحياة والعلم، ولا يتكلم بمشيئته، وهذا الذي يسمع عبارة عن كلام الله وليس كلام الله، بل هو مخلوق؛ فحقيقة الأمر أنهم لم يثبتوا الكلام، ولهذا قال بعضهم: إنه لا فرق بيننا وبين المعتزلة في كلام الله؛ لأننا أجمعنا على أن ما بين دفتي المصحف مخلوق، وحجتهم في إثبات الصفات السبع: أن العقل دل عليها.

وشبهتهم في إنكار البقية: زعموا أن العقل لا يدل عليها.

والرد عليهم بما يلي :

1- أن كون العقل يدل على الصفات السبع لا يدل على انتفاء ما سواها؛ فإن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول؛ فهب أن العقل لا يدل على بقية الصفات، لكن السمع دل عليها؛ فنثبتها بالدليل السمعي.

2- أنها ثابته بالدليل العقلي بنظير ما أثبتم هذه السبع؛ فمثلاً: الإرادة ثابته لله عندهم بدليل التخصيص، حيث إن الله جعل الشمس شمساً والقمر قمراً والسماء سماء والأرض أرضاً، وكونه يميز بين ذلك معناه أنه سبحانه وتعالى يريد؛ إذ لولا الإرادة؛ لكانت الدنيا كلها سواء، فأثبتوها لأن العقل دل عليها.

فنقول لهم: الرحمة لحظة على الخلق إلا وهم في نعمة من الحادية والعشرون: التصريح بأن تلك الرجفة والغشي خوفاً من الله عز وجل. الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجداً.

الله؛ فهذه النعم العظيمة من الله تدل على رحمته لخلقه أدل من التخصيص على الإرادة.

والانتقام من العصاة يدل على بغضه لهم، وإثابة الطائعين ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة يدل على محبته لهم أدل على التخصيص من الإرادة، وعلى هذا فقس؛ فالمؤلف رحمه الله لما كان الأشعرية لا يثبتون إلا سبع صفات على خلاف في إثباتها مع أهل السنة جعلهم معطلة على سبيل الإطلاق، وإلا؛ فالحقيقة أنهم ليسوا معطلة على سبيل الإطلاق.

* الحادية والعشرون: التصريح بأن تلك الرجفة والغشي خوفاً من الله ـ عز وجل ـ ، فيدل على عظمة الخالق جل وعلا، حيث بلغ خوف الملائكة منه هذا المبلغ.

* الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجداً، أي: تعظيماً لله وإتقاء لما يخشونه؛ فتفيد تعظيم الله ـ عز وجل ـ كالتي قبلها.

** *

باب الشفاعـــة

ذكر المؤلف رحمه الله الشفاعة في كتاب التوحيد ؛ لأن المشركين الذي يعبدون الأصنام يقولون : إنها شفاعة لهم عند الله ، وهم يشركون بالله ـ سبحانه وتعالى ـ فيها بالدعاء والاستغاثة وما أشبه ذلك .

وهم بذلك يظنون أنهم معظمون لله ، ولكنهم منتقصون له ؛ لأنه عليم بكل شيء ، وله الحكم التام المطلق والقدرة التامة ؛ فلا يحتاج إلى شفعاء .

ويقولون : إننا نعبدهم ليكونوا شفعاء لنا عند الله ، فيقربنا إلى الله، وهم ضالون في ذلك ؛ فهو سبحانه عليم وقدير وذو سلطان ،ومن كان كذلك ؛ فإنه لا يحتاج إلى شفعاء .

والملوك في الدنيا يحتاجون إلى شفعاء ؛ إما لقصور علمهم ، أو لنقص قدرتهم ؛ فيساعدهم الشفعاء في ذلك ، أو لقصور سلطانهم ؛ فيتجرأ عليهم الشفعاء، فيشفعون بدون استئذان، ولكن الله ـ عز وجل ـ كامل العلم والقدرة و السلطان ، فلا يحتاج لأحد أن يشفع عنده ، ولهذا لا تكون الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه لكمال سلطانه و عظمته .

ثم الشفاعة لا يراد بها معونة الله ـ سبحانه ـ في شيء مما شفع فيه؛ فهذا ممتنع كما سيأتي في كلام شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله[1] ، ولكن يقصد بها أمران ، هما :

وقول الله عز و جل : (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ)(الأنعام: من الآية51).

1- إكرام الشافع . 2- نفع المشفوع له .

والشفاعة لغة : اسم من شفع يشفع ، إذا جعل الشيء اثنين ، والشفع ضد الوتر ، قال الله تعالى : (والشفع والوتر) (الفجر : 3).

واصطلاحا : التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة .

مثال جلب المنفعة: شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الجنة بدخولها .

مثال دفع المضرة : شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لمن استحق النار أن لا يدخلها .

** *

وذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب عدة آيات :

- الآية الأولي قوله تعالى : (وأنذر به) ، الإنذار : هو الإعلام المتضمن للتخويف ، أما مجرد الخبر ؛ فليس بإنذار ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

والضمير في (به) يعود للقرآن ؛ كما قال تعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا)(الشورى: من الآية7)، وقال الله تعالى : (لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)(لأعراف: من الآية2).

وقوله : (يخافون أن يحشروا) ، أي : يخافون مما يقع لهم من سوء العذاب في ذلك الحشر .

والحشر : الجمع ، وقد ضمن هنا معنى الضم والانتهاء ؛ فمعنى يحشرون؛ أي يجمعون حتى ينتهوا إلى الله .

---

[1] يأتي (ص332).

قوله :(ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع)، (ولي) ؛ أي ناصر ينصرهم .
وقوله : (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً)(الزمر: من الآية44).

(ولا يشفع) ؛ أي : شافع يتوسط لهم ، وهذا محل الشاهد .
ففي هذه الآية نفي الشفاعة من دون الله ، أي من دون إذنه ، ومفهومها : أنها ثابتة بإذنه ، وهذا هو المقصود ؛ الشفاعة من دونه مستحيله ، وبإذنه جائزة وممكنة .
أما عند الملوك ؛ فجائزة بإذنهم وبغير إذنهم ، فيمكن لمن كان قريبا من السلطان أن يشفع بدون أن يستأذن .
ويفيد قوله : (من دونه) أن لهم بإذنه وليا وشفيعا ؛ كما قال تعالى : (إنما وليكم الله ورسوله) (المائدة : 55) .
الآية الثانية قوله تعالى:(لله الشفاعة) ، مبتدأ وخبر ، وقدم الخبر للحصر ، والمعنى : لله وحده الشفاعة كلها، لا يوجد شيء منها خارج عن إذن الله وإرادته ؛ فأفادت الآية في قوله : (جميعا) أن هناك أنواع للشفاعة .
وقد قسم أهل العلم رحمهم الله الشفاعة إلى قسمين رئيسيين ، هما :
القسم الأول : الشفاعة الخاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي أنواع:
النوع الأول : الشفاعة العظمى ، وهي من المقام المحمود الذي وعده الله؛ فإن الناس يلحقهم يوم القيامة في ذلك الموقف العظيم من الغم والكرب ما لا يطيقونه ، فيقول بعضهم لبعض : اطلبوا من يشفع لنا عند الله ، فيذهبون إلى آدم أبي البشر ، فيذكرون من أوصافه التي ميزه الله بها : أن الله خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء ، فيقولون : اشفع لنا عند ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟!فيعتذر لأنه عصى الله بأكله من الشجرة ، ومعلوم أن

الشافع إذا كان عنده شيء يخدش كرامته عند المشفوع إليه ؛ فإنه لا يشفع لخجله من ذلك ، مع أن آدم عليه السلام قد تاب الله عليه واجتباه وهداه ، قال الله تعالى: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى*ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى) (طـه:121-122) ، لكن لقوة حيائه من الله اعتذر .

ثم يذهبون إلى نوح ، ويذكرون من أوصافه التي امتاز بها بإنه أول رسول إرسله الله الأرض ، فيعتذر بأنه سأل الله ما ليس له به علم حين قال: (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)(هود: من الآية45).

ثم يذهبون إلى عيسى عليه الصلاة و السلام ، فيذكرون من أوصافه ما يقتضي أن يشفع ؛ فلا يعتذر بشيء ، لكن يحيل إلى من هو أعلى مقاما ، فيقول : اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيحيلهم إلى محمد صلى الله عليه وسلم دون أن يذكر عذرا يحول بينه وبين الشفاعة[1] ، فيأتون محمدا صلى الله عليه وسلم ، فيشفع إلى الله ليريح أهل الموقف .

الثاني : شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها ؛ لأنهم إذا عبروا الصراط ووصلوا إليها وجدوها مغلقة ، فيطلبون من يشفع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله في فتح أبواب الجنة لأهلها ، ويشير إلى قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)(الزمر: من الآية 73) ؛ فقال : (وفتحت) ؛ فهناك شيء محذوف ، أي : وحصل ما حصل من الشفاعة ، وفتحت الأبواب ، أما النار ؛ فقال فيها (حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها .....) الآية .

الثالث : شفاعتة صلى الله عليه وسلم في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب[1] ، وهذه مستثناه من قوله تعالى : (فَمَا تَنْفَعُهُمْ

([1] البخاري : كتاب التفسير /باب (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبد شكورا) ، ومسلم : كتاب الإيمان /باب أدنى أهل الجنة منزلة .

([1] البخاري : كتاب الفضائل / باب قصة أبي طالب ، ومسلم : كتاب الإيمان / باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب.

شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) (المدثر:48)، وقوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً) (طـه:109)، وذلك لما كان لأبي طالب من نصرة للنبي صلى الله عليه وسلم ودفاع عنه ، وهو لم يخرج من النار ، لكن خفف عنه حتى صار ـ والعياذ بالله ـ في ضحضاح من نار ، وعليه نعلان يغلي منهما دماغه ، وهذه الشفاعة خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم لا أحد يشفع في كافر أبدا إلا النبي صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك لم تقبل الشفاعة كاملة ، وإنما هي تخفيف فقط .

القسم الثاني : الشفاعة العامة له صلى الله عليه وسلم ولجميع المؤمنين .

وهي أنواع :

النوع الأول : الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها ، وهذه قد يستدل لها بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا ؛ إلا شفعهم الله فيه)[2] ؛ فإن هذه شفاعة قبل أن يدخل النار ، فيشفعهم الله في ذلك .

النوع الثاني : الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها ، وقد تواترت بها الأحاديث وأجمع عليها الصحابة ، واتفق عليها أهل الملة ما عدا طائفتين ، وهما: المعتزلة والخوارج ؛ فإنهم ينكرون الشفاعة في أهل المعاصي مطلقا لأنهم يرون أن

فاعل الكبيرة مخلد في النار ، ومن يستحق الخلود ؛ فلا تنفع فيه الشفاعة ، فهم ينكرون أن النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره يشفع في أهل الكبائر أن لا يدخلون النار ، أو إذا دخلوها أن يخرجوا منها ، لكن قولهم هذا باطل بالنص والإجماع .

النوع الثالث : الشفاعة في رفع درجات المؤمنين ، وهذه تؤخذ من دعاء المؤمنين بعضهم لبعض كما قال صلى الله عليه وسلم في أبي سلمة : (اللهم اغفر لأبي سلمة ، وارفع درجته في

([2] مسلم : كتاب الجنائز / باب من صلى عليه أربعون .

المهديين ، وأفسح له في قبره ، و نور له فيه ، واخلفه في عقبه)[1]، و الدعاء شفاعة ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : (ما من مسلم يموت ، فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا ؛ إلا شفعهم الله فيه) .

- إشكال و جوابه :

فإن قيل : إن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه سبحانه ؛ فكيف يسمى دعاء الإنسان لأخيه شفاعة وهو لم يستأذن من ربه ؟

والجواب : إن الله أمر بأن يدعو الإنسان لأخيه الميت ، وأمره بالدعاء إذن وزيادة .

وأما الشفاعة الموهومة التي يظنها عباد الأصنام من معبودتهم ؛ فهي شفاعة باطلة لأن الله لا يأذن لأحد بالشفاعة إلا من ارتضاه من الشفعاء والمشفوع لهم .

إذا قوله : (لله الشفاعة جميعا) تفيد أن الشفاعة متعددة كما سبق[2] .

* * *

وقوله : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْـفَعُ عِنْـدَهُ إِلَّا بِإِذْنِـهِ)(البقـرة: من الآية 255).

الآية الثالثة قوله تعالى : (من ذا الذي) ، (من) : اسم استفهام بمعنى النفي ؛ أي : لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه .

(ذا) : هل تجعل ذا اسما موصولا كما قال ابن مالك في (الألفية) ، أو لا تصح أن تكون اسما موصولا هنا لوجود الاسم الموصول (الذي) ؟

الثاني هو الأقرب ، وإن كان بعض المعربين قال : يجوز أن تكون (الذي) توكيدا لها .

والصحيح أن (ذا) هنا إما مركبة مع (من) ، أو زائدة للتوكيد ، وأيا كان الإعراب ؛ فالمعنى : أنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذن الله .

---

[1] مسلم : كتاب الجنائز /باب في إغماض الميت .

[2] تقدم (ص325) .

وسبق أن النفي إذا جاء في سياق الاستفهام ؛ فإنه يكون مضمنا معنى التحدي ، أي إذا كان أحد يشفع بغير إذن الله فأت به .

قوله : (عنده) ، ظرف مكان ، وهو سبحانه في العلو ؛ فلا يشفع أحد عنده ولو كان مقربا ؛ كالملائكة المقربين ؛ إلا بإذنه الكوني ، والإذن لا يكون إلا بعد الرضا .

وأفادت الآية : أنه يشترط للشفاعة إذن الله فيها لكمال سلطانه جل وعلا ، فإنه كلما كمل سلطان الملك ؛ فإنه لا أحد يتكلم عنده ولو كان بخير إلا بعد إذنه ، ولذلك يعتبر اللغط في مجلس الكبير إهانة له ودليلا على أنه ليس كبيرا في نفوس من عنده ، كان الصحابة مع الرسول صلى الله عليه وسلم كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار وعدم الكلام إلا إذا فتح اكلام ؛ فإنهم يتكلمون .

* * *

وقوله : (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) (لنجم:26) .

---

* الآية الرابعة قوله تعالى : (وكم من ملك) .

(كم) خبرية للتكثير ، والمعنى : ما أكثر الملائكة الذين في السماء ، ومع ذلك لا تغني شفاعتهم شيئا إلا بعد إذن الله ورضاه .

قوله : (إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضي) ، فللشفاعة شرطان، هما :

1- الإذن من الله ؛ لقوله : (أن يأذن الله) .
2- رضاه عن الشافع والمشفوع له ؛ لقوله : (ويرضي)، وكما قال تعالى : (وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) (الانبياء: من الآية28)؛ فلابد من إذنه تعالى ورضاه عن الشافع والمشفوع له ؛ إلا في التخفيف عن أبي طالب ، وقد سبق ذلك[1] .

وهذه الآية في سياق بيان بطلان ألوهية اللات والعزى ، قال تعالى بعد ذكر المعراج وما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم فيه: (لَقَدْ

---

(1) (ص325).

رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) (لنجم:18)؛ أي : العلامات الدالة عليه عز وجل ؛ فكيف به سبحانه ؟! فهو أكبر وأعظم .

ثم قال : (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى*وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) (لنجم: 20،19)، وهذا استفهام للتحقير ؛ فبعد أن ذكر الله هذه العظمة قال : (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى* تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى*إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ

وقوله : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ)(سـبأ: من الآية22).

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى*أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى*فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى*وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ....) الآية (لنجم: من الآية21ـ26).

فإذا كانت الملائكة وهي في السماوات في العلو لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذنه تعالى ورضاه ؛ فكيف باللات و العزى وهي في الأرض ؟!

ولهذا قال : (وكم من ملك في السماوات) ، مع أن الملائكة تكون في السماوات وفي الأرض ، ولكن التي في السماوات العلى ، وهي عند الله ـ سبحانه ـ ؛ فحتى الملائكة المقربون حملة العرش لا تغني شفاعتهم إلا من أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى .

*   *   *

- الآية الخامسة قوله تعالى : (قل ادعوا) .

الأمر في قوله : (ادعوا) للتحدي والتعجيز ، وقوله : (ادعوا) يحتمل معنيين ، هما :

1- 1- أحضروهم .
2- ادعوهم دعاء مسألة .

فلو دعوهم دعاء مسألة لا يستجيبون لهم ؛ كما قال تعالى :
(إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) (فاطر:14)

يكفرون : يتبرؤون ، ومع هذه الآيات العظيمة يذهب بعض الناس يشرك بالله ويستنجد بغير الله ، وكذلك لو دعوهم دعاء حضور لم يحضروا ، ولو حضروا ما انتفعوا بحضورهم .

قوله : (لا يملكون مثقال ذرة) ، واحدة الذر : وهي صغار النمل ، ويضرب بها المثل في القلة .

قوله : (مثقال ذرة) ، وكذلك ما دون الذرة لا يملكونه ، والمقصود بذكر الذرة المبالغة ، وإذا قصد المبالغة بالشيء قلة أو كثرة ؛ فلا مفهوم له ؛ فالمراد الحكم العام ؛ فمثلا قوله تعالى :
(إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) (التوبة: من الآية 80)؛ أي : مهما بالغت في الاستغفار .

ولا يرد على هذا أن الله اثبت ملكا للإنسان ؛ لأن ملك الإنسان قاصر وغير شامل ومتجدد وزائل ، وليس كملك الله .

قوله : (مالهم فيهما من شرك) ، أي : ما لهؤلاء الذين تدعون من دون الله.

(فيهما) ؛ أي : في السماوات والأرض .

(من شرك) ؛ أي : مشاركة ، أي لا يملكون انفرادا ولا مشاركة .

قوله : (من شرك) : مبتدأ مؤخر دخلت عليه (من) الزائدة لفظا ، لكنها للتوكيد معنى .

وكل زيادة في القرآن ؛ فهي زيادة في المعنى .

وأتت (من) للمبالغة في النفي ، وأنه ليس هناك شرك لا قليل و لا كثير.

قوله : (وما له منهم من ظهير) ، الضمير في (ما له) يعود إلى الله تعالى ، وفي (منهم) يعود إلى الأصنام ؛ أي : ما لله تعالى من الأصنام ظهير.

و(من) : حرف جر زائد ، و(ظهير) : مبتدأ مؤخر بمعنى معين ؛ كما

قال الله تعالى :(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) (الاسراء:88)؛ أي: معينا، وقال تعالى : (وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) (التحريم: من الآية4)؛ أي : ليس لله معين في أفعاله ، وبذلك ينتفي عن هذه الأصنام كل ما يتعلق به العابدون ؛ فهي لا تملك شيئا على سبيل الانفراد و لا المشاركة ولا الإعانة ؛ لأن من يعينك وإن كان غير شريك لك يكون له منة عليك ؛ فربما تحابيه في إعطائه ما يريد.

فإذا انتفت هذه الأمور الثلاثة ؛ لم يبق إلا الشفاعة ، وقد أبطلها الله بقوله : (وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ)(سبأ: من الآية23)؛ فلا تنفع عند الله الشفاعة لهؤلاء ؛ لأن هذه الأصنام لا يأذن الله لها ، فانقطعت كل الوسائل والأسباب للمشركين ، وهذا من أكبر الآيات الدالة على بطلان عبادة الأصنام ؛ لأنها لا تنفع عابديها لا استقلالا و لا مشاركة ولا مساعدة ولا شفاعة ؛ فتكون عبادتها باطلة ، قال تعالى : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)(الاحقاف: من الآية5)،حتى ولو كان المدعو عاقلا؛ لقوله:(من) ، ولم يقل : (ما) ، ثم قال تعالى : (وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ *وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) (الاحقاف:6،5)، وكل هذه الآيات تدل على أنه يجب على الإنسان قطع جميع تعلقاته إلا بالله عبادة وخوفا ورجاء واستعانة ومحبة وتعظيما ؛ حتى يكون عبدا لله حقيقة ، يكون هواه وإرادته وحبه وبغضه وولاؤه ومعاداته لله وفي الله ؛ لأنه مخلوق للعبادة فقط، قال تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون:115)؛ أي : لا نأمركم ولا ننهاكم ، إذ لو خلقناكم فقط للأكل والشرب والنكاح؛ لكان ذلك عين العبث ، ولكن هناك شيء وراء ذلك ، وهو عبادة الله سبحانه في هذه الدنيا.

قال أبو العباس : (نفي الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفي أن يكون لغيره ملك أو قسط منه ، أو يكون عونا لله ، ولم يبق إلا الشفاعة ، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب ؛ كما قال : (وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى)(الانبياء: من الآية 28).

وقوله : (إلينا ترجعون)، أي : وحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون ، فنجازيكم إذا كان هو هذا حسبانكم ؛ فهو حسبان باطل .

* * *

قوله : (قال أبو العباس) ، هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيميه رحمه الله يكنى بذلك ، ولم يتزوج ؛ لأنه كان مشغولا بالعلم والجهاد،وليس زاهدا في السنة ، مات سنة 727هـ وله 67سنة و 10أشهر.

قوله : (لغيره ملك) ، أي : لغير الله في قوله : (لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض) .

قوله : (أو قسط منه) في قوله : (وما لهم فيهما من شرك) .

قوله : (أو يكون عونا لله) في قوله تعالى : (وما له منهم من ظهير) بدون استثناء .

قوله : (ولم يبق إلا الشفاعة) ، فبين أنها لا تنفع إلا من أذن له الرب ؛ كما قال تعالى : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضي) ، وقال : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)(البقرة: من الآية255)، ومعلوم أنه لا يرضى هذه الأصنام لأنها باطلة ، وحينئذ فتكون شفاعتهم منتفية .

واعلم أن شرك المشركين في السابق كان في عبادة الأصنام ، أما الآن؛

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة ؛ كما نفاها القرآن وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم : (أنه يأتي

فيسجد لربه و يحمده ـ لا يبدأ بالشـفاعة أولا ـ ثم يقـال لـه : ارفـع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعط ، واشفع تشفع)[1] .

فهو في طاعة المخلوق في المعصية ؛ فإن هؤلاء يقدسون زعمائهم أكثر من تقديس الله إن أقروا به ، فيقال لهم : إنهم بشر مثلكم ، خرجوا من مخرج البول والحيض ، وليس لهم شرك في السماوات ولا في الأرض ، ولا يملكون الشفاعة لكم عند الله ، إذا ؛ فكيف تتعلقون بهم ؟! حتى إن الواحد منهم يركع لرئيسه أو يسجد له كما يسجد لرب العالمين .

والواجب علينا نحو ولاة الأمور طاعتهم ، وطاعتهم من طاعة الله ، وليست استقلالا ، أما عبادتهم كعبادة الله ؛ فهذه جاهلية وكفر .

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة ، كما نفاها القرآن؛ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ نفى أن تنفعهم أصنامهم ، بل قال : (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ* لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ) (الانبياء: 98،99) حتى الأصنام لا تنفع نفسها و لا يشفع لها ؛ فكيف تكون شافعة ؟! بل هي في النار وعابدوها .

قوله : (وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه يأتي فيسجد لربه) ، أي : وكما أخبر؛ فالواو

وقال أبو هريرة له صلى الله عليه وسلم : من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال: (من قال: لا إله إلا الله؛ خالصاً من قلبه) [1] .

عاطفة، ويجوز أن تكون استئنافية، فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أعظم الناس جاهاً عند الله لا يشفع إلا بعد أن يحمد الله ويثني عليه، فيحمد الله بمحامد عظيمة يفتحها الله عليه

---

[1] البخاري : كتاب الرقاق / باب صفة الجنة والنار ، ومسلم : كتاب الإيمان / باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها .

[1] البخاري ك كتاب العلم/ باب الحرص على الحديث.

لم يكن يعلمها من قبل، ويطول سجوده؛ فكيف بهذه الأصنام؛ هل يمكن أن تشفع لأصحابها؟

قوله: (ارفع رأسك)، أي: من السجود.

قوله: (وقل تعط)، أي: سل ما بدا لك تعط إياه، وتعط: مجزوم بحذف حرف العلة جواباً لسل.

قوله: (واشفع تشفع)، وحينئذ يشفع النبي صلى الله عليه وسلم في الخلائق أن يقضى بينهم.

قوله: (وقال أبو هريرة له صلى الله عليه وسلم : من أسعد الناس بشفاعتك؟) هذا السؤال من أبي هريرة للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال هل النبي صلى الله عليه وسلم : (لقد كنت أظن أن لا يسألني أحد غيرك عنه لما أرى من حرصك على العلم)، وفي هذا دليل على أن من وسائل تحصيل العلم السؤال.

قوله: (من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه)، وعليه؛ فالمشركون ليس لهم حظ من الشفاعة لأنهم لا يقولون: لا إله إلا الله، قال تعالى: (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون)

(الصافات: 35-36)، وقال تعالى حكاية عنهم: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) (صّ:5) .

والحقيقة أن صنيعهم هو العجاب، قال تعالى: (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ) (الصافات:12)، وقال تعالى: (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)(الرعد: من الآية5).

وقوله: (خالصاً من قلبه) خرج بذلك من قالها نفاقاً؛ فإنه لا حظ له في الشفاعة، فإن المنافق يقول: لا إله إلا الله، ويقول: أشهد أن محمداً رسول الله، لكن الله ـ عز وجل ـ قابل شهادتهم هذه بشهادته على كذبهم، قال تعالى: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)(المنافقون: من الآية1)؛ أي: في شهادتهم، في قولهم: إنك لرسول الله؛ فهم كاذبون في شهادتهم

وفي قولهم : لا إله إلا الله؛ لأنهم لو شهدوا بذلك حقاً ما نافقوا ولا أبطنوا الكفر.

قوله: (خالصاً)، أي: سالماً من كل شوب؛ فلا يشوبها رياء ولا سمعة، بل هي شهادة يقيق.

قوله: (من قلبه)، لأن المدار على القلب، وهو ليس معنى من المعاني، بل هو مضغة في صدور الناس، قال الله تعالى: (فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)(الحج: من الآية46) ، وقال تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)، وقال صلى الله عليه وسلم : (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله) [1] .

فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله، وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع؛ ليكرمه، وينال المقام المحمود.

وبهذا يبطل قول من قال: إن العقل في الدماغ، ولا ينكر أن للدماغ تأثيراً في الفهم والعقل، لكن العقل في القلب، ولهذا قال الإمام أحمد: (العقل في القلب، ولا اتصال في الدماغ).

ومن قال كلمة الإخلاص خالصاً من قلبه؛ فلا بد أن يطلب هذا المعبود بسلوك الطرق الموصلة إليه؛ فيقوم بأمر الله ويدع نهيه.

قوله: (فتلك الشافعة لأهل الإخلاص)، لأن من أشرك بالله قال الله فيه: (فما تنفعهم شفاعة الشافعين).

قوله: (وحقيقته أن الله ـ سبحانه ـ هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص؛ فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع).

وحقيقته؛ أي: حقيقة أمر الشفاعة، أي الفائدة منها : أن الله ـ عز وجل ـ أراد أن يغفر للمشفوع له، ولكن بواسطة هذه الشفاعة.

([1]) البخاري : كتاب الإيمان/باب فضل من استبرأ لدينه، ومسلم : كتاب المساقاة/باب أخذ الحلال وتـرك الشبهات .

والحكمة من هذه الواسطة بينها بقوله: (ليكرمه وينال المقام المحمود)، ولو شاء الله لغفر لهم بلا شفاعة، ولكنه أراد بيان فضل هذا الشافع وإكرامه أمام الناس، ومن المعلوم أن من قبل الله شفاعته؛ فهو عنده بمنزلة عاليه؛ فيكون في هذا إكرام للشافع من وجهين:

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع. وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل الإخلاص والتوحيد). انتهى كلامه.

الأول: إكرام الشافع بقبول شفاعته.

الثاني: ظهور جاهه وشرفه عند الله تعالى.

قوله: (المقام المحمود)، أي: المقام الذي يحمد عليه وأعظم الناس في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن الله وعده أن يبعثه مقاماً محموداً، ومن المقام المحمود: أن الله يقبل شفاعته بعد أن يتراجع الأنبياء أولو العزم عنها.

ومن يشفع من المؤمنين يوم القيامة؛ فله مقام يحمد عليه على قدر شفاعته.

قوله: (فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك) ، هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله.

(ما) اسم موصول ؛ أي : التي كان فيها شرك.

قوله: (وقد أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع)، ومن ذلك قوله: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)(البقرة: من الآية255)، وقوله: (وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ)(سبأ: من الآية23) ، وقوله: (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) (النجم:26).

قوله: (وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل الإخلاص والتوحيد).

أما أهل الشرك؛ فإن الشفاعة لا تكون لهم؛ لأن شفعاءهم هي الأصنام، وهي باطلة.

* فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيات . الثانية: صفة الشفاعة المنفية.
الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة. الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى وهي المقام المحمود. الخامسة: صفة ما يفعله صلى الله عليه وسلم أنه لا يبدأ بالشفاعة، بل يسجد، فإذا أذن له؛ شفع.

وجه إدخال باب الشفاعة في كتاب التوحيد: أن الشفاعة الشركية تنافي التوحيد، والبراءة منها هو حقيقة التوحيد.

* ** *

- فيه مسائل:
- الأولى : تفسير الآيات، وهي خمس، وسبق تفسيرها في حالها.
- الثانية : صفة الشفاعة المنفية، وهي ما كان فيها شرك، فكل شفاعة فيها شرك؛ فإنها منفية.
- الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة، وهي شفاعة أهل التوحيد بشرط إذن الله تعالى ورضاه عن الشافع والمشفوع له .
- الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود، وهي الشفاعة في أهل الموقف أن يقضي بينهم، وقول الشيخ: (وهي المقام المحمود)؛ أي: منه [1] .
- الخامسة: صفة ما يفعله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا يبدأ بالشفاعة بل يسجد، فإذا أذن له؛

السادسة: من أسعد الناس بها ؟ السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله. الثامنة: بيان حقيقتها.

شفع، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله، وهو ظاهر، وهذا يدل على عظمة الرب وكمال أدب النبي صلى الله عليه وسلم.

- السادسة: من أسعد الناس بها ؟ هم أهل التوحيد والإخلاص من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه.

([1] تقدم (ص 336).

- ولا إله إلا الله معناها: لا معبود حق إلا الله، وليس المعنى: لا معبود إلا الله؛ لأنه لو كان كذلك؛ لكان الواقع يكذب هذا، إذ إن هناك معبودات من دون الله تعبد وتسمى آلهة، ولكنها بالطلة، وحينئذ يتعين أن يكون المراد لا إله حق إلا الله.

ولا إله إلا الله تتضمن نفياً وإثباتاً، هذا هو التوحيد؛ لأن الإثبات المجرد تعطيل محض، فلو قلت: لا إله معناه عطلت كل إله، ولو قلت: الله إله ما وحدت؛ لأن مثل هذه الصيغة لا تمنع المشاركة، ولهذا قال الله تعالى:(وإلهكم إله واحد)(البقرة:163) لما جاء الإثبات فقط أكده بقوله: واحد.

- السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله، لقوله تعالى: (فما شفاعة الشافعين)(المدثر:48)، وغير ذلك مما نفى الله فيه الشفاعة للمشركين، ولقوله صلى الله عليه وسلم: (خالصاً من قلبه).
- الثامنة: بيان حقيقتها، وحقيقتها: أن الله تعالى يتفضل على أهل الإخلاص؛ فيغفر لهم بواسطة من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود.

* * *

باب قول الله تعالى :
(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) الآية.

---

* مناسبة هذا الباب لما قبله:

مناسبته أنه نوع من الباب الذي قبله، فإذا كان لا أحد يستطيع أن ينفع أحداً بالشفاعة والخلاص من العذاب، كذلك لا يستطيع أحد أن يهدي أحداً؛ فيقوم بما أمر الله به.

** *

قوله تعالى: (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)(القصص:56)، الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يحب هداية عمه أبي طالب أو من هو أعم.

فأنت يا محمد المخاطب بكاف الخطاب، وله المنزلة الرفيعة عند الله لا تستطيع أن تهدي من أحببت هدايته، ومعلوم أنه إذا أحب هدايته؛ فسوف يحرص عليه، ومع ذلك لا يتمكن من هذا الأمر؛ لأن الأمر كله بيد الله، قال تعالى : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ)(آل عمران: من الآية128) ، وقال تعالى: (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)(هود: من الآية 123)؛ فأتى بـ (أل) الدالة على الاستغراق؛ لأن (أل) في قوله؛ (الأمر) للاستغراق؛ فهي نائبة مناب كل؛ أي: وإليه يرجع كل الأمر، ثم جاءت مؤكدة بكل، وذلك توكيدان.

والهداية التي نفاها الله عن رسوله صلى الله عليه وسلم هداية التوفيق، والتي أثبتها له

هداية الدلالة والإرشاد، ولهذا أتت مطلقة لبيان أن الذي بيده هو هداية الدلالة فقط، لا أن يجعله متهدياً، قال تعالى: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)(الشورى: من الآية52)، فلم يخصص سبحانه فلاناً وفلاناً ليبين أن المراد: أنك تهدي هداية دلالة، فأنت تفتح الطريق أمام الناس فقط وتبين لهم وترشدهم، وأما إدخال الناس في الهداية؛ فهذا أمر ليس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، إنما هو مما تنفرد الله به سبحانه؛ فنحن علينا أن نبين وندعو، واما هداية التوفيق(أي الإنسان يهتدي)؛ فهذا إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وهذا هو الجمع بين الآيتين.

وقوله: (إنك لا تهدي من أحببت) ظاهره أن النبي صلى الله عليه وسلم يحب أبا طالب؛ فكيف يؤول ذلك؟

والجواب: إما أن يقال: إنه على تقدير أن المفعول محذوف، والتقدير: من أحببت هدايته لا من أحببته هو.

أو يقال: إنه أحب عمه محبة طبيعية كمحبة الابن أباه ولو كان كافراً.
أو يقال: إن ذلك قبل النهي عن محبة المشركين.
والأول أقرب؛ أي: من أحببت هدايته لا عينه، وهذا عام لأبي طالب وغيره.
ويجوز أن يحبه محبة قرابة، لا ينافي هذا المحبة الشرعية، وقد أحب أن يهتدي هذا الإنسان وإن كنت أبغضه شخصياً لكفره، ولكن لأني أحب أن الناس يسلكون دين الله.

* **

وفي (الصحيح) عن ابن المسيب عن أبيه؛ قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة؛ جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عبدالله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال له: (يا عم ! قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله).

قوله: (في الصحيح)، سبق الكلام على مثل هذه العبارة في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.
قوله: (أبا) بالألف: مفعول به منصوب بالألف؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و(الوفاة) يعني: الموت، فاعل حضرت.
قوله: (فقال: يا عم ! قل لا إله إلا الله)، أتى صلى الله عليه وسلم بهذه الكنية الدالة على العطف؛ لأن العم صنو الأب؛ أي: كالغصن معه.
والصنو: الغصن الذي أصله واحد؛ فكأنه معه كالغصن.
قوله: (ياعم) فيها وجهان.
يا عم؛ بكسر الميم: على تقدير أنها مضافة إلى الياء.
وياعم؛ بضم الميم: على تقدير قطعها عن الإضافة.
قوله: (قل: لا إله إلا الله) يجوز أنه قاله على سبيل الأمر والإلزام؛ لأنه يجب أن يأمر كل أحد أن يقول : لا إله إلا الله .
ويجوز أنه قاله على سبيل الترجي والتلطف معه ، وأبو طالب والذين عنده يعرفون هذه الكلمة ويعرفون معناها ، ولهذا بادر بالإنكار.

قوله: (كلمة)، منصوبة؛ لأنها بدل لا إله إلا الله، ويجوز إذا لم تكن الرواية بالنصب أن تكون بالرفع؛ أي: هي كلمة، ولكن النصب أوضح.

قول: (أحاج)، بضم الجيم وفتحها: فعلى ضم الجيم فهي صفة لكلمة،

فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فأعادا ، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

وإذا كانت بالفتح فهي مجزومة جواباً للأمر: (قل)؛ أي: قل أحاج.

وقال بعض المعربين: إنها جواب لشرط مقدر؛ أي: إن تقل أحاج، وبعضهم يرى أنها جواب للأمر مباشرة، وهذا والأول أسهل؛ لأن الأصل عدم التقدير.

والمعنى: أذكرها حجة لك عند الله ، وليس أخاصم وأجادل لك بها عند الله، وإن كان بعض أهل العلم قال: إن معناها أجادل الله بها، ولكن الذي يظهر لي أن المعنى: أحاج لك بها عند الله ؛ أي: أذكرها حجة لك كما جاء في بعض الروايات: (أشهد لك بها عند الله) [1] .

قوله: فقالا له: (أترغب عن ملة عبد المطلب ؟) ، القائلان هما: عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل، والاستفهام للإنكار عليه؛ لأنهما عرفا انه إذا قالها ـ أي كلمة الإخلاص ـ وحد، وملة عبد المطلب الشرك، وذكرا له ما تهيج به نعرته، وهي ملة عبد المطلب حتى لا يخرج عن ملة آبائه.

وقد مات أبو جهل على ملة عبد المطلب، أما عبدالله بن أبي أمية والمسيب الذي روى الحديث، فأسلما؛ فأسلم من هؤلاء الثلاثة رجلان، رضي الله عنهما.

قوله: (ملة عبدالمطلب) ، أي: دين عبدالمطلب.

قوله: (فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم)، أي: قوله قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله.

([1] مسلم: كتاب الإيمان/باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لأستغفرن لك ما لم أنه عنك).

فأنزل الله عز وجل : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى)(التوبة: من الآية113).

قوله: (فأعادا عليه)، أي قولهما: أترغب عن ملة عبد المطلب.

قوله: (فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لأستغفرن لك ... إلخ) جملة (لأستغفرن لك) مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم، واللام، ونون التوكيد الثقيلة.

والاستغفار: طلب المغفرة ، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم في نفسه شيء من القلق ، حيث قال : (ما لم أنه عنك) ؛ فوقع الأمر كما توقع ونهى عنه .

قوله : (ما لم أنه عنك) ، فعل مضارع مبني للمجهول ، والناهي عنه هو الله . قوله (ما كان) ، ما : نافية ، وكان فعل ماض ناقص .

قوله : (أن يستغفروا) ، أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر اسم كان مؤخر .

قوله : (للنبي) ، خبر مقدم ؛ أي : ما كان استغفاره .

واعلم أن ما كان أو ما ينبغي أو لا ينبغي ونحوها إذا جاءت في القرآن والحديث ؛ فالمراد أن ذلك ممتنع غاية الامتناع ؛ كقوله تعالى : (مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ)(مريم: من الآية35)، وقوله : (وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً) (مريم:92) ، وقوله : (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ)(يّـس: من الآية40)، وقوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام)[1] .

وأنزل الله في أبي طالب : (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)[1](القصص: من الآية56).

([1] مسلم : كتاب الإيمان / باب في قوله عليه الصلاة و السلام : (إن الله لا ينام) .
)

وقوله : (أن يستغفروا)؛ أي : طلبوا المغفرة للمشركين .
قوله : (ولو كانوا أولي قربى) ، أي : حتى ولو كانوا أقارب لهم ، ولهذا لما اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم ، ومر بقبر أمه استأذن الله أن يستغفر لها فما أذن الله له ، فاستأذنه أن يزور قبرها فأذن له ؛ فزاره للاعتبار وبكى وأبكى من حوله من الصحابة[2].
فالله منعه من طلب المغفرة للمشركين ؛ لأن هؤلاء المشركين ليسوا أهلا للمغفرة لأنك إذا دعوت الله أن يفعل ما لا يليق ؛ فهو اعتداء في الدعاء .
قوله : (وأنزل الله في أبي طالب) ، أي : في شأنه .
قوله: (إنك لا تهدي من أحببت) ، الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، أي لا توفق من أحببت للهداية .
قوله : (يهدي من يشاء) ، أي يهدي هداية التوفيق من يشاء . واعلم أن كل فعل يضاف إلى مشيئة الله تعالى ؛ فهو مقرون بالحكمة ؛ أي : من اقتضت حكمته أن يهديه فإنه يهتدي ، ومن اقتضت حكمته أن يضله أضله .
وهذا الحديث يقطع وسائل الشرك بالرسول وغيره ؛ فالذين يلجؤون إليه صلى الله عليه وسلم ويستنجدون به مشركون ، فلا ينفعهم ذلك لأنه لم يؤذن له أن يستغفر

لعمه ، مع أنه قد قام معه قياما عظيما ، ناصره وآزره في دعوته ؛ فكيف بغيره ممن يشركون بالله ؟!

- الإشكالات الواردة في الحديث :

الإشكال الأول : الإثبات و النفي في الهداية ، وقد سبق بيان ذلك[1] .
الإشكال الثاني : قوله لما حضرت أبا طالب الوفاة يشكل مع قوله تعالى : (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا

---

[1] البخاري : كتاب التفسير / باب (إنك لا تهدي من أحببت) ، ومسلم : كتاب الإيمان / باب الـدليل على صحة إسلامه من حضره الموت .

[2] مسلم : كتاب الجنائز / باب استئذان النبي صلي الله عليه وسلم ربه عز وجل زيارة أمه .

[1] (ص340) .

حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)(النساء: من الآية18)، وظاهر الحديث قبول توبته .
والجواب عن ذلك من أحد وجهين :
الأول : أن يقال لما حضرت أبا طالب الوفاة ، أي ظهر عليه علامات الموت ولم ينزل به ، ولكن عرف موته لا محالة ، وعلى هذا ؛ فالوصف لا ينافي الآية .
الثاني : أن هذا خاص بأبي طالب مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ويستدل لذلك بوجهين:
ا- أنه قال : (كلمة أحاج لك بها عند الله) ، ولم يجزم بنفعها له ، ولم يقل : كلمة تخرجك من النار .
1- 2- أنه سبحانه أذن للنبي صلى الله عليه وسلم بالشفاعة لعمه مع كفره ، وهذا لا يستقيم إلا له ، والشفاعة له ليخفف عنه العذاب .
ويضعف الوجه الأول أن المعنى ظهرت عليه علامات الموت : بأن قوله: (لما حضرت أبا طالب الوفاة) مطابقا تماما لقوله تعالى : (حتى إذا حضر أحدهم الموت) ، وعلى هذا يكون الأوضح في الجواب أن هذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم مع

أبي طالب نفسه .
الإشكال الثالث : أن قوله تعالى : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ)(التوبة: من الآية113) في سورة التوبة ، وهي متأخرة مدنية ، وقصة أبي طالب مكية ، وهذا يدل على تأخر النهي عن الاستغفار للمشركين ، ولهذا استأذن النبي صلى الله عليه وسلم للاستغفار لأمه[1] وهو ذاهب للعمرة .
ولا يمكن أن يستأذن بعد نزول النهي ؛ فدل على تأخر الآية ، وأن المراد بيان دخولها في قوله تعالى: (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) ، وليس المعنى أنها نزلت في ذلك الوقت .
وقيل : أن سبب نزول الآية هو استئذانه ربه في الاستغفار لأمه ، ولا مانع من أن يكون للآية سببان.

---

(1) تقدم (ص345).

الإشكال الرابع : أن أهل العلم قالوا : يسن تلقين المحتضر لا إله إلا الله ، لكن بدون قول قل ؛ لأنه ربما مع الضجر يقول : لا؛ لضيق صدره مع نزول الموت ، أو يكره هذه الكلمة أو معناها ، وفي هذا الحديث قال : (قل).

والجواب : إن أبا طالب كان كافر ، فإذا قيل له : قل وأبي ؛ فهو باق على كفره، لم يضره التلقين بهذا ؛ فأما أن يبقي على كفره ولا ضرر عليه بهذا التلقين ، وإما أن يهديه الله ، بخلاف المسلم ؛ فهو على خطر لأنه ربما يضره التلقين على هذا الوجه .

* * *

فيه مسائل :

الأولي : تفسير قوله : (إنك لا تهدي من أحببت) الآية .

الثانية : تفسير قوله : (ما كان للنبي ...) الآية . الثالثة : وهي المسألة الكبيرة ، تفسير قوله: (لا إله إلا الله) ؛ بخلاف ما عليه من يدعي العلم .

فيه مسائل :

*الأولي : تفسير قوله تعالى (إنك لا تهدي من أحببت) ، أي : من أحببت هدايته ، و سبق تفسيرها ، وبينا أن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا كان لا يستطيع أن يهدي أحدا وهو حي ؛ فكيف يستطيع أن يهدي أحدا وهو ميت ؟! وأنه كما قال الله تعالى في حقه : (قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً) (الجـن:21).

*الثانية : تفسير قوله : (ما كان للنبي ...) الآية ، وقد سبق تفسيرها وبيان تحريم استغفار المسلمين للمشركين ولو كانوا أولي قربي .

والخطر من قول بعض الناس لبعض زعماء الكفر إذا مات : المرحوم؛ فإنه حرام لأن هذا مضادة لله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وكذلك يحرم إظهار الجزع و الحزن على موتهم بالإحداد أو غيره ؛ لأن المؤمنين يفرحون بموتهم ، بل لو كان عندهم القدرة و القوة لقاتلوهم حتى يكون الدين كله لله

- الثالثة: وهي المسألة الكبيرة ، أي: الكبيرة من هذا الباب ، وقوله (أي النبي صلى الله عليه وسلم) لعمه : (قل : لا إله إلا الله) ، وعمه المعنى أنه التبرؤ من كل إله سوى الله ، ولهذا أبى أن يقولها لأنه يعرف معناها ومقتضاها وملزوماتها .

وقوله : (بخلاف ما عليه من يدعي العلم) كأنه يشير إلى تفسير المتكلمين

الرابعة : أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل قال للرجل : قل : (لا إله إلا الله) ؛ فقبح الله أبا جهل ! من أعلم منه بأصل الإسلام.

لمعنى لا إله إلا الله ، حيث يقولون : إن الإله هو القادر على الاختراع ، وإنه لا قادر على الاختراع والإيجاد والإبداع إلا الله ، وهذا تفسير باطل .

نعم ، هو حق لا قادر على الاختراع إلا الله ، لكن ليس هذا معنى لا إله إلا الله ، ولكن المعنى : لا معبود حق إلا الله ؛ لأننا لو قلنا : إن معنى لا إله إلا الله : لا قادر على الاختراع إلا الله ح صار المشركون الذين قاتلهم الرسول صلى الله عليه وسلم و استباح نساءهم وذريتهم وأموالهم مسلمين ؛ فالظاهر من كلامه رحمه الله أنه أراد أهل الكلام الذين يفسرون لا إله إلا الله بتوحيد الربوبية ، وكذلك الذين يعبدون الرسول والأولياء ويقولون : نحن نقول لا إله إلا الله .

- الرابعة : أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي صلى الله عليه وسلم ، أبو جهل ومن معه يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم بقول : لا إله إلا الله ، ولذا ثاروا وقالوا له : (أترغب عن ملة عبد المطلب ؟) ، وهو أيضا أبى أن يقولها لأنه يعرف مراد النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمة ، قال الله تعالى : (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ*وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ) (الصافات:36).

• فالحاصل أن الذين يدعون أن معنى لا إله إلا الله ؛ أي : لا قادر على الاختراع إلا هو، أو يقولونها وهم يعبدون غيره كالأولياء هم أجهل من أبي جهل .

الخامسة : جده صلى الله عليه وسلم ومبالغته في إسلام عمه . السادسة : الرد على من زعم إسلام عبد المطلب و أسلافه .

واحترز المؤلف في عدم ذكر من مع أبي جهل لأنهم أسلموا ،وبذلك صاروا أعلم ممن بعدهم، خاصة من هم في العصور المتأخرة في زمن المؤلف رحمه الله.

*الخامسة : جده ومبالغته في إسلام عمه ، حرصه صلى الله عليه وسلم وكونه يتحمل أن يحاج بالكلمة عند الله واضح من نص الحديث ؛ لسببين هما :

1- القرابة .

2- لما أسدى للرسول والإسلام من المعروف ، فهو على هذا مشكور ، وإن كان على كفره مأزورا وفي النار ، ومن مناصرة أبي طالب أنه هجر قومه من أجل معاضدة النبي صلى الله عليه وسلم ومناصرته ، وكان يعلن على الملأ صدقه ويقول قصائد في ذلك ويمدحه ، ويصبر على الأذى من أجله ، وهذا جدير بأن يحرص على هدايته ، لكن الأمر بيد مقلب القلوب كما في الحديث : (إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد ، يصرفه حيث يشاء) ، ثم قال صلى الله عليه وسلم في نفس الحديث : (اللهم ! مصرف القلوب ! صرف قلوبنا على طاعتك)[1] .

3- * السادسة:الرد على من زعم إسلام عبد المطلب، بدليل أن يقول قولهما:(أترغب عن ملة عبد المطلب ؟) حين أمره النبي صلى الله عليه وسلم لا إله إلا الله ؛ فدل على أن ملة عبد المطلب الكفر و الشرك .

---

[1] مسلم : كتاب القدر / باب تصريف الله تعالى للقلوب كيف يشاء .

وفي الحديث رد على من قال بإسلام أبي طالب أو نبوته كما تزعمه

السابعة : كونه صلى الله عليه وسلم استغفر له فلم يغفر له ، بل نهي عن ذلك . الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان .

الرافضة ، قبحهم الله ؛ لأن آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله .

* السابعة : كونه صلى الله عليه وسلم استغفر له فلم يغفر له ، الرسول صلى الله عليه وسلم أقرب الناس أن يجيب الله دعاءه ، ومع ذلك اقتضت حكمة الله أن لا يجيب دعاءه لعمه أبي طالب؛ لأن الأمر بيد الله لا بيد الرسول ولا غيره، قال تعالى: (قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)(آل عمران: من الآية154)، وقال تعالى:(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)(هود: من الآية123) ليس لأحد تصرف في هذا الكون إلا رب الكون .

وكذا أمه صلى الله عليه وسلم لم يؤذن له في الاستغفار لها ؛ فدل على أن أهل الكفر ليسوا أهلا للمغفرة بأي حال ، ولا يجاب لنا فيهم ، ولا يحل الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة ، وإنما يدعى لهم بالهداية وهم أحياء .

- الثامنة : مضرة أصحاب السوء على الإنسان ، المعنى أنه لولا هذان الرجلان ؛ لربما وفق أبوطالب إلى قبول ما عرضه النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن هؤلاء ـوالعياذ بالله ـ ذكراه نعره الجاهلية ومضرة رفقاء السوء ، ليس خاصا بالشرك، ولكن في جميع سلوك الإنسان ، وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم جليس السوء بنافخ الكير ؛ إما أن يحرق ثيابك ، أو تجد منه رائحة كريهة[1] ،وقال صلى الله عليه وسلم : (فأبواه يهودانه أو

التاسعة : مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر .

---

[1] البخاري : كتاب البيوع/ في العطار وبيع المسك ، ومسلم كتاب البر / باب استحباب مجالسة الصالحين .

ينصرانه أو يمجسانه)[1] ،وذلك لما بينهما من الصحبة و الاختلاط ، وكذلك روي عن النبي صلى الله عليه وسلم بسند لا بأس به : (المرء على دين خليله ؛ فلينظر أحدكم من يخالل)[2] ؛ فالمهم أنه يجب على الإنسان أن يفكر في أصحابه : هل هم أصحاب سوء ؟ فليبعد عنهم لأنهم أشد عداء من الجرب ، أو هم أصحاب خير: يأمرونه بالمعروف ، وينهونه عن المنكر، ويفتحون له أبواب الخير ؛ فعليه بهم .

- التاسعة : مضرة تعظيم الأسلاف و الأكابر ، لأن أبا طالب اختار أن يكون على ملة عبد المطلب حين ذكروه بأسلافه مع مخالفته لشريعة النبي صلى الله عليه وسلم .

وهذا ليس على إطلاقه ؛ فتعظيمهم إن كانوا أهلا لذلك فلا يضر ، بل هو خير ؛ فأسلافنا من صدر هذه الأمة لا شك أن تعظيمهم وإنزالهم منازلهم خير لا ضرر فيه .

وإن كان تعظيم الأكابر لما هم عليه من العلم والسن ؛ فليس فيه مضرة وإن كان تعظيمهم لما هم عليه من الباطل ؛ فهو ضرر عظيم على دين المرء ، فمثلا : من يعظم أبا جهل لأنه سيد أهل الوادي ، وكذلك عبد المطلب وغيره؛ فهو ضرر عليه ، ولا يجوز أن يرى الإنسان في نفسه لهؤلاء أي قدر ؛ لأنهم أعداء الله ـ عز وجل ـ ، وكذلك لا يعظم الرؤساء من الكفار في زمانه ؛ فإن

العاشرة : الشبهة للمبطلين في ذلك ؛ لاستدلال أبي جهل بذلك .

فيه مضرة لأنه قد يورث ما يضاد الإسلام ، فيجب أن يكون التعظيم حسب ما تقتضيه الأدلة من الكتاب و السنة .

- العاشرة : الشبهة للمبطلين في تعظيم الأسلاف هي استدلال أبي جهل بذلك في قوله : (أترغب عن ملة عبد

---

[1] تقدم (ص25).

[2] مسند الإمام أحمد (2/303) ، والترمذي : كتاب الزهد / باب الرجل على دين خليله) ـ وقال : (حسن غريب) ـ، والحاكم (4/188) ـ وقال : (صحيح ووافقه الذهبي) ـ.

المطلب ؟) وهذه الشبهة ذكرها الله في القرآن في قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) (الزخرف:23).

فالمبطلون يقولون في شبهتهم : إن أسلافهم على الحق وسيقتدون بهم، ويقولون: كيف نسفه أحلامهم ، ونضلل ما هم عليه ؟

وهذا يوجد في المتعصبين لمشايخهم وكبرائهم ومذاهبهم ، حيث لا يقبلون قرآنا و لا سنة في معارضة الشيخ أو الإمام ، حتى إن بعضهم يجعلهم معصومين؛ كالرافضة ، والتيجانية ، والقاديانية ، وغيرهم ؛ فهم يرون أن إمامهم لا يخطئ ، والكتاب والسنة يمكن أن يخطئا .

والواجب على المرء أن يكون تابعا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وأما من خالفه من الكبراء والأئمة؛ فإنهم لا يحتج بهم على الكتاب والسنة، لكن يعتذر لهم عن مخالفة الكتاب و السنة إن كانوا أهلا للاعتذار ، بحيث لم يعرف عنهم معارضة للنصوص ، فيعتذر لهم بما ذكره أهل العلم ، ومن أحسن ما ألف كتاب شيخ الإسلام ابن تيميه : (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) ، أما من يعرف بمعارضة الكتاب والسنة؛ فلا يعتذر له .

الحادية عشرة : الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم ؛ لأنه لو كان قالها لنفعته. الثانية عشرة : التأمل في كبر هذه الشبهة في القلوب الضالين ؛ لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها ، مع مبالغته صلى الله عليه وسلم وتكريره ؛ فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصروا عليها .

---

* الحادية عشرة : الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم ، وهذا مبني على القول بأن معنى حضرته الوفاة ؛ أي : ظهرت عليه علاماتها ولم ينزل به كما سبق.

• الثانية عشرة : التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين ...إلخ، وهذه الشبهة هي تعظيم الأسلاف والأكابر .

** *

باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

قوله : (سبب كفر بني آدم) ، السبب في اللغة : ما يتوصل به إلى غيره، ومنه قوله تعالى : (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ)(الحج: من الآية15) ؛ أي: بشيء يوصله إلى السماء.

ومنه أيضا سمي الحبل سببا ؛ لأنه يتوصل به إلى استسقاء الماء من البئر.

و أما في الاصطلاح عند أهل الأصول؛ فهو الذي يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم .

أي : إذا وجد السبب وجد المسبب ، وإذا عدم عدم المسبب ؛ إلا أن يكون هناك سبب آخر يثبت به المسبب .

قوله : (بني آدم) ، يشمل الرجال والنساء؛ لأنه إذا قيل: بنو فلان، وهم قبيلة: شمل ذكورهم وإناثهم، أما إذا قيل: بنو فلان، أي رجل معين؛ فالمراد بهم الذكور.

قوله: (وتركهم)، يعني: وسبب تركهم.

قوله: (دينهم)، مفعول ترك؛ لأن ترك مصدر مضاف إلى فاعله، و(دينهم) يكون مفولاً به.

قوله: (هو الغلو)، هذا الضمير يسمى ضمير الفصل، وهو من أدوات التوكيد، والغلو: خبر لأن ضمير الفصل على القول الراجح ليس له محل من الإعراب.

وقول الله عز وجل : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ) (النساء : من الآية171).

والغلو: هو مجاوزة الحد في الثناء مدحاً أو قدحاً.

والقدح: يسمى ثناء، ومنه الجنازة التي مرت، فأثنوا عليها شراً [1].

والغلو هنا: مجاوزة الحد في الثناء مدحاً.

قوله: (الصالحين)، الصالح: هو الذي قام بحق الله وحق العباد، وفي هذه الترجمة إضافة الشيء إلى سببه بدون أن ينسب إلى الله بقوله: (أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين)، وهذا جائز إذا كان السبب حقيقة وصحيحاً، وذلك إذا كان السبب قد ثبت من قبل الشرع أو الحس أو الواقع.

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لولا أنا؛ لكان في الدرك الأسفل من النار) [2] ؛ يعني : عمه أبا طالب.

* * *

قوله: (وقول الله ـ عز وجل ـ) ، يعني : وباب قول الله ـ عز وجل ـ .

قوله: (يا أهل الكتاب) ، نداء، وهم اليهود والنصارى، والكتاب: التوراة لليهود، والإنجيل للنصارى.

قوله: (لا تغلو في دينكم)، أي: لا تتجاوزوا الحد مدحاً أو قدحاً، والأمر واقع كذلك بالنسبة لأهل الكتاب عموماً؛ فإنهم غلوا في عيسى بن مريم عليه السلام

---

[1] البخاري: كتاب الجنائز/باب ثناء الناس على الميت، ومسلم: كتاب الجنائز/باب فيمن يثنى عليه خير أوشر.

[2] البخاري: كتاب فضائل الصحابة/باب قصة أبي طالب، ومسلم: كتاب الإيمان/باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب.

مدحاً وقدحاً، حيث قال النصارى: إنه ابن الله ، وجعلوه ثالث ثلاثة.

واليهود غلوا فيه قدحاً، وقالوا: إن أمه زانية، وإنه ولد زنا، قاتلهم الله؛ فكل من الطرفين غلا في دينه وتجاوز الحد بين إفراط أو تفريط.

قوله: (ولا تقولوا على الله إلا الحق)، وهو ما قاله سبحانه وتعالى عن نفسه بأنه: إله واحد، أحد، صمد، لم يتخذ صاحبه ولا ولداً.

قوله: (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله)، هذه صيغة حصر، وطريقه (إنما)؛ فيكون المعنى: ما المسيح عيسى بن مريم إلا رسول الله ، وأضافه إلى أمه ليقطع قول النصارى الذي يضيفونه إلى الله.

وفي قوله: (رسول الله) إبطال لقول اليهود: إنه كذاب، ولقول النصارى: إنه إله.

وفي قوله: (وكلمته) إبطال لقول اليهود: إنه ابن زنا.

(وكلمته ألقاها إلى مريم): أن قال له كن فكان.

قوله: (وروح منه)، أي: إنه عز وجل جعل عيسى عليه الصلاة والسلام كغيره من بني آدم من جسد وروح، وأضاف روحه إليه تشريفاً وتكريماً؛ كما في قوله تعالى في آدم: (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)(الحجر: من الآية29)؛ فهذا للتشريف والتكريم.

قوله: (فآمنوا بالله ورسله)، الخطاب لأهل الكتاب، ومن رسله محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو آخرهم وخاتمهم وأفضلهم.

قوله: (ولا تقولوا ثلاثة) ، أي: إن الله ثالث ثلاثة.

قوله: (انتهوا خيراً لكم) ، (خيراً) : خبر ليكن المحذوفة؛ أي: انتهوا

يكن خيراً لكم.

قوله: (إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض)، أي: تنزيهاً له أن يكون له ولد؛ لأنه مالك لما في السماوات وما في الأرض، ومن جملتهم عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام؛ فهو من جملة المملوكين المربوبين؛ فكيف يكون إلهاً مع الله أو ولداً لله ؟

• (تنبيه):

لم يشر المؤلف رحمه الله تعالى إلى إكمال الآية، ونرجو أن يكون في إكمالنا لها فائدة.

قوله : (وكفي بالله وكيلاً)، أي: كفى الله تعالى أن يكون حفيظاً على عباده، مدبراً لأحوالهم، عالماً بأعمالهم.

والشاهد من هذه الآية قوله: (لا تغلو في دينكم)؛ فنهى عن الغلو في الدين؛ لأنه يتضمن مفاسد كثيرة: منها:

1- أنه تنزيل للمغلو فيه فوق منزلته إن كان مدحاً، وتحتها إن كان قدحاً.

2- أنه يؤدي إلى عبادة هذا المغلو فيه كما هو الواقع من أهل الغلو.

3- أنه يصد عن تعظيم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ لأن النفس إما أن تنشغل بالباطل أو بالحق، فإذا انشغلت بالغلو بهذا المخلوق وإطرائه وتعظيمه؛ تعلقت به ونسيت ما يجب لله تعالى من حقوق.

4- أن المغلو فيه إن كان موجوداً؛ فإنه يزهو بنفسه، ويتعاظم ويعجب بها، وهذه مفسدة تفسد المغلو فيه إن كانت مدحاً، وتوجب العداوة والبغضاء وقيام الحروب والبلاء بين هذا وهذا وإن كانت قدحاً.

قوله: (في دينكم)، الدين يطلق على العمل والجزاء، والمراد به هنا: العمل.

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: (وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً) (نوح:23).

والمعنى: لا تجعلوا عبادتكم غلواً في المخلوقين وغيرهم.

وهل يدخل في هذا الغلو في العبادات؟

الجواب: نعم، يدخل الغلو في العبادات، مثل أن يرهق الإنسان نفسه بالعبادة ويتعبها؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك [1] ، ومثل أن يزيد عن المشروع، كأن يرمي بجمرات كبيرة، أو يأتي بأذكار زائدة عن المشروع أدبار الصلوات تكميلاً للوارد أو غير هذا؛ فالنهي عن الغلو في الدين يعم الغلو من كل وجه.

* * *

قوله: (وفي (الصحيح)) ، أي: في (صحيح البخاري)، وهذا الأثر اختصره المصنف، وقد سبق الكلام على مثل هذه العبارة في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: (وقالوا)، أي: قال بعضهم لبعض.

قوله: (لا تذرن) ، أي: لا تدعن وتتركن، وهذا نهي مؤكد بالنون.

قوله: (آلهتكم)، هل المراد: لا تذروا عبادتها أو تمكنوا أحداً من إهانتها؟

قال: (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا؛ أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، ونسي العلم؛ عبدت) [1] .

الجواب: المعنيان؛ أي: انتصروا لآلهتكم، ولا تمكنوا أحداً من إهانتها، ولا تدعوها للناس، ولا تدعوا عبادتها أيضاً، بل احرصوا عليها، وهذا من التواصي بالباطل عكس الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتواصون بالحق.

قوله: (ولا سواعاً)، لا: زائدة للتوكيد، مثلها في قوله تعالى: (ولا الضالين)(الفاتحة:7)، وفائدتها أنهم جعلوا مدخولها كالمستقل، بخلاف يعوق ونسر؛ فهما دون مرتبة من سبقهما.

---

[1] البخاري : كتاب التهجد/باب ما يكره من التشديد في العبادة، ومسلم: كتاب صلاة المسافر/باب أمر من نعس في صلاته . . . .

[1] البخاري: كتاب التفسير/باب (وداً ولا سواعاً ولا يغوث).

قوله تعالى: (وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً)(نوح: من الآية23)، هذه الخمسة كأن لها مزية على غيرها؛ لأن قوله: (آلهتكم) عام يشمل كل ما يعبدون، وكانها كبار آلهتهم؛ فخصوها بالذكر.

والآلهة: جمع إله، وهو كل ما عبد، سواء بحق أو بباطل، لكن إذا كان المعبود هو الله؛ فهو حق، وإن كان غير الله؛ فهو باطل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح).

وفي هذا التفسير إشكال، حيث قال: (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح)، وظاهر القرآن أنها قبل نوح، قال تعالى : (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً * وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً * وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ)(نوح: 21-23) ؛ ظاهر الآية الكريمة: أن قوم نوح كانوا يعبدونها، ثم نهاهم نوح عن عبادتها، وأمرهم بعبادة الله وحده، ولكنهم أبوا وقالوا: (لا تذرن آلهتكم) ، وهذا (أعني: القول بأنهم قبل نوح) قول محمد بن كعب ومحمد بن قيس، وهو الراجح لموافقته ظاهر القرآن.

ويحتمل ـ وهو بعيد ـ أن هذا في أول رسالة نوح، وأنه استجاب له هؤلاء الرجال وآمنوا به، ثم بعد ذلك ماتوا قبل نوح ثم عبدوهم، لكن هذا بعيد حتى من سياق الأثر عن ابن عباس.

فالمهم أن تفسير الآية أن يقال: هذه أصنام في قوم نوح كانوا رجالاً صالحين، فطال على قومهم الأمد، فعبدوهم.

قوله: (أوحى الشيطان)، أي: وحي وسوسة، وليس وحي إلهام.

قوله: (أن انصبوا إلى مجالسهم)، الأنصاب: جمع نصب، وهو كل ما ينصب من عصا أو حجر أو غيره.

قوله: (وسموها بأسمائهم)، أي: ضعوا أنصاباً في مجالسهم، وقولوا: هذا ود، وهذا سواع، وهذا يغوث، وهذا يعوق، وهذا نسر؛

لأجل إذا رأيتوهم تتذكروا عبادتهم فتنشطوا عليها، هكذا زين لهم الشيطان، وهذا غرور ووسوسة من الشيطان كما قال لأدم: (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى)(طـه: من الآية120)

وإذا كان العبد لا يتذكر عبادة الله إلا برؤية أشباح هؤلاء؛ فهذه عبادة

قال ابن القيم: (قال غير واحد من السلف: لما ماتوا؛ عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم).

قاصرة أو معدومة.

قوله: (ففعلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم؛ عبدت من دون الله)، ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، والقرن مئة سنة، حتى إذا طال عليهم الأمد حصل النزاع والتفرق، فبعث الله النبيين؛ كما قال تعالى: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ...) (البقرة: من الآية213) .

هذا هو تفسير ابن عباس رضي الله عنهما للآية، وهل تفسيره حجة؟

الجواب: يرجع في التفسير أولاً إلى القرآن؛ فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، مثل قوله تعالى: (وما أدراك ما هيه) تفسيرها: (نار حامية)(القارعة:10،11)، فإن لم نجد في القرآن؛ فإلى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن لم نجد؛ فإلى تفسير الصحابة، وتفسير الصحابي حجة بلا شك؛ لأنهم أدرى بالقرآن حيث نزل بعصرهم وبلغتهم، ويعرفون عنه أكثر من غيرهم، حتى قال بعض العلماء: إن تفسير الصحابي في حكم المرفوع، وهذا ليس بصحيح، لكنه لا شك أنه حجة على من بعدهم، فإن اختلف الصحابة في التفسير أخذنا بما يرجحه سياق الآية، والآية تدل على ما ذكره ابن عباس؛ إلا أن ظاهر السياق أن هؤلاء القوم الصالحين كانوا قبل نوح صلى الله عليه وسلم ، وقد عرفت القول الراجح.

قوله: (الأمد)، الزمن.

وهذا كتفسير ابن عباس؛ إلا أن ابن عباس يقول: (إنهم جعلوا الأنصاب في

وعن عمر؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله) . أخرجاه[1].

مجالسهم)، وهنا يقول : (عكفوا على قبورهم) ، ولا يبعد أنهم فعلوا هذا وهذا ، أو أنهم قبروا في مجالسهم ؛ فتكون هي محل القبور .

والشاهد قوله : (ثم طال عليهم الأمد ؛ فعبدوهم) ؛ فسبب العبادة إذا الغلو في هؤلاء الصالحين حتى عبدوهم .

** *

قوله : (لا تطروني) ، الإطراء : المبالغة في المدح .

وهذا النهي يحتمل أنه منصب على هذا التشبيه ، وهو قوله : (كما أطرت النصارى ابن مريم) ، حيث جعلوه إلها أو ابنا لله ، وبهذا يوحي قول البوصيري:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

أي : دع ما قاله النصارى أن عيسى عليه الصلاة و السلام ابن الله أو ثالث ثلاثة ، والباقي املأ فمك في مدحه ولو بما لا يرضيه .

ويحتمل أن النهي عام ؛ فيشمل ما يشابه غلو النصارى في عيسى بن مريم وما دونه ، ويكون قوله : (كما أطرت) لمطلق التشبيه لا للتشبيه المطلق ؛ لأن إطراء النصارى عيسى بن مريم سببه الغلو في هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، حيث جعلوه ابنا لله وثالث ثلاثة ، والدليل على أن المراد هذا قوله : (إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) .

قوله : (إنما أنا عبد) ، أي : ليس لي حق من الربوبية ، ولا مما يختص به الله ـ عز و جل ـ أبدا .

---

[1] البخاري : كتاب الأنبياء / باب (واذكر في الكتاب مريم) .

قوله : (فقولوا عبد الله ورسوله) ، هذان الوصفان أصدق وصف وأشرفه في الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فأشرف وصف للإنسان أن يكون من عباد الله ، قال تعالى : (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)(الفرقان: من الآية63)، وقال تعالى : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَاَ لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ) (الصافات:171)؛ فوصفهم الله بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسالة شرف عظيم ، لكن كونهم عبادا لله ـ عز وجل ـ أشرف وأعظم ، وأشرف وصف له وأحق وصف به ، ولهذا يقول الشاعر في محبوبته :

لا تدعني إلا بيا عبدهم فإنه أشرف أسمائي

أي : أنت إذا أردت أن تكلمني قل : يا عبد فلانة ؛ لأنه أشرف أسمائي وأبلغ في الذل .

فمحمد صلى الله عليه وسلم عبد لا يعبد ، ورسول لا يكذب ، ولهذا نقول في صلاتنا عندما نسلم عليه ونشهد له بالرسالة : وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ؛ فهذا أفضل وصف اختاره النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه .

واعلم أن الحقوق ثلاثة أقسام ، وهي :

الأول : حق لله لا يشرك فيه غيره : لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، وهو ما يختص به من الربوبية والألوهية و الأسماء والصفات .

الثاني : حق خاص للرسل ، وهو إعانتهم وتوقيرهم وتبجيلهم بما يستحقون.

الثالث : حق مشترك ، وهو الإيمان بالله ورسله ، وهذه الحقوق موجودة في الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى : (لتؤمنوا بالله ورسوله) ؛ فهذا حق

مشترك ، (وتعزروه وتوقروه) هذا خاص بالرسول صلى الله عليه وسلم ، (وتسبحوه بكرة وأصيلا) (الفتح : 9) هذا خاص بالله ـ سبحانه وتعالى ـ .

والذين يغلون في الرسول صلى الله عليه وسلم يجعلون حق الله له؛ فيقولون: (وتسبحوه) ؛ أي : الرسول ، فيسبحون الرسول

كما يسبحون الله ، ولا شك أنه شرك ؛ لأن التسبيح من حقوق الله الخاصة به ، بخلاف الإيمان ؛ فهو من الحقوق المشتركة بين الله ورسوله .

ونهى عن الإطراء في قوله عليه الصلاة و السلام : (كما أطرت النصارى عيسى بن مريم)؛ لأن الإطراء والغلو يؤدي إلى عبادته كما هو واقع الآن ؛ فيوجد عند قبره في المدينة من يسأل ، فيقول يا رسول الله ! المدد، المدد، يا رسول الله ! أغثنا ، يا رسول الله ! بلادنا يابسة ، وهكذا ، ورأيت بعيني رجلا يدعو الله تحت ميزاب الكعبة موليا ظهره البيت مستقبلا المدينة ؛ لأن استقبال القبر عنده أشرف من استقبال الكعبة والعياذ بالله .

ويقول بعض المغالين : الكعبة أفضل من الحجرة ، فأما والنبي صلى الله عليه وسلم فيها؛ فلا والله ، ولا الكعبة ، ولا العرش وحملته ، ولا الجنة .

فهو يريد ان يفضل الحجرة على الكعبة وعلى العرش وحملته وعلى الجنة، وهذه مبالغة لا يرضاها النبي صلى الله عليه وسلم لنا ولا لنفسه .

وصحيح أن جسده صلى الله عليه وسلم أفضل ، ولكن كونه يقول : إن الحجرة أفضل من الكعبة والعرش والجنة ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم فيها هذا خطأ عظيم ، نسأل الله السلامة من ذلك .

قوله : (إياكم) ، للتحذير .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إياكم والغلو ؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو)[1] .

قوله : (والغلو) ، معطوف على إياكم ، وقد اضطرابا كثيرا ، وأقرب ما قيل للصواب وأقله تكلفا: أن إيا منصوبة بفعل أمر مقدر تقديره إياك أحذر ؛ أي: احذر نفسك أن تغرك ، والغلو معطوف على إياك ؛ أي : واحذر الغلو .

---

[1] مسند الإمام أحمد (1/215،347)، وابن ماجة : كتاب المناسك / باب قدر الحصى ، 2/1008، والحاكم (1/466) ـ وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ـ.

والغلو كما سبق : هو مجاوزة الحد مدحا أو ذما ، وقد يشمل ما هو أكثر من ذلك أيضا ؛ فيقال : مجاوزة الحد في الثناء وفي التعبد وفي العمل ؛ لأن هذا الحديث ورد في رمي الجمرات ، حيث روى ابن عباس ؛ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة العقبة وهو على ناقته : (القط لي حصى . فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخذف؛ فجعل ينفضهن في كفه ، ويقول : أمثال هؤلاء فارموا ، وإياكم والغلو في الدين ؛ فإنما أهلك من قبلكم الغلو في الدين) . هذا لفظ ابن ماجة.

والغلو : فاعل أهلك .

قوله : (من كان قبلكم) ، مفعول مقدم .

قوله : (فإنما)، أداة حصر ، والحصر : إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

قوله : (أهلك)، يحتمل معنيين :

الأول : أن المراد هلاك الدين ، وعليه يكون الهلاك واقعا مباشرة من

الغلو ؛ لأن مجرد الغلو هلاك .

الثاني : أنه هلاك الأجسام وعليه يكون الغلو سببا للهلاك ؛ أي : إذا غلوا خرجوا عن طاعة الله فأهلكهم الله .

وهل الحصر في قوله : (فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو) حقيقي أو إضافي؟

الجواب : إن قيل : إنه حقيقي ؛ حصل إشكال ، وهو أن هناك أحاديث أضاف النبي صلى الله عليه وسلم الهلاك فيها إلى أعمال غير الغلو ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم : (إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد)[1] ؛فهنا حصران متقابلان ، فإذا قلنا : إنه حقيقي بمعنى أنه لا هلاك إلا بهذا حقيقة ؛ صار بين الحديثين تناقض .

([1]) البخاري : كتاب الأنبياء / باب قول الله تعالى (أم حسبت أن أصحاب الكهف) ، ومسلم : كتاب الحدود / باب قطع السارق الشريف وغيره.

وإن قيل : إن الحصر إضافي ؛ أي : باعتبار عمل معين ؛ فإنه لا يحصل تناقص بحيث يحمل كل منهما على جهة لا تعارض الحديث الآخر لئلا يكون في حديثه صلى الله عليه وسلم تناقض ، وحينئذ يكون إضافيا ، فيقال : أهلك من كان قبلكم الغلو هذا الحصر باعتبار الغلو في التعبد في الحديث الأول ، وفي الآخر يقال : أهلك من كان قبلكم باعتبار الحكم ، فيهلك الناس إذا أقاموا الحد على الضعيف دون الشريف.

وفي هذا الحديث يحذر الرسول صلى الله عليه وسلم أمته من الغلو ، ويبرهن على أن الغلو سبب للهلاك لأنه مخالف للشرع ولإهلاكه للأمم السابقة ؛ فيستفاد منه تحريم الغلو من وجهين:

الوجه الأول : تحذيره صلى الله عليه وسلم ، والتحذير نهي وزيادة .

الوجه الثاني : أنه سبب لإهلاك الأمم كما من قبلنا ، وما كان سببا للهلاك كان محرما .

- أقسام الناس في العبادة :

والناس في العبادة طرفان ووسط ؛ فمنهم المفرط ، ومنهم المفرط ، ومنهم المتوسط .

فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه ، وكون الإنسان معتدلا لا يميل إلى هذا ولا إلى هذا هذا هو الواجب ؛ فلا يجوز التشدد في الدين والمبالغة ، ولا التهاون وعدم المبالاة ، بل كن وسطا بين هذا و هذا .

والغلو له أقسام كثيرة ؛ منها : الغلو في العقيدة ، ومنها : الغلو في العبادة،

ومنها : الغلو في المعاملة ، ومنها : الغلو في العادات .

والأمثلة عليها كما يلي : أما الغلو في العقيدة ؛ فمثل ما تشدق فيه أهل الكلام بالنسبة لإثبات الصفات ، فإن أهل الكلام تشدقوا وتعمقوا حتى وصلوا إلى الهلاك قطعا ، حتى أدى بهم هذا التعمق إلى واحد من أمرين :

إما التمثيل ، أو التعطيل .

إما أنهم مثلوا الله بخلقه ، فقالوا : هذا معنى إثبات الصفات ، فغلوا في الإثبات حتى أثبتوا ما نفي الله عن نفسه ، أو عطلوه وقالوا : هذا معنى تنزيهه عن مشابهة المخلوقات ، وزعموا أن إثبات الصفات تشبيه ؛ فنفوا ما أثبته الله لنفسه .

لكن الأمة الوسط اقتصدت في ذلك ؛ فلم تتعمق في الإثبات ولا في النفي والتنزيه ؛ فأخذوا بظواهر اللفظ ، وقالوا : ليس لنا أن نزيد على ذلك ؛ فلم يهلكوا، بل كانوا على الصراط المستقيم ، ولما دخل هؤلاء الفرس والروم

وغيرهم في الدين ؛ صاروا يتعمقون في هذه الأمور ويجادلون مجادلات ومناظرات لا تنتهي أبدا ؛ حتى ضاعوا ، نسأل الله السلامة .

وكل الإيرادات التي أوردها المتأخرون من هذه الأمة على النصوص ، لم يوردها الصحابة الذين هم الأمة الوسط .

أما الغلو في العبادات ؛ فهو التشدد فيها ، بحيث يرى أن الإخلاص بشيء منها كفر وخروج عن الإسلام ؛ كغلو الخوارج والمعتزلة ، حيث قالوا : إن من فعل كبيرة من الكبائر ؛ فهو خارج عن الإسلام وحل دمه وماله ، وأباحوا الخروج على الأئمة وسفك الدماء ، وكذا المعتزلة ، حيث قالوا : من فعل كبيرة؛ فهو بمنزلة بين المنزلتين : الإيمان والكفر ؛ فهذا تشدد أدى إلى الهلاك ، وهذا التشدد قابله تساهل المرجئة ، فقالوا : إن القتل والزنا والسرقة وشرب الخمر ونحوها من الكبائر ، لا تخرج من الإيمان ، ولا تنقص من الإيمان شيئا ، وإنه يكفي في الإيمان الإقرار ، وإن إيمان فاعل الكبيرة كإيمان جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه لا يختلف الناس في الإيمان حتى إنهم ليقولون : إن إبليس مؤمن لأنه مقر ، وإذا قيل : إن الله كفره ؛ قالوا : إذن إقراره ليس بصادق ، بل هو كاذب .

هؤلاء في الحقيقة يصلحون لكثير من الناس في هذا الزمان ، ولاشك أن هذا تطرف بالتساهل ، والأول تطرف بالتشدد ، ومذهب أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص ، وفاعل المعصية ناقص الإيمان

بقدر معصيته ، ولا يخرج من الإيمان إلا بما برهنت النصوص على أنه كفر .

وأما الغلو في المعاملات ؛ فهو التشدد في الأمور بتحريم كل شيء حتى ولو كان وسيلة ، وأنه لا يجوز للإنسان أن يزيد عن واجبات حياته الضرورية، وهذا مسلك سلكه الصوفية ، حيث قالوا : من اشتغل بالدنيا ؛ فهو غير مريد

للآخرة ، وقالوا : لا يجوز أن تشتري ما زاد على حاجتك الضرورية ، وما أشبه ذلك .

وقابل هذا التشدد تساهل من قال : يحل كل شيء ينمي المال ويقوي الاقتصاد ؛ حتى الربا والغش وغير ذلك.

فهؤلاء ـ والعياذ بالله ـ متطرفون بالتساهل ؛ فتجده يكذب في ثمنها وفي وصفها وفي كل شيء لأجل أن يكسب فلسا أو فلسين ، وهذا لا شك أنه تطرف .

والتوسط أن يقال : تحل المعاملات وفق ما جاءت به النصوص ، (وأحل الله البيع وحرم الربا) (البقرة : 275) ؛ فليس كل شيء حراما ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم باع واشترى ، والصحابة رضي الله عنهم يبيعون ويشترون ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقرهم.

وأما الغلو في العادات ؛ فإذا كانت هذه العادة يخشى أن الإنسان إذا تحول عنها انتقل من التحول في العادة إلى التحول في العبادة ؛ فهذا لا حرج أن الإنسان يتمسك بها ، ولا يتحول إلى عادة جديدة ، أما إذا كان الغلو في العادة يمنعك من التحول إلى عادة جديدة مفيدة أفيد من الأولى ؛ فهذا من الغلو المنهي عنه ، فلو أن أحدا تمسك بعادته في أمر حدث من عادته التي هو عليها

نقول : هذا في الحقيقة غال ومفرط في هذه العادة.

وأما إن كانت العادات متساوية المصالح ، لكنه يخشى أن ينتقل الناس من هذه العادة إلى التوسع في العادات التي قد تخل بالشرف أو الدين ؛ فلا يتحول إلى العادة الجديدة.

* * *

ولمسلم عن ابن مسعود ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (هلك المتنطعون). قالها ثلاثا[1] .

قوله : (المتنطعون) ، المتنطع : هو المتعمق المتقعر المتشدق ، سواء كان في الكلام أو في الأفعال ؛ فهو هالك ، حتى ولو كان ذلك في الأقوال المعتادة ؛ فبعض الناس يكون بهذه الحال ، حتى إنه ربما يقترن بتعمقه وتنطعه الإعجاب بالنفس في الغالب ، وربما يقترن به الكبر ، فتجده إذا تكلم يتكلم بأنفه، فتسلم عليه فتسمع الرد من الأنف إلى غير ذلك من الأقوال .

والتنطع بالأفعال كذلك أيضا قد يؤدي إلى الإعجاب أو إلى الكبر ، ولهذا قال : (هلك المتنطعون) .

والتنطع أيضا في المسائل الدينية يشبه الغلو فيها ؛ فهو أيضا من أسباب الهلاك ، ومن ذلك ما يفعله بعض الناس من التنطع في صفات الله تعالى والتقعر فيها ، حيث يسألونه عما لم يسأل عنه الصحابة رضي الله عنهم ، وهم يعلمون أن الصحابة خير منهم وأشد حرصا على العلم ، وفيهم رسول الله الذي عنده من الإجابة على الأسئلة ما ليس عند غيره من الناس مهما بلغ علمهم .

فهذه الأحاديث الثلاثة كلها تدل على تحريم الغلو ، وأنه سبب للهلاك ، وأن الواجب أن يسير العبد إلى الله بين طرفي نقيض بالدين الوسط ، فكما أن هذه الأمة هي الوسط ودينها هو الوسط ؛ فينبغي أن يكون سيرها في دينها على الطريق الوسط.

* * *

* فيه مسائل

الأولي : أن من فهم هذا الباب وبابين بعده ؛ تبين له غربة الإسلام، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب .

فيه مسائل :

---

[1] مسلم : كتاب العلم / باب هلك المتنطعون .

• الأولى : أن من فهم هذا الباب ـ أي: بما مر من تفسير الآية الكريمة:(وقالوا لا تذرن آلهتكم) ـ وبابين بعده ؛ تبين له غربة الإسلام .

وهذا حق ؛ فإن الإسلام المبني على التوحيد الخالص غريب ، فكثير من البلدان الإسلامية تجد فيها الغلو في الصالحين في قبورهم ؛ فلا تجد بلدا مسلما إلا وفيه غلو في قبور الصالحين ، وقد يكون ليس قبر رجل صالح ،قد يكون وهما مثل قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما ؛ فأهل العراق يقولون : هو عندنا ، وأهل الشام يقولون : عندنا ، وأهل مصر يقولون : عندنا ، وبعضهم يقول : هو في المغرب ؛ فصار الحسين إما أنه أربعة رجال ، أو مقطع أوصالا، وهذا كله ليس بصحيح ؛ فالمهم أنه كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب : تبين لك غربة الإسلام أي في المسلمين .

وكذلك الجزيرة العربية قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيها قبور وقباب تعبد من دون الله ويحج إليها وتقصد،ولكن بتوفيق الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه أعان هذا الرجل مع الإمام محمد بن سعود حتى قضى عليها وهدمها، وصارت البلاد ولله الحمد على التوحيد الخالص .

الثانية : معرفة أول شرك حدث في الأرض ؛ كان بشبهة الصالحين .

الثالثة:معرفة أول شيء غير به دين الأنبياء،وما سبب ذلك،مع معرفة أن الله أرسلهم. الرابعة : قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها.

---

* الثانية : معرفة أول شرك حدث في الأرض ، وجه ذلك : أن هذه الأصنام التي عبدها قوم نوح كانوا أقواما صالحين ، فحدث الغلو فيهم ، ثم عبدوا من دون الله ؛ ففيه الحذر من الغلو في الصالحين .

* الثالثة : معرفة أول شيء غير به دين الأنبياء ، وما سبب ذلك ، مع معرفة أن الله أرسلهم ، أول شيء غير به دين الأنبياء هو الشرك ، وسببه هو الغلو في الصالحين ، وقوله : (مع معرفة أن الله أرسلهم) ، قال الله تعالى : (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)(البقرة: من الآية213)؛ أي : كانوا أمة واحدة على التوحيد ، فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ؛ فهذا أول ما حدث من الشرك في بني آدم .

• الرابعة : قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها .

قوله : (قبول البدع) ، أي : أن النفوس تقبلها لا لأنها مشروعة ، بل إن الشرائع تردها ، وكذلك الفطر السليمة تردها ؛ لأن الفطر السليمة جبلت على عبادة الله وحده لا شريك له ؛ كما قال الله تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)(الروم: من الآية30) ؛ فالفطر السليمة لا تقبل تشريعا إلا ممن يملك ذلك .

الخامسة : أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل : فالأول محبة الصالحين، والثاني فعل أناس من أهل العلم والدين شيئا أرادوا به خيرا فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره .

---

* الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل، أراد المؤلف رحمه الله أن يبين أن مزج الحق بالباطل حصل بأمرين:

الأول: محبة الصالحين، ولهذا صوروا تماثيلهم محبة لهم، ورغبة في مشاهدة أشباحهم.

الثاني: أن أهل العلم والدين أرادوا خيراً، وهو أن ينشطوا على العبادة، ولكن من بعدهم أرادوا غير الخير الذي أراده أولئك، ويؤخذ منه: أن من أراد تقوية دينة ببدعة؛ فإن ضررها أكثر من نفعها.

مثال ذلك: أولئك الذين يغلون في الرسول صلى الله عليه وسلم ويجعلون له الموالد هم يريدون بذلك خيراً، لكن أرادوا خيراً بهذه البدعة، فصار ضررها أكثر من نفعها؛ لأنها تعطي الإنسان

نشاطاً غير مشروع في وقت معين، ثم يعقبه فتور غير مشروع في بقية العام.

ولهذا تجد هؤلاء الذين يغالون في هذه البدع فاترين في الأمـور المشروعة الواضحة ليسـوا كنشـاط غـيرهم، وهـذا ممـا يـدل على تأثير البدع في القلوب وأنها مهما زينها أصـحابها؛ فلا تزيـد الإنسـان إلا ضلالاَ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (كل بدعـة ضـلالة) [1] 0

فإن قيل: إن للاحتفال بمولده صلى الله عليـه وسـلم أصـلاً من السنة، وهو أن النبي صلى اللـه عليـه وسـلم سـئل عن صـوم يـوم الاثنين؛ فقال : (ذاك يوم ولدت فيه، وبعثت فيه، أو أنزل على فيـه) [1] ، وكان صلى الله عليه وسلم يصومه مع الخميس ويقول: (إنهما يومان تعرض فيهما الأعمال على الله؛ فأحب أن يعرض عملي وأنـا صائم) [2]

فالجواب على ذلك من وجوه:

الأول: أن الصوم ليس احتفالاً بمولده كاحتفال هؤلاء، وإنما هــو صوم وإمساك، أما هؤلاء الذين يجعلون له الموالد؛ فاحتفـالهم على العكس من ذلك.

فـالمعنى: أن هـذا اليـوم إذا صـامه الإنسـان؛ فهـو يـوم مبـارك حصل فيه هذا الشي، وليس المعنى أننا نحتفل بهذا اليوم.

الثاني: أنه عمل فرض أن يكون هذا أصلاً؛ فإنه يجب أن يقتصر فيه على ما ورد؛ لأن العبادات توقيفية، ولو كـان الاحتفـال المعهـود عند الناس اليوم مشروعاً لبينه النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم، إمـا بقوله، أو فعله، أو إقراره.

([1] مسلم : كتاب الجمعة/ باب تخفيف الصلاة والخطبة.

([1] مسلم: كتاب الصيام/باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر.

([2] الرمزي: كتاب الصوم/ باب ما جاء في صوم الاثنين والخميس، 3/94، وقال: (حديث حسن غريب).

الثالث: أن هؤلاء الذين يحتفلون بمولد النبي صلى الله عليه وسلم لا يقيدونه بيوم الاثنين، بل في اليوم الذي زعموا مولده فيه، وهو اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، مع أن ذلك لم يثبت من الناحية التاريخية، وقد حقق بعض الفلكيين المتأخرين ذلك؛ فكان في اليوم التاسع لا في اليوم الثاني عشر.

الرابع: أن الاحتفال بمولده على الوجه المعروف بدعة ظاهرة؛ لأنه لم

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح.

يكن معروفاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، مع قيام المقتضي له وعدم المانع منه.

* مسألة حكم الاحتفال بعيد ميلاد الأطفال:

فائدة: كل شيء يتخذ عيداً يتكرر كل أسبوع، أو كل عام وليس مشروعاً؛ فهو من البدع، والدليل على ذلك: أن الشارع جعل للمولود العقيقة، ولم يجعل شيئاً بعد ذلك، واتخاذهم هذه الأعياد تتكرر كل أسبوع أو كل عام معناه أنهم شبهوها بالأعياد الإسلامية، وهذا حرام لا يجوز، وليس في الإسلام شيء من الأعياد إلا الأعياد الشرعية الثلاثة: عيد الفطر، وعيد الأضحى، وعيد الأسبوع، وهو يوم الجمعة.

وليس هذا من باب العادات لأنه يتكرر، ولهذا لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم فوجد للأنصار عيدين يحتفلون بهما؛ قال: (إن الله أبدلكما بخير منهما: عيد الأضحى، وعيد الفطر) [1] ، مع أن هذا من الأمور العادية عندهم.

- السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح، وقد سبق ذلك وبيان أنهم يتواصلون بالباطل، وهذا خلاف طريق المؤمنين الذين يتواصون بالحق والصبر والمرحمة، ويشبههم أهل الباطل والضلال الذين يتواصون بما هم عليه، سواء كانوا رؤساء سياسيين أو رؤساء دينيين ينتسبون إلى الدين، فتجد الواحد

---

[1] مسند الإمام أحمد (3/103)، وسنن أبي داود: كتاب الصلاة/ باب صلاة العيدين.

منهم لا يموت إلا وقد وضع له ركـيزة من بعـده يعـني هـذا الأمـر الذي هو عليه.

السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد.

---

* السـابعة: جبلـة الآدمي في كـون الحـق ينقص في قلبـه، والباطل يزيد، هذه العبادة تقيد من حيث كونـه آدميـاً بقطـع النظـر على من يمن الله عليه من تزكية النفس؛ فإن الله يقول:(قَـدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس:9-10).

قوله: (جبلة) على وزن فعلة، وهـو مـا يجبـل المـرء عليـه؛ أي: يخلق عليه ويطبع ويبدع، بمعـنى الطبيعـة الـتي عليهـا الإنسـان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن كونه زكى نفسه أو دساها.

فالإنسان من حيث هو إنسان وصفه الله بوصفين؛ فقال تعالى: (إِنَّ الْأِنْسَـانَ لَظَلُـومٌ كَفَّارٌ)(ابـراهيم: من الآية34) ، وقـال تعـالى: (وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)(الأحزاب: من الآية72) .

أما من حيث ما يمن الله به عليه من الإيمـان والعمـل الصـالح؛ فإنه يرتقي عن هذا، قال تعـالى : (لَقَـدْ خَلَقْنَـا الْأِنْسَـانَ فِي أَحْسَـنِ تَقْـوِيم * ثُمَّ رَدَدْنَـاهُ أَسْـفَلَ سَـافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) (التين:4-6) ؛ فالإنسان الذي يمن الله عليه بالهدي؛ فإن الباطل الذي في قلبـه يتنـاقص وربمـا يـزول بالكلية؛ كعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم.

وكذلك أهـل العلم؛ كـأبي الحسـن الأشـعري، كـان معتزليـاً، ثم كلابياً، ثم سـنياً، وابن القيم كـان صـوفياً، ثم من اللـه عليـه بصـحبة شيخ الإسلام ابن تيميه؛ فهداه الله على يده حتى كان ربانياً.

الثامنة: فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر.

---

* الثامنة: فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر، قال أهل العلم: إن الكفر له أسباب متعددة، ولا مانع أن يكون للشيء الواحد أسباب متعددة، ومن ذلك الكفر، ذكروا من أسبابه البدعة، وقالوا: إن البدعة لا تزال في القلب، يظلم منها شيئاً فشيئاً؛ حتى يصل إلى الكفر، واستدلوا بقوله صلى الله عليه وسلم (كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار) [1] .

وقالوا أيضاً: (إن المعاصي بريد الكفر، وبريد الشيء ما يوصل إلى الغاية).

والمعاصي كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم تتراكم على القلب، وتنكت فيه نكتة سوداء، فإن تاب؛ صقل قلبه وابيض [2] ، وإلا؛ فلا تزال هذه النكتة السوداء تتزايد حتى يصبح مظلماً.

وكذلك حذر من محقرات الذنوب، وضرب لها مثلاً بقوم نزلوا أرضاً ، فأرادوا أن يطبخوا، فذهب كل واحد منهم وأتى بعود، فأتى هذا بعود وهذا بعود، فجمعوها، فأضرموا ناراً كبيرة، وهكذا المعاصي [3] ؛ فالمعاصي لها تأثير قوي على القلب، وأشدها تأثيراً الشهوة فهي أشد من الشبهة؛ لأن الشبهة أيسر زوالاً

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة، ولو حسن قصد الفاعل.

زوالاً على من يسرها الله عليه؛ إذ إن مصدرها الجهل وهو يزول بالتعلم.

أما الشهوة، وهي إرادة الإنسان الباطل؛ فهي البلاء الذي يقتل به العالم والجاهل، ولذا كانت معصية اليهود أكبر من معصية

---

(1) تقدم (ص 203).

(2) مسند الإمام أحمد (2/297) وصححه أحمد شاكر، والترمذي: كتاب التفسير/باب (ويل للمطففين)، 9/69ـ وقال: (حسن صحيح) ـ ، والحاكم (2/517) ـ وصححه ووافقه الذهبي ـ .

(3) مسند الإمام أحمد (5/231)، وصححه الألباني في (الصحيحة) (1/389).

النصارى؛ لأن معصية اليهود سببها الشهوة وإرادة السوء والباطــل، والنصارى سببها الشبهة، ولهذا كانت غالبها شبهة، ولكن كثيراً منهـا سـببه الشـهوة، ولهـذا يـبين الحـق لأهـل الشـهوة من أهـل البـدع، فيصرون عليها، وغالبهم يقصد بذلك بقاء جاهه ورئاسته بين النـاس دون صلاح الحـق، ويظن في نفسـه ويملي عليـه الشـيطان أنـه لـو رجع عن بدعته لنقصت منزلته بين الناس، وقالوا: هذا رجل متقلب وليس عنـده علم، لكن الأمـر ليس كـذلك؛ فـأبو الحسـن الأشـعري مضرب المثل في هذا البـاب؛ فإنـه لمـا كـان من المعتزلـة لم يكن إماماً، ولما رجع إلى مذهب أهل السنة صـار إمامـاً؛ فكـل من رجـع إلى الحق ازدادت منزلته عند الله ـ سبحانه ـ ، ثم عند خلقه.

والخلاصة: أن البدعة سبب للكفر، ولا يرد على هـذا قـول بعض أهل العلم: إن المعاصي بريد الكفر؛ لأنه لا مانع من تعدد الأسباب.

* التاسعة: معرفة الشيطان بما تـؤول إليـه البدعـة ولـو حسـن قصد الفاعل، لأن الشيطان هـو الـذي سـول لهـؤلاء المشـركين أن يصوروا هذه التماثيل والتصاوير؛ لأنه يعـرف أن هـذه البدعـة تـؤول إلى الشرك.

وقوله: (ولو حسن قصد الفاعل)، أي:إن البدعة شر ولو حســن قصد فاعلها ، ويأثم إن كان عالماً أنها بدعة ولو حسن قصـده؛ لأنـه أقدم على المعصية

كمن يجيز الكذب والغش ويدعي أنه مصلحة، أما لو كان جاهلاً فإنه لا يأثم؛ لأن جميع المعاصي لا يأثم بها إلا مـع العلم، وقـد يثـاب على حسن قصده، وقد نبه على ذلـك شـيخ الإسـلام ابن تيميـه في كتابه (اقتضـاء الصـراط المسـتقيم)؛ فيثـاب على نيتـه دون عملـه، فعمله هذا غير صالح ولا مقبـول عنـد اللـه ولا مرضـي لكن لحسـن نيته مع الجهل يكون لـه أجـر، ولهـذا قـال صـلى اللـه عليـه وسـلم للرجل الذي صلى وأعاد الوضوء بعدما وجد الماء وصلى ثانية: (لـك

الأجر مرتين) [1] ؛ لحسن قصده، ولأن عمله عمل صالح في الأصل، لكن لو أراد أحد أن يعمل العمل مرتين مع علمه أنه غير مشروع؛ لم يكن له أجر لأن عمله غير مشروع لكونه خلاف السنة؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للذي لم يعد : (أصبت السنة) [2] .

فإن قال: إني أريد بهذه البدعة إحياء الهمم والتنشيط وما أشبه ذلك.

أجيب: بأن هذه الإرادة طعن في رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه اتهام له بالتقصير أو القصور، أي مقصر في الإخبار عن ذلك أو قاصر في العلم، وهذا أمر عظيم وخطر جسيم ، ولأن هذا لم يكن عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ولا خلفاؤه الراشدون، أما إذا كان حسن القصد، ولم يعلم أن هذا بدعة؛ فإنه يثاب على نيته ولا يثاب على عمله؛ لأن عمله شر حابط كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو رد) [3] .

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو، ومعرفة ما يؤول إليه. الحادية عشرة: مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح.

وأما العامة الذين لا يعلمون، وقد لبس عليهم هذه البدعة وغيرها؛ نقول: ما داموا قاصدين للحق ولا علموا به؛ فإثمهم على من أفتاهم ومن أضلهم.

ولهذا يوجد في مجاهل أفريقيا وغيرها من لا يعرفون عن الإسلام شيئاً، فلو ماتوا لا نقول: إنهم مسلمون ونصلي عليهم ونترحم عليهم مع أنهم لم تقم عليهم الحجة، لكننا نعاملهم في الدنيا بالظاهر، أما في الآخرة؛ فأمرهم إلى الله.

---

(1) سنن أبو داود: كتاب الطهارة/باب في المتيمم يجد الماء بعد ما صلى، والحاكم (1/179)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، صحيح أبي داود (1/69).

(2) الحديث السابق (رقم 1).

(3) تقدم (ص 203).

* العاشــرة: معرفــة القاعــدة الكليــة، وهي النهي عن الغلــو ومعرفة مـا يـؤول إليـه، هـذا مـا حـذر منـه النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم ؛ لأن الغلو مجاوزة الحد، وهو كما يكون في العبـادات يكـون في غيرها، قال تعالى : (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْـرِفُوا)(لأعـراف: من الآية31)، وقـــال: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُـــوا لَمْ يُسْـــرِفُوا وَلَمْ يَقْتُـــرُوا) (الفرقان: من الآية67)، وقد سبق بيان ذلك.

* الحادية عشرة: مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صـالح، المضرة الحاصلة: هي أنها توصل إلى عبادتهم.

ومثل ذلك: ما لو قرئ القرآن عند قـبر رجـل صـالح، أو تصـدق عند هذا القبر يعتقد أن لذلك مزية على غيره؛ فإن هـذا من البـدع، وهذه البدعة قد تؤدي

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل والحكمـة في إزالتهـا. الثالثة عشرة: معرفة عظم شأن هذه القصـة وشـدة الحاجـة إليهـا مع الغفلة عنها. الرابعة عشرة: وهي أعجب العجب: قراءتهم إياهــا في كتب التفسير والحديث، ومعـرفتهم بمعـنى الكلام، وكـون اللـه حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نـوح هـو أفضـل العبادات، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهـو الكفـر المـبيح للدم والمال.

بصاحبها إلى عبادة هذا القبر.

* الثانيــة عشــرة: معرفــة النهي عن التماثيــل والحكمــة في إزالتها، التماثيل: هي الصور على مثـال رجـل، أو حيـوان، أو حجـر، والغالب أنها تطلق على ما صنع ليعبـد من دون اللـه، والحكمـة في إزالتها سد ذرائع الشرك.

* الثالثـة عشـرة: معرفـة عظم شـأن هـذه القصـة، أي: قصـة هؤلاء الذين غلوا في الصالحين وغير الصالحين، لكن اعتقــدوا فيهم الصـلاح، حـتى تـدرج بهم الأمـر إلى عبـادتهم من دون اللـه؛ فتجب معرفة هذه القصة، وأن أمر الغلو عظيم، ونتائجه وخيمـة؛ فالحاجـة شديدة إلى ذلك، والغفلة عنها كثـيرة، والنـاس لـو تـدربت أحـوالهم وسبرت قلوبهم وجدت أنهم في غفلة عن هذا الأمـر، وهـذا موجـود في البلاد الإسلامية.

* الرابعة عشـرة ــ وهي أعجب العجب ــ : قـراءتهم إياهـا في كتب التفسير والحديث.

قوله: (وأعجب)، أي: أكثر عجباً وأشد، والعجب نوعان:

الأول: بمعنى الاستحسـان، وهـو مـا إذا تعلـق بمحمـود؛ كقـول عائشة في الحديث: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره، وفي شأنه كله) [1] .

الثاني: بمعنى الإنكار، وذلك فيما إذا تعلق بمذموم، قال تعالى: (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)(الرعـد: من الآية5).

وكلام المؤلف هنا من باب الإنكار.

وكلام المؤلـف هنـا عمـا كـان في زمنـه، حيث غفلـوا عن هـذه القصة مع قـراءتهم لهـا في كتب التفسـير والحـديث، واعتقـدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات، وهذا من أضر ما يكون على المــرء أن يعتقد السيئ حسناً، قال تعالى: (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِـهِ فَـرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِـلُّ مَنْ يَشَـاءُ)(فـاطر: من الآية8)، وقـال تعـالى: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَـلَّ سَـعْيُهُمْ فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) (الكهف:103،104).

---

[1] البخاري: كتاب الوضوء/باب التيمن في الوضوء والغسـل، ومسـلم: كتـاب الطهـارة/بـاب الـتيمن في الطهور وغيره.

قوله: (واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المـبيح للــدم والمــال)، أي: من اعتقــد أن الشــرك والكفــر من أفضــل العبادات، وأنه مقرب إلى الله؛ فهذا كفر مبيح لدمه وماله، هـذا مـا أراد المؤلف، وإن كان لا يسـعفه ظـاهر كلامـه ثم بـدا لي مـا لعلـه المراد أن هؤلاء الغالين اعتقـدوا أن المنهي عنـه هـو الكفـر المـبيح للدم والمال، وأما ما دونه من الغلو؛ فلا نهي فيه، والله أعلم.

الخامســة عشــرة: التصــريح بــأنهم لم يريــدوا إلا الشــفاعة.
السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.
السابعة عشرة: البيـان العظيم في قولـه:(لا تطـروني كمـا أطـرت النصارى ابن مريم)، فصلوات الله وسلامه عليه، بلغ البلاغ المبين.

---

* الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريـدوا إلا الشـفاعة، أي: ما أرادوا إلى الشفاعة، ومع ذلك وقعوا في الشرك.
* السادسة عشرة:ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلــك،أي: أرادوا أن تشــفع لهم،بــل ظنــوا أنهــا تنشــطهم على العبادة،وهذا ظن فاسد كما سبق[1].
* السـابعة عشـرة: البيـان العظيم في قولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (لا تطـروني) الحـديث، معـنى الإطـراء: الغلـو في المـدح، والمبالغة فيه.

وهذا الذي نهى عنه صلى الله عليه وسلم وقـع فيـه بعض هـذه الأمة، بل أشد؛ حتى جعلوا النبي صلى الله عليه وسلم المرجـع في كل شيء، وهذا أعظم من قول الناصرى: المسيح ابن الله، وثــالث ثلاثة.

ومعنى: (بلغ)؛ أي: أوصل وبين.

---

[1] أنظر : (ص 374).

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين. التاسعة عشـرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم؛ ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده. العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

---

* الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين، وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : (هلك المتنطعون)؛ فلم يرد مجرد الخبر، ولكن التحذير من التنطع.
* التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم، أي: لم تعبد هذه التماثيل إلا بعد أن نسي العلم واضمحل؛ ففيه دليل على معرفة قدر وجوده أي العلم، وأن وجوده أمر ضروري للأمة؛ لأنه إذا فقد العلم؛ حل الجهل محله، وإذا حل الجهل؛ فلا ضروري للأمة؛ لأنه إذا فقد العلم؛ حل الجهل محله، وإذا حل الجهل؛ فلا تسأل عن حال الناس؛ فسوف لا يعرفون كيف يعبدون الله، ولا كيف يتقربون إليه.
* العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء، فهذا من أكبر الأسباب لفقد العلم، فإذا مات العلماء؛ لم يبق إلا جهال الخلق يفتون بغير علم.

ومن أسباب فقده أيضاً: الغفلة والإعراض عنه، والتشاغل بأمور الدنيا، وعدم المبالاة به.

ثم إن العلم قد يكون موجوداً وهو معدوم، وذلك فيما إذا كثر القراء الذين يقرؤون العلم ولا يعلمون به، وقل الفقهاء الذين يعملون به؛ فبهذا يصبح العلم عديم الفائدة ووجوده كعدمه ، بل إن في وجوده ضرراً على الأمة؛ لأن العامة إذا رأوا من ينتسب إليه ساكتاً غير عامل بما علم؛ ظنوا أن ما عليه الناس حق.

فضرر العلم الذي لا ينفع أشد من ضرر الجهل ، وإذا وجد الجهل ؛ فإن الناس قد يطلبون العلم ويتلمسونه.

• الخلاصة للباب :

بيان أن الغلو في الصالحين من أسباب الكفر ، وليس هو السبب الوحيد للكفر .

وأن خطر الغلو عظيم ونتائجه وخيمة؛ فالواجب تنزيل الصالحين منازلهم؛ فلا يستوي الصالح والفاسد ، بل ينزل كل منزلته ، ولكن لا نتجاوز به المنزلة فنغلو فيه ؛ فدين الله وسط لا يعطي الإنسان أكثر مما يستحق ، ولا يسلبه ما يستحق ، وهذا هو العدل .

س1 : ما الفرق بين التنطع والغلو والاجتهاد ؟

الجواب : الغلو مجاوزة الحد .

والتنطع معناه : التشدق بالشيء والتعمق فيه ، وهو من أنواع الغلو.

أما الاجتهاد ؛ فإنه بذل الجهد لإدراك الحق ، وليس فيه غلو إلا إذا كان المقصود بالاجتهاد كثرة الطاعة غير المشروعة ؛ فقد تؤدي إلى الغلو ، فلو أن الإنسان مثلا أراد أن يقوم ولا ينام ، وأن يصوم النهار ولا يفطر ، وأن يعتزل ملاذ الدنيا كلها ؛ فلا يتزوج ولا يأكل اللحم ولا الفاكهة وما أشبه ذلك ؛ فإن هذا الغلو ، وإن كان الحامل على ذلك الاجتهاد والبر ، ولكن هذا خلاف هدي النبي صلى الله عليه وسلم .

س2 : ما حكم الذهاب إلى قبور الصالحين لقراءة الفاتحة ؟

الجواب : هذا من البدع ، وسواء قلنا يصل الثواب أو لا يصل ؛ فكونك تتخذ القراءة عند القبر خاصة هذا من البدع .

وإنما اختلف السلف فيما إذا قرئت الفاتحة عند الميت بعد دفنه مباشرة أو غيرها من القرآن .

والصحيح أيضا أنه ليس بسنة ، والسنة أن تستغفر له وتسأل له التثبيت.

* * *

باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح ؛ فكيف إذا عبده؟!

في الصحيح عن عائشة ؛ أن أم سلمة ذكرت لر سول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة ، وما فيها من الصور ، فقال :

قوله : (التغليظ) ، التشديد .
قوله : (من عبد الله عند قبر رجل صالح) ، أي : عمـل عملا تعبـد الله به من قراءة أو صلاة أو صدقة أو غير ذلك .
قوله : (فكيف إذا عبده ؟) ، أي : يكـون أشـد وأعظم ، وذلـك لأن المقابر والقبور للصالحين أو من دونهم من المسلمين أهلها بحاجـة إلى الدعاء ؛ فهم يزارون لينفعوا لا لينتفـع بهم إلا باتبـاع السـنة في زيـارة المقـابر ، والثـواب الحاصـل بـذلك ، لكن هـذا ليس انتفاعـا بأشخاصهم ، بل انتفاع بعمل الإنسان بما أتى به من السنة .
فالزيارة التي يقصد منها الانتفاع بالأموات زيارة بدعية .
والزيـارة الـتي يقصـد بهـا نفـع الأمـوات والاعتبـار بحـالهم زيـارة شرعية .

*　*　*

قوله : (في (الصحيح)) ، أي : (الصحيحين) وقد سبق الكلام على مثل هذه العبارة في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله .

(أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح ؛ بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله)[1] .

قوله : (أم سلمة) ، كانت ممن هاجر مع زوجها إلى أرض الحبشة ، ولما توفي زوجها أبو سلمة تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخبرته وهو في مرض موته بما رأت ؛ كما في (الصحيح) .

قولها (من الصور) الظاهر أن هذه الصور صور مجسمة وتماثيل منصوبة .

قوله : (أولئك) ، المشار إليهم نصارى الحبشة ، ويحتمل أن يراد من فعلوا هذه الأفعال أيا كانوا .

قوله : (أولئك) ، يجوز في الكاف الكسر إذا كان الخطاب لأم سلمة، والفتح إذا كان الخطاب باعتبار الجنس .

وقد ذكر العلماء أن في كاف الخطاب المتصل باسم الإشارة ثلاثة أوجه:

الوجه الأول : أن يكون مطابقا للمخاطب المفرد للمفرد والمثنى للمثنى والجمع للجمع ، مذكرا كان أم مؤنثا .

الوجه الثاني : الفتح مطلقا .

الوجه الثالث : الكسر للمؤنث مطلقا ، والفتح للمذكر مطلقا .

---

[1] البخاري : كتاب الصلاة / باب بناء المسجد على القبر ، ومسلم : كتاب المساجد / باب النهي عن بناء المساجد على القبور .

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين[1] : فتنة القبور ، وفتنة التماثيل .

وأشهرها : أن يكون مطابقا للمخاطب ، ثم الفتح مطلقا ، ثم الفتح للمذكر ، والكسر للمؤنث .

قوله : (الرجل الصالح أو العبد الصالح) ، أو : شك من الراوي.

قوله : (بنوا على قبره) ، أي : قبر ذلك الرجل الصالح .

قوله : (صوروا فيه تلك الصور) ، أي : التي رأت ، والأقرب أنها صورة ذلك الرجل ، وربما أنهم يضيفون إلى صورته صورة بعض الصالحين، وربما تكون الصور على أحجام مختلفة ، فتجمع منها صور كثيرة .

قوله : (أولئك شرار الخلق عند الله) ، لأن عملهم هذا وسيلة إلى الكفر والشرك ، وهذا أعظم الظلم وأشده ، فما كان وسيلة إليه ؛ فإن صاحبه جدير بأن يكون من شرار الخلق عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

قوله : (فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور ، وفتنة التماثيل)، هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله .

قوله : (فتنة القبور) ؛ لأنهم بنوا المساجد عليها .

قوله:(فتنة التماثيل) ؛ لأنهم صوروا فجمعوا بين فتنتين ، وإنما سمي ذلك فتنة ؛ لأنها سبب لصد الناس عن دينهم،وكل ما كان كذلك ؛ فإنه من الفتنة، قال تعالى : (ألم *أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ) (العنكبوت: 1،2) ، وقال تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) (البروج: من الآية10) ؛ أي : صدوهم ، أو فعلوا ما يصدونهم به عن دين الله .

*   *   *

ولهما عنها ؛ قالت : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها ؛ كشفها ،فقال وهو كذلك : (لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) .

---

[1] نسخة : (فتنتين) .

قوله : (ولهما) ، الضمير يعود على البخاري ومسلم ، وإن لم يسبق لهما ذكر ، ولكنه لما كان ذلك مصطلحا معروفا ؛ صح أن يعود الضمير عليهما، وهما لم يذكر اعتمادا على المعروف المعهود .

وقوله : (عنها) ؛ أي : عن عائشة .

قالت : (لما نزل برسول الله) ، أي : نزل به ملك الموت لقبض روحه.

قوله : (طفق) ، من أفعال الشروع ، واسمها مستتر ، وجملة (يطرح) خبرها .

قوله : (خميصة) ، هي كساء مربع له أعلام كان يطرحه النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه.

قوله : (فإذا اغتم بها) ، أي : أصابه الغم بسببها ، وقد احتضر صلى الله عليه وسلم .

قوله : (وهو كذلك) ، أي : وهو في هذه الحال عند الاحتضار .

قوله : (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، يقول هذا في سياق الموت ، و(لعنة الله) ؛ أي : طرده وإبعاده ، وهذه الجملة يحتمل أنه يراد بها ظاهر اللفظ ؛ أي : أن النبي صلى الله عليه وسلم يخبر بإن الله لعنهم.

ويحتمل أن يراد بها الدعاء ؛ فتكون خبرية لفظا إنشائية معنى ، والمعنى على هذا الاحتمال أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم وهو في سياق الموت بسبب هذا الفعل .

يحذر ما صنعوا ، ولولا ذلك ؛ أبرز قبره ؛ غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا . أخرجاه[1].

قوله : (اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ، الجملة هذه تعليل لقوله : (لعنة الله على اليهود و النصارى) ، كأن قائلا يقول : لماذا لعنهم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فكان الجواب : أنهم

([1]) البخاري : كتاب الجنائز / باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، ومسلم : كتاب المساجد / باب النهي عن بناء المساجد على القبور .

اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ؛ أي : أمكنة للسجود ، سواء بنوا مساجد أم لا، يصلون ويعبدون الله تعالى فيها مع أنها مبنية على القبور.

قوله : (يحذر ما صنعوا) ، أي : أنه صلى الله عليه وسلم قال في سياق الموت تحيرا لأمته مما صنع هؤلاء ؛ لأنه علم أنه سيموت وأنه ربما يحصل هذا ولو في المستقبل البعيد .

قوله : (ولولا ذلك أبرز قبره) ، أبرز؛ أي : أخرج من بيته؛ لأن البروز معناه الظهور ، أي لولا التحذير وخوف أن يتخذ قبره مسجدا ؛ لأخرج ودفن في البقيع مثلا ، لكنه في بيته أصون له، وأبعد عن اتخاذه مسجدا؛ فلهذا لم يبرز قبره، وهذا أحد الأسباب التي أوجبت أن لا يبرز مكان قبره صلى الله عليه وسلم .

ومن أسباب ذلك : إخباره صلى الله عليه وسلم انه ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض[2]،ولا مانع أن يكون للحكم الواحد سببان فأكثر ، كما أن السبب الواحد قد يترتب عليه حكمان أو أكثر ؛ كغروب الشمس يترتب عليه جواز إفطار الصائم.

وصلاة المغرب .

قوله : (غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا) ، خشي فيها روايتان : خشي وخشي[1] .

فعلى رواية خشي يكون الذي وقعت منهم الخشية الصحابة رضي الله عنهم وعلى رواية خشي يكون الذي وقعت منه الخشية النبي صلى الله عليه وسلم .

والحقيقة أن الأمر كله حاصل ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم أخبر بأنه ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض ، ولعن اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد خوفا من اتخاذ قبره مسجدا ،

([2]) مسند الإمام أحمد (1/7)، والترمذي : كتاب الجنائز /باب حدثنا أبو كريب ، 3/394ـ وضعفه ـ.

([1]) البخاري : كتاب الجنائز / باب ما جاء في قبر النبي صلى الله عليه وسلم .

والصحابة رضي الله عنهم اتفقوا على أن يدفن صلى الله عليه وسلم في بيته بعد تشاورهم لأنهم خشوا ذلك .

ويجوز أن يكون بعضهم أشار بأن يدفن في بيته ، وليس في ذهنه إلا هذه الخشية ، وبعضهم أشار أن يدفن في بيته وعنده علم بأنه صلى الله عليه وسلم قال (ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض) ، وخوفا من اتخاذه مسجدا.

في هذا الحديث والحديث السابق : التحذير من اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ، وهم أفضل الصالحين ؛ لأن مرتبة النبيين هي المرتبة الأولي من المراتب الأربع التي قال الله تعالى عنها:(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً) (النساء:69) .

• اعتراض وجوابه :

إذا قال قائل : نحن الآن واقعون في مشكلة بالنسبة لقبر الرسول صلى الله عليه وسلم

الآن ، فإنه في وسط المسجد ؛ فما هو الجواب ؟

قلنا : الجواب على ذلك من وجوه :

الوجه الأول : أن المسجد لم يبن على القبر ؛ بل بني المسجد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم .

الوجه الثاني : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدفن في المسجد حتى يقال : إن هذا من دفن الصالحين في المسجد ، بل دفن في بيته .

الوجه الثالث : أن إدخال بيوت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنها بيت عائشة مع المسجد ليس باتفاق من الصحابة ، بل بعد أن انقرض أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل ، وذلك عام 94م تقريبا؛ فليس مما أجازه الصحابة أو أجمعوا عليه، مع أن بعضهم خالف في ذلك ، وممن خالف أيضا سعيد بن المسيب من التابعين ؛ فلم يرض بهذا العمل.

الوجه الرابع : أن القبر ليس في المسجد ، حتى بعد إدخاله ؛ لأنه في حجرة مستقلة عن المسجد ؛ فليس مبنيا عليه ، ولهذا جعل هذا المكان محفوظا ومحوطا بثلاثة جدران ، وجعل الجدار في زاوية منحرفة عن القبلة ، أي مثلث، والركن في الزاوية الشمالية ، بحيث لا يستقبله الإنسان إذا صلى لأنه منحرف .

فبهذا كله يزول الإشكال الذي يحتج به أهل القبور ، ويقولون هذا منذ عهد التابعين إلى اليوم ، والمسلمون قد أقروه ولم ينكروه؛ فنقول : إن الإنكار قد وجد حتى في زمن التابعين ، وليس محل إجماع ، وعلى فرض أنه إجماع ؛ فقد تبين الفرق من الوجوه الأربعة التي ذكرناها .

* * *

ولمسلم عن جندب بن عبد الله ؛ قال : (سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول : (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ، فإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، ولو كنت متخذا من أمتي خليلا؛ لاتخذت أبا بكر خليلا . ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ؛ فإني أنهاكم عن ذلك)[1] .

قوله : (بخمس) ، أي : خمس ليال ، لكن العرب تطلقها على الأيام والليالي .

قوله : (أبرأ) ، البراءة : هي التخلي ؛ أي : أتخلي أن يكون لي منكم خليل .

قوله : (خليل) ، هو الذي يبلغ في الحب غايته ؛ لأن حبه يكون قد تخلل الجسم كله ، قال الشاعر يخاطب محبوبته :

قد تخللت مسلك الروح مني   وبهذا سمي الخليل خليلا

والخلة أعظم أنواع المحبة وأعلاها ، ولم يثبتها الله ـ عز وجل ـ فيما نعلم إلا لاثنين من خلقه ، هما :إبراهيم في قوله تعالى : (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً)(النساء: من الآية125)، ومحمد لقوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا) .

---

[1] مسلم : كتاب المساجد / باب النهي عن بناء المساجد على القبور .

وبهذا تعرف الجهل العظيم الذي يقوله العامة : إن إبراهيم خليل الله، ومحمدا حبيب الله ، وهذا تناقض في حق الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم بهذه المقالة

جعلوا مرتبة النبي صلى الله عليه وسلم دون مرتبة إبراهيم ، لأنهم إذا جعلوا حبيب الله لم يفرقوا بينه وبين غيره من الناس ؛ فإن الله يحب المحسنين والصابرين ، وغيرهم ممن علق الله بفعلهم المحبة ؛ فعلى رأيهم لا فرق بين الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره ، لكن الخلة ما ذكرها الله إلا لإبراهيم ، والنبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن الله اتخذه خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا .

فالمهم : أن العامة مشكل أمرهم ، دائما يصفون الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه حبيب الله ، فنقول : أخطأتم وتنقصتم نبيكم ؛ فالرسول خليل الله ؛ لأنكم إذا وصفتموه بالمحبة أنزلتموه عن بلوغ غايتها .

قوله:(فإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا)، هذا تعليل لقوله : (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل)؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم ليس في قلبه خلة لأحد إلا لله ـ عز وجل ـ .

قوله : (ولو كنت متخذا من أمتي خليلا ؛ لاتخذت أبا بكر خليلا) .

وهذا نص صريح على أن أبا بكر أفضل من علي ، رضي الله عنهما، وفي هذا رد على الرافضة الذين يزعمون أن عليا أفضل من أبي بكر .

وقوله : (لو) ، حرف امتناع لامتناع ؛ فيمتنع الجواب لامتناع الشرط ، وعلى هذا امتنع صلى الله عليه وسلم من اتخاذ أبي بكر خليلا لأنه يمتنع أن يتخذ من أمته خليلا.

قوله : (ألا وإن من كان قبلكم)، للتنبيه ، وهذه الجملة في أثناء الحديث لكنه ابتدأها بالتنبيه لأهمية المقام .

قوله : (ألا فلا تتخذوا)، هذا تنبيه آخر للنهي عن اتخاذ القبور مساجد، وهذا عام يشمل قبره وقبر غيره .

قوله : (فإني أنهاكم عن ذلك)، هذا نهي باللفظ دون الأداة تأكيدا لهذا
فقد نهى عنه في آخر حياته ، ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله .
والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجد .

النهي لأهمية المقام .

• من فوائد الحديث:

1- أن النبي صلى الله عليه وسلم تبرأ من أن يتخذ أحدا خليلا ؛ لأن قلبه مملوء بمحبة الله تعالى .

2- أن الله تعالى اتخذه خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ؛ ففيه فضيلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

3- فضيلة إبراهيم صلى الله عليه وسلم باتخاذه خليلا .

4- فضيلة أبي بكر ، وأنه أفضل الصحابة لأن الحديث يدل على أنه أحب الصحابة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

5- التحذير من اتخاذ القبور مساجد في قوله : (ألا فلا تتخذوا القبور مساجد) ، قوله : (فإني أنهاكم عن ذلك) .

6- أن من دفن شخصا في مسجد وجب عليه نبشه وإخراجه من المسجد.

7- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أمته في إبعادهم عن الشرك وأسبابه ؛ لأن اتخاذ القبور مساجد من وسائل الشرك وذرائعه ، ولهذا حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تحذير أمته منه ، وهذا من كمال رأفته ورحمته بالأمة

8- أن من بنى مسجدا على قبر وجب عليه هدمه .

قوله : (فقد نهى عنه في آخر حياته ...) هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيميه .
وهو معنى قولها : (خشي أن يتخذ مسجدا)؛ فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدا ، وكل موضع قصدت الصلاة فيه ؛ فقد اتخذ مسجدا ، بل كل موضع يصلي فيه ؛ يسمى مسجدا ؛ كما

قال صلى الله عليه وسلم : (جعلت لي الأرض مسجدا وطهور)[1] .

وقوله : (فقد نهى عنه في آخر حياته) الضمير يعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والمنهي عنه هم اتخاذ القبور مساجد .

قوله : (ثم إنه لعن وهو في سياق من فعله) ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم وهو عند فراق الدنيا لعن من اتخذ القبور مساجد .

قوله : (والصلاة عندها من ذلك ، وإن لم يبن مسجد).

(عندها) ؛ أي : عند القبور ، وقوله : (من ذلك) ؛ أي : من اتخاذها مساجد، وعلى هذا ؛ فلا تجوز عند القبور ، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما في (صحيح مسلم) من حديث أبي مرثد الغنوي أن يصلى إلى القبور ؛ فقال : (لا تصلوا إلى القبور)[2] .

قوله : (وهو معنى قولها : خشي أن يتخذ مسجدا) الضمير في (قولها) يرجع إلى عائشة رضي الله عنها .

قوله : (فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدا) هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله تعالى .

قد يقال : (خشي أن يتخذ مسجدا) معناه : خشي أن يبنى عليه مسجد ، لكن يبعده أن الصحابة لا يمكن أن يبنوا حول قبره مسجدا؛ لأن مسجده لبيته؛ فكيف يبنون مسجدا آخر؟ ! هذا شيء مستحيل بحسب العادة ؛ فيكون معنى قولها: (خشي أن يتخذ مسجدا) ؛ أي : مكانا يصلى فيه ، وإن لم يبن المسجد.

---

[1] البخاري : كتاب المساجد / باب قول النبي صلي الله عليه وسلم : (حعلت لي الأرض مسجدا وطهورا) ، ومسلم : أوائل كتاب المساجد .

[2] مسلم : كتاب الجنائز / باب النهي عن الجلوس على القبر .

ولا ريب أن أصل تحريم بناء المساجد على القبور أن المساجد مكان الصلاة، والناس يأتون إليها للصلاة فيها ، فإذا صلى الناس في المسجد بني على قبر ؛ فكأنهم صلوا عند القبر ، والمحذور الذي يوجد في بناء المساجد على القبور يوجد فيما إذا اتخذ هذا المكان للصلاة ؛ وإن لم يبن مسجد .

فتبين بهذا أن اتخاذ القبور مساجد له معنيان :

الأول : أن تبنى عليها مساجد .

الثاني : أن تتخذ مكانا للصلاة عندها وإن لم يبن المسجد فإذا كان هؤلاء القوم مثلا يذهبون إلى هذا القبر ويصلون عنده ويتخذونه مصلي؛ فإن هذا بمعنى بناء المساجد عليها ، وهو أيضا من اتخاذها مساجد .

قوله : (وكل موضع قصدت الصلاة فيه ؛ فقد اتخذ مسجدا) .

وهذا يشهد له العرف ؛ فإن الناس الذين لهم مساجد في مكان أعمالهم ؛ كالوزارات و الإدارات لو سألت واحدا منهم أين المسجد ؟ لأشار إلى المكان الذي اتخذوه مصلى يصلون فيه ، مع أنه لم يبن ، لكن لما كانت الصلاة تقصد فيه ؛ صار مسجدا.

قوله : (بل كل مكان يصلى .....) ، فقوله : (مسجدا)؛ أي : مكانا

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود (رضي الله عنه) مرفوعاً: إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد) . رواه أبو حاتم في (صحيحه) [1] .

للسجود، وهذا معنى ثالث زائد على المعنيين الأولين، وهو أن يقال: كل شيء تصلي فيه، فإنه مسجد ما دمت تصلي فيه، كما يقال للسجادة التي تصلي عليها مسجد مصلى وإن كان الغالب عليها اسم مصلي.

* الخلاصة :

إنه لا يجوز بناء المساجد على القبور؛ لأنها وسيلة إلى الشرك، وهو عبادة صاحب القبر.

([1] مسند الإمام أحمد (1/435)، وابن خزيمة في (الصحيح) (789) ـ وقال شيخ الإسلام : (إسناد جيد) ـ ، (الاقتضاء)، (2/568).

ولا يجوز أيضاً أن تقصد القبور للصلاة عندها، وهذا من اتخاذها مساجد؛ لأن العلة من اتخاذها مساجد موجودة في الصلاة عنها، فلو فرض أن رجلاً يذهب إلى المقبرة ويصلي عند قبرٍ ولي من الأولياء على زعمه؛ فلنا: إنك اتخذت هذا القبر مسجداً، وإنك مستحق لما استحقه اليهود والنصارى من اللعنة، وفي كلام شيخ الإسلام ابن تيميه دليل على صحة تسمية كل شيء يصلي فيه مسجداً بالمعنى العام.

* * *

قوله: (مرفوعاً)، المرفوع: ما أسند إلى النبي صلى الله عليه وسلم

قوله: (إن من شرار الناس)، من: للتبعيض، وشرار : جمع شر، مثل صحاب جمع صحب، والمعنى: أصحاب الشر، وفي هذا دليل على أن الناس يتفاوتون في الشر ، وأن بعضهم أشد من بعض.

قوله: (من تدركهم الساعة)، من: اسم موصول اسم إن ، والساعة؛ أي: يوم القيامة، وسميت بذلك لأنها داهية، وكل شيء داهية عظيمة يسمى ساعة، كما يقال: هذه ساعتك في الأمور الداهية التي تصيب الإنسان.

قوله: (وهم أحياء)، الجملة حال من الهاء في (تدركهم).

وفي قولهم: (تدركهم الساعة وهم أحياء) إشكال، وهو أنه ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله) [1] ، وفي رواية: (حتى تقوم الساعة) [2] ؛ فكيف نوفق بين الحديثين؛ لأن ظاهر الحديث الذي ساقه المؤلف إن كل من تدركهم الساعة وهم أحياء؛ فهم من شرار الخلق ؟ !

---

[1] البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/باب (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق)، ومسلم: كتاب الإمارة/باب قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي).

[2] مسلم : كتاب الإمارة/باب قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي).

والجمع بينهما أن يقال: إن المراد بقوله؛ (حتى تقوم الساعة)؛ أي: إلى قرب قيام الساعة، وليس إلى قيامها بالفعل؛ لأنها لا تقوم إلا على شرار الخلق؛ فالله يرسل ريحاً تقبض نفس كل مؤمن ولا يبقى إلا شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة.

قوله: (الذين يتخذون القبور مساجد)، فهم من شرار الخلق، وإن لم

يشركوا؛ لأنهم فعلوا وسيلة من وسائل الشرك، والوسائل لها أحكام المقاصد، لكنها تعطى حكمها بالمعنى العام، فإن كانت وسيلة لواجب صارت واجبة، وإن كانت وسيلة لمحرم؛ فهي محرمة.

فشر الناس في هذا الحديث ينقسمون إلى صنفين:

الأول: الذين تدركهم الساعة وهم أحياء.

الثاني: الذين يتخذون القبور مساجد.

وفي قوله صلى الله عليه وسلم : (إن من شرار الناس) دليل على أن الناس يتفاوتون في الشر؛ لأن بعضهم أشد من بعض فيه، كما أنهم يتفاوتون في الخير أيضاً؛ لقوله تعالى: (هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) (آل عمران:163)، وذلك من حيث الكمية، فمن صلى ركعتين؛ فليس كمن صلى أربعاً.

ومن حيث الكيفية، فمن صلى وهو قانت خاشع حاضر القلب؛ ليس كمن صلى وهو غافل.

ومن حيث النوعية، فالفرض أفضل من النفل، وجنس الصلاة أفضل من جنس الصدقة؛ لأن الصلاة أفضل الأعمال البدنية.

وهذا الذي تدل عليه الأدلة مذهب أهل السنة والجماعة، وهو التفاضل في

الأعمال، حتى في الإيمان الذي هو في القلب يتفاضل الناس فيه، بل إن الإنسان يحس في نفسه أنه في بعض الأحيان يجد في

قلبه من الإيمان ما لا يجـده في بعض الأحيـان؛ فكيـف بين شـخص وشخص ؟ فهو يتفاضل أكثر.

- وخلاصة الباب:

أنه يجب البعد عن الشرك ووسائله ، ويغلظ على من عبد اللــه عند قبر رجل صالح.

* فيه مسائل :

الأولى: ما ذكر الرسول فيمن بنى مسجداً يعبـد اللـه فيـه عنـد قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

وكلام المؤلف رحمه اللـه في قولـه: (فيمن عبـد اللـه) يشـمل الصلاة وغيرها والأحاديث التي ساقها في الصلاة، لكنـه رحمـه اللـه كأنه قاس غيرها عليها، فمن زعم أن الصدقة عند هذا القبر أفضــل من غيره؛ فهو شبيه بمن اتخذه مسجداً لأنه يرى أن لهذه البقعة أو لمن فيها شاناً يفضل به على غيره؛ فالشيخ عمم، والدليل خاص.

فإن قيل: لا يستدل بالدليل الخاص على العام؟

أجيب: إن الشيخ أراد بـذلك أن العلـة هي تعظيم هـذا المكـان؛ لكونـه قـبراً، وهـذا كمـا يوجـد في الصـلاة يوجـد في غيرهـا من العبادات؛ فيكون التعميم من باب القياس لا من باب شــمول النص له لفظاً.

* * *

فيه مسائل:

* الأول: مـا ذكـر الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم فيمن بـنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صـحت نيـة الفاعـل، تؤخـذ من لعن النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم الـذين اتخـذوا قبـور أنبيائهم مساجد.

قوله: (ولـو صـحت نيـة الفاعـل)؛ لأن الحكم علـق على مجـرد صورته؛ فهذا العمل لا يحتاج إلى نية لأنه معلق بمجرد الفعل.

فالنية تؤثر في الأعمال الصالحة وتصحيحها، وتؤثر في الأعمـال التي لا

الثانية: النهي عن التماثيل وغلظ الأمر في ذلك. الثالثة: العبرة في مبالغته صلى الله عليه وسلم في ذلك؛ فكيف بين لهم هذا أولاً ، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

يقدر عليها فيعطي أجرها، وما أشبه ذلك، بخلاف ما علق على فعل مجرد؛ فلا حاجة فيه إلى النية.

أي: ولو كان يعبد الله، ولو كان يريد التقرب إلى الله ببناء هذا المسجد اعتباراً بما يؤول إليه الأمر، وبالنتيجة السيئة التي تترتب على ذلك، وهذه النقطة نتدرج منها إلى نقطة أخرى، وهي التحذير من مشابهة المشركين وإن لم يقصد الإنسان المشابهة، وهذه قد تخفى على بعض الناس، حيث يظن أن التشبه إنما يحرم إذا قصدت المشابهة، والشرع إنما علق الحكم بالتشبه؛ أي: بأن يفعل ما يشبه فعلهم، سواء قصد أو لم يقصد، ولهذا قال العلماء في مسألة التشبه: وإن لم ينو ذلك؛ فإن التشبه يحصل بمطلق الصورة.

فإن قيل: قاعدة (إنما الأعمال بالنيات) هل تعارض ما ذكرنا؟

الجواب: لا تعارضه؛ لأن ما علق بالعمل ثبت له حكمة وإن لم ينو الفعل؛ كالأشياء المحرمة؛ كالظهار، والزنا، وما أشبهها.

- الثانية: النهي عن التماثيل وغلظ الأمر في ذلك، تؤخذ من قوله: (وصوروا فيه تلك الصور)، ولا سيما إذا كانت هذه الصور معظمة عادة؛ كالرؤساء، والزعماء، والأب، والأخ، والعم.

* الثالثة: العبرة في مبالغته صلى الله عليه وسلم في ذلك، كيف بين لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال ؟ ! ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

وهذا مما يدل على حرص النبي صلى الله عليه وسلم على حماية جانب التوحيد؛ لأنه خلاصة دعوة الرسل، ولأن التوحيد أعظم الطاعات؛ فالمعاصي ولو كبرت أهون من الشرك، حتى قال ابن

مسعود: (لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً) [1] ؛ لأن الحلف بغيره نوع من الشرك، والحلف بالله كاذباً معصية، وهي أهون من الشرك.

فالشرك أمره عظيم جداً، ونحن نحذر إخواننا المسلمين مما هم عليه الآن من الانكباب العظيم على الدنيا حتى غفلوا عما خلقوا له، واشتغلوا بما خلق لهم؛ فعامة الناس الآن تجدهم مشتغلين بالدنيا، وليس في أفكارهم إلا الدنيا قائمين وقاعدين ونائمين ومستيقظين، وهذا في الحقيقة نوع من الشرك؛ لأنه يوجب الغفلة عن الله ـ عز وجل ـ ، ولهذا سمى النبي صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك عبداً لما تعبد له، فقال: (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة) [2] ، ولو أقبل العبد على الله بقلبه وجوارحه لحصل ما قدر له من الدنيا؛ فالدنيا وسيلة وليست غاية، وتعس من جعلها غاية، كيف تجعلها غاية وأنت لا تدري مقامك فيها ؟ ! وكيف تجعلها غاية وسرورها مصحوب بالأحزان؛ كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساء ويوم نُسر

فالحاصل : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث لتحقيق عبادة الله، ولهذا كان حريصاً على سد كل الأبواب التي تؤدي إلى الشرك؛ فالرسول صلى الله

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر. الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم. السادسة: لعنه إياهم على ذلك. السابعة: أن مراده صلى الله عليه وسلم تحذيره إيانا عن قبره.

عليه وسلم حذر من اتخاذ القبور مساجد ثلاث مرات:

الأولى: في سائر حياته.

والثانية: قبل موته بخمس.

والثالثة: وهو في السياق.

---

[1] تقدم (ص 199) .

[2] تقدم (ص 23) .

- الرابعة: نهيه عن فعله عند قـبره أن يوجـد القـبر، تؤخذ من قوله: (ألا فلا تتخذوا القبور مساجد) ؛ فإن قبره داخل في ذلك بلا شك، بل أول ما يدخل فيه.
- الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبـور أنبيـائهم، تؤخـذ من قولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (اتخـذوا قبـور أنبيـائهم مسـاجد)، وبئس رجلاً جعـل إمامــه اليهــود والنصــارى وتشــبه بهم في قــبيح أعمالهم.
- السادسـة: لعنـه إيـاهم على ذلـك، تؤخـذ من قوله: (لعنه الله على اليهود والنصارى).
- السابعة: أن مراده تحذيره إيانـا عن قـبره، تؤخـذ من قول عائشة: (يحـذر مـا صـنعوا)؛ أي: مـا صـنعه اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

الثامنة: العلة في عدم إبرار قبره. التاسعة: في معـنى اتخاذهـا مسجداً. العاشرة: أنه قرن بين من اتخذها مسـجداً وبين من تقـوم عليهم الساعة، فذكر الذرية إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

---

* الثامنة: العلة في عدم إبـراز قـبره، تؤخـذ من قـول عائشـة: (ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً).

هناك علة أخـرى،وهي:إخبـاره بأنـه مـا من نـبي يمـوت إلا دفن حيث يمـوت[1]، ولا يمتنـع أن يكـون للحكم علتـان، كمـا لا يمتنـع أن يكون للعلة حكمان.

* التاسعة: في معنى اتخاذهـا مسـجداً، سـبق أن ذكرنـا أن لهـا معنيين:

1 ـ بناء المساجد عليها.

2 ـ اتخاذها مكاناً للصلاة تقصد فيصلى عندها، بل إن من صـلى عندها ولم يتخذها للصلاة؛ فقد اتخذها مسجداً بالمعنى العام.

---

[1] تقدم (ص 392)

* العاشـرة: أنـه قـرن بين من اتخـذها مسـجداً وبين من تقـوم عليه الساعة؛ فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

ومعنى هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكـر التحـذير من الشرك قبل أن يموت.

وقولـه: (مـع خاتمتـه)، وهي أن من تقـوم عليهم شـرار الخلـق والذين تقوم عليهم الساعة وهم أحياء هؤلاء الكفار، والذين يتخذون القبور مساجد هؤلاء فعلوا أسباب الشرك والكفر.

الحادية عشرة: ذكره في خطبتـه قبـل موتـه بخمس الـرد على الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع، بل أخـرجهم بعض أهـل العلم من الثنـتين والسـبعين فرقـة، وهم الرافضـة والجهميـة، وبسـبب الرافضـة حـدث الشـرك وعبـادة القبـور، وهم أول من بـنى عليهـا المساجد.

- الحاديـة عشـرة: ذكـر في خطبتـه قبـل موتـه بخمس الرد على الطـائفتين اللـتين همـا أشـر أهـل البدع

قولـه: (قبـل أن يمـوت بخمس) ، أي: خمس ليـال، والعـرب يعبرون عن الأيام بالليالي وبالعكس.

قولـه: (أشـر أهـل البـدع) ، يقـال: أشـر، ويقـال: شـر؛ بحـذف الهمزة، وهو الأكثر استعمالاً.

وإنمـا تكلم المؤلـف رحمـه اللـه عن حـال الرافضـة والجهميـة وحكمهما قبل ذكر اسـمهما من أجـل تهـييج النفس على معرفتهمـا والاطلاع عليهما؛ لأن الإنسان إذا ذكر له الحكم والوصف قبـل ذكـر الموصوف والمحكوم عليه؛ صارت نفسه تتطلع وتتشـوق إلى هـذا، فلو قـال من أول الكلام: الـرد على الرافضـة والجهميـة؛ فلا يكـون للإنسان التشوق مثل ما لو تكلم عن حالهما وحكمهما أولاً.

وحالهما: أنها أشر أهل البدع.

وحكمهم: أن بعض أهـل العلم أخـرجهم من الثنـتين والسـبعين فرقة.

والرافضة: اسم فاعل من رفض الشـيء إذا اسـتبعده، وسـموا بذلك لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طـالب حين سألوه: ما تقول في

أبي بكـر وعمـر ؟ فـأثنى عليهمـا ، وقـال: همـا وزيـرا جـدي. فرفضـوه وتركـوه، وكـانوا في السـابق معـه، لكن لمـا قـال الحـق المخالف لأهوائهم، نفروا منه والعياذ بالله، فسموا رافضة.

وأصل مذهبهم من عبدالله بن سبأ، وهو يهودي تلبس بالإسلام، فـأظهر التشـيع لآل الـبيت والغلـو فيهم ليشـغل النـاس عن دين الإسـلام ويفسـده كمـا أفسـد بـولص دين النصـارى عنـدما تلبس بالنصرانية.

وأول مـا أظهـر ابن سـبأ بدعتـه في عهـد علي بن أبي طـالب، حتى إنه جاءه وقال: أنت اللـه حقـاً ـ والعيـاذ باللـه ـ . فـأمر علي بالأخـدود فحفـرت، وأمـر بـالحطب فجمـع، وبالنـار فأوقـدت، ثم أحرقهم بها؛ إلا أنه يقال: إن عبدالله بن سبأ هرب وذهب إلى مصر ونشر بدعته؛ فالله أعلم.

فالمهم أن علياً رضي الله عنه رأى أمراً لم يحتمله، حيث ادعوا فيه الألوهية فأحرقهم بالنار إحراقاً، ثم بـدأت هـذه الفرقـة الخبيثـة تتكاثر؛ لأن شعارها في الحقيقة النفاق الذي يسمونه التقيـة، ولهـذا كـانت هـذه الفرقـة أخطـر مـا يكـون على الإسـلام؛ لأنهـا تتظـاهر بالإسلام والدعوة إليه، وتقيم شعائره الظاهرة؛ كتحريم الخمور وما أشبه ذلك، لكنها تناقضه في البـاطن؛ فهم يـرون أئمتهم آلهـة تـدير الكون، وأنهم أفضل من الأنبياء والملائكة والأولياء، وأنهم في مرتبة لا ينالها ملك مقرب ولا نـبي مرسـل، وهـؤلاء كيـف يصـح أن تقبـل منهم دعوى الإسـلام، ولـذلك يقـول عنهم شـيخ الإسـلام ابن تيميـه رحمه الله في كثـير من كتبـه قـولاً إذا اطلـع عليـه الإنسـان عـرف حـالهم: (إنهم أشـد النـاس ضـرراً على الإسـلام، وأنهم هجـروا المساجد وعمروا المشاهد)؛ فهم يقولون: لا نصلي جماعة إلا خلف

إمـام معصـوم ولا معصـوم الآن، وهم أول من بـنى المشـاهد على القبور كما قال

الشيخ هنا، ورموا أفضل أتباع الرسول على الإطلاق ـ وهما أبو بكـر وعمر ـ بالنفاق، وإنهما ماتا على ذلـك؛ كعبدالـلـه بن أبي بن سـلول والعياذ بالله؛ فانظر بمـاذا تحكم على هـؤلاء بعـد معرفـة معتقـدهم ومنهجهم ؟ !

وأما الجهمية؛ فهم أتباع الجهم بن صفوان، وأول بدعته أنه أنكر صفات الله، وقال: إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسـى تكليماً؛ فأنك المحبة والكلام ، ثم بدأت هذه البدعـة تنتشـر وتتسـع، فاتقنها طوائـف غـير الجهميـة؛ كالمعتزلـة ومتـأخري الرافضـة؛ لأن الرافضة كانوا بالأول مشبهة، ولهذا قال أهل العلم: أول من عــرف بالتشـبيه هشـام بن الحكم الرافضـي، ثم تحولـوا من التشـبيه إلى التعطيل، وصاروا ينكرون الصفات.

والجهم بن صفوان أخذ بدعته عن الجعد بن درهم، والجعد أخـذ بدعته عن أبان بن سمعان، وأبان أخـذها عن طـالوت الـذي أخـذها عن لبيد بن الأعصـم اليهـودي الـذي سـحر النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم؛ فتكـون بدعـة التعطيـل أصـلها من اليهـود، ثم إن الجهم بن صـفوان نشـأ في بلاد خرسـان، وفيهـا كثـير من الصـائبة وعبـاد الكواكب والفلاسفة، فأخذ منهم أيضاً ما أخذ، فصارت هـذه البدعـة مركبة من اليهودية والصابئة والمشركين.

وانتشـرت هـذه البدعـة في الأمـة الإسـلامية، وهـؤلاء الجهميـة معطلة في الصفات ينكرون الصفات، ومنهم من أنكر الأسـماء مـع الصفات، وهذه الأسماء التي يضـيفها اللـه ــ سـبحانه ــ إلى نفسـه جعلوها إضافات وليسـت حقيقـة، أو أنهـا أسـماء لبعض مخلوقاتـه؛ فالسميع عندهم بمعنى من خلق السمع في غـيره والبصـير كـذلك، وهكذا .

ومنهم من أنكر أن يكون الله متصفاً بالإثبات أو العدم ، فقالوا: لا يجوز

أن نثبت لله صفة أو ننفي عنه صفة؛ حتى قالوا: لا يجوز أن نقول عنه: إنه موجود ولا إنه معدوم؛ لأننا قلنا موجود شبهناه بالموجودات، وإن قلنا بأنه معدوم شبهناه بالمعدومات؛ فنقول: لا موجود ولا معدوم؛ فكابروا المعقول، وكذبوا المنقول، وهذا لا يمكن؛ لأن تقابل الوجود والعدم من تقابل النقيضين اللذين لا يمكن ارتفاعهما ولا اجتماعهما، بل لابد أن يوجد أحدهما، فوصف الله بذلك تشبيه له بالممتنعات على قاعدتهم.

ومذهبهم في القضاء والقدر: الجبر، فيقولون: إن الإنسان مجبر على عمله يعمل بدون اختياره إن صلى؛ فهو مجبر، وإن قتل؛ فهو مجبر، وهكذا؛ فعطلوا بذلك حكمة الله لأنه إذا كان كل عامل مجبراً على عمله لم يكن هناك حكمة في الثواب والعقاب، بل بمجرد المشيئة يعاقب هذا ويثيب هذا، وبذلك عطلوا عن الفاعلين أوصاف المدح والذم، فلا يمكن أن تمدح إنساناً أو تذمه؛ لأن العاصي مجبر والمطيع مجبر.

ويقال لهم: إنكم إذا قلتم ذلك أثبتم أن الله أظلم الظالمين؛ لأنه كيف يعاقب العاصي وهو مجبر على المعصية ؟ ويثيب الطائع وهو مجبر على طاعته ؟ فيكون أعطى من لا يستحق؛ وعاقب من لا يستحق، وهذا ظلم.

فقالوا: هذا ليس بظلم؛ لأن الظلم تصرف المالك في غير ملكه، وهذا تصرف من المالك في ملكه يفعل به ما يشاء.

وأجيب: بأنه باطل؛ لأنه المالك إذا كان متصفاً بصفات الكمال لن يخلف وعده، وقد قال الله تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً) (طه:112) ، فلو أخلف هذا الوعد؛ لكان نقصاً في حقه وظلماً لخلقه، حيث وعدهم فأخلفهم.

ومذهبهم في أسماء الإيمان والدين الإرجاء، فيقولون: إن الإيمان مجرد اعتراف الإنسان بالخالق على الوصف المعطل عن الصفات حسب طريقتهم، وأن الأقوال والأعمال لا مدخل لها في الإيمان، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

ومن هذه الأمور الثلاثة قـالوا: إن أفسـق وأعـدل عبـاد اللـه في الإيمان سواء، بل قالوا إن فرعـون مـؤمن كامـل الإيمـان، وجبريـل مؤمن كامل الإيمان، لكن فرعون كفر؛ لأنـه ادعى الربوبيـه لنفسـه فقط، فصار بذلك كافراً.

قال ابن القيم عنهم:

والناس في الإيمان شيء واحد كالمشط عند تماثل الأسنان

فمذهبهم من أخبث المذاهب إن لم نقـل أخبثهـا، لكن أخبث من مذهب الرافضة، حتى قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمـه اللـه: (إن جميـع البـدع أصـلها من الرافضـة)؛ فهم أصـل البليـة في الإسـلام، ولهذا قال المؤلف: (أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة)، ولعل الصواب من الثلاث والسـبعين فرقـة، أو أن الصـواب أخرجهم إلى الثنتين والسبعين؛ أي: أخـرجهم من الثالثـة الـتي كـان عليها الرسول صلى الله عليـه وسـلم وأصـحابه؛ لأن المعـروف أن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي من كـانت على مـا كـان عليـه النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم وأصحابه.

وصـدق رحمـه اللـه في قولـه عن هـاتين الطـائفتين الرافضـة والجهمية: (شر أهل البدع).

وقد قتل الجهم بن صفوان سلمة بن أحوز شرطة نصـر بن سـبأ لأن اظهر هذا المذهب ونشره.

وقول المؤلف: (وبسبب الرافضة حديث الشك، وعبـادة القبـور، وهم أول من

الثانية عشرة: ما بلي به صلى الله عليه وسلم من شدة النزع.

الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلة.

بـنى عليهـا المسـاجد)، ولهـذا يجب الحـذر من بـدعتهم وبدعـة الجهمية وغيرها، ولا شك أن البدع دركات بعضـها أسـفل من بعض؛ فعلى المرء الحذر من البدع، وأن يكون متبعاً لمنهج السلف الصالح في هذا الباب وفي غيره.

* الثانية عشـرة: مـا بُلي بـه صـلى اللـه عليـه وسـلم من شـدة النزع، تؤخذ من قولها: (طفق يطرح خميصـة لـه على وجهـه، فـإذا

اغتم بهـا كشـفها)، وفي هـذا دليـل على شـدة نزعـه، وهكـذا كـان الرسول صلى الله عليه وسلم يمرض ويوعك كما يوعك الرجلان [1] من الناس، وهذا من حكمة الله ـ عز وجل ـ ؛ فهو صلى اللـه عليـه وسـلم شـدد عليـه البلاء في مقابلـة دعوتـه وأوذي إيـذاءً عظيمـاً ، وكذلك أيضاً فيما يصيبه من الأمراض يضـاعف عليـه، والحكمـة من ذلـك لأجـل أن ينـال أعلى درجـات الصـبر؛ لأن الإنسـان إذا ابتلي بالشر وصبر كان ذلك أرفع لدرجته.

والصـبر درجـة عاليـة لا تنـال إلا بوجـود أسـبابها، ومنهـا الابتلاء؛ فيصبر ويحتسب حتى ينال درجة الصابرين.

* الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلة، ويدل عليهـا قولـه صـلى الله عليه وسلم: (إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبـراهيم خليلاً)، ولا شك أن هذه الكرامة عظيمة؛ لأننا لا نعلم أحداً نال هذه المرتبـة إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإبراهيم صلى الله عليه وسلم .

الرابعة عشر: التصريح بأنها أعلى من المحبة. الخامسة عشـرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة.

---

* الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة، ودليل ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان يحب أبـا بكـر، وكـان أحب النـاس إليـه؛ فأثبت له المحبة، ونفى عنـه الخلـة؛ فـدل هـذا على أنهـا أعلى من المحبـة، ، والتصـريح ليس من هـذا الحـديث فقـط، بـل بضـمه إلى غيره؛ فقد ورد من حديث آخر أنه صرح: (بأن أبا بكـر أحب الرجـال إليه) [1] ، ثم قال هنا : (لو كنت متخذاً من أمـتي خليلاً؛ لاتخـذت أبـا بكر خليلاً) فدل على أن الخلة أعلى من المحبة.

* الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة، تؤخـذ من قوله صلى الله عليه وسلم : (ولو كنت متخـذاً من أمـتي خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً)، فلو كان غيره أفضـل منـه عنـد النـبي صـلى الله عليه وسلم ؛ لكان أحق بذلك.

ومن المسائل الهامة أيضاً:

---

[1] البخاري : كتاب المرضى/باب أشد بلاء الأنبياء، ومسلم: كتاب البر والصـلة/بـاب ثـواب المـؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن.

[1] البخاري : كتاب الفضائل/ باب فضائل أبي بكر، ومسلم : كتاب الفضائل / باب باب فضائل أبي بكر .

أن الأفضلية في الإيمان والعمل الصالح فوق الأفضلية بالنسـب؛ لأننـا لـو راعينـا الأفضـلية بالنسـب؛ لكـان حمـزة بن عبـدالمطلب والعباس رضي الله عنهما أحق من أبي بكر في ذلك ، ومن ثم قدم أبو بكر رضي الله عنه على علي بن أبي طالب وغيره من آل النبي صلى الله عليه وسلم.

السادسة عشرة : الإشارة إلى خلافته.

---

* السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته، لم يقل التصريح، وإنمـا قال: الإشارة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل: إن أبـا بكـر هو الخليفة من بعده، لكن لما قال: (لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً) علم أنه رضي الله عنـه أولى النـاس برسـول الله صلى الله عليه وسلم؛ فيكون أحق الناس بخلافته.

* * *

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين
يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

هذا الباب له صلة بما قبلـه، وهـو أن الغلـو في قبـور الصـالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله.

أي: يؤول الأمر بالغالين إلى أن يعبدوا هذه القبور أو أصحابها.

والغلو: مجاوزة الحد مدحاً أو ذماً ، والمراد هنا مدحاً.

والقبور لها حق علينا من وجهين:

1- أن لا نفرط فيما يجب ليها من الاحترام؛ فلا تجوز إهانتهـا ولا الجلوس عليها، وما أشبه ذلك.

2- أن لا نغلو فيها فنتجاوز الحد.

وفي (صـحيح مسـلم) قـال علي بن أبي طـالب لأبي الهيـاج الأسدي: (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم ؟ أن لا تدع تمثـالاً إلا طمسـته، ولا قـبراً مشـرفاً إلا سـويته)[1] ، وفي رواية : (ولا صورة إلا طمستها).

والقبر المشرف : هو الـذي يتمـيز عن سـائر القبـور؛ فلا بـد أن يسوى ليساويها لئلا يظن أن لصاحب هذا القبر خصوصـية ولـو بعـد زمن : إذ هو وسيلة إلى الغلو فيه .

قوله : (الصالحين)، يشمل الأنبياء والأولياء ، بل ومن دونهم.

روى مالك في (الموطأ)؛ أن رسول الله صلى الله عليـه وسـلم قال: (اللهم لا تجعل قبري وثنـاً يعبـد، اشـتد غضـب اللـه على قـوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[1].

---

[1] مسلم : كتاب الجنائز/ باب الأمر بتسوية القبر.

[1] تقدم (ص 105) .

قوله: (أوثاناً)، جمع وثن، وهو كل ما نصب للعبادة، وقد يقال له: صنم، والصنم: تمثال ممثل؛ فيكون الوثن أعم.

ولكن ظاهر كلام المؤلف أن كل ما يعبد من دون الله يسمى وثناً، وإن لم يكن على تمثال نصب؛ لأن القبور قد لا يكون لها تمثال ينصب على القبر فيعبد.

قوله: (تعبد من دون الله)، أي: من غيره، وهو شامل لما إذا عبدت وحدها أو عبدت مع الله؛ لأن الواجب في عبادة الله إفراده فيها، فإذا قرن بها غيره صارت عبادة لغير الله، وقد ثبت في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيره تركته وشريكه)[2].

*   *   *

قوله: (في (الموطأ)) ، كتاب مشهور من أصح الكتب؛ لأنه رحمه الله تحرى فيه صحة السند ، وسنده أعلى من سند البخاري لقربه من الرسول صلى الله عليه وسلم وكلما كان السند أعلى كان إلى الصحة أقرب، وفيه مع الأحاديث آثار عن الصحابة، وفيه أيضاً كلام وبحث للإمام مالك نفسه.

وقد شرحه كثير من أهل العلم، ومن أوسع شروحه وأحسنها في الرواية والدراية: (التمهيد) لابن عبدالبر، وهذا ـ أعني (التمهيد) ـ فيه علم كثير.

قوله: (اللهم)، أصلها: يا الله ! فحذفت يا النداء لأجل البداءة باسم الله، وعوض عنها الميم الدالة على الجمع؛ فكأن الداعي جمع قلبه على الله، وكانت الميم في الآخر لأجل البداءة باسم الله.

قوله: (لا تجعل قبري وثناً يعبد)، لا: للدعاء؛ لأنها طلب من الله، وتجعل: تصير، والمفعول الأول لها : (قبري)، والثاني: (وثناً).

---

(2) تقدم (ص 37).

وقوله: (يعبد)، صفة لوثن، وهي صـفة كاشـفة؛ لأنـه الـوثن هـو الذي يعبد من دون الله.

وإنما سأل النبي صلى الله عليه وسلم ذلـك لأن من كـان قبلنـا جعلوا قبور أنبيائهم مساجد وعبـدوا صـالحيهم، فسـأل النـبي صـلى الله عليه وسلم ربه أن لا يجعـل قـبره وثنـاً يعبـد؛ لأن دعوتـه كلهـا بالتوحيد ومحاربة الشرك.

قوله: (اشتد)، أي: عظم.

قوله: (غضب الله)، صفة حقيقية ثابتة لله ـ عز وجل ـ لا تماثـل غضب المخلـوق لا في الحقيقـة ولا في الأثـر. وقـال أهـل التأويـل: غضب الله هو الانتقام ممن عصـاه، وبعضـهم يقـول: إرادة الانتقـام ممن عصاه.

وهذا تحريـف للكلام عن مواضـعه؛ لأن النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم لم يقل: انتقم الله، وإنما قال: اشتد غضب اللـه، وهـو صـلى الله عليه وسلم يعرف كيف يعـبر، ويعـرف الفـرق بين غضـب اللـه وبين الانتقام، وهو أنصـح الخلـف وأعلم الخلـق بربـه، فلا يمكن أن يأتي بكلام وهو يريد خلافه؛ لأنه لو أتى بذلك لكان ملبساً ، وحاشـاه أن يكون كذلك؛

فالغضب غير الانتقام وغـير إرادة الانتقـام؛ فالغضـب صـفة حقيقيـة ثابتة لله تليق بجلاله لا تماثـل غضـب المخلـوق، لا في الحقيقـة ولا في الأثر.

وهناك فروق بين غضب المخلوق وغضب الخالق، منها:

1 – غضـب المخلـوق حقيقـة هـو : غليـان دم القلب، وجمـرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم حـتى يفـور، أمـا غضـب الخـالق؛ فإنه صفة لا تماثل هذا، قال تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)(الشورى: من الآية11) .

2 – أن غضـب الآدمي يـؤثر آثـاراً غـير محمـودة؛ فـالآدمي إذا غضب قد يحصل منه مـا لا يحمـد، فيقتـل المغضـوب عليـه، وربمـا يطلق زوجته، أو يكسر الإناء، ونحو ذلك، أما غضب الله؛ فلا يـترتب عليه إلا آثار حميدة لأنـه حكيم؛ فلا يمكن أن يـترتب على غضـبه إلا تمام الفعل المناسب الواقع في محله.

فغضب الله ليس كغضب المخلوقين، لا في الحقيقة ولا في الآثار، وإذا قلنا ذلك؛ فلا نكون وصفنا الله بما يماثل صفات المخلوقين، بل وصفناه بصفة تدل على القوة وتمام السلطان؛ لأن الغضب يدل على قدرة الغاضب على الانتقام وتمام سلطانه؛ فهو بالنسبة للخالق صفة كمال، وبالنسبة للمخلوق صفة نقص.

ويدل على بطلان تأويل الغضب بالانتقام قوله تعالى: (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ)(الزخرف: من الآية55).

فإن معنى (آسفونا): أغضبونا؛ فجعل الانتقام غير الغضب، بل أثراً مترتباً عليه؛ فدل هذا على بطلان تفسير الغضب بالانتقام.

واعلم أن كل من حرف نصوص الصفات عن حقيقتها وعما أراد الله بها ورسوله؛ فلا بد أن يقع في زلة ومهلكة؛ فالواجب علينا أن نسلم لما جاء به

ولابن جرير بسنده، عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى) (لنجم:19) .

الكتاب والسنة من صفات الله تعالى على ما ورد إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل.

قوله: (اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، أي: جعلوها مساجد؛ إما بالبناء عليها، أو بالصلاة عندها؛ فالصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد، والبناء عليها من اتخاذها مساجد.

وهنا نسأل: هل استجاب الله دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم بأن لا يجعل قبره وثناً يعبد، أم اقتضت حكمته غير ذلك ؟

الجواب: يقول ابن القيم: إن الله استجاب له؛ فلم يذكر أن قبره صلى الله عليه وسلم جعل وثناً، بل إنه حمي بثلاثة جدران؛ فلا أحد يصل إليه حتى يجعله وثناً يعبد من دون الله، ولم يسمع في التاريخ أنه جعل وثناً.

قال ابن القيم في (النونية):

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران

صحيح أنه يوجد أناس يغلون فيه، ولكن لم يصلوا إلى جعل قبره وثناً، ولكن قد يعبدون الرسول صلى الله عليه وسلم ولو في مكان بعيد، فإن وجد من يتوجه له صلى الله عليه وسلم بدعائه عند قبره؛ فيكون قد اتخذه وثناً، لكن القبر نفسه لم يجعل وثناً.

*   *   *

قولـه: (ولابن جريـر)، هـو محمـد بن جريـر بن يزيـد الطـبري، الإمام المشهور في التفسير، توفى سنة 310هـ

وتفسيره: هو أصـل التفسـير بـالأثر ومرجـع لجميـع المفسـرين بالأثر ، ولا

يخلو من بعض الآثار الضعيفة، وكأنه يريد أن يجمع مـا روي عن السلف من الآثـار في تفسـير القـرآن، ويـدع للقـارئ الحكم عليهـا بالصحة أو الضعف بحسب تتبع رجال السند، وهي طريقة جيدة من وجه، وليست جيدة من وجه آخر.

فجيدة من جهة أنها تجمـع الآثـار الـواردة حـتى لا تضـيع، وربمـا تكون طرقها ضعيفة ويشهد بعضها لبعض.

وليسـت جيـدة من جهـة أن القاصـر بـالعلم ربمـا يخلـط الغث بالسمين ويأخذ بهـذا وهـذا، لكن من عـرف طريقـة السـند، وراجـع رجال السند، ونظر إلى أحوالهم وكلام العلماء فيهم؛ علم ذلك.

وقد أضاف إلى تفسيره بـالأثر: التفسـير بـالنظر، ولا سـيما مـا يعـود إلى اللغـة العربيـة، ولهـذا دائمـاً يـرجح الـرأي ويسـتدل لـه بالشواهد الواردة في القرآن وعن العرب.

ومن الناحية الفقهية؛ فالطبري مجتهد، لكنه سلك طريقة خالف غيره فيها بالنسبة للإجماع؛ فلا يعتبر خلاف الرجل والرجلين، وينقل الإجماع ولو خالف في ذلـك رجـل أو رجلان، وهـذه الطريقـة تؤخـذ عليه؛ لأن الإجماع لا بد أن يكون من جميع أهل العلم المعتبرين في الإجماع، وقد يكون الحق مع هذا الواحد المخالف.

والعجيب أني رأيت بعض المتـــأخرين يحـــذرون الطلبـــة من تفسيره؛ لأنه مملوء على زعمهم بالإسرائيليات، ويقولون: عليكم بـ (تفسير الكشاف) للزمخشري ومـا أشـبه ذلـك، وهـؤلاء مخطئـون؛ لأنهم لجهلهم بفضـــل التفســـير بالآثـــار عن الســـلف واعـــتزازهم بأنفسهم وإعجابهم بآرائهم صاروا يقولون هذا.

قوله: (عن سفيان) ، إمـا سـفيان الثـوري، أو ابن عيينـة، وهـذا مبهم،

قال: (كان يلت لهم السويقي، فمات، فعكفوا على قبره) .

والمبهم يمكن معرفته شيوخه وتلاميذه، وفي الشرح ــ أعني (تيسير العزيز الحميد) يقول: الظاهر أنه الثوري.

قوله: (عن مجاهد)، هو مجاهد بن جبر المكي، إما المفسرين من التابعين، ذكر عنه أنه قال: (عرضت المصحف على عبدالله بن عباس رضي الله عنهما من فاتحته إلى خاتمته؛ فما تجاوزت آية إلى وقفت عندها أسأله عن تفسيرها).

قوله: (أفرأيتم)، الهمزة: للاستفهام ، والمراد به التحقير، والخطاب لعابدي هذه الأصنام اللات والعزى ... إلخ.

لما ذكر الله تعالى قصة المعراج وما حصل فيه من الآيات العظيمة التي قال عنها: (لقد رأى من آيات ربه الكبرى)؛ قال: (أفرأيتم اللات والعزى)؛ أي: ما نسبة هذه الأصنام للآيات الكبيرة التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج.

قوله: (اللات)، (كان يلت لهم . . .) إلخ، على قراءة التشديد: من لت يلت؛ فهو لات.

أما على قراءة التخفيف؛ فوجهها أنها خففت لتسهيل الكلام؛ أي: حذف منها التضعيف تخفيفاً.

وقد سبق أنهم قالوا: إن اللات من الإله.

وأصله: رجل كان يلت السويق للحجاج، فلما مات؛ عظموه، وعكفوا على قبره، ثم جعلوه إلهاً، وجعلوا التسمية الأولى مقترنة بالتسمية الأخيرة؛ فيكون أصله من لت السويق، ثم جعلوه من الإله، وهذا على قراءة التخفيف أظهر من التشديد؛ فالتخفيف يرجح أنه من الإله، والتشديد يرجح أن أصله رجل يلت السويق.

وكذا قال أبو الجوزاء، عن ابن عباس : (كان يلت السويق للحاج) [1].

وغلوا في قبره، وقالوا: هذا الرجل المحسن الذي يلت السويق للحجاج ويطعمهم إياه، ثم بعد ذلك عبدوه؛ فصار الغلو في القبور يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله.

---

[1] البخاري : كتاب التفسير/ باب (أفرأيتم اللات والعزى)

وفي هذا التحذير من الغلو في القبور، ولهذا نهى عن تخصيصها والبناء عليها والكتابة عليها خوفاً من هذا المحظور العظيم الذي يجعلها تعبد من دون الله، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر إذا بعث بعثاً: بأن لا يدعوا قبراً مشرفاً إلا سووه [2] ؛ لعلمه أنه مع طول الزمان سيقال: لولا أن له مزية ما اختلف عن القبور؛ فالذي ينبغي أن تكون القبور مستاوية لا ميزة لواحد منها عن البقية.

قوله: (السويق)، هو عبارة عن الشعير يحمص، ثم يطحن، ثم يخلط بتمر أو شبهه، ثم يؤكل.

وقوله: (كان يلت لهم السويق، فمات، فعكفوا على قبره)، يعني: ثم عبدوه وجعلوه إلهاً مع الله.

قوله: (وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج)، والغربي أن الناس في جاهليتهم يكرمون حجاج بيت الله، ويلتون لهم السويق، وكان العباس يسقي لهم من زمزم، وربما يجعل في زمزم نبيذاً يحليه زبيباً أو نحوه، وفي الوقت الحاضر صار الناس بالعكس يستغلون الحجاج

وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج) رواه أهل السنن [1] .

غاية الاستغلال ـ والعياذ بالله ـ ؛ حتى يبيعوا عليهم ما يساوي ريالاً بريالين وأكثر حسب ما يتيسر لهم، وهذا في الحقيقة خطأ عظيم؛ لأن الله تعالى يقول: (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)(الحج: من الآية25)؛ فكيف بمن يفعل الإلحاد ؟ !

* * *

قوله: (لعن) ، اللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومعنى (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم)؛ أي : دعا عليهم باللعنة.

---

[2] مسلم : كتاب الجنائز/باب الأمر بتسوية القبر.

[1] مسند الإمام أحمد (1/229)، وسنن أبو داود: كتاب الجنائز/باب في زيارة النساء القبور، 4/95، والترمزي: الصلاة/باب كراهة أن يتخذ على القبر مسجداً، 320 – وقال : (حديث حسن) ـ .

قولـه: (زائـرات القبـور)، زائـرات: جمـع زائـرة، والزيـارة هنـا معناها: الخروج إلى المقابر، وهي أنواع:

منها ما هو سنة، وهي زيارة الرجال للاتعاظ والدعاء للموتى

ومنها ما هو بدعة، وهي زيارتهم للدعاء عندهم وقـراءة القـرآن ونحو ذلك.

ومنها ما هو شرك، وهي زيارتهم لدعاء الأموات والاستنجاد بهم والاستغاثة ونحو ذلك.

وزائر: اسم فاعـل يصـدق بـالمرة الواحـدة، وفي حـديث أبي هريرة: (لعن

رسول الله صلى الله عليه وسلم زوارات القبـور) [1] ؛ بتشـديد الواو، وهي صيغة مبالغة تدل على الكثرة أي كثرة الزيارة.

قوله: (والمتخذين عليها المساجد)، هذا الشاهد من حديث ؛ أي : الـذين يضـعون عليهـا المسـاجد ، وقـد سـبق أن اتخـاذ القبـور مساجد ، صورتان :

1- 1- أن يتخذها مصلى يصلى عندها .
2- 2- بناء المساجد عليها .

قوله : (والسرج) جمع سراج ، توقد عليهـا السـرج ليلا ونهـارا تعظيما وغلوا فيها .

وهذا الحديث يدل على تحريم زيـارة النسـاء للقبـور ، على أنـه من كبائر الـذنوب ؛ لأن اللعن لا يكـون إلا على كبـيرة ، ويـدل على تحريم اتخاذ المساجد والسرج عليها ، وهو كبيرة من كبائر الــذنوب للعن فاعلة .

- • المناسبة للباب :

إن اتخاذ المساجد عليها وإسراجها غلو فيها ؛ فيـؤدي بعـد ذلـك إلى عبادتها.

([1] مسند الإمام أحمد (2/337) ، والترمذي: الجنائز/باب ما جاء في كراهة زيارة القبور للنساء، 4/12 ـ وقال: (حسن صحيح) ـ .

مسألة : ما هي الصلة بين الجملة الأولى : (زائرات القبـور) ، والجملة الثانية (المتخذين عليها المساجد والسرج) ؟

الصـلة بينهمـا ظـاهرة : هي أن المـرأة لرقـة عاطفتهـا وقلـة تمييزهـا وضـعف صـبرها ربمـا تعبـد أصـحاب القبـور تعطفـا على صاحب القبر ؛ فلهذا قرنها بالمتخذين عليها المساجد و السرج .

وهـل يـدخل في اتخـاذ السـرج على المقـابر مـا وضـع فيهـا مصابيح كهرباء لإنارتها ؟

الجواب : أما في المواطن التي لا يحتاج الناس إليهـا ، كمـا لـو كانت المقـبرة واسـعة و فيهـا موضـع قـد انتهى النـاس من الـدفن فيه ؛ فلا حاجة إلى إسراجه ، فلا يسـرج ، أمـا الموضـع الـذي يقـبر فيه فيسرج ما حوله ؛ فقد يقال بجـوازه؛ لأنهـا لا تسـرج إلا بالليـل؛ فليس في ذلـك مـا يـدل على تعظيم القـبر ، بـل اتخـذ الإسـراج للحاجة.

ولكن الذي نرى أنه ينبغي المنع مطلقا للأسباب الآتية :

1- 1- أنه ليس هناك ضرورة .
2- 2- أن الناس إذا وجـدوا ضـرورة لـذلك ؛ فعنـدهم سيارات يمكن أن يوقدوا الأنوار التي فيها و يتبين لهم الأمر ، ويمكنهم أن يحملوا سراجا معهم.
3- 3- أنه إذا فتح هذا الباب ؛ فـإن الشـر سيتسـع في قلوب الناس ولا يمكن ضبطه فيما بعـد ، فلـو فرضـنا أنهم جعلوا الإضاءة بعد صـلاة الفجـر ودفنـوا الميت ؛ فمن يتولى قفل هذه الإضاءة ؟

الجواب : قد تترك ، ثم يبقي كأنه متخذ عليها السرج؛ فالذي نرى أنه يمنع نهائيا .

أمـا إذا كـان في المقـبرة حجـرة يوضـع فيهـا اللبن ونحـوه؛ فلا بأس بإضاءتها لأنها بعيـدة عن القبـور، والإضـاءة داخلـة لا تشـاهد ؛ فهذا نرجو أن لا يكون به بأس.

والمهم أن وسـائل الشـرك يجب على الإنسـان أن يبتعـد عنهـا ابتعادا عظيما، ولا يقدر للزمن الذين هو فيه الآن ، بل يقدر للأزمان البعيدة ؛ فالمسألة ليست هينة.

وفي الحديث ما يدل على تحريم زيارة النساء للقبور ، وأنها من كبائر الذنوب ، والعلماء اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال :

القول الأول : تحريم زيارة النساء للقبور ، بل إنها من كبائر الذنوب؛ لهذا الحديث.

القول الثاني : كراهة زيارة النساء للقبور كراهة لا تصل إلى التحريم ، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عن أصحابه ؛ لحديث أم عطية : (نهينا عن اتباع الجنائز ، ولم يعزم علينا)[1] .

القول الثالث : أنها تجوز زيارة النساء للقبور ؛ لحديث المرأة : التي مر النبي صلى الله عليه وسلم بها وهي تبكي عند قبر ، فقال لها : (اتقي الله واصبري). فقالت له: إليك عني؛ فإنك لم تصب بمثل مصيبتي . فانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم عنها ، فقيل لها: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجاءت إليه تعتذر ؛ فلم يقبل عذرها ، وقال:(إنما الصبر عند الصدمة الأولى) [2] ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم شاهدها عند القبر ولم ينهها عن الزيارة ، وإنما أمرها أن تتقي الله وتصبر .

ولما ثبت في(صحيح مسلم)[3] من حديث عائشة الطويل ، وفيه: أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى أهل البقيع في الليل، واستغفر لهم ودعا لهم، وأن جبريل أتاه في الليل وأمره ، فخرج صلى الله عليه وسلم مختفيا عن عائشة، وزار ودعا ورجع، ثم

أخبرها الخبر ؛ فقالت : ما أقول لهم يا رسول الله؟ قال : (قولي : السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين .....) إلخ .

قالوا : فعلمها النبي صلى الله عليه وسلم دعاء زيارة القبور ، وتعليمه هذا دليل على جواز .

---

[1] البخاري : كتاب الجنائز / باب اتباع النساء للجنائز ، ومسلم : كتاب الجنائز / باب نهي النساء عن اتباع الجنائز.

[2] البخاري : كتاب الجنائز / باب زيارة القبور ، ومسلم : كتاب الجنائز / باب في الصبر على المعصية عند الصدمة الأولى .

[3] مسلم : كتاب الجنائز / باب ما يقال عند دخول ا لقبر .... .

ورأيت قولا رابعا : أن زيارة النساء للقبور سنة كالرجال؛ لقوله صلى الله عليه وسلم:(كنت نهيتكم عن زيارة القبور ؛ فزوروها؛ فإنها تذكركم الآخرة)[1] ، وهذا عام للرجال و النساء .

ولأن عائشة رضي الله عنها زارت قبر أخيها ، فقال لها عبد الله بن أبي مليكة : أليس النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن زيارة القبور؟ قالت : إنه أمر بها بعد ذلك[2] .

وهذا دليل على أنه منسوخ .

والصحيح القول الأول ، ويجاب عن أدلة الأقوال الأخرى : بأن الصريح منها غير صحيح ، والصحيح غير صريح ؛ فمن ذلك:

أولا : دعوى النسخ غير صحيحة ؛ لأنها لا تقبل إلا بشرطين :

1- 1- تعذر الجمع بين النصين ، والجمع هنا سهل و ليس بمعتذر لأنه يمكن أن يقال : إن الخطاب في قوله : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور ؛ فزوروها) للرجال ، والعلماء اختلفوا فيما إذا خوطب الرجال بحكم:هل يدخل فيه

النساء أو لا ؟ وإذا قلنا بالدخول ـ وهو الصحيح ـ ؛ فإن دخولهن في هذا الخطاب من باب دخول أفراد العام بحكم يخالف العام ، وهنا نقول : قد خص النبي صلى الله عليه وسلم النساء من هذا الحكم ، فأمره بالزيارة للرجل فقط ؛ لأن النساء أخرجن بالتخصيص من هذا العموم بلعن الزائرات ، وأيضا مما يبطل النسخ قوله: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج)[1] ، ومن المعلوم أن قوله: (والمتخذين عليها المساجد والسرج) لا أحد يدعي أنه منسوخ ، والحديث واحد؛ فادعاء النسخ في جانب منه دون آخر غير مستقيم، وعلى هذا يكون الحديث محكما غير منسوخ .

---

[1] مسند الإمام أحمد (1/145)، ومسلم بلفظ : (نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي .)، كتاب الجنائز / باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم في زيارة قبر أمه.

[2] الترمذي : كتاب الجنائز / باب زيارة النساء للقبور ، وذكره الهيثمي في (المجمع) ، وقال: رواه الطبراني في (الكبير) ورجاله رجال الصحيح ، والبغوي في (شرح السنة).

[1] تقدم (ص424).

2- العلم بالتاريخ ، وهنا لم نعلم التاريخ ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل:

كنت لعنت من زار القبـور، بـل قـال : (كنت نهيتكم) ، والنهي دون اللعن.

وأيضـا قولـه : (كنت نهيتكم) خطـاب للرجـال ، ولعن زائـرات القبور خطاب للنساء؛ فلا يمكن حمل خطاب الرجـال على خطـاب النساء ، إذا ؛ فالحديث لا يصح فيه دعوى النسخ .

وثانيا : وأما الجواب عن حديث المرأة وحديث عائشـة ؛ أن المـرأة لم تخرج للزيارة قطعا ، لكنها أصيبت ، ومن عظم المصـيبة عليهـا لم تتمالك نفسها لتبقى في بيتها ، ولذلك خرجت وجعلت تبكي عند القبر مما يدل على أن في قلبها شيئا عظيما لم تتحمله حتى ذهبت إلى ابنها وجعلت تبكي عنـد القـبر ، ولهـذا أمرهـا صـلى اللـه عليـه وسلم أن تصبر ؛ لأنه علم أنها لم تخـرج للزيـارة ، بـل خـرجت لمـا في قلبها

من عدم تحمل هذه الصدمة الكبيرة ؛ فالحديث ليس صـريحا بأنهـا خرجت للزيارة ، وإذا لم يكن صريحا ؛ فلا يمكن أن يعارض الشـيء الصريح بشيء غير صريح .

وأما حديث عائشة ؛ فإنها قالت للرسول صلى اللـه عليـه وسـلم : ماذا أقول؟ فقال: (قولي : السلام عليكم) ؛ فهل المراد أنها تقـول ذلـك إذا مـرت ، أو إذا خـرجت زائـرة؟ فهـو محتمـل ؛ فليس فيـه تصريح بأنها إذا خرجت زائرة ؛ إذ من الممكن أن يراد بـه إذا مـرت بهـا من غـير خـروج للزيـارة ، وإذا كـان ليس صـريحا ؛ فلا يعـارض الصريح.

وأما فعلها مع أخيها رضـي اللـه عنهمـا ؛ فـإن فعلهـا مـع أخيهـا لم يستدل عليها عبـد اللـه بن أبي مليكـة بلعن زائـرات القبـور، وإنمـا استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور مطلقا؛ لأنه لـو اسـتدل عليهـا

بالنهي عن زيارة النساء للقبور أو بلعن زائرات القبور ؛ لكنا ننظر بماذا ستجيبه .
فهو استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور ، ومعلوم أن النهي عن زيارة القبور كان عاما ، ولهذا أجابته بالنسخ العام ، وقالت : إنه قد أمر بذلك ، ونحن وإن كنا نقول : إن عائشة رضي الله عنها استدلت بلفظ العموم ؛ فهي كغيرها من العلماء لا يعارض بقولها قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، على أنه روي عنها ؛ أنها قالت: (لو شهدتك ما زرتك)، وهذا دليل على أنها رضي الله عنها خرجت لتدعو له ؛ لأنها لم تشهد جنازته ، لكن هذه الرواية طعن فيها بعض العلماء ، وقال : إنها لا تصح عن عائشة رضي الله عنها ، لكننا نبقى على الراوية الأولى الصحيحة ؛ إذ ليس فيها دليل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم نسخه، وإذا فهمت هي؛ فلا يعارض بقولها قول الرسول صلى الله عليه وسلم .
* فيه مسائل :
الأولى : تفسير الأوثان . الثانية : تفسير العبادة.

---

* إشكال وجوابه :
في قوله : (زوارات القبور) ألا يمكن أن يحمل النهي عن تكرار الزيارة لأن (زوارات)صيغة مبالغة ؟
الجواب : هذا ممكن ، لكننا إذا حملناه على ذلك ؛ فإننا أضعنا دلالة المطلق (زائرات) .
والتضعيف قد يحمل على كثرة الفاعلين لا على كثرة الفعل ؛ فـ (الزوارات) يعني : النساء إذا كن مئة كان فعلهن كثيرا ، والتضعيف باعتبار الفاعل موجود في اللغة العربية ، قال تعالى : (جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ) (صّ:50) ، فلما كانت الأبواب كثيرة كان فيها التضعيف ؛ إذ الباب لا يفتح إلا مرة واحدة ، وأيضا قراءة (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَت)(الزمر: من الآية73)؛ فهي مثلها.
فالراجح تحريم زيارة النساء للمقابر، وأنها من كبائر الذنوب.
وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيميه في (مجموع الفتاوى) (343/24).

*   *   *

فيه مسائل :

* الأولى : تفسير الأوثان ، وهي : كل ما عبد من دون الله، سواء كان صنما أو قبرا أو غيره .

* الثانية : تفسير العبادة ، وهي : التذلل و الخضوع للمعبود خوفا ورجاء ومحبة وتعظيما ؛ لقوله : (لا تجعل قبري وثنا يعبد) .

الثالثة : أنه صلى الله عليه وسلم لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه . الرابعة : قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد . الخامسة : ذكر شدة الغضب من الله. السادسة : وهي من أهمها: معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان . السابعة : معرفة أنه قبر رجل صالح .

---

* الثالثة : أنه صلى الله عليه وسلم لم يستعذ إلا مما يخاف من وقوعه، وذلك في قوله : (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد) .

* الرابعة : قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ، وذلك في قوله : (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) .

* الخامسة : ذكر شدة الغضب من الله ، تؤخذ من قوله : (اشتد غضب الله).

وفيه : إثبات الغضب من الله حقيقة، لكنه كغيره من صفات الأفعال التي نعرف معناها ولا نعرف كيفيتها .

وفيه أنه يتفاوت كما ثبت في الحديث الصحيح حديث الشفاعة : (إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب مثله قبله ولا بعده)[1] .

* السادسة ـ وهي من أهمها ـ : معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان ، وذلك في قوله : (فمات ، فعكفوا على قبره) .

---

(1) تقدم (ص324).

* السابعة : معرفة أنه قبر رجل صالح ، تؤخـذ من قولـه (كـان يلت لهم السويق)؛ أي للحجاج ؛ لأنه معظم عندهم ، والغالب لا يكون معظما إلا

الثامنة : أنه اسم صاحب القبر ، وذكـر معـنى التسـمية . التاسـعة : لعنه زوارات القبور. العاشرة : لعنه من أسرجها.

صاحب دين .

* الثامنة : أنه اسم صاحب القبر ، وذكر معنى التسمية، وهو أنه كان يلت السويق.

* التاسعة : لعنه زوارات القبـور ، أي : النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم ، وذكر رحمة اللـه لفـظ : (زوارات القبـور) مراعـاة للفـظ الآخر.

*العاشرة : لعنـه من أسـرجها، وذلـك في قولـه : (والمتخـذين عليها المساجد والسرج).

وهنـا مسـألة مهمـة لم تـذكر ، وهي : أن الغلـو في قبـور الصالحين يصيرها أوثانا كما في قبر اللات ، وهذه من أهم الوسائل ، ولم يذكرها المؤلف رحمه الله ، ولعلـه اكتفى بالترجمـة عن هـذه المسألة بما حصل للات ، فإذا قيل بذلك ؛ فله وجه.

مسألة: المرأة إذا ذهبت للروضـة في المسـجد النبـوي لتصـلي فيها، فالقبر قريب منها ، فتقف وتسلم ، ولا مانع فيه .

والأحسـن البعـد عن الزحـام ومخالطـة الرجـال، ولئلا يظن من يشـاهدها إن المـرأة يجـوز لهـا قصـد الزيـارة ؛ فيقـع الإنسـان في محذور ، وتسليم المـرء على النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم يبلغـه حيث كان .

*   *   *

باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد
وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

قوله : (المصطفى)، أصلها : المصتفى، من الصفوة، وهو خيار الشيء؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم أفضل المصطفين لأنه أفضل أولي العزم من الرسل ، والرسل هم المصطفون ، المراد به : محمد صلى الله عليه وسلم ، والاصطفاء على درجات أعلاها اصطفاء أولي العزم من الرسل، ثم اصطفاء الرسل ، ثم اصطفاء الأنبياء ، ثم اصطفاء الصديقين ، ثم اصطفاء الشهداء ، ثم اصطفاء الصالحين .

قوله : (حماية) ، من حمى الشيء ، إذا جعل له مانعا يمنع من يقرب حوله، ومنه حماية الأرض عن فيها ونحو ذلك .

قوله : (جناب)، بمعنى جانب ، والتوحيد : تفعيل من الوحدة، وهو إفراد الله تعالى بما يجب له من الربوبية و الألوهية والأسماء و الصفات.

قوله : (وسده كل طريق)، أي : مع الحماية لم يدع الأبواب مفتوحة يلج إليها من شاء ، ولكنه سد كل طريق يوصل إلى الشرك ؛ لأن الشرك أعظم الذنوب ، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)(النساء: من الآية48) .

قال شيخ الإسلام ابن تيميه : الشرك الأصغر لا يغفره الله ؛ لعموم قوله: (أن يشرك به) ، وعلى هذا ؛ فجميع الذنوب دونه لقوله:(ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ؛ فيشمل كبائر الذنوب وصغائرها ؛ فالشرك ليس بالأمر الهين الذي

وقول الله تعالى : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ)(التوبة: من الآية128).

يتهاون به، فالشـرك يفسـد القلب والقصـد ، وإذا فسـد العمـل ؛ إذ العمل مبناه على القصد، قال تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيـدُ الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُـونَ* أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَـا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ) (هـود:15،16)، وقـال صـلى اللـه عليـه وسـلم : (إنمـا الأعمال بالنيات)[1].

إذا ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم حمى جانب التوحيد حماية محكمة، وسد كل طريق يوصل إلى الشرك ولو من بعيـد ؛ لأن من سار على الدرب وصل ، والشـيطان يـزين للإنسـان أعمـال السـوء شيئا فشيئا حتى يصل إلى الغاية .

*　　*　　*

قولـه : (لقـد جـاءكم رسـول من أنفسـكم) ، الجملـة مؤكـدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام ، وقد ، وهي مؤكدة لجميع مــدخولها بأنه رسول ، وأنه من أنفسهم ، وأنـه عزيـز عليـه مـا يشـق علينـا ، وأنــه بــالمؤمنين رؤوف رحيم؛ فالقســم منصــب على كــل هــذه الأوصاف الأربعة.

والخطـاب في قولـه : (جـاءكم) قيـل للعـرب ؛ لقولـه : (من أنفسكم)؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم من العـرب ، قـال اللـه تعالى : (هُـوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُـولاً مِنْهُمْ)(الجمعـة:من الآية 2).

ويحتمل أن يكون عاما للأمة كلها ، ويكون المراد بالنفس هنا الجنس؛ أي : ليس من الجن ولا الملائكة ، بل هو من جنسكم ؛ كما

---

[1] تقدم (ص220).

قال تعالى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِـدَةٍ)(لأعـراف: من الآية 189).

وعلى الاحتمال الأول فيه إشـكال ؛ لأن النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم بعث إلى جميع الناس من العرب والعجم.

لكن يقال في الجواب : إنه خوطب العرب بهذا ؛ لأن منـة اللـه عليهم به أعظم من غـيرهم ، حيث كـان منهم ، وفي هـذا تشـريف لهم بلا ريب .

والاحتمال الثاني أولي ؛ للعمـوم ، ولقولـه : (لَقَـدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولاً مِنْ أَنْفُسِـهِمْ)(آل عمـران: من الآية 164)، ولما كان المراد العرب ، قـال (منهم) لا (من أنفسـكم) ، قال الله تعالى : (هو الـذي بعث في الأمـيين رسـولا منهم)، وقـال تعالى عن إبراهيم وإسماعيل : (ربنـا وابعث فيهم رسـولا منهم) ، وعلى هذا ، فإذا جاءت (من أنفسـهم) ؛ فـالمراد : عمـوم الأمـة ، وإذا جـاءت (منهم)؛ فـالمراد العــرب ؛ فعلى الاحتمــال الثــاني لا إشكال في الآية.

قوله (رسول) ، أي : من الله ؛ كما قال اللـه تعـالى (رسـول من الله يتلـو صـحفا مطهـرة) ، وفعـول هنـا بمعـنى مفعـل ؛ أي : مرسل.

و (من أنفسكم) ، سبق الكلام فيها .

قوله : (عزيز) ، أي : صعب ؛ لأن هذه المادة العين والزاي في اللغة العربية تدل على الصلابة ، ومنه : (أرض عـزاز)؛ أي : صـلبة قويـة ، والمعـنى : أنـه يصـعب عليـه مـا يشـق عليكم ، ولهـذا بعث بالحنيفية السمحة ، وما خـير بين شـيئين إلا اختـار أيسـرهما مـا لم يكن إثما ، وهذا من التيسير الذي بعث به الرسول صلى اللـه عليـه وسلم.

قولـه : (مـا عنتم) ، (مـا) : مصـدرية ، وليسـت موصـولة ؛ أي : عنتكم؛ أي: مشـــقتكم ؛ لأن العنت بمعـــنى المشـــقة ، قـــال تعالى : (ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ)(النساء: من الآية25) .

والفعل بعد : (ما) يـؤول إلى مصـدر مرفـوع ، لكن بمـاذا هـو مرفوع ؟

يختلف باختلاف (عزيز) إذا قلنا : بأن (عزيز) صفة لرسول ؛ صار المصدر المؤول فاعلا به ؛ أي : عزيز عليـه عنتكم ، وإن قلنـا: عزيز خبر مقدم، صار عنتكم مبتدأ ، والجملة حينئذ تكون كلها صفة لرسول ، أو يقال : عزيز مبتدأ، وعنتكم فاعل سد مسد الخـبر على رأي الكوفيين الذي أشار ابن مالك في قوله : وقد يجـوز نحـو فـائز أو لو الرشد.

قولـه : (حـريص عليكم) ، الحـرص : بـذل الجهـد لإدراك أمـر مقصود ، والمعنى : باذل غاية جهده في مصلحتكم ؛ فهو جـامع بين أمرين : دفع المكروه الذي أفـاده قولـه : (عزيـز عليـه مـا عنتم)، وحصـول المحبـوب الـذي أفـاده قولـه : (حـريص عليكم) ؛ فكـان النبي صلى الله عليه وسلم جامعا بين هـذين الوصـفين ، وهـذا من نعمة الله علينا وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون على هذا الخلق العظيم الممثل بقوله تعـالى : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُـقٍ عَظِيمٍ) (القلم:4) .

قوله : (بالمؤمنين رؤوف رحيم) ،(بالمؤمنين) : جار و مجرور خـبر مقـدم، و(رؤوف) : مبتـدأ مـؤخر ،و (رحيم) : مبتـدأ ثـان ، وتقديم الخبر يفيد الحصر.

والرأفة : أشد الرحمة وأرقها .

والرحمة : رقة بالقلب تتضـمن الحنـو على المرحـوم والعطـف عليه بجلب الخير له ودفع الضرر عنه.

وقولنا : رقة في القلب هذا باعتبار المخلوق ، أمـا بالنسـبة للـه تعالى؛ فلا

0

نفسـرها بهـذا التفسـير ؛ لأن اللـه تعـالى ليس كمثلـه شـيء، ورحمة الله أعظم من رحمة المخلوق لا تدانيها رحمة المخلـوق ولا تماثلها؛ فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسـلم؛ أنـه قـال : (إن لله مئة رحمة وضع منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلق منـذ خلقـوا

إلى يوم القيامة، حتى إن الدابة لترفع حافرها عن ولدها خشــية أن تصيبه)[1].

فمن يحصي هذه الرحمة التي في الخلائق منذ خلقـوا إلى يـوم القيامة كمية ؟ ومن يستطيع أن يقدرها كيفية ؟ لا أحـد يسـتطيع إلا الله ـ عز وجل ـ الذي خلقها؟

فهذه رحمة واحدة، فـإذا كـان يـوم القيامـة رحم الخلـق بتسـع وتسـعين رحمـة بالإضـافة إلى الرحمـة الأولى، وهـل هـذه الرحمـة تدانيها رحمة المخلوق؟

الجواب: أبـداً، لا تـدانيها، والقـدر المشـترك بين رحمـة الخـالق ورحمة المخلوق أنها صفة تقتضي الإحسان إلى المرحـوم، ورحمـة الخالق غير مخلوقة؛ لأنهـا من صـفاته، ورحمـة المخلـوق مخلوقـة؛ لأنها من صفاته؛ فصفات الخالق لايمكن أن تنفصل عنه إلى مخلوق لأننا لو قلنا بذلك لقلنا بحلول صفات الخالق بالمخلوق، وهذا أمـر لا يمكن؛ لأن صـفات الخـالق يتصـف بهـا وحـده، وصـفات المخلـوق يتصف بها وحده، لكن صفات الخالق لها آثـار تظهـر في المخلـوق، وهذه الآثار هي الرحمة التي نتراحم بها.

وقوله: (بالمؤمنين رؤوف رحيم)؛ أي: إن النبي صلى الله عليــه وسلم في غير المؤمنين ليس رؤوفاً ولا رحيماً، بل هو شـديد عليهم كما وصفه الله هو وأصحابه بذلك

في قوله: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)(الفتح: من الآية29).

قوله: (فإن تولوا)، أي: أعرضوا مع هذا البيان الواضـح بوصـف الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهذا التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ لأن التولي مع هذا البيـان مكروه، ولهذا لم يخاطبوا به؛ فلم يقل: فإن توليتم.

والبلاغيون يسمونه التفاتاً، ولو قيل: إنه انتقال؛ لكان أحسن.

قولـه: (فقـل حسـبي اللـه)، الخطـاب للنـبي صـلى اللـه عليـه وسلم؛ أي: قل ذلك معتمـداً على اللـه، متـوكلاً عليـه، معتصـماً بـه:

---

[1] البخاري : كتاب الأدب / باب جعل الله الرحمة في مئة جزء، ومسـلم : كتـاب التوبـة/ بـاب في سـعة رحمة الله.

حسبي الله، وارتباط الجواب بالشرط واضح، أي: فإن أعرضوا؛ فلا يهمنك إعراضهم، بل قل بلسانك وقلبك: حسبي الله، و(حسبي) خبر مقدم، و(لفظ الجلالة) مبتدأ مؤخر، ويجور العكس بأن نجعل: (حسبي) مبتدأ و(لفظ الجلالة) خبر، لكن لما كانت حسب نكرة لا تتعرف بالإضافة؛ كان الأولى أن نجعلها هي الخبر.

قوله: (لا إله إلى هو)، أي: لا معبود حق حقيق بالعبادة سوى الله ـ عز وجل ـ .

قوله: (عليه توكلت)، عليه: جار ومجرور متعلق بتوكلت، وقدم للحصر.

والتوكل: هو الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به، وفعل الأسباب النافعة.

وقوله: (عليه توكلت) مع قوله: (لا إله إلا هو) فيها جمع بين توحيدي الربوبية والعبودية، والله تعالى يجمع بين هذين الأمرين كثيراً، (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة:5) ، وقوله: (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)(هود: من الآية123).

قوله: (وهو رب العرش العظيم)، الضمير يعود على الله ـ سبحانه).

و(رب العرش)؛ أي: خالقه، وإضافة الربوبية إلى العرش ــ وإن كانت ربوبية الله ـ عامة تشريفاً للعرش وتعظيماً له.

ومناسبة التوكل لقوله: (رب العرش العظيم)؛ لأن من كان فوق كل شيء ولا شيء فوقه؛ فإنه لا أحد يغلبه، فهو جدير بأن يتوكل عليه وحده.

وقوله: (العرش) فسره بعض الناس بالكرسي، ثم فسروا الكرسي بالعلم، وحينئذ لا يكون هناك كرسي ولا عرش، وهذا التفسير باطل، والصحيح ان العرش غير الكرسي، وأن الكرسي غير العلم، ولا يصح تفسيره بالعلم، بل الكرسي من مخلوقات الله العظيمة الذي وسع السماوات والأرض، والعرش أعظم وأعظم، ولهذا وصفه بأنه عظيم بقوله تعالى: (وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (التوبة: من الآية129)، وبأنه مجيد بقوله: (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ) (البروج:15) على قراءة كسر الدال، وبأنه كريم في قوله: (لا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَـرْشِ الْكَـرِيمِ)(المؤمنـون: من الآية116)؛ لأنـه أعظم المخلوقات التي بلغنا علمها وأعلاها لأن الله استوى عليه.

وفيـه دليـل على أن كلمـة العظيم يوصـف بهـا المخلـوق؛ لأن العرض مخلوق، وكذلك الرحيم، والرؤوف، والحكيم.

ولا يلزم من اتفاق المسمين، فإذا كان الإنسان رؤوفاً؛ فلا يلزم أن يكون مثل الخالق، فلا تقل: إذا كان الإنسان سميعاً بصيراً عليماً لزم أن يكون مثل الخالق؛ لأن الله سميع بصير عليم، كما أن وجود الباري سبحانه لا يستلزم أن تكون ذاته كذوات الخلق؛ فإن أسماءه كذلك لا يستلزم أن تكون كأسماء الخلـق، وهنـاك فـرق عظيم بين هذا وهذا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصــلوا علي؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم).

وقوله: (فقل حسبي اللـه)؛ أي: كـافيني، وهكـذا يجب أن يعلن المـؤمن اعتمـاده على ربـه، ولا سـيما في مثـل هـذا المقـام الـذي يتخلى الناس عنه؛ لأنه قال: (فإن تولوا).

وهذه الكلمة ـ كلمة الحسب ـ تقال في الشدائد، قالها إبـراهيم حين ألقي في النار، والنبي صلى اللـه عليـه وسـلم وأصـحابه حيث قيل لهم: (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)(آل عمران: من الآية173).

* (تنبيــه) :

في سياقنا للآية الثانية فوائد نسأل الله أن ينفع بها.

*   *   *

قوله: (لا تجعلوا)، الجملة هنا نهي؛ فلا ناهيـة، والفعـل مجـزوم وعلامة جزمة حذف النون، والواو فاعل.

قوله: (بيوتكم)، جمع بيت، وهـو مقـر الإنسـان وسـكنه، سـواء كان من طين أو حجارة أو خيمة أو غـير ذلـك، وغـالب مـا يـراد بـه الطين والحجارة.

قوله: (قبوراً)، مفعول ثان لتجعلـوا، وهـذه الجملـة اختلـف في معناها؛ فمنهم من قال: لا تجعلوها قبوراً؛ أي: لا تدفنوا فيهـا، وهـذا

لا شك أنه ظاهر اللفظ، ولكن أورد على ذلك دفن النبي صلى الله عليه وسلم في بيته.

وأجيب عنه بأن من خصائصه صلى الله عليه وسلم ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم دفن في بيته لسببين:

1- ما روي عن أبي بكر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من نبي يموت إلا دفن حيث قبض) [1] ، وهذا ضعفه بعض العلماء.

1- 2- ما روته عائشة رضي الله عنهما: (أنه خشي أن يتخذ مسجداً) [2] .

وقال بعض العلماء: المراد بـ (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً)؛ أي: لا تجعلوها مثل القبور، أي: المقبرة لا تصلون فيها، وذلك لأنه من المتقرر عندهم أن المقابر لا يصلى فيها، وأيدوا هذا التفسير بأنه سبقها جملة في بعض الطرق: (اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تجعلوها قبرواً) ، وهذا يدل على أن المراد: لا تدعوا الصلاة فيها.

وكلا المعنيين صحيح؛ فلا يجوز أن يدفن الإنسان في بيته، بل يدفن مع المسلمين ؛ لأن هذه هي العادة المتبعة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليوم، ولأنه إذا دفن في بيته ؛ فإنه ربما يكون وسيلة إلى الشرك ، فربما يعظم هذا المكان ، ولأنه يحرم من دعوات المسلمين الذين يدعون بالمغفرة لأموات المسلمين عند زيارتهم للمقابر ، ولأنه يضيق على الورثة من بعده فيسأمون منه، وربما يستوحشون منه ، وإذا باعوه لا يساوي إلا قليلا ، ولأنه قد يحدث عنده من الصخب واللعب واللغو والأفعال المحرمة ما يتنافى مع مقصود الشارع؛ فإن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (زوروا القبور ؛ فإنها تذكركم الآخرة)[3] .

وأما أن المعنى : لا تجعلوها قبورا ؛ أي : مثل القبور في عدم الصلاة فيها؛

---

[1] سبق (ص 292) .

[2] سبق (ص 392) .

[3] سبق (ص428)

فهو دليل على أنه ينبغي إن لم نقل : يجب أن يجعل الإنسان من صلاته في بيته ولا يخليه من الصلاة .

وفيه أيضا : أنه من المتقرر عندهم أن المقبرة لا يصلي فيها.

إذا ؛ فيكون هذا النهي عن ترك الصلاة في البيوت لئلا تشبه المقابر؛ فيكون دليل واضح على أن المقابر ليست محلا للصلاة، وهذا هو الشاهد من الحديث للباب ؛ لأن اتخاذ المقابر مساجد سبب قريب جدا للشرك.

واتخاذها مساجد سبق أن له مرتبتين :

الأولي : أن يبني عليها مسجدا .

الثانية : أن يتخذها مصلى يقصدها ليصلي عندها .

والحديث يدل على أن الأفضل : أن المرء يجعل من صلاته في بيته وذلك جميع النوافل ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : (أفضل صلاة المرء في بيته؛ إلا المكتوبة)[1] ؛ إلا ما ورد الشرع أن يفعل في المسجد ، مثل : صلاة الكسوف، وقيام الليل في رمضان ، حتى ولو كنت في المدينة النبوية؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك وهو في المدينة، وتكون المضاعفة بالنسبة للفرائض أو النوافل التي تسن لها الجماعة.

قوله : (عيدا)، اسم لما يعتاد فعله، أو التردد إليه ، فإذا اعتاد الإنسان أن يعمل عملا كما لو كان كلما حال عليه الحول صنع طعاما ودعا الناس ؛ فهذا يسمي عيدا لأنه جعله يعود و يتكرر .

وكذلك من العيد : أن تعتاد شيئا فتتردد إليه ، مثل ما يفعل بعض الجهلة

في شهر رجب وهو ما يسمي بالزيارة الرجبية، حيث يذهبون من مكة إلى المدينة ، ويزورون كما زعموا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا أقبلوا على المدينة تسمع لهم صياحا ، وكانوا

([1] البخاري : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة / باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه، ، ومسلم : كتاب صلاة المسافر / باب استحباب صلاة النافلة في بيته.

سابقا يذهبون من مكة إلى المدينة على الحمير خاصة، ولما جاءت السيارات صاروا يذهبون على السيارات .

وأيهما المراد من كلام النبي صلى الله عليه وسلم : الأول ؛ أي العمل الذي يتكرر بتكرر العام ،أو التردد إلى المكان ؟

الظاهر الثاني ، أي : لا تترددوا على قبري وتعتادوا ذلك، سـواء قيدوه بالسنة أو بالشهر أو بالأسبوع ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك ، وإنما يزار لسبب ، كما لو قدم الإنسان من سفر ، فذهب إلى قبره فزاره، أو زاره ليتذكر الآخرة كغيره من القبور .

وما يفعله بعض الناس في المدينة كلما صلى الفجر ذهب إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم من أجل السلام عليه، فيعتاد هذا كل فجر ، يظنون أن هذا مثل زيارته في حياته ؛ فهذا من الجهل ، وما علموا أنهم إذا سلموا عليه في أي مكان ؛ فإن تسليمهم يبلغه .

قوله : (وصلوا علي) ، هذا أمر ؛ أي : قولوا : اللهم صل على محمد، وقد أمر الله بذلك في قوله : (إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (الأحزاب: 56).

وفضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم معروف، ومنه أن من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا[1] .

والصلاة من الله على رسوله ليس معناها كما قال بعض أهل العلم : إن الصلاة من الله الرحمة ، ومن الملائكة الاستغفار ، ومن الآدميين الدعاء .

فهذا ليس بصحيح ، بل إن الصلاة على المرء ثناؤه عليه في الملأ الأعلى، كما قال أبو العالية وتبعه على ذلك المحققون من أهل العلم .

ويدل على بطلان القول الأول قوله تعالى : (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ)(البقرة: من الآية157)؛ فعطف الرحمة على الصلوات ، والأصل في العطف المغايرة ، لأن الرحمة تكون

---

[1] مسلم كتاب الصلاة / باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه .

لكل أحد ، ولهذا اجمع العلماء على أنه يجوز أن تقول : فلان رحمه الله ، واختلفوا : هل يجوز أن تقول : فلان صلى الله عليه؟

فمن صلى على محمد صلى الله عليه وسلم مرة أثنى الله عليه في الملأ الأعلى عشر مرات ، وهذه نعمة كبيرة .

قوله : (فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) ، حيث : ظرف مبني على الضم في محل نصب ، ويقال فيها: حيث ،وحوث، وحاث ، لكنها قليلة .

كيف تبلغه الصلاة عليه ؟

الجواب : نقول : إذا جاء مثل هذا النص وهو من أمور الغيب ؛ فالواجب أن يقال : الكيف مجهول لا نعلم بأي وسيلة تبلغه ، لكن ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم (أن لله ملائكة سياحين يسيحون في الأرض يبلغون النبي صلى الله عليه وسلم سلام أمته عليه)[1]، فإن صح ؛ فهذه هي الكيفية .

رواه أبو داود بإسناد حسن ورواته ثقات[1] .

قوله : (رواه أبو داود بإسناد حسن ، ورواته ثقات)، هذا التعبير من الناحية الاصطلاحية ، ظاهره أن بينهما اختلافا ، ولكننا نعرف أن الحسن: هو أن يكون الراوي خفيف الضبط؛ فمعناه أن فيه نوعا من الثقة، فيجمع بين كلام المؤلف رحمه الله وبين ما ذكره عن رواية أبي داود بإسناد حسن : أن المراد بالثقة ليس غاية الثقة ؛ لأنه لو بلغ إلى حد الثقة الغاية لكان صحيحا ؛ لأن الراوي تعود على تحقيق الوصفين فيه، وهما : العدالة والضبط، فإذا خف الضبط خفت الثقة ، كما إذا خفت العدالة أيضا تخف الثقة فيه.

فيجمع بينهما على أن المراد : مطلق الثقة ، ولكنه لاشك فيما أروى أنه إذا أعقب قوله : (حسن) بقوله : (رواته ثقات) أنه أعلى مما لو اقتصر على لفظ : (حسن) .

ومثل هذا ما يعبر به ابن حجر في (تقريب التهذيب) بقوله : (صدوق يهم) ، وأحيانا يقول : (صدوق)، وصدوق أقوي ؛ فيكون

([1]) النسائي : كتاب السهو / باب السلام على النبي صلى الله عليه وسلم، وقال ابن القيم في(جلاء الأفهام) (ص23): (وهذا إسناد صحيح) .

([1]) مسند الإمام أحمد (2/367)، وسنن أبي داود : كتاب المناسك / باب زيارة القبور، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في (اقتضاء الصراط المستقيم) : إسناده حسن ،و قال النووي (إسناده صحيح) .

توثيـق الرجـل الموصـوف بصـدوق أشـد من توثيـق الرجـل الـذي يوصف بأنه يهم.
لا يقول قائل : إن كلمة يهم لا تزيده ضعفا ؛ لأنه ما من إنسـان إلا ويهم.
فنقول : هذا لا يصح؛ لأن قولهم : (يهم) لا يعنون به الوهم الذي لا

وعن على بن الحسين رضي الله عنه ؛ أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي صلى اللـه عليـه وسـلم ، فيـدخل فيهـا ، فيدعو ، فنهاه، وقال : ألا أحدثكم حـديثا سـمعته من أبي عن جـدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال :

يخلو منه أحد ، ولولا أن هناك غلبة في أوهامه ما وصفوه بها .
* * *
قوله : (وعن على بن الحسين)، هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، يسمى بزين العابدين ، من أفضل أهل الـبيت علمـا وزهدا وفقها.
والحسين معروف : ابن فاطمة رضـي اللـه عنهـا ، أبـوه : على رضي الله عنه.
قوله : (يجيء إلى فرجـة) ، هـذ الرجـل لاشـك أنـه لم يتكـرر مجيئه إلى هذه الفرجـة إلا لاعتقـاده أن فيهـا فضـلا ومزيـة، وكونـه يظن أن الدعاء عند القبرله مزية فتح باب ووسيلة إلى الشرك، بل جميع العبادات إذا كانت عند القبر؛ فلا يجوز أن يعتقد أن لها مزية ، سواء كانت صلاة أو دعاء أو قراءة ، ولهذا نقول: تكره القراءة عند القبر إذا كان الإنسان يعتقد أن القراءة عند القبر أفضل .
قوله : (فنهاه)، أي : طلب منه الكف.
قوله : (ألا أحدثكم حـديثا)، قـال أحـدثكم والرجـل واحـد؛ لأن الظاهر أنه كان عند أصحابه يحدثهم ، فجاء هذا الرجل إلى الفرجة.
و(ألا) : أداة عرض؛ أي : أعرض عليكم أن أحدثكم .

وفائدتها : تنبيه المخاطب إلى ما يريد أن يحدثه به .

قوله : (عن أبي عن جدي)، أبوه : الحسن ، وجده : علي بن أبي طالب.

(لا تتخذوا قبري عيدا ، ولا بيوتكم قبورا ، وصلوا علي؛ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم) . رواه في (المختارة)[1] .

قوله : (عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، السند متصل وفيه عنعنة لكنها لا تضر ؛ لأنها من غير مدلس، فتحمل على السماع .

قوله : (لا تتخذوا قبري عيدا) ، يقال فيه كما في الحديث السابق: أنه نهى أن تتخذ قبره عيدا يعتاد ويتكرر إليه ؛ لأنه وسيلة إلى الشرك .

قوله : (ولا بيوتكم قبورا) ، سبق معناه.

قوله : (وصلوا علي ؛ فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم) ، اللفظ هكذا، وأشك في صحته ؛ لأن قوله : (صلوا علي) يقتضي أن يقال : فإن صلاتكم تبلغني؛ إلا أن يقال هذا من باب الطي والنشر.

والمعنى : صلوا علي وسلموا؛ فإن تسليمكم وصلاتكم تبلغني، وكأنه ذكر الفعلين والعلتين ، لكن حذف من الأولى ما دلت عليه الثانية، ومن الثانية ما دلت عليه الأولى.

وقوله : (وصلوا علي) ، سبق معناها ، المراد : صلوا علي في أي مكان كنتم ، ولا حاجة إلى أن تأتوا إلى القبر وتسلموا علي وتصلوا علي عنده.

*فيه مسائل :

---

[1] البخاري في (التاريخ الكبير) ، أبو يعلى ؛ كما في (مجمع الزوائد) .
وقال الهيثمي : (وفيه جعفر بن إبراهيم الجعفري ، ذكره أبو حاتم ولم يذكر فيه جرحا، وبقية رجاله ثقات).
وفيه أيضا علي بن عمر بن الحسين ، مستور ؛ كما في (التقريب) .
ورواه أيضا : الضياء في (المختارة)؛ كما في (اقتضاء الصراط المستقيم) (ص322).

الأولى : تفسـير آيـة بـراءة . الثانيـة : إبعـاده أمتـه عن هـذا الحمى غاية البعد.

قوله : (يبلغني)، تقدم كيف يبلغه صلى الله عليه وسلم .

قولــه : (رواه في المختــارة) ، الفاعــل مؤلــف المختــارة ، والمختارة : اسم الكتاب ؛ أي : الأحاديث المختارة .

والمؤلف هو عبد الغني المقدسي، من الحنابلة .

ومـا أقـل الحـديث في الحنابلـة ، يعـني المحـدثين ، وهـذا من أغـرب مـا يكـون، يعـني أصـحاب الإمـام أحمـد أقـل النـاس تحـديثا بالنسبة للشافعية .

فالحنابلة غلب عليهم رحمهم الله الفقه مـع الحـديث ؛ فصـاروا محدثين وفقهاء، ولكنهم رحمهم الله بشر ، فإذا أخذ من هــذا العلم صار ذلك زحاما للعلم الآخر ، أما الأحناف؛ فإنهم أخذوا بالفقه، لكن قلت بضاعتهم في الحديث، ولهذا يسمون أصحاب الـرأي (يعـني : العقل و القياس)؛ لقلـة الحـديث عنـدهم ، والشـافعية أكـثر النـاس عناية بالحديث والتفسـير ، والمالكيـة كـذلك ، ثم الحنابلـة وسـط ، وأقلهم في ذلك الأحناف مع أن لهم كتبا في الحديث.

* * *

فيه مسائل :

* الأولي : تفسير آية براءة ، وسبق ذلك في أول الباب .

*الثانية : إبعاد صلى الله عليه وسلم أمته عن هذا الحمى غاية البعد ، تؤخذ من قوله : (لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قــبري عيدا) .

الثالثة : ذكر حرصه علينا ورأفتـه ورحمتـه . الرابعـة : نهيـه عن زيارة قبره على وجه مخصوص مع أن زيارته من أفضـل الأعمـال . الخامسـة : نهيـه عن الإكثـار من الزيـارة . السادسـة : حثـه على النافلة في الـبيت . السـابعة : أنـه مقـرر عنـدهم أنـه لا يصـلى في المقبرة .

---

*الثالثة : ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمتـه، وهـذا مـذكور في آية براءة.

*الرابعة:نهيه عن زيارة قبره على وجـه مخصـوص،تؤخـذ من قوله: (ولا تجعلوا قـبري عيـدا) ؛ فقولـه : (عيـدا) هـذا هـو الوجـه المخصوص.

وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم من أفضـل الأعمـال من جنسها ؛ فزيارة فيها سلام عليه ، وحقه صلى الله عليه وسـلم أعظم من غيره .

وأمـا من حيث التـذكير بـالآخرة ؛ فلا فـرق بين قـبره وقـبر غيره .

*الخامسة : نهيه عن الإكثار من الزيارة ، تؤخذ من قوله : (لا تجعلوا قبري عيدا) ، لكنه لا يلزم منه الإكثار ؛ لأنه قـد لا يـأتي إلا بعد سنة، ويكون قد اتخذه عيدا ؛ فإن فيه نوعا من الإكثار .

*السادسة : حثـه على النافلـة في الـبيت ، تؤخـذ من قولـه : (ولا تجعلوا بيوتكم قبورا) ، سبق أن فيها معنيين :

المعنى الأول : أن لا يقبر في البيت ، وهذا ظاهر الجملة .

الثاني : الذي هو من لازم المعنى أن لا تترك الصلاة فيها.

*السابعة : أنـه متقـرر عنـدهم أنـه لا يصـلي في المقـبرة، تؤخذ من قوله: (لا

الثامنة : تعليل ذلك بأن صلاة الرجـل وسـلامه عليـه يبلغـه وإن بعد ؛ فلا حاجـة إلى مـا يتوهمـه من أراد القـرب . التاسـعة : كونـه صلى الله عليه وسلم في البرزخ تعرض أعمال أمتـه في الصـلاة و السلام عليه .

تجعلوا بيوتكم قبورا) ؛ لأن المعنى : لا تجعلوهـا قبـورا، أي : لا تتركوا الصلاة فيها على أحد الـوجهين ؛ فكأنـه من المتقـرر عنـدهم أن المقابر لا يصلي فيها.

*الثامنة : تعليل ذلك بإن صلاة الرجل وسـلامه عليـه يبلغـه وإن بعـد ؛ فلا حاجـة إلى مـا يتوهمـه من أراد القـرب ، أي : كونـه نهى صلى اللـه عليـه وسـلم أن يجعـل قـبره عيـدا، لعلـة في ذلـك : أن

الصلاة تبلغه حيث كان الإنسان فلا حاجـة إلى أن يـأتي إلى قـبره ، ولهذا نسلم ونصلي عليه في أي مكان ؛ فيبلغه السلام والصلاة.

ولهـذا قـال علي بن الحسـين : (مـا أنت ومن في الأنـدلس إلا سواء) .

*التاسـعة : كونـه صـلى اللـه عليـه وسـلم في الـبرزخ تعـرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليـه ، أي : فقـط فكـل من صـلى عليه أو سلم عرضت عليه صلاته وتسليمه، ويؤخذ من قوله : (فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم) .

* * *

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

سبب مجيء المؤلف بهـذا البـاب لـدحض حجـة من يقـول : إن الشرك لا يمكن أن يقـع في هـذه الأمـة ، وأنكـروا أن تكـون عبـادة القبور والأولياء من الشرك؛ لأن هـذه الأمـة معصـومة منـه؛ لقولـه صلى الله عليه وسلم : (إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم)[1] .

والجواب عن هذا سبق عند الكلام على المسألة الثامنة عشـرة من مسائل باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما .

قوله : (أن بعض هذه الأمة)، أي : لا كلها ؛ لأن في هذه الأمـة طائفة لا تزال منصورة على الحق إلى قيام السـاعة، لكنـه سـيأتي

---

(1) سبق (ص201).

في آخـر الزمـان ريح تقبض روح كـل مسـلم ؛ فلا يبقى إلا شـرار الناس.

وقولـه : (تعبـد) ؛ بفتح التـاء ، وفي بعض النسـخ : (يعبـد) ؛ بفتح الياء المثناة من تحت .

فعلى قراءة (يعبد) لا إشكال فيها ؛ لأن (بعض) مذكر .

وعلى قراءة (تعبد)؛ فإنه داخل في قوله ابن مالك :

وربما أكسب ثان أولا تأنيثا أن كان لحذف موهلا

ومثلوا لذلك بقـولهم : قطعت بعض أصـابعه؛ فالتـأنيث هنـا من أجل أصابعه لا من أجل بعض .

وقوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ)(النساء: من الآية50) .

فإذا صحت النسخة (تعبد) ؛ فهذا التأنيث اكتسبه المضاف من المضاف إليه .

قوله : (الأوثان)، جمع وثن ، وهو : كل ما عبد من دون الله .

* * *

ذكر المؤلف في هذا الباب عدة آيات :

*الآية الأولى قوله تعالى : (ألم تر)، الاستفهام هنـا للتقريـر و التعجيب ، والرؤية بصرية بدليل أنها عديت بإلى ، وإذا عـديت بـإلى صارت بمعنى النظر.

والخطاب إما للنبي صلى الله عليـه وسـلم ، أو لكـل من يصـح توجيه الخطاب إليه ، أي: ألم تر أيها المخاطب ؟

قوله : (إلى الذين أوتوا)، أي : أعطوا، ولم يعطوا كل الكتاب؛ لأنهم حرموا بسبب معصيتهم؛ فليس عندهم العلم الكامل بمـا في الكتاب.

قوله : (نصيبا من الكتاب) المنزل .

والمراد بالكتاب : التوارة و الأنجيل .

وقـد ذكـروا مثلا ، وهـو كعب بن الأشـرف حين جـاء إلى مكـة، فاجتمع إليه المشركون، وقـالوا: مـا تقـول في هـذا الرجـل (أي :

النبي صلى الله عليه وسلم) الذي سفه أحلامنا ورأى أنه خير منا ؟ فقال لهم : أنتم : خير من محمد ، ولهذا جاء في آخر الآية : (وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً)(النساء: من الآية50).

قوله : (يؤمنون بالجبت والطاغوت) ، أي : يصدقون بهما ، ويقرونهما لا

وقوله تعالى: (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوت) (المائدة: من الآية60).

ينكرونهما ، فإذا أقر الإنسان هذه الأوثان ؛ فقد آمن بها.

والجبت : قيل : السحر ، وقيل : هو الصنم، والأصح: أنه عام لكل صنم أو سحر أو كهانة أو ما أشبه ذلك.

والطاغوت : ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

فالمعبود كالأصنام ، والمتبوع كعلماء الضلال ، والمطاع كالأمراء؛ فطاعتهم في تحريم ما أحل الله ، أو تحليل ما حرم الله تعد من عبادتهم .

والمراد من كان راضيا بعبادتهم إياه، أو يقال : هو طاغوت باعتبار عابديه؛ لأنهم تجاوزوا به حده، حيث نزلوه فوق منزلته التي جعلها الله له، فتكون عبادتهم لهذا المعبود طغيانا؛ لمجاورتهم الحد بذلك.

والطاغوت : مأخوذ من الطغيان ؛ فكل شيء يتعدى به الإنسان حده يعتبر طاغوتا.

وجه الناسبة في الآية للباب لا يتبين إلا بالحديث ، وهو (لتركبن سنن من كان قبلكم)، فإذا كان الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، وأن من هذه الأمة من يرتكب سنن من كان قبله يلزم من هذا أن في هذه الأمة من يؤمن بالجبت و الطاغوت ؛ فتكون الآية مطابقة للترجمة تماما.

*   *   *

*الآية الثانية قوله تعالى : (قل هـل أنـبئكم)، الخطـاب للنـبي صلى الله عليه وسلم ردا على هؤلاء اليهود الذي اتخذا دين الإسلام هزوا و لعبا.

وقولـه : (أنـبئكم)، أي : أخـبركم ، والاسـتفهام هنـا للتقريـر و التشويق، أي: سأقرر عليكم هذا الخبر.

قوله : (بشر من ذلك)، شر : هنا اسم تفضيل ، وأصـلها أشـر لكن حذفت الهمزة تخفيفـا لكـثرة الاسـتعمال ، ومثلهـا كلمـة خـير مخففـة من أخـير ، والنـاس مخففـة من الأنـاس، وكـذا كلمـة اللـه مخففة من الإله.

وقوله : (ذلك) المشار إليه ما كان عليـه الرسـول صـلى اللـه عليه وسلم وأصحابه؛ فإن اليهـود يزعمـون أنهم خـير من الرسـول صلى الله عليـه وسـلم وعلى آلـه وأصـحابه وسـلم ، وأن الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم وأصـحابه ليسـوا على الحـق؛ فقـال اللـه تعالى : (قل هل أنبئكم).

قوله : (مثوبة عند الله) ، مثوبة : تمييز لشـر ؛ لأن شـر اسـم تفضيل، وما جاء بعد أفعل التفضيل مبنيا له منصوبا على التمييز.

قال بن مالك :

اسم بمعنى من مبين نكرة ينصب تمييزا بما قد فسره

إلى أن قال :

والفاعل المعنى انصبن بأفعلا مفضلا كأنت أعلى منزلا

والمثوبة : من ثاب يثوب إذا رجـع ، ويطلـق على الجـزاء؛ أي : بشر من ذلك جزاء عند الله .

قوله : (عند الله) ، أي : في عمله وجزائه عقوبة أو ثوابا.

قولـه : (من لعنـه اللـه) ، من : اسـم موصـول خـبر لمبتـدأ محذوف تقديره: هو من لعنه الله ؛ لأن الاستفهام انتهى عند قوله : (مثوبة عند الله) ، وجواب الاستفهام: (من لعنه الله).

0

ولعنه؛ أي: طرده وأبعده عن رحمته.

قوله: (وغضب عليه)، أي: أحل عليه غضبه، والغضب: صفة من صفات الله الحقيقية تقتضي الانتقام من المغضوب عليه، ولا يصح تحريفه إلى معنى الانتقام، وقد سبق الكلام عليه (ص 418).

والقاعدة العامة عند أهل السنة: أن آيات الصفات وأحاديثها تجرى على ظاهرها اللائق بالله ـ عز وجل ـ ؛ فلا تجعل من جنس صفات المخلوقين، ولا تحرف فتنفى عن الله؛ فلا نغلو في الإثبات ولا في النفي.

قوله: (وجعل منهم القردة والخنازير)، القردة: جمع قرد، وهو حيوان معروف أقرب ما يكون شبهاً بالإنسان، والخنازير: جمع خنزير، وهو ذلك الحيوان الخبيث المعروف الذي وصفه الله بأنه رجس.

والإشارة هنا إلى اليهود؛ فإنهم لعنوا كما قال تعالى: (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) (المائدة: من الآية78).

وجعلوا قردة بقوله تعالى: (كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)(البقرة: من الآية65)، وغضب الله عليهم بقوله: (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ) (البقرة: من الآية90).

قوله: (وعبد الطاغوت)، فيها قراءتان في (عبد) وفي (الطاغوت):

الأول: بضم الباء (عبد)، وعليها تكسر التاء في (الطاغوت)؛ لأنه مجرور بالإضافة.

الثانية: بفتح الباء (عبد) على أنه فعل ماض معطوف على قوله؛ (لعنه الله) صلة الموصول، أي: ومن عبد الطاغوت، ولم يعد (من) مع طول الفصل؛ لأن هذا ينطبق على موصوف واحد، فلو أعيدت من لأوهم أنهم جماعة آخرون وهم جماعة واحدة؛ فعلى هذه القراءة يكون (عبد) فعلاً ماضياً والفاعل ضمير مستتر

وقوله تعالى : (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً)(الكهف: من الآية21).

جوازاً تقديره هو يعود على (من) في قوله: (من لعنه الله)، (الطاغوت) بفتح التاء مفعولاً به.

وبهـذا نعـرف اختلاف الفاعـل في صـلة الموصـول ومـا عطـف عليه؛ لأن الفاعل في صلة الموصول هو (اللـه)، والفاعـل في عبـد يعود على (من).

وعلى كل حال؛ فالمراد بها عابد الطاغوت.

فالفرق بين القراءتين بالباء فقط؛ فعلى قراءة الفعل مفتوحة، وعلى قراءة الاسم مضمومة.

والطاغوت على قراءة الفعل في (عبـد) تكـون مفتوحـة (عبـد الطـاغوت)، وعلى قـراءة الاسـم تكـون مكسـورة بالإضـافة (عبـد الطاغوت).

وذكر في تركيب (عبد) مع (الطاغوت) أربـع وعشـرون قـراءة، ولكنها قراءات شاذة غير القراءتين السبعيتين (عَبَدَ) (عَبُد).

* * *

* الآيـة الثالثـة قولـه تعـالى: (قَـالَ الَّذِينَ غَلَبُـوا عَلَى أَمْـرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً) ، هذه الآية في سياق قصة أصحاب الكهف، وقصتهم عجيبة؛ كمـا قـال تعـالى: (أَمْ حَسِـبْتَ أَنَّ أَصْـحَابَ الْكَهْـفِ وَالرَّقِيمِ كَـانُوا مِنْ آيَاتِنَـا عَجَبـاً) (الكهـف:9)، وهم فتيـة آمنـوا باللـه وكانوا في بلاد شرك، فخرجوا منها إلى الله ـ عـز وجـل ـ ، فيسـر الله لهم غاراً، فدخلوا فيه، وناموا فيه نومه طويلة بلغت

(ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً)(الكهف: من الآية25) وهم نـائمون لا يحتاجون إلى أكل وشرب، ومن حكمـة اللـه أن اللـه يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال حتى لا يتسرب الدم في أحـد الجـانبين، ولمـا خرجوا بعثوا بأحدهم إلى المدينة ليشـتري لهم طعامـاً، وآخـر الأمـر أن أهل المدينـة اطلعـوا على أمـرهم، وقـالوا: لا بـد أن نبـني على قبورهم مسجداً.

وقوله: (قال الذين غلبوا على أمرهم)، المراد بهم: الحكـام في ذلك الوقت قالوا مقسمين مؤكدين: (لنتخذن عليهم مسجداً)، وبناء المساجد على القبور من وسائل الشرك كما سبق.

* فوائد الآيات السابقة:

من فوائد الآية الأولى ما يلي:

1- 1- أن من العجب أن يعطى الإنسان نصيباً من الكتاب ثم يؤمن بالجبت والطاغوت

2- 2- أن العلم قد لا يعصم صاحبه من المعصية؛ لأن الذين أوتوا الكتاب آمنوا بالكفر، والذي يؤمن بالكفر يؤمن بما دونه من المعصي.

3- 3- وجوب إنكار الجبت والطاغوت؛ لأن الله تعالى ساق الإيمان بهما مساق العجب والذم؛ فلا يجوز إقرار الجبت والطاغوت.

4- 4- ما ساقها المؤلف من أجله أن من هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت لقوله صلى الله عليه وسلم : (لتركبن سنن من كان من قبلكم) [1] ، فإذا وجد في بني إسرائيل من يؤمن بالجبت والطاغوت؛ فإنه سيوجد في هذه الأمة أيضاً من يؤمن بالجبت والطاغوت.

---

* ومن فوائد الآية الثانية ما يلي:

1- تقرير الخصم والاحتجاج عليه بما لا يستطيع إنكاره، بمعنى أنك تحتج على خصمك بأمر لا يستطيع إنكاره؛ فإن اليهود يعرفون بأن فيهم قوماً غضب الله عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير، فإذا كانوا يقرون بذلك وهم يستهزئون بالمسلمين؛ فنقول لهم: أين محل الاستهزاء ؟ ! الذين حلت عليهم هذه العقوبات أم الذين سلموا منها ؟

والجواب: الذين حلت بهم العقوبة أحق بالاستهزاء.

2- اختلاف الناس بالمنزلة عند الله؛ لقوله: (بشر من ذلك مثوبة عند الله)، ولا شك أن الناس يختلفون بزيادة الإيمان ونقصه وما يترتب عليه من الجزاء.

2- 3- سوء حال اليهود الذي حلت بهم هذه العقوبات من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت.

---

[1] سبق (ص 192).

3- 4- إثبات أفعال الله الاختيارية، وأنه سبحانه يفعل ما يشاء؛ لقوله: (لعنه الله)؛ فإن اللعن من صفات الأفعال.

4- 5- إثبات الغضب لله؛ لقوله: (وغضب عليه).

5- 6- إثبات القدرة لله؛ لقوله: (وجعل منهم القردة والخنازير).

وهل المراد بالقردة والخنازير هذه الموجودة ؟

والجواب: لا؛ لما ثبت في (صحيح مسلم) عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أن كل أمة مسخت لا يبقى لها نسل) [1]، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك،

وعلى هذا؛ فليس هذا الموجود من القردة والخنازير هو بقية أولئك الممسوخين.

7- أن العقوبات من جنس العمل؛ لأن هؤلاء الذين مسخوا قردة، والقرد أشبه ما يكون شبهاً بالإنسان، فعلوا فعلاً ظاهرة الإباحة والحل وهو محرم، وذلك أنه حرم عليهم الصيد يوم السبت ابتلاء من الله، فإذا جاء يوم السبت امتلاء البحر بالحيتان، وظهرت على سطح الماء، وفي غيره من الأيام تختفي ولا يأتي منها شيء، فلما طال عليهم الأمد صنعوا شباكاً؛ فصاروا ينصبونها في يوم الجمعة ويدعون الحيتان تدخل فيها يوم السبت، فإذا أتى يوم الأحد أخذوها، وهذه حيلة ظاهرها الحل، ولكن حقيقتها ومعناها الوقوع في الإثم تماماً، ولهذا مسخوا إلى حيوان يشبه الإنسان وليس بإنسان، وهو القرد، قال تعالى: (كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)(البقرة: من الآية65) ، وهو يفيد أن الجزاء من جنس العمل، ويدل عليه صراحة قوله تعالى: (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ)(العنكبوت: من الآية40).

6- 7- أن هؤلاء اليهود صاروا يعبدون الطاغوت؛ لقوله: (وعبد الطاغوت)، ولا شك أنهم حتى الآن يعبدونه؛ لأنهم عبدوا الشيطان وأطاعوه وعصوا الله ورسوله.

وفي الآية نكتة نحوية في قوله: (عليه) و (منهم) في قوله تعالى: (من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير)؛

---

[1] مسلم: كتاب القدر/باب بيان أن الأرزاق والآجال لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر.

فالضمير في (لعنه) الهاء، و(غضب عليه) مفرد، و(منهم) جمع، مع أن المرجع واحد، وهو(من).

والجواب: أنه روعي في الإفراد اللفظ، وفي الجمع المعنى، وذلك أن (من) اسم موصول صالحة للمفرد وغيره، قال ابن مالك:

ومن وما وال تساوي ما ذكر

عن أبي سعيد (رضي الله عنه)؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

لما ذكر الأسماء الموصولة من المفرد والمثنى والجمع من مذكر ومؤنث قال: ومن وما ... إلخ.

وقال: (من لعنة الله وغضب عليه وجعل منهم القردة)، ولم يقل: وجعلهم قردة؛ لأن اللعن والغضب عام لهم جميعاً، والعقوبة بمسخهم إلى قردة وخنازير خاص ببعضهم، وليس شاملاً لبني إسرائيل.

* ومن فوائد الآية الثالثة ما يلي :

1-1- ما تضمن سياق هذه الآية من القصة العجيبة في أصحاب الكهف وما تضمنته من الآيات الدالة على كمال قدرة الله وحكمته.

2-2- أن من أسباب بناء المساجد على القبور الغلو في أصحاب القبور؛ لأن الذين غلبوا على أمرهم بنوا عليهم المساجد؛ لأنهم صاروا عندهم محل الاحترام والإكرام فغلبوا فيهم.

3-3- أن الغلو في القبور وإن قل قد يؤدي إلى ما هو أكبر منه، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي حين بعثه: (ألا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته) [1]

*   *   *

عن أبي سعيد (رضي الله عنه)؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو

---

[1] مسلم: كتاب الجنائز/باب الأمر بتسوية القبر.

دخلـوا جحـر ضـب؛ لـدخلتموه)ـ قـالوا: يـا رسـول اللـه ! اليهـود والنصارى ؟ قال: (فمن). أخرجاه [1].

قولـه في الحـديث: (لتتبعن) ، اللام موطئـة للقسـم، والنـون للتوكيـد، فـالكلام مؤكـد بثلاثـة مؤكـدات: القسـم المقـدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لتتبعن.

قوله : (سنن من كان قبلكم)، فيها روايتان: (سنن) و (سنن).

أما (سنن)؛ بضم السين: جمع سنة، وهي الطريقة.

وأما (سنن)؛ بالفتح: فهي مفردة بمعنى الطريق.

وفعـل تـأتي مفـردة مثـل: فنن جمعهـا أفنـان، وسـبب جمعهـا أسباب.

وقوله: (من كان قبلكم) ، أي: من الأمم.

وقوله: (لتتبعن سنن من كان قبلكم) ليس على ظاهره؛ بل هـو عام مخصوص؛ لأننا لو أخذنا بظاهره كـانت جميـع هـذه الأمـة تتبـع سنن من كان قبلها، لكننا نقول: إنـه عـام مخصـوص؛ لأن في هـذه الأمة من لا يتبع كما أخبر النبي

صلى الله عليه وسلم أنـه لا تـزال طائفـة من هـذه الأمـة على الحق، وقد يقال: إن الحديث على عمومه وأنه لا يلزم أن تتبع هــذه الأمـة الأمم السـابقة في جميـع سـننها، بـل بعض الأمـة يتبعهـا في شيء وبعض الأمة يتبعها في شـيء آخـر، وحينئـذ لا يقتضـي خـروج هذه الأمة من الإسلام، وهذا أولى لبقاء الحديث على عمومـه، ومن

([1]) البخاري: كتاب الأنبياء/باب ما ذكر عن بني إسـرائيل، ومسـلم: كتـاب العلم/بـاب اتبـاع سـنن اليهـود والنصاري، وأما لفظ (حذو القذة بالقذة) فقد أخرجه الإمام أحمد في المسند.

المعلوم أن من طرق من كـان قبلنـا مـا لا يخـرج من الملـة، مثـل: أكل الربا، والحسد، والبغي، والكذب.

ومنه ما يخرج من الملة: كعبادة الأوثان.

السنن: هي الطرائـق، وهي متنوعـة، منهـا مـا هـو اعتـداء على حق الخالق، ومنها ما هـو اعتـداء على حـق المخلـوق، ولنسـتعرض شيئاً من هذه السنن:

فمن هذه السنن: عبادة القبور والصـالحين؛ فإنهـا موجـودة في الأمم السابقة وقد وجدت في هذه الأمة، قال تعالى عن قوم نــوح: (وَقَالُوا لا تَـذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَـذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُـوَاعاً وَلا يَغُـوثَ وَيَعُـوقَ وَنَسْراً) (نوح:23).

ومن ذلك الغلو في الصالحين كمـا وجـد في الأمم السـابقة وجـد في هذه الأمة.

ومنها: دعاء غير الله ، وقد وجد في هذه الأمة.

ومنها: بناء المساجد على القبور موجود في السابقين، وقد وجــد في هذه الأمة.

ومنها: وصف الله بالنقائص والعيوب؛ فقد قالت اليهـود: (يَـدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)(المائدة: من الآية64) ، وقالوا: (إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) (آل عمـــران: من الآية181)، وقـــالوا: إن اللـــه تعب من خلـــق السماوات والأرض، وقد وجد في هذه الأمة من قال بـذلك أو أشـد منه؛ فقد وجد من قال: ليس لـه يـد، ومن من قـال: لا يسـتطيع أن يفعل ما يريد فلم يستو على العـرش، ولا يـنزل إلى السـماء الـدنيا ولا يتكلم، بـل وجـد في هـذه الأمـة من يقـول: بأنـه ليس داخلاً في العالم، وليس خارجاً

عنه ولا متصلاً بـه ولا منفصـلاً عنـه؛ فوصـفوه بمـا لا يمكن وجـوده، ومنهم من قال: لا تجوز الإشارة الحسية إليه، ولا يفعل، ولا يغضب، ولا يرضى، ولا يحب، وهذا مذهب الأشاعرة.

ومنها: أكل السحت؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هـذه الأمة.

ومنها: أكل الربا؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: التحيل على محارم الله؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: إقامة الحدود على الضعفاء ورفعها عن الشرفاء؛ فقد وجد في هذه الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: تحريف كلام الله عن مواضعه لفظاً ومعنى؛ كاليهود حين قيل لهم: (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ)(البقرة: من الآية58)، فدخلوا على قفاهم، وقالوا: حنطة ولم يقولوا حطة، ووجد في هذه الأمة من فعل كذلك؛ فحرف لفظ الاستواء إلى الاستيلاء، قال تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (طـه:5)، وقالوا هم: الرحمن على العرش استولى.

قال ابن القيم: إن اللام في استولى مزيدة زادها أهل التحريف كما زاد اليهود النون في (حطة) فقالوا: (حنطة).

نون اليهود ولام جهمي هما … في وحي رب العرش زائدان

أمر اليهود بأن يقولوا حطة … فأبوا وقالوا حنطة لهوان

وكذلك الجهمي قيل له استوى … فأبى وزاد الحرف للنقصان

ووجد في الأمم السابقة من اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، ووجد في هذه الأمة من يعارض قول النبي صلى الله عليه وسلم بقول شيخه.

فإذا تأملت كلام النبي صلى الله عليه وسلم وجدته مطابقاً للواقع: (لتتبعن سنن من كان قبلكم)، ولكن يبقى النظر: هل هذا للتحذير أو للإقرار ؟

الجواب: لا شك أنه للتحذير وليس للإقرار؛ فلا أحد: سأحسد وسأكل الربا، وسأعتدي على الخلق؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال ذلك، فمن قال ذلك؛ فإننا نقول له: أخطأت؛ لأن قول النبي صلى الله عليه وسلم لا شك أنه للتحذير، ولهذا قال الصحابة: اليهود والنصاري؟ قال: فمن؟

ثم نقول لهم أيضاً: إن الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم أخـبر بأشياء ستقع، ومع ذلك أخبر بأنها حرام بنص القرآن .
فمن ذلك أنه أخبر أن الرجل يكرم زوجته ويعق أمه، وأخــبر أن الإنسـان يعصـي أبـاه ويـدني صـديقه[1] ، وهـذا ليس بجـائز بنص القرآن ، لكن قصد التحذير من هذا العمل .
ووجــد في الأمم الســابقة من يقــول للمؤمــنين : إن هــؤلاء لضـالون ، ووجـد في هـده الأمـة من يقـول للمؤمـنين : إن هـؤلاء لرجعيون.
فالمعاصي لها أصل في الأمم على حسب مـا سـبق، ولكن من وقفه الله للهداية اهتدى.
والحاصل : أنك لا تكاد تجد معصية في هذه الأمة إلا وجدت لهـا أصلا في الأمم السابقة .
ولا تجد معصية في الأمم السابقة إلا وجدت لها وارثـا في هـذه الأمة.

---

*أما مناسبة الحديث للباب :
فلأنه لما عبدت الأمم السابقة الأصنام والأوثـان؛ فسـيكون في هذه الأمة من يعبد الأصنام والأوثان.
قولـه : (حــذو القــذة القــذة) ، حــذو بمعــني : محاذيــا، وهي منصوبة على الحال من فاعل تتبعن؛ أي : حال كونكم محـاذين لهم حذو لهم القذة القذة .
والقذة : هي ريشـة السـهم ، السـهم لـه ريش لا بـد أن تكـون متساوية تماما، وإلا ؛ صار الرمي به مختلا.
قوله : (حتى لو دخلوا جحـر ضـب لـدخلتموه) ، هـذه الجملـة تأكيد منه صلى الله عليه وسلم للمتابعة.
وجحر الضب من أصغر الجحور ، ولو دخلوا جحر أسد من بـاب أولي أن ندخله؛ قال صلى الله عليه وسلم ذلك على سبيل المبالغة ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : (من اقتطع شبرا من الأرض ظلما

---

[1] الترمـذي : كتـاب الفتن / بـاب ما جـاء في علامة حلـول المسخ والخسـف، قـال الألبـاني: (ضـعيف) السلسلة الضعيفة .

طوقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين)[1] ، ومن اقتطع ذراعـا؛ فمن باب أولى .

قوله : (قالوا اليهود والنصارى) يجوز فيها وجهان :

الأول : نصب اليهود و النصارى على أنه مفعول لفعل محـذوف تقديره: أتعني اليهود و النصارى؟

الثاني: الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره : أهم اليهود و النصارى؟

وعلى كل تقدير؛ فالجملـة إنشـائية لأنهم يسـألون النـبي صـلى الله عليه وسلم ؛ فهي استفهامية، والاستفهام من باب الإنشاء.

واليهود: أتبـاع موسـى عليـه الصـلاة و السـلام ، وسـموا يهـودا نسبة إلى يهوذا من أحفاد إسـحاق ، أو لأنهم هـادوا إلى اللـه؛ أي : رجعوا إليه بالتوبة من عبادة العجل.

والنصارى : هم أتباع عيسـى عليـه الصـلاة و السـلام ، وسـموا بذلك نسبة إلى بلدة تسمى الناصرة، وقيل من النصـرة ؛ كمـا قـال الله تعالى:(مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ) (الصف: من الآية14).

قولـه : (قـال فمن) ، من هنـا : اسـم اسـتفهام ، والمـراد بـه التقريـر؛ أي : فمن أعــني غــير هــؤلاء ، أو فمن هم غــير هــؤلاء؟ فالصحابة رضي الله عنهم لما حدثهم صلى اللـه عليـه وسـلم بهـذا الحديث كأنه حصل في نفوسهم بعض الغرابـة ، فلمـا سـألوا قـرر النبي صلى الله عليه وسلم أنهم اليهود و النصارى .

*من فوائد الحديث :

1 -ما أراده المؤلف بسياقه، وهو أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان؛ لأنه من سنن من قبلنا، وقد اخبر صلى الله عليه وسلم أننا سنتبعهم.

2-ويستفاد أيضا من فحوى الكلام التحذير من متابعة من قبلنا في معصية الله .

3- أنه ينبغي معرفـة مـا كـان عليـه من كـان قبلنـا ممـا يجب الحذر منه لنحذره، وغالب ذلك ـ ولله الحمد ـ موجود في القرآن و السنة.

---

[1] سبق(ص75).

4-استعظام هذا الأمر عند الصحابة؛ لقولهم اليهـود النصـارى، فإن الاستفهام للاستعظام ؛ أي : استعظام الأمر أن نتبع سـنن من كان قبلنا بعد أن جاءنا الهدى من النبي صلى الله عليه وسلم .

5-أنه كلما طال العهد بين الإنسان وبين الرسالة؛ فإنـه يكـون أبعد من الحـق ؛ لأنـه أخـبر عن مسـتقبل ولم يخـبر عن الحاضـر ، ولأن من سنن من

قبلنا أنه لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم ، قـال تعـالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَـزَلَ مِنَ الْحَـقِّ وَلا يَكُونُـوا كَالَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ مِنْ قَبْـلُ فَطَـالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَـدُ فَقَسَـتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (الحديد:16).

فإذا كان طول الأمد سببا لقسوة القلب فيمن قبلنـا؛ فسـيكون فينا، ويشهد لذلك ما جاء في (البخاري) من حديث أنس رضي الله عنه؛ أنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (لا يـأتي على الناس زمان إلا وما بعده شـر منـه، حـتى تلقـوا ربكم)[1].ومن تتبع أحوال هذه الأمة وجد الأمر كذلك ، لكن يجب أن نعرف الفـرق بين الجملة و الأفراد؛ فحديث أنس رضـي اللـه عنـه حـديث صـحيح سندا و متنـا؛ فـالمتن ليس فيـه شـذوذ، والسـند في (البخـاري) ، والمراد به من حيث الجملة، ولذلك يوجد في أتباع التابعين من هـو خير من كثـير من التـابعين ؛ فلا تيأسـوا ، فتقولـوا : إذا لا يمكن أن يوجد في زماننا هذا من سـبق؛ لأننـا نقـول : إن مثـل هـذا الحـديث يـراد بـه الجملـة ، وإذا شـئتم أن يتضـح الأمـر؛ فـانظروا إلى جنس الرجال وجنس النساء؛ أيهما خير؟

والجـواب : جنس الرجـال خـير، قـال اللـه تعـالى : (وَلِلرِّجَـالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَـةٌ) (البقـرة: من الآية228)، لكن يوجـد في النسـاء من هي خير من كثير من الرجال؛ فيجب أن نعـرف الفـرق بين الجملـة والأفراد .

---

[1] (كتاب الفتن / باب لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه .

فإذا نظرنا إلى مجموع القرن كله نجد أن ما بعـد القـرن شر منه، لا باعتبار الأفراد ولا باعتبار مكان دون مكان ، فقـد تكـون أمة في الجهات يرتفع الناس فيهـا من حسـن إلى أحسـن، كمـا لـو نشأ فيها علماء نفع الله بهم؛ فإنهم

ولمسلم[1] عن ثوبان (رضي الله عنـه)؛ أن رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم قـال: (إن اللـه زوى لي الأرض، فـرأيت مشـارقها ومغاربهـا، وإن أمـتي سـيبلغ ملكهـا مـا زوي لي منهـا، وأعطيت الكنزين: الأحمر و الأبيض،

يكونون أحسن ممن سبقهم.

أمـا الصـحابة ؛ فلا أحـد يسـاويهم في فضـل الصـحبة، حـتى أفرادهم لا يمكن لأحد من التابعين أن يساويهم فيهـا مهمـا بلـغ من الفضل ؛ لأنه لم يدرك الصحبة.

مسـألة: مـا هي الحكمـة من ابتلاء الأمـة بهـذا الأمـر : (لتتبعن سنن ...)إلخ، وأن يكون فيها من كل مساوئ من سبقها؟

الجواب: الحكمة ليتبين بذلك كمال الدين ؛ فـإن الـدين يعـارض كل هذه الأخلاق، فإذا كان يعارضـها دل هـذا على أن كـل نقص في الأمم السابقة ، فإن هـذه الشـريعة جـاءت بتكميلـه؛ لأن الأشـياء لا تتبين إلا بضدها؛ كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء .

*(تنبيه) :

قولـه : (حـذو القـذة بالقـذة)[2] لم أجـده في مظانـه في (الصحيحين)؛ فليحرر.

* * *

قوله : (زوى لي)، بمعنى جمع وضم؛ أي : جمع لـه الأرض وضمها.

---

[1] كتاب الفتن / باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض .

[2] قوله : حذو القذة بالقذة) لم تخرج في (الصحيحين)، وإنما هي من حديث شداد بن أوس، أخرجه الإمام أحمد في المسند .

قوله : (فـرأيت) ، أي: بعيـني؛ فهي رؤيـة عينيـة، ويحتمـل أن يكون رؤية منامية .

قوله : (مشارقها ومغاربها)، وهذا ليس على الله بعزيـز؛ لأنـه على كـل شـيء قـدير، فمن قدرتـه أن يجمـع الأرض حـتى يشـاهد النبي صلى الله عليه وسلم ما سيبلغ ملك أمته منها .

وهل المراد هنا بالزوي أن الأرض جمعت ، وأن الرسـول صـلى الله عليه وسلم قوي نظره حتى رأى البعيد ؟

الأقرب إلى ظاهر اللفظ : أن الأرض جمعت، لا أن بصره قـوي حتى رأى البعيد.

وقال بعض العلماء : المـراد قـوة بصـر النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم : أي : أن الله أعطاه قـوة بصـر حـتى أبصـر مشـارق الأرض ومغاربها، لكن الأقرب الأول ، ونحن إذا أردنا تقريب هذا الأمر نجـد أن صورة الكرة الأرضية الآن مجموعة يشاهد الإنسان فيها مشارق الأرض ومغاربها ؛ فاللـه على كـل شـيء قـدير؛ فهـو قـادر على أن يجمع له صلى الله عليه وسلم الأرض حتى تكـون صـغيرة فيـدركها من مشارقها إلى مغاربها.

*اعتراض وجوابه :

فإن قيل : هذا إن حمـل على الواقـع؛ فليس بموافـق للواقـع؛ لأنه لو حصـرت الأرض بحيث يـدركها بصـر النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم المجرد ؛ فأين يذهب الناس والبحار و الجبال و الصحارى؟

والجواب : بـأن هـذا من الأمـور الغيبيـة الـتي لا يجـوز أن تـورد عليها كيف ولم ، بل نقول : إن الله على كل شـيء قـدير ؛ إذ قـوة الله ـ سـبحانه ــ أعظم من قوتنـا وأعظم من أن نحيـط بهـا، ولهـذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الشيطان يجري من

ابن آدم مجرى الدم[1] ؛ فلا يجوز أن نقول : كيف يجري مجـرى الدم؟ فالله أعلم بذلك .

---

[1] البخاري : كتاب الاعتكـاف / بـاب زيـارة المـرأة زوجها في اعتكافه ، ومسـلم : كتـاب السـلام / بـاب يستحب لمن رؤي خاليا بامرأة.....

وهذه المسائل التي لا ندركها يجب التسليم المحض لها ، ولهذا نقول في باب الأسماء و الصفات: تجرى على ظاهرها مع التنزيه عن التكييف و التمثيل، وهذا ما اتفق عليه أهل السنة و الجماعة .

وقوله : (فرأيت مشارقها و مغاربها) ، أي : أماكن الشرق و الغرب منها.

قوله : (وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها) ،والمراد : أمة الإجابة التي آمنت بالرسول صلى الله عليه وسلم سيبلغ ملكها ما زوي للرسول صلى الله عليه وسلم منها ، وهذا هو الواقع؛ فإن ملك هذه الأمة اتسع من المشرق ومن المغرب اتساعا بالغا، لكنه من الشمال والجنوب أقل بكثير ، والأمة الإسلامية وصلت من المشرق إلى السند و الهند وما وراء ذلك ، ومن المغرب إلى ما وراء المحيط ، وهذا يحقق ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله : (وأعطيت الكنزين : الأحمر و الأبيض) ، الذي أعطاه هو الله .

والكنزان : هما الذهب و الفضة كنوز كسرى و قيصر؛ فالذهب عند قيصر، و الفضة عند كسرى ، وكل منهما عنده ذهب وفضة ، لكن الأغلب على كنوز قيصر الذهب ، وعلى كنوز كسرى الفضة .

وقوله : (أعطيت) هل النبي صلى الله عليه وسلم أعطيها في حياته ، أم بعد موته؟

الجواب: بعد موته أعطيت أمته ذلك ، لكن ما أعطيت أمته؛ فهو

وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال : يا محمد!

كالمعطى له؛ لأن امتداد ملك الأمة لا لأنها أمة عربية كما يقوله الجهال، بل لأنها أمة إسلامية أخذت بما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم .

قوله : (وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة)، هكذا في الأصل : (بعامة)، والمعنى بمهلكة عامة ، وفي رواية في النسخ : (بسنة عامة).

السنة: الجدب و القحط، وهو يهلك ويدمر ، قال صلى الله عليه وسلم : (اللهم ! اجعلها عليهم سنين كسني يوسف)[1] ،وقال الله تعالى : (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ)(لأعراف: من الآية 130) ، ويحتمل أن يكون المعنى بعام واحد؛ فتكون الباء للظرفية.

وعامة؛ أي : عموما تعمهم ، هذه دعوة .

قوله : (وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم) ، أي: لا يسلط عليهم عدوا، والعدو : ضد الولي ، وهو : المعادي المبغض الحاقد، وأعداء المسلمين هنا: هم الكفار، ولهذا قال : (من سوى أنفسهم) .

ومعنى: (يستبيح) : يستحل ، والبيضة : ما يجعل على الرأس وقاية من السهام.

والمراد : يظهر عليهم ويغلبهم.

قوله : (إذا قضيت قضاء ؛ فإنه لا يرد) ،

اعلم أن قضاء الله نوعان :

1-قضاء شرعي قد يرد ؛ فقد يريده الله ولا يقبلونه.

إني إذا قضيت قضاء ؛ فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة ، وأن لا أسلط عليهم من بأقطارهم، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا) .

2- قضاء كوني لا يرد ، ولابد أن ينفذ .

وكلا القضاءين قضاء بالحق ، وقد جمعهما قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقّ)(غافر: من الآية20).

ومثال القضاء الشرعي : قال تعالى : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)(الاسراء: من الآية23)؛ لأنه لو كان كونيا؛ لكان كل الناس لا يعبدون إلا الله.

ومثال القضاء الكوني : قوله تعالى : (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً)(الاسراء:4)؛ لأن الله تعالى لا يقضي شرعا بالفساد ، لكنه يقضي به كونا وإن كان يكرهه سبحانه؛ فإن الله لا يحب الفساد ولا المفسدين ، لكنه يقضي بذلك لحكمة بالغة، كما قسم خلقه إلى مؤمنين وكافرين؛ لما يترتب على ذلك من المصالح العظيمة.

---

[1] تقدم (ص294).

والمراد بالقضاء في هذا الحديث : القضاء الكوني؛ فلا أحد يستطيع رده مهما كان من الكفر والفسوق؛ فقضاء الله نافذ على أكبر الناس عتوا واستكبارا، فقد نفذ على فرعون وأغرق بالماء الذي كان يفتخر به، وعلى طواغيت بني آدم فأهلكهم الله ودمرهم.

0

وفي قوله : (إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يرد) من كمال سلطان الله وقدرته وربوبيته ما هو ظاهر؛ لأنه ما من ملك سوى الله إلا يمكن أن يرد ما قضى به.

واعلم أن قضاء الله كمشيئته بالحكمة؛ فهو لا يقضي قضاء إلا والحكمة تقتضيه، كما لا يشاء شيئا إلا والحكمة تقتضيه، ويدل عليه قوله تعالى : (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) (الانسان:30)؛ فيتبين أنه لا يشاء شيئا إلا عن علم وحكمة، وليس لمجرد المشيئة.

خلافا لمن أنكر حكمة الله من الجهمية وغيرهم، فقالوا: إنه لا يفعل الأشياء إلا لمجرد المشيئة ، فجعلوا على زعمهم المخلوقين أكمل تصرفا من الله؛ لأن كل عاقل من المخلوقين لا يتصرف إلا لحكمة، ولهذا كان الذي يتصرف بسفه يحجر عليه، قال تعالى: (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً)(النساء: من الآية5).

فنحن نقول : إن الله ـ جل وعلاـ لا يفعل شيئا ولا يحكم بشيء إلا لحكمة، ولكن هل يلزم من الحكمة أن نحيط بها علما؟

الجواب: لا يلزم ؛ لأننا أقصر من أن نحيط علما بحكم الله كلها، صحيح أن بعض الأشياء نعرف حكمتها، لكن بعض الأشياء تعجز العقول عن إدراكها.

والمقصود من قوله : (إذا قضيت قضاء ؛ فإنه لا يرد) بيان أن من الأشياء التي سألها النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يعطها؛

لأنه الله قضى بعلمه وحكمته ذلك ، ولا يمكن أن يرد ما قضاه اللــه ـ عز وجل ـ .

والقضـاء قـد يتوقـف على الـدعاء ، بـل إن كـل قضـاء أو أكـثر القضاء له أسباب إما معلومة أو مجهولة ؛ فدخول الجنة لا يمكن إلا بسبب يترتب دخول الجنة عليه، وهو الإيمان والعمل الصالح.
0

كذلك حصول المطلوب، قد يكون الله ـ عز وجل ــ منعـه حـتى نسأل ، لكن من الأشياء ما لا تقتضي الحكمة وجوده، وحينئذ يجازى الداعي بما هو أكمل، أو يؤخر له ويدخر له عند الله ـ عـزو جـل ــ ، أو يصـرف عنـه من السـوء مـا هـو أعظم ، والـدعاء إذا تمت فيـه شروط القبول ولم يجب؛ فإننا نجزم بأنه ادخر له.

وقوله : (وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامـة) هـذه واحدة.

والثانيــة : قولــه : (أن أســلط عليهم من ســوى أنفســهم ، فيســتبيح بيضــتهم، ولـو اجتمـع عليهم من بأقطـارهم حـتى يكـون بعضهم يهلك بعضا و يسبي بعضهم بعضا).

وهذه الإجابة قيدت بقوله : (حتى يكون بعضـهم يهلـك بعضـا و يسبي بعضهم بعضا) إذا وقع ذلـك منهم؛ فقـد يسـلط عليهم عـدوا من سوى أنفسـهم ، فيسـتبيح بيضـتهم؛ فكـأن إجابـة اللـه لرسـوله صـلى اللــه عليــه وســلم في الجملــة الأولى بــدون اســتثناء، وفي الجملة الثانية باستثناء (حتى يكون بعضهم ...) .

وهذه هي الحكمة من تقديم قوله : (إذا قضيت قضاء؛ فإنـه لا يرد)؛ فصارت إجابة الله لرسوله مقيدة.

ومن نعمة الله أن هذه الأمة لن تهلك بسنة بعامـة أبـدا ؛ فكـل من يدين بدين الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه لن يهلك ، وإن هلك قوم في جهة بسنة؛ فإنه لا يهلك الآخرون.

فإذا صار بعضهم يقتل ويسبي بعضهم بعضا؛ فإنه يسـلط عليهم عدوا من سـوى أنفسـهم، وهـذا هـو الوقـع؛ فالأمـة الإسـلامية حين كانت أمة واحدة عونا في الحق ضد الباطل كانت أمه مهيبـة، ولمـا تفرقت وصار بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا ؛ سـلط اللـه عليهم عدوا من سوى أنفسهم، وأعظم

ورواه البرقـاني في (صـحيحه) ، وزاد : (وإنمـا أخـاف على أمتي الأئمة المضـلين، وإذا وقـع عليهم السـيف؛ لم يرفـع إلى يـوم القيامة،

من سلط عليهم فيما أعلم التتار، فقد سلطوا على المسـلمين تسليطا لا نظير لـه؛ فيقـال: إنهم قتلـوا في بغـداد وحـدها أكـثر من خمسمائة عالم في يوم واحد، وهذا شيء عظيم، وقتلـوا الخليفـة ، وجعلوا الكتب الإسلامية جسـرا على نهـر دجلـة يطؤونهـا بأقـدامهم ويفسدونها ، وكانوا يأتون إلى الحوامل ويبقرون بطونهن ويخرجون أولادهن يتحركون أمامهم فيقتلونهم، وهي حية تشاهد ثم تموت .

قال ابن الأثير في (الكامل) : (لقـد بقيت عـدة سـنين معرضـا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لهـا كارهـا لـذكرها فأنـا أقـدم رجلا وأوخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه نعي الإسـلام والمسـلمين ؟! ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟! فيا ليت أمي لم تلدني! ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ! إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ذلـك لا يجـدي ...) ، وذكـر كلاما طويلا ووقائع مفجعة، ومن أراد مزيـدا من ذلـك؛ فلـيرجع إلى حوادث سنة 617 من الكتاب المذكور.

وفي الحديث دليل على تحريم القتـال بين المسـلمين ، وإهلاك بعضهم بعضا، وسبي بعضهم بعضا ، وأنه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتى تبقى هيبتهم بين الناس وتخشاهم الأمم .

قوله : (إنما أخاف على أمتي الأئمة المضـلين)، بين الرسـول صلى الله عليه وسلم أنه لا يخاف على الأمة إلا الأئمة المضلين .

والأئمة : جمع إمام ، والإمام قد يكون إماما في الخير أو الشر، قال

ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين ، وحـتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كـذابون ثلاثـون، كلهم

تعالى في الخير : (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْـدُونَ بِأَمْرِنَـا لَمَّا صَـبَرُوا وَكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ) (السجدة:24).

وقال تعالى عن آل فرعون أئمة : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَـدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ) (القصص:41).

والذي في الحديث البـاب : (الأئمـة المضـلين)، أئمـة الشـر ، وصدق النبي صلى الله عليه وسلم ، إن أعظم ما يخاف على الأمة الأئمـة المضـلون ؛ كرؤسـاء الجهميـة و المعتزلـة وغـيرهم الـذين تفرقت الأمة بسببهم.

والمـراد بقولـه : (الأئمـة المضـلين) : الـذين يقـودون النـاس باسم الشرع، والذين يأخذون الناس بـالقهر و السـلطان ؛ فيشـمل الحكام الفاسدين، والعلماء المضلين ، الذين يدعون أن ما هم عليه شرع الله، وهم أشد الناس عداوة له.

قـال الإمـام أحمـد رحمـه اللـه : لـو كـان لي دعـوة مسـتجابة؛ لصرفتها للسلطان؛ فإن بصلاحه صلاح الأمة.

قوله : (إذا وقع عليهم السيف ...) إلخ ، هـذا من آيـات النـبي صلى الله عليه وسلم، وهذا حق واقع ؛ فإنـه لمـا وقـع السـيف في هذه الأمة لم يرفع، فما زال بينهم القتال منذ قتـل الخليفـة الثـالث عثمان رضي الله عنه، وصارت الأمـة يقتـل بعضـهم بعضـا ويسـبي بعضا بعضا .

قوله : (ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين)، الحي: بمعنى القبيلة.

وهل المراد باللحوق هنا اللحوق البدني، بمعنى أنه يـذهب هـذا الحي إلى المشركين ويـدخلون فيهم ، أو اللحـوق الحكمي، بمعـنى أن يعملوا بعمل المشركين أو الأمران معا ؟

الظاهر أن المراد جميع ذلك.

وأما الحي؛ فالظاهر أن المراد به الجنس، وليس واحد الأحيـاء، وإن قيل: إن المراد واحد الأحياء ؛ فلابد أن يكـون لهـذا الحي أثـره وقيمته في الأمة الإسلامية، بحيث يتبين ويظهـر، وربمـا يكـون لهـذا

الحي إمام يزيغ ـ والعياذ بالله ـ ويفسد ؛ فيتبعه كل الحي، ويتبين ويظهر أمره .

قوله : (وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان)، الفئام ؛أي: الجماعات ، وهذا وقع ؛ ففي كل جهة من جهات المسلمين من يعبدون القبور ويعظمون أصحابها ويسألون الحاجات والرغبات ويلتجئون إليهم ، وفئام؛ أي: ليسوا أحياء ؛ فقد يكون بعضهم من قبيلة ، والبعض الآخر من قبيلة ؛ فيجتمعون.

قوله : (وإنه سيكون من أمتي كذابون ثلاثون)، حصرهم النبي صلى الله عليه وسلم بعدد ، وكلهم يزعم أنه نبي أوحي إليه ، وهو كذابون؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ولا نبي بعده ، فمن زعم أنه نبي بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فهو كاذب كافر حلال الدم و المال ، فمن صدقه في ذلك؛ فهو كافر حلال الدم والمال ، وليس من المسلمين ولا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن زعم أنه أفضل من محمد، وأنه يتلقى من الله مباشرة ومحمد صلى الله عليه وسلم يتلقى منه بواسطة الملك ؛ فهو كاذب كافر حلال الدم و المال.

وقوله : (كذابون ثلاثون) هل ظهروا أم لا ؟

الجواب : ظهر بعضهم ، وبعضهم ينتظر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحصرهم في

يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين ، لا نبي بعدي ، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى)[1] .

زمن معين ، وما دامت الساعة لم تقم ؛ فهم ينتظرون .

قوله : (كلهم يزعم)، أي : يدعي .

قوله : (وأنا خاتم النبيين) ، أي : آخرهم، وأكد ذلك بقوله : (لا نبي بعدي) ، فإن قيل : ما الجواب عما ثبت في نزول عيسى بن مريم في آخر الزمان، مع أنه نبي ويضع الجزية و لا يقبل إلا الإسلام ؛ فالجواب: إن نبوته سابقة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأما كونه يضع الجزية و لا يقبل إلا الإسلام ؛ فليس تشريعا

---

[1] مسند الإمام أحمد (5/278) وأبو داود (4252)، وابن ماجة(4100).

جديدا ينسخ قبول الجزية ، بل هو تشريع من محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أخبر به مقررا له .

قولـه : (ولا تـزال طائفـة من أمـتي على الحـق منصـورة) ، المعنى : أنهم يبقون إلى آخر وجودهم منصورين .

هـذا من نعمـة اللـه، فلمـا ذكـر أن حيـا من الأحيـاء يلتحقـون بالمشركين، وأن فئاما يعبدون الأصـنام، وأن أناسـا يـدعون النبـوة؛ فيكون هنا الإخلال بالشهادتين: شهادة أن لا إلـه إلا اللـه بالشـرك ، وأن محمدا رسول الله بادعاء النبوة، وذلك أصل التوحيد، بل أصـل الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله و أن

0

محمدا رسول الله .

فلمـا بين ذلـك لم يجعـل النـاس ييأسـون ، فقـال : (لا تـزال طائفة من أمتي على الحق منصورة).

والطائفة : الجماعة.

وقوله : (على الحق) ، جار ومجرور خبر تزال .

قوله : (منصورة)، خبر ثان ، ويجوز أن يكون حالا، والمعـنى : لا تزال على الحق، وهي كذلك أيضا منصورة.

قوله : (لا يضـرهم من خـذلهم ولا من خـالفهم)، خـذلهم؛ أي: لم ينصرهم ويوافقهم على ما ذهبوا إليه ، وفي هـذا دليـل على أنـه سيوجد من يخذلهم ، لكنه لا يضرهم ؛ لأن الأمور بيد الله، وقد قـال صـلى اللـه عليـه وسـلم : (واعلم أن الأمـة لـو اجتمعـوا على أن يضـروك بشـيء لم يضـروك إلا بشـيء قـد كتبـه اللـه عليـك)[1] ، وكذلك لا يضرهم من خالفهم ؛ لأنهم منصورون بنصر اللـه؛ فاللـه ـ عز وجل ـ إذا نصر أحد أن يذله.

([1]) تقدم (ص259).

قوله : (حتى يأتي أمر الله) ، أي : الكـوني، وذلـك عنـد قيـام السـاعة عنـدما يـأتي أمـره سـبحانه وتعـالى بـأن تقبض نفس كـل مؤمن ، حتى لا يبقى إلا شرار الخلق؛ فعليهم تقوم الساعة.
الشاهد من هـذا الحـديث : قولـه في روايـة البرقـاني : (حـتى يلحق حي من أمتي بالمشركين ويعبد فئام من أمتي الأوثان).

0

وقوله : (لا تزال طائفة من أمـتي على الحـق منصـورة) هـذه لم يحدد مكانها؛ فتشمل جميع بقـاع الأرض في الحـرمين و العـراق وغيرهما .
فالمهم أن لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمـر الله .
مسألة : قـال بعض السـلف : إن الطائفـة المنصـورة هم أهـل الحديث؛ فما مدى صحة هذا القول؟
الجواب : هذا ليس بصحيح على إطلاقه، بل لابد من التفصـيل، فإن أريد بذلك أهل الحديث المصطلح عليه، الذين يأخذون الحـديث رواية ودراية وأخرج منهم الفقهاء وعلماء التفسير ومـا أشـبه ذلـك؛ فهذا ليس بصحيح؛ لأن علماء التفسير والفقهاء الذين يتحـرون على الدليل هم في الحقيقة من أهل الحـديث، ولا يختص بأهـل الحـديث صناعة؛ لأن العلوم الشرعية تفسير ، وحديث، وفقه ... إلخ .
فالمقصود: إن كل من تحاكم إلى الكتاب والسنة؛ فهو من أهل الحديث بالمعنى العام .
وأهل الحديث هم : كـل من يتحـرى العمـل بسـنة رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم ؛ فيشـمل الفقهـاء الـذين يتحـرون العمـل بالسنة، وإن لم يكونوا من أهل الحديث اصطلاحا .
فشيخ الإسلام ابن تيميه مثلا لا يعتبر اصطلاحا ، من المحدثين ، ومع ذلك؛ فهو رافع لراية الحديث .
والإمام أحمد رحمه الله تنازعه طائفتان : أهل الفقه قالوا: إنـه فقيه، وأهل الحديث قالوا: إنه محدث.

*فيه مسائل :
الأولى : تفسـير آيـة النسـاء . الثانيـة : تفسـير آيـة المائـدة . الثالثة: تفسير آية الكهف.

وهـو إمـام في الفقـه والحـديث والتفسـير ، ولاشـك أن أقـرب الناس تمسكا بالحديث هم الذين يعتنون به .
ويخشى من التعبير بأن الطائفة المنصورة هم أهل الحـديث أن يظن أنهم أهل الحديث الذين يعتنون به اصطلاحا ، فيخرج غيرهم .
فإذا قيل : أهل الحديث بالمعنى الأعم الذين يأخذون بالحديث ، سواء انتسبوا إليه اصـطلاحا واعتنـوا بـه أو لم يعتنـوا، لكنهم أخـذوا به ؛ فحينئذ يكون صحيحا.

* * *

*فيه مسائل :
*الأولى : تفسير آية النساء ، وهي قولـه تعـالى : (ألم تـر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتـاب يؤمنـون بـالجبت والطـاغوت) ، وقـد سبق ذلك .
*الثانية : تفسـير آيـة المائـدة ، وهي قولـه تعـالى : (قـل هـل أنبئكم بشر من ذلك مثوبـة عنـد اللـه من لعنـه اللـه وغضـب عليـه وجعــل منهم القــردة والخنــازير وعبــد الطــاغوت) ، وقــد ســبق تفسيرها ، والشاهد منها هنا قوله : (وعبد الطاغوت) .
*الثالثة : تفسير آية الكهف، يعني: قولـه تعـالى : (قـال الـذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا) ، وقد سبق بيان معناها .

الرابعة : وهي أهمها : ما معنى الإيمـان بـالجبت والطـاغوت ؟ هـل هو اعتقاد قلب ؟ أو موافقة أصحابها مع بغضـها ومعرفـة بطلانهـا ؟ الخامسـة : قـولهم :إن الكفـار يعرفـون كفـرهم أهـدى سـبيلا من المؤمنين . السادسـة : وهي المقصـود بالترجمـة : أن هـذا لابـد أن يوجـد في هـذه الأمـة كمـا تقـرر في حـديث أبي سـعيد. السـابعة : تصريحه بوقوعها ـ أعني : عبادة الأوثان ـ .

---

*الرابعــة : ــ وهي أهمهــا ــ : مــا معــنى الإيمــان بــالجبت والطاغوت؟ هل هو اعتقاد القلب ، أو موافقـة أصـحابها مـع بغضـها ومعرفة بطلانها؟

أما إيمان القلب واعتقاده؛ فهذا لاشك في دخوله في الآية.

وأما موافقة أصحابها في العمل مـع بغضـها ومعرفـة بطلانهـا ؛ فهذا يحتاج إلى تفصـيل ، فـإن كـان وافـق أصـحابها بنـاء على أنهـا صحيحة؛ فهذا كفر، وإن كان وافق أصحابها ولا يعتقد أنهـا صـحيحة؛ فإنـه لا يكفـر، لكنـه لاشـك على خطـر عظيم يخشـى أن يـؤدي بـه الحال إلى الكفر والعياذ بالله .

*الخامسـة : قـولهم إن الكفـار الـذين يعرفـون كفـرهم أهـدى سبيلا من المؤمنين، يعني: إن هذا القـول كفـر وردة ؛ لأن من زعم أن الكفار الذين يعـرف كفـرهم أهـدى سـبيلا من المؤمـنين ؛ فإنـه كافر لتقديمه الكفر على الإيمان.

*السادسة ـ وهي المقصود بالترجمة ـ : أن هـذا لابـد أن يوجـد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد.

*السابعة : تصريحه بوقوعها ؛ أعني: عبـادة الأوثـان، والترجمـة التي أشار

الثامنة: العجب العجاب : خروج من يدعي النبوة؛ مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمـة ، وأن الرسـول حق، وأن القرآن حق، وفيه أن محمدا خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله، مع التضاد الواضح، وقـد خـرج المختـار في آخـر عهـد الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

إليهما رحمه الله هي قوله : (باب ما جـاء أن بعض هـذه الأمـة يعبد الأوثان)، وحديث أبي سعيد هو قوله صلى اللـه عليـه وسـلم : (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة القذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : يا رسول اللـه ! اليهـود والنصـارى؟ قـال : فمن ؟) أخرجاه.

وهذا يتضمن التحذير من أن تقع هذه الأمة في مثل ما وقع فيه من سبقها.

*الثامنـة : العجب العجـاب : خـروج من يـدعي النبـوة، مثـل المختار مع تكلمه بالشهادتين ، وتصريحه بأنـه من هـذه الأمـة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق، وفيه أن محمدا خاتم النبـيين ، ومـع هذا يصدق في هذا كله، مع التضاد الواضح، وقـد خـرج المختـار في آخر عهد الصحابة ، وتبعه فئام كثيرة.

والمختـار هـو ابن أبي عبيـد الثقفي ، خـرج وغلب على الكوفـة في أول خلافة ابن الزبير رضي الله عنه ، وأظهـر محبـة آل الـبيت، ودعا الناس إلى الثأر من قتلة الحسين ؛ فتتبعهم، وقتل كثـيرا ممن باشر ذلك أو أعان عليه ، فانخدع به العامـة، ثم ادعى النبـوة وزعم أن جبريل يأتيه.

ولاشك أن هذه المسـألة من العجب العجـاب أن يـدعي النبـوة وهو يؤمن

التاسـعة : البشـارة بـأن الحـق لا يـزول بالكليـة كمـا زال فيمـا مضى، بل لا تزال عليه طائفة. العاشرة : الآيـة العظمى : أنهم مـع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خـالفهم . الحاديـة عشـرة : أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة . الثانية عشـرة: مـا فيـه من الآيـات العظيمة :

أن القرآن حق ، وفي القرآن أن محمدا صلى الله عليـه وسـلم خاتم النبيين ؛ فكيف يكون صادقا، وكيف يصدق مع هذا التناقض؟ ! ولكن من لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

*التاسعة : البشارة بـأن الحـق لا يـزول بالكليـة كمـا زال فيمـا مضي ، بل لا تزال عليه طائفة ، يعني: من هذه الأمة منصـورة إلى يوم القيامة.

يؤخــذ من آخــر الحــديث : (لا تــزال من أمــتي على الحــق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى) .

*العاشرة : الآية العظمى أنهم مع قتلهم لا يضرهم من خـذلهم و لا من خالفهم، وهذه آية عظمى : أن الكثرة الكاثرة من بـني آدم خلاف ذلك، ومـع ذلـك لا يضـرونهم ، (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَـةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)(البقرة: من الآية249).

*الحاديـة عشـرة : أن ذلـك الشـرط إلى قيـام السـاعة ، قـد سبق .

*الثانية عشرة : ما فيه من الآيات العظيمـة ، أي : مـا في هـذا الحـديث من الآيـات العظيمـة، والآيـات : جمـع آيـة ، وهي العلامـة، والآيـات الـتي يؤيـد اللـه بهـا رسـله عليهم الصـلاة و السـلام هي العلامات الدالة على صدقهم .

منهـا إخبـاره بـأن اللـه زوى لـه المشـارق و المغـارب، وأخـبر بمعنى ذلك فوقع كمـا أخـبر؛ بخلاف الجنـوب و الشـمال . وإخبـاره بأنـه أعطي الكـنزين . وإخبـاره بإجابـة دعوتـه لأمتـه في الاثنـتين . وإخباره بأنه منع الثالثة. وإخبـاره بوقـوع السـيف، وأنـه لا يرفـع إذا وقع. وإخباره بإهلاك بعضهم بعضـا ، وسـبي بعضـهم بعضـا. وخوفـه على أمته من الأئمة المضلين . وإخباره بظهـور المتنبـئين في هـذه الأمة. وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة . وكل هذا كما أخبر ، مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون في العقول.

فما في هذا الحديث : إخباره بأن الله ـ سبحانه وتعـالى ــ زوى له المشارق و المغارب ، وأخبر بمعنى ذلك ؛ فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب و الشمال، فإن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم امتدت نحو الشرق و الغرب أكـثر من امتـدادها نحـو الجنـوب و الشـمال ، وهذا من علم الغيب الذي أطلع الله رسوله صلى الله عليـه وسـلم عليه.

ومنها: إخباره أنه صلى الله عليه وسـلم أعطي الكـنزين، وهمـا كنز كسرى و قيصر.

ومنها : إخباره بإجابة دعوته في الاثنتين، وهما ألا يهلكهـا بسـنة بعامة، وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيسـتبيح بيضـتهم

حتى يكون بعضهم يهلك بعضا... إلخ ، ومنع الثالثة ، وهي ألا يجعل بأس هذه الأمة بينها؛ فإن هذا سوف يكون كما صرح به حديث عامر بن سعد عن أبيه : (إن النبي صلى الله عليه وسلم أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية؛ فركع فيه ركعتين وصلينا معه، ودعا دعاء طويلا، وانصرف إلينا ؛ فقال : (سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة؛ فأعطانيها، وسألته

الثالثة عشرة : حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين .

ألا يهلك أمتي بالغرق؛ فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم؛ فمنعنيها)[1]؛

ومن هذه الآيات التي تضمنها هذا الحديث : إخباره بوقوع السيف في أمته، وأنه إذا وقع؛ فإنه لا يرفع حتى تقوم الساعة، وقد كان الأمر كذلك؛ فإنه منذ سلت السيوف على المسلمين من بعضهم بعض بقي هذا إلى يومنا هذا .

ومنها : إخباره بإهلاك بعضهم بعضا وسبي بعضهم بعضا، هذا واقع.

ومنها : خوفه على أمته من الأئمة المضلين ، والأئمة : جمع إمام ، والإمام : هو من يقتدى به، إما لعلمه، وإما لسلطته ، وإما لعبادته.

ومنها : إخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وأنهم ثلاثون، قال ابن حجر: (هذا الحصر بالثلاثين لا يعنى انحصار المتنبئين بذلك؛ لأنهم أكثر من ذلك) .

قلت : فيكون ذكر الثلاثين لبيان الحد الأدنى؛ أي : أنهم لا ينقصون عن ذلك العدد، وإنما عدلنا عن ظاهر اللفظ للأمر الواقع، وهذا ـ والله أعلم ـ هو السر في ترك المؤلف رحمه الله العدد في مسائل الباب مع أنه صريح في الحديث.

---

(1) مسلم : كتاب الفتن وأشراط الساعة / باب هلاك هذه الأمة بعضهم بعضا .

ومنها : إخباره ببقـاء الطائفـة المنصـورة، وهـذا كلـه وقـع كمـا أخبر.

قال الشيخ رحمه الله: (مع أن كل واحدة منها أبعـد مـا يكـون في العقول).

*الثالثة عشرة : حصر الخوف على أمتـه من الأئمـة المضـلين، ووجه هذا

الرابعة عشرة : التنبيه على معنى عبادة الأوثان .

الحصـر أن الأئمـة ثلاثـة أقسـام : أمـراء وعلمـاء و عبـاد ؛ فهم الذين يخشى من إضلالهم لأنهم متبوعون؛ فـالأمراء لهم السـلطة و التنفيذ ، والعلماء لهم التوجيه والإرشاد ، والعبـاد لهم تغريـر النـاس وخـداعهم بـأحوالهم ؛ فهـؤلاء يطـاعون ويقتـدى بهم، فيخـاف على الأمة منهم؛ لأنهم إذا كانوا مضـلين ضـل بهم كثـير من النـاس، وإذا كانوا هادين اهتدى بهم كثير من الناس .

*الرابعة عشرة : التنبيـه على معـنى عبـادة الأوثـان ، يعـني أن عبادة الأوثـان لا تختص بـالركوع و السـجود لهـا ، بـل تشـمل اتبـاع المضلين الذين يحلون ما حـرم اللـه فيحلـه النـاس ، ويحرمـون مـا أحله الله فيحرمه الناس .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى اللـه على نبينـا محمـد وعلى آله وصحبه أجمعين.

*   *   *

باب ما جاء في السحر

السحر لغة : ما خفي ولطف سببه، ومنه سمي السحر لآخر الليل؛ لأن الأفعال التي تقع فيه تكون خفية، وكذلك سمي السحور ؛ لما يؤكل في آخر الليل؛ لأنه يكون خفيا ؛ فكل شيء خفي سببه يسمى سحرا.

وأما في الشرع ؛ فإنه ينقسم إلى قسمين :

الأول : عقد ورقى ؛ أي: قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد به ضرر المسحور، لكن قد قال الله تعالى: (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)(البقرة: من الآية102).

الثاني : أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور وعقله وإرادته وميله؛ فتجده ينصرف ويميل ، وهو ما يسمى عندهم بالصرف و العطف.

فيجعلون الإنسان ينعطف على زوجته أو امرأة أخرى، حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء، والصرف بالعكس من ذلك.

فيؤثر في بدن المسحور بإضعافه شيئا فشيئا حتى يهلك .

وفي تصوره بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هي عليه .

وفي عقله؛ فربما يصل إلى الجنون و العياذ بالله .

فالسحر قسمان :

ا- شرك، وهو الأول الذي يكون بواسطة الشياطين؛ يعبدهم و يتقرب إليهم ليسلطهم على المسحور .

2- ب- عدوان ، وفسق وهو الثاني الذي يكون بواسطة الأدوية والعقاقير ونحوها .

وبهذا التقسيم الذي ذكرناه نتوصل به إلى مسألة مهمة، وهي: هل يكفر

الساحر أو لا يكفر؟

اختلف في هذا أهل العلم :
فمنهم من قال : إنه يكفر.
ومنهم من قال : إنه لا يكفر .
ولكن التقسيم السابق الذي ذكرناه يتبين به حكم هذه المسألة، فمن كان سحره بواسطة الشياطين؛ فإنه يكفر لأنه لا يتأتى ذلك إلا بالشرك غالبا ؛ لقوله تعالى : (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ...) إلى قوله: (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ)(البقرة:102)، ومن كان سحره بالأدوية والعقاقير ونحوهما؛ فلا يكفر، ولكن يعتبر عاصيا معتديا.
وأما قتل الساحر ، فإن كان سحره كفرا؛ قتل ردة، إلا أن يتوب على القول بقبول توبته، وهو الصحيح ، وإن كان سحره دون الكفر؛ قتل قتل الصائل؛ أي: قتل لدفع أذاه و فساده في الأرض ، وعلى هذا يرجع في قتله إلى اجتهاد الإمام، وظاهر النصوص التي ذكرها المؤلف أنه يقتل بكل حال؛ فالمهم أن السحر يؤثر بلا شك ، لكنه لا يؤثر بقلب الأعيان إلى أعيان أخرى؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله ـ عز وجل ـ ، وإنما يخيل إلى المسحور أن هذا الشيء انقلب وهذا الشيء تحرك أو مشى وما أشبه ذلك، كما جرى لموسى عليه الصلاة و السلام أمام سحرة آل فرعون ، حيث كان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى.
إذا قال قائل : ما وجه إدخال باب السحر في كتاب التوحيد؟

وقول الله تعالى : (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ)(البقرة: من الآية102).
وقوله : (يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ)(النساء: من الآية50).

نقول مناسبة الباب لكتاب التوحيد :
لأن من أقسام السحر ما لا يتأتى غالبا إلا بالشرك؛ فالشياطين لا تخدم الإنسان غالبا إلا لمصلحة، ومعلوم أن مصلحة الشيطان أن يغوي بني آدم فيدخلهم في الشرك و المعاصي .
* * *

وقد ذكر المؤلف في الباب آيتين :

الآية الأولى : قوله تعالى : (ولقد علموا) .

ضـمير الفاعـل يعـود على متعلمي السـحر، والجملـة مؤكـدة بالقسم و اللام وقد.

ومعنى (اشتراه) ؛ أي: تعلمه.

قوله : (ما له في الآخرة من خلاق) ؛ أي: مـا لـه من نصـيب، وكل من ليس له في الآخرة من خلاق ؛ فمقتضـاه أن عملـه حابـط باطل ، لكن إما أن ينتفي النصيب انتفاء كليا فيكون العمل كفرا، أو ينتفي كمال النصيب فيكون فسقا.

*   *   *

الآية الثانية قوله تعالى : (يؤمنـون) ؛ أي: اليهـود. (بـالجبت)؛ أي السحر كما فسرها عمر بن الخطاب.

واليهود كانوا من أكثر النـاس تعلمـا للسـحر و ممارسـة لـه ، و يدعون أن سليمان عليه السلام علمهم إياه، وقد اعتدوا ؛ فسـحروا النبي صلى الله عليه وسلم

قال عمر : (الجبت : السحر ، والطاغوت: الشيطان)[1] .

قوله : (الطاغوت) . أجمع ما قيل فيه: هو ما تجـاوز بـه العبـد حده؛ من معبود ، أو متبوع، أو مطاع .

ومعنى (من معبود) ؛ أي: بعلمه ورضاه، هكـذا قـال ابن القيم رحمه الله، وقد سبق في أول الكتاب[2] تعليق على هذا القول عنـد قوله : (واجتنبوا الطاغوت).

الشاهد : قوله : (بالجبت)، حيث فسرها أمـير المؤمـنين عمـر رضي الله عنه بأنها السحر.

وأمـا تفسـير الطـاغوت بالشـيطان ؛ فإنـه من بـاب التفسـير بالمثال.

والسلف رحمهم الله يفسرون الآية أحيانا بمثـال يحتـذى عليـه، مثـل قولـه تعـالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَـا الْكِتَـابَ الَّذِينَ اصْـطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَـا

---

(2) علقه البخاري في (الصحيح) ـ كتاب التفسير ، قال الحافظ في الفتح 8/252: (إسناده قوي).

(2) سبق (ص16).

فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ)(فاطر: من الآية32).

قال بعض المفسرين : الظالم لنفسه: الذي لا يصلي إلا بعد خروج الوقت، والمقتصد: الذي يصلي في آخر الوقت، و السابق بالخيرات: الذي يصلي في أول الوقت.

وهذا مثال من الأمثلة، وليس ما تدل عليه الآية على وجه الشمول،

وقال جابر : (الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان ، في كل حي واحد)[1].

ولهذا فسرها بعضهم بأن الظالم لنفسه الذي لا يخرج الزكاة، والمقتصد من يخرج الزكاة و لا يتصدق، و السابق بالخيرات من يخرج الزكاة و يتصدق.

فتفسير عمر رضي الله عنه للطاغوت بالشيطان تفسير بالمثال؛ لأن الطاغوت أعم من الشيطان؛ فالأصنام تعتبر من الطواغيت؛ كما قال الله تعالى: (وعبد الطاغوت) (المائدة : 60) ، والعلماء والأمراء الذين يضلون الناس يعتبرون طواغيت؛ لأنهم طغوا وزادوا ما ليس لهم به حق.

* * *

قوله : (الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد) .

هذا أيضا من باب التفسير بالمثال ، حيث إنه جعل من جملة الطواغيت الكهان .

والكاهن ؛ قيل : هو الذي يخبر عما في الضمير.

وقيل : الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل .

---

(1) علقه البخاري في (الصحيح) ـ كتاب التفسير ، وقال ابن حجر في (الفتح) (8/252) : (وصله ابن أبي حاتم من طريق وهب بن منبه) .

وكان هـؤلاء الكهـان تـنزل عليهم الشـياطين بمـا اسـترقوا من السـمع من السـماء، وكـان كـل حي من أحيـاء العـرب لهم كـاهن يستخدم الشياطين، فتسترق له السمع، فتأتي بخبر السماء إليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات. قـالوا: يـا رسـول اللـه ! ومـا هن ؟

وكانوا يتحاكمون إليهم في الجاهلية.

والطواغيت ليسوا محصورين في هؤلاء ؛ فتفسـير جـابر رضـي الله عنه تفسير بالمثال كتفسير عمر رضي الله عنه .

* * *

قوله : (اجتنبوا السبع الموبقات) .

النبي صلى الله عليه وسلم أنصح الخلـق للخلـق ؛ فكـل شـيء يضـــر النـــاس في دينهم و دنيـــاهم يحـــذرهم منـــه، ولهـــذا قـــال: (اجتنبـوا)، وهي أبلـغ من قولـه: اتركـوا ؛ لأن الاجتنـاب معنـاه أن تكون في جانب وهي في جانب آخر، وهذا يستلزم البعد عنها.

و(اجتنبــوا) ؛ أي: اتركــوا، بــل أشــد من مجــرد الــترك ؛ لأن الإنسان قد يترك الشيء وهو قريب منه، فإذا قيـل: اجتنبـه؛ يعـني: اتركه مع البعد.

وقولـه : (السـبع الموبقـات) . هـذا لا يقتضـي الحصـر ؛ فـإن هناك موبقات أخـرى، ولكن النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم يحصـر أحيانا بعض الأنواع والأجناس ، ولا يعني بذلك عدم وجود غيرها.

ومن ذلك حديث : (السبعة الذين يظلهم الله في ظلـه يـوم لا ظل إلا ظله)[1]؛ فهناك غيرهم ، ومثله :

([1]) أخرجه البخاري: كتاب الجماعة والإمامة/ باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، ومسـلم: كتـاب الزكاة/ باب فضل إخفاء الصدقة.

(ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ، ولا يـزكيهم، ولهم عذاب أليم) ، ثم قال : (المسبل و المنـان و المنفـق سـلعته بالحلف الكاذب)[1] ، وأمثلة هذا كثيرة، وإن قلنـا بدلالـة حـديث أبي هريرة في البـاب على الحصـر لكونـه وقـع بــ (أل) المعرفـة؛ فإنـه حصرها لأن هذه أعظم الكبائر .

قوله : (قالوا : يا رسول الله ! وما هن؟).

كـان الصـحابة رضـي اللـه عنهم أحـرص النـاس على العلم ، والنبي صلى الله عليه وسلم إذا ألقى الشيء مبهما طلبوا تفسـيره وتبيينـه، فلمـا حـذرهم النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم من السـبع الموبقـات قـالوا ذلـك لأجـل أن يجتنبـوهن ، فـأخبرهم، وعلى هـذه القاعدة (أن الصحابة رضي الله عنهم أحرص النـاس على العلم)، لكن ما كانت الحكمة في إخفائه؛ فإن النبي صلى الله عليـه وسـلم لا يخبرهم؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : (إن لله تسـعة و تسـعين اسما، من أحصاها دخل الجنـة)[2]،ولم يـرد تبيينهـا عن النـبي صـلى الله عليه وسلم في الحديث صحيح.

وقد حاول بعض الناس أن يصحح حديث سرد الأسـماء التسـعة و التسعين[3]، ولم يصب، بل نقل شيخ الإسلام اتفاق أهل المعرفــة في الحديث على أن عدها و سـردها لا يصـح عن النـبي صـلى اللـه عليه وسلم[4] ، وصدق رحمه الله بدليل الاختلاف الكبير فيها.

فمن حاول تصحيح هذا الحديث؛ قال : إن الثـواب عظيم، (من أحصاها

---

[1] أخرجه مسلم في (الإيمان ، باب غلظ تحريم إسبال الإزار).

[2] أخرجه البخاري وغيره .

[3] أخرجه الترمذي (3507)، وابن حبان (2384)، و الحاكم (1/22).

[4] قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (الفتـاوى) (6/382) : (تعيينها ليس من كلام النـبي صـلى الله عليه وسلم باتفاق أهل المعرفة بحديثه) .

دخـل الجنـة)؛ فلا يمكن للصـحابة أن يفوتـوه، فلا يسـألوا عن تعيينها فدل هذا على أنها قد عينت من قبل النبي صـلى اللـه عليـه وسلم.

لكن يجاب عن ذلك بأنه ليس بلازم، ولو عينها النبي صلى اللـه عليه وسلم ؛ لكانت هذه الأسماء التسع و التسعين معلومـة للعـالم أشد من علم الشـمس، ولنقلت في (الصـحيحين) وغيرهمـا ؛ لأن هذا مما تدعو الحاجـة إليـه ، وتلح بحفظـه و العنايـة بـه ؛ فكيـف لا يأتي إلا عن طريق واهية وعلى صور مختلفة؟!

فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يبينهـا لحكمـة بالغـة ، وهي أن يطلبها الناس و يتحروها في كتاب الله وسنة رسول الله صلى اللـه عليه وسلم ؛ حتى يعلم الحريص من غير الحريص.

كما ولم يبين النبي صلى الله عليـه وسـلم سـاعة الإجابـة يـوم الجمعة، و العلماء اختلفوا في حديث أبي موسى الـذي في مسـلم؛ حيث قـال فيـه : (إنهـا مـا بين أن يخـرج الإمـام إلى أن تقضـى الصلاة)[1]؛ فـإن بعضـهم صـححه وبعضـهم ضـعفه، لكن هـو عنـدي صحيح؛ لأن علة التضعيف فيه واهية، والحال تؤيد صحته؛ لأن الناس مجتمعون أكبر اجتماع في البلد على صـلاة مفروضـة؛ فيكـون هـذا الوقت في هذه الحال حريا بإجابـة الـدعاء ، وكـذلك ليلـة القـدر لم يبينها النبي صلى الله عليه وسلم مع أنها من أهم ما يكون.

وقوله:(الموبقات)؛ أي: المهلكـات ، قـال تعـالى:(وجعلنـا بينهم موبقا) (الكهف :52)؛ أي: مكان هلاك.

قوله : (قالوا : يا رسول الله ! وما هن ؟) . سألوا عن تبيينهـا، وبه تتبين الفائدة من الإجمال ، وهي أن يتطلع المخاطب لبيان هـذا المجمـل؛ لأنـه إذا جـاء مبينـا من أول وهلـة؛ لم يمكن لـه التلقي و القبول كما إذا أجمل ثم بين.

قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم اللـه إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، والتولي يـوم الزحـف، وقـذف المحصـنات الغافلات المؤمنات)[1] .

قولـه : (ومـا هن) . (مـا) : اسـم اسـتفهام مبتـدأ ، و(هن) : خبرالمبتدأ.

---

[1] أخرجه مسلم : كتاب الجمعة / باب في الساعة التي في يوم الجمعة.

[1] أخرجه البخاري (كتاب الحدود ، باب رمي المحصنات) ، ومسلم (كتاب الإيمان ، باب بيان الكبائر).

وقيل : بالعكس ، (ما) : خبر مقـدم وجوبـا؛ لأن الاسـتفهام لـه الصدارة،
و(هن) : مبتدأ مؤخر .
لأن (هن) ضمير معرفة، و(ما) نكـرة، والقاعـدة المتبعـة أنـه يخبر بالنكرة عن المعرفة والعكس .
قوله : (قال : الشـرك باللـه) . قدمـه لأنـه أعظم الموبقـات؛ فإن أعظم الذنوب أن تجعل لله ندا وهو خلقك.
والشرك بالله يتناول الشرك بربوبيتـه أو ألوهيتـه أو أسـمائه أو صفاته.
فمن اعتقد أن مع الله خالقا أو معينا؛ فهو مشـرك، أو أن أحـدا سوى الله يستحق أن يعبد؛ فهو مشرك وإن لم يعبده ، فإن عبده ؛ فهو أعظم ، أو أن لله مثيلا في أسـمائه؛ فهـو مشـرك، أو أن اللـه اسـتوى على العـرش كاسـتواء الملـك على عـرش مملكتـه؛ فهـو مشرك ، أو أن اللـه يـنزل إلى السـماء الـدنيا كـنزول الإنسـان إلى أسفل بيته من أعلى ؛ فهو مشرك.
قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِـرُ مَـا دُونَ ذَلِـكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

(النساء: من الآية48)، وقال تعالى: (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَـرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَـارٍ)(المائـدة: من الآية72).

وبين صلى الله عليه وسلم أن الشرك أعظم ما يكون من الجناية والجرم بقوله حين سئل: أي الذنب أعظم: (أن تجعل لله نداً وهو خلقك) [1] .

فالذي خلقك وأوجدك وأمدك وأعدك ورزقك كيف تجعل له نداً؟ فلو أن أحداً من الناس أحسن إليك بما دون ذلك، فجعلت له نظيراً؛ لكان هذا الأمر بالنسبة إليه كفراً وجحوداً.

قوله: (والسحر)؛ أي: من الموبقات، وظاهر كلام النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا فرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين؛ فالذي لا يأتي إلا بالإشراك بهم؛ فهو داخل في الشرك بالله.

وإن كان دون ذلك؛ فهو أيضاً جرم عظيم؛ لأن السحر من أعظم ما يكون في الجناية على بني آدم؛ فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه، ويقلقه فيصبح كالبهائم، بل أسوأ من ذلك؛ لأن البهيمة خلقت هكذا على طبيعتها، أما الآدمي؛ فإنه إذا صرف عن طبيعته وفطرته لحقه من الضيق والقلق ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولهذا كان السحر يلي الشرك بالله ـ عز وجل ـ .

قوله: (وقتل النفس)؛ القتل: إزهاق الروح، والمراد بالنفس: البدن الذي فيه الروح، والمراد بالنفس هنا: نفس الآدمي وليس البعير والحمار وما أشبهها.

وقوله: (التي حرم الله) . مفعول (حرم) محذوف تقديره: حرم قتلها؛ فالعائد على الموصول محذوف.

وقوله: (إلا بالحق)؛ أي: بالعدل؛ لأن هذا حكم، والحق إذا ذكر بإزاء الأحكام؛ فالمراد به العدل، وإذا ذكر بإزاء الأخبار؛ فالمراد به الصدق، والعدل: هو ما أمر الله به ورسوله، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ)(النحل: من الآية90).

والنفس المحرمة أربعة أنفس، هي: نفس المؤمن، والذمي، والمعاهد، والمستأمن؛ بكسر الميم: طالب الأمان.

فالمؤمن لإيمانه، والذمي لذمته، والمعاهد لعهده، والمستأمن لتأمينه.

---

[1] أخرجه البخاري (كتاب الديات، باب قوله تعالى: (ومن يقتل مؤمناً . .)) ، ومسلم في (الإيمان، باب كون أقبح الذنوب).

والفـرق بين الثلاثـة ــ الـذمي، والمعاهـد، والمسـتأمن ــ : أن الذمي هو الذي بيننـا وبينـه ذمـة؛ أي: عهـد على أن يقيم في بلادنـا معصوماً مع بذل الجزية.

وأما المعاهد؛ فيقيم في بلاده، لكن بيننا وبينه عهد أن لا يحاربنا ولا نحاربه.

وأما المستأمن؛ فهو الذي ليس بيننا وبينـه ذمـة ولا عهـد، لكننـا أمنـاه في وقت محـدد؛ كرجـل حـربي دخـل إلينـا بأمـان للتجـارة ونحوهـا، أو ليفهم الإسـلام، قـال تعـالى: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) (التوبة: من الآية6) ، وهناك فرق آخر، وهـو أن العهـد يجـوز من جميـع الكفـار، والذمة لا تجوز إلا من اليهود والنصارى والمجوس دون بقية الكفار، وهذا هـو المشـهور من المـذهب، والصـحيح: أنهـا تجـوز من جميـع الكفار.

فهذه الأنفس الأربع قتلها حـرام، لكنهـا ليسـت على حـد سـواء في التحــريم؛ فنفس المــؤمن أعظم، ثم الــذمي، ثم المعاهــد، ثم المستأمن.

وهل المستأمن مثل المعاهد أو أعلى ؟

أشــك في ذلــك؛ لأن المســتأمن من لــه عهــد خــاص، بخلاف المعاهدين؛ فالمعاهدون يتولى العهد أهل الحل والعقد منهم؛ فليس بيننا عقـود تأمينـات خاصـة، وأيـاً كـان؛ فالحـديث عـام، وكـل منهم معصوم الدم والمال.

وقوله؛ (إلا بالحق)؛ أي: مما يوجب القتل، مثل: الـثيب الـزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

قوله: (وأكل الربا). الربا في اللغة: الزيادة، ومنه قولـه تعـالى: (فَـإِذَا أَنْزَلْنَـا عَلَيْهَـا الْمَـاءَ اهْتَـزَّتْ وَرَبَت)(الحج: من الآية5)؛ يعـني: زادت.

وفي الشرع: تفاضل في عقـد بين أشـياء يجب فيهـا التسـاوي، ونسأ في عقد بين أشياء يجب فيها التناقض.

والربا: ربا فضل؛ أي: زيادة، وربا نسيئة؛ أي: تأخير، وهو يجـري في ستة أمـوال بينهـا الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم في قولـه: (الـذهب بالـذهب، والفضـة بالفضـة، والـبر بـالبر، والتمـر بـالتمر، والشعير بالشـعير، والملح بـالملح) [1] ؛ فهـذه هي الأمـوال الربويـة بنص الحـديث وإجمـاع المسـلمين، وهـذه الأصـناف السـتة إن بعث منها جنساً بمثله جرى فيه ربا الفضل وربا النسيئة، فلو زدت واحداً على آخر؛ فهـو ربـا فضـل، أو سـويته لكن أخـرت القبض؛ فهـو ربـا نسـيئة، وربمـا يجتمـع النوعـان كمـا لـو بعث ذهبـاً بـذهب متفاضـلاً والقبض متأخر؛ فقد اجتمع في هذا العقد ربا الفضل وربـا النسـيئة، وعلى هذا، فـإذا بعت جنسـاً بجنسـه؛ فلا بـد من أمـرين: التسـاوي، والتقابض في مجلس العقد.

وإذا اختلفت الأجنـاس واتفقت العلـة؛ أي: اتفـق المقصـود في العوضين؛

فإنه يجري ربا النسيئة دون ربا الفضل؛ فذهب بفضـة متفاضـلاً مـع القبض جائز، وذهب بفضة متساوياً مع التأخير ربا لتأخر القبض.

قال صلى الله عليه وسلم : (فإذا اختلفت هذه الأصناف؛ فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد) [1].

وقولنـا: اتفقـا في الغـرض والمقصـود احـترازاً ممـا إذا اختلـف الغرض منها.

فالمذهب مثلاً ثمن للأشياء، والفضة ثمن للأشياء، والبر قوت.

وعلى هذا يجوز بيع صاع من البر بدينار من الذهب مـع التفـرق وعدم التساوي لاختلاف القصد؛ لأن هـذا يقصـد بـه النقـد والثمنيـة، وهذا يقصد به القوت.

فإن قيل: الحديث يـدل على أنـه لا يصـح إلا بـالقبض؛ فمـا هـو الجواب؟

---

[1] أخرجه مسلم (كتاب المساقاة، باب الصرف)

[1] أخرجه مسلم (كتاب المساقاة، باب الصرف)

نقول: حقيقة إن هـذا مقتضـى الحـديث أنـك إذا بعت ذهبـاً بـبر وجب التقابض؛ لقوله صلى اللـه عليـه وسـلم : (فـإذا اختلفت هـذه الأصناف؛ فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد).

والجواب عن هذا أن نقول: قد دلت السـنة من وجـه آخـر على أن القبض ليس بشرط فيما إذا كان أحدهما ثمناً، قـال ابن عبـاس: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينـة وهم يسـلفون في الثمـار السنة والنستين، فقال: (من أسلف في شـيء؛ فليسـلف في كيـل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم) [2] .

وعلى هذا ؛ فحديث : (فـبيعوا كيـف شـئتم إذا كـان يـداً بيـد) لا عمــوم لمفهومــه؛ فلا يشــترط القبض في كــل صــورة من صــور المخالفة ، وإنما يشترط

القبض فيما إذا اتفقا في الغرض؛ كذهب بفضة، أو بر بشـعير، وأمـا ذهب أو فضة بشعير ونحوه؛ فلا يشترط القبض.

واختلـف العلمـاء فيمـا عـدا هـذه الأصـناف السـتة؛ فالظاهريـة قـالوا: لا يجـري الربـا إلا في هـذه الأصـناف السـتة؛ لأنهم لا يـرون القياس، فيقتصر على ما جاء بـه النص، فيجـوز عنـدهم مبادلـة أرز بـذرة متفاضـلاً مـع تـأخر القبض؛ لأنهمـا لا يـدخلان في المنصـوص عليه.

وأما أهل القياس من المذاهب الأربعة؛ فإنهم عــدوا الحكم إلى غيرها؛ إلا أن بعضـاً منهم لم يعـد الحكم إلى غيرهـا، وهـو من أهـل القياس، مثل ابن عقيل رحمه الله؛ فإنه يعد الحكم إلى غيرها، وهو من أهل القياس، مثل ابن عقيـل رحمـه اللـه؛ فإنـه قـال: لا يجـري الربا إلا في هذه الأصناف الستة، لا لأنه لا قياس، ولكن لأن العلماء اختلفـوا واضـطربوا في العلـة الـتي من أجلهـا كـان الربـا، فلمـا اضطروا في العلة ألغينا جميع هذه العلل، وأبقينا النص على ما هــو عليه من الحصر في المنصوص عليه.

والصحيح أن الربا يجـري في غـير الأصـناف السـتة، وأن العلـة هي الكيل والادخـار مـع الطعم، وهـو أن يكـون قوتـاً مـدخراً، وهـذا بالنسبة للبر والتمر والشعير.

([2] أخرجه البخاري (كتاب السلم، باب السلم في وزن معلوم)، ومسلم (كتاب المساقاة، باب السلم)

وبالنسبة للذهب والفضة: العلة هي الجنس والثمنية، فقولنا: (الجنس) لأجل أن يشمل الحلي إذا بيع بعضه ببعض، فيجري فيه الربا، مع أنه ليس بثمن، والثمنية مثل الدراهم والدنانير والأوراق النقدية المعروفة؛ فإنها بمنزلة الذهب والفضة، أو يقال: العلة الثمنية فقط والحلي خارج عن الثمنية خروجاً طارئاً؛ لأن التحلي طاريء، والأصل في الذهب والفضة الثمنية؛ لأنهما ثمن الأشياء.

وأما الملح؛ فقال شيخ الإسلام إنه يصلح به القوت؛ أي: فهو تابع له؛ فالعلة ليس أنه قوت، لكنه من ضرورياته، ولهذا لو طحنت براً ولم يكن فيه

ملح: لم يبق إلا أياماً يسيرة، فيفسد، فإذا كان فيه الملح منعه من الفساد؛ فيقول: لما كان يصلح به القوت جعل له حكمة.

وقوله: (وأكل الربا). ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الأكل؛ لأنه أعم وجوده الإنتفاع، هكذا قال أهل العلم، ولهذا قال تعالى في بني إسرائيل: (وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ)(النساء: من الآية 161)، ولم يقل أكلهم، والأخذ أعم من الأكل؛ فأكل الربا معناه أخذه، سواء استعمله في الأكل أو الفرش أو البناء أو المسكن أو غير ذلك.

قوله: (وأكل مال اليتيم). اليتيم: هو الذي مات أبوه قبل بلوغه، سواء كان ذكراً أم أنثى، أما من ماتت أمه قبل بلوغه؛ فليس يتيماً لا شرعاً ولا لغة.

لأن اليتيم مأخوذ من اليتم، وهو الانفراد؛ أي: انفرد عن الكاسب له؛ لأن أباه هو الذي يكسب له.

وخص اليتيم؛ لأنه لا أحد يدافع عنه؛ ولأنه أولى أن يرحم، ولهذا جعل الله له حقاً في الفيء ، وإذا كان أحق أن يرحم؛ فكيف يسطو هذا الرجل الظالم على ماله فيأكله ؟ !

ويقال في أكل مال اليتيم ما قيل في أكل الربا؛ فليس خاصاً بالأكل، بل حتى لو استعمله في السكن أو الفرش أو الكتب أو غيرها؛ فهو داخل في ذلك.

وأكل مال غير اليتيم ليس من الكبائر؛ لأن اليتيم له شأن خاص، ولهذا توعد الله من تأكل أموال اليتامى، قال تعالى: (إِنَّ

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْـوَالَ الْيَتَـامَى ظُلْمـاً إِنَّمَـا يَـأْكُلُونَ فِي بُطُـونِهِمْ نَـاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) (النساء:10).

قوله: (والتولي يوم الزحف). التولي: بمعنى الإدبار والإعـراض، ويوم الزحف؛ أي: يوم تلاحم الصفين في القتال مع الكفار، وسـمي يوم الزحف؛

لأن، الجموع إذا تقابلت تجد أن بعضها يزحف إلى بعض، كالذي يمشي زحفاً كل واحد منهم يهاب الآخر، فيمشي رويداً رويداً.

والتولي يوم الزحف من كبائر الـذنوب؛ لأنـه يتضـمن الإعـراض عن الجهاد في سبيل الله، وكسر قلوب المسـلمين، وتقويـة أعـداء الله، وهذا يؤدي إلى هزيمة المسلمين.

لكن هذا الحديث خصصته الآية، وهي قوله تعالى: (وَمَنْ يُـوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَـاءَ بِغَضَـبٍ مِنَ اللَّهِ)(لأنفال: من الآية16).

فالله سبحانه استثنى حالتين:

الأولى: أن يكون متحرفـاً لقتـال؛ أي: متهيئـاً لـه، كمن ينصـرف ليصلح من شأنه أو يهيئ الأسلحة ويعدها، ومنه الانحراف إلى مكان آخر يأتي العدو من جهته؛ فهذا لا يعد متولياً، إنما يعد متهيئاً.

الثانية: المتحيز إلى فئة كما إذا حصرت سرية للمسلمين يمكن أن يقضي عليها العدو، فانصرف من هؤلاء لينقذها ؛ فهذا لا بأس به لدعاء الضرورة إليه بشرط ألا يكون على الجيش ضـرر، فـإن كـان الجيش ضـرر وذهبت طائفـة كبـيرة إلى هـذه السـرية بحيث تـوهن قـوة الجيش وتكسـره أمـام العـدو؛ فإنـه لا يجـوز؛ لأن الضـرر هنـا متحقق، وإنقاذ السرية غير متحقق ؛ فلا يجوز لأن المقصود إظهـار دين الله ، وفي هـذا إذلال لـدين اللـه، إلا إذا كـان الكفـار أكـثر من مثلي المسلمين، فيجوز الفرار حينئذ؛ لقوله تعالى: (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَـعْفاً فَـإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَـابِرَةٌ يَغْلِبُـوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُـوا أَلْفَيْنِ)(لأنفـال: من الآية66) ، أو كان عندهم عـدة لا يمكن للمسـلمين مقاومتهـا، كالطـائرات إذا لم يكن عند المسلمين من صواريخ ما يدفعهم ، فإذا علم أن

الصـمود يسـتلزم الهلاك و القضـاء على المسـلمين ؛ فلا يجـوز لهم أن يبقوا؛ لأن مقتضى ذلك أنهم يغررون بأنفسهم .

وفي هاتين الآيتين تخصيص السنة بالكتـاب ، وهـو قليـل ، ومن تخصيص السنة بالكتاب أن من الشروط التي بين النبي صـلى اللـه عليه وسلم و المشـركين في الحديبيـة أن من جـاء من المشـركين مسلما يرد إليهم[1] ، وهذا الشرط عام يشمل الذكر والأنثى؛ فأنزل الله تعـالى : (يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذَا جَـاءَكُمُ الْمُؤْمِنَـاتُ مُهَـاجِرَاتٍ فَـــامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـــانِهِنَّ فَـــإِنْ عَلِمْتُمُـــوهُنَّ مُؤْمِنَـــاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ)(الممتحنة: من الآية10).

قوله : (وقذف المحصنات). القذف : بمعنى الـرمي، والمـراد به هنا الرمي بالزنا، والمحصنات هنا الحرائر، وهو الصـحيح، وقيـل: العفيفات عن الزنا.

والغافلات : وهن: العفيفـات عن الزنـا البعيـدات عنـه، اللاتي لا يخطر على بالهن هذا الأمر.

والمؤمنــات احــترازا من الكــافرات، فمن قــذف امــرأة هــذه صفاتها؛ فإن ذلك من الموبقات، ومع ذلك يقام عليه الحد ـ ثمــانون جلدةـ ، ولا تقبل شهادته ويكون فاسقا؛ فجعل الله عليه ثلاثة أمور، قال تعالى: (وَالَّذِينَ يَرْمُـونَ الْمُحْصَـنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَـأْتُوا بِأَرْبَعَـةِ شُـهَدَاءَ فَاجْلِـدُوهُمْ ثَمَــانِينَ جَلْـدَةً وَلا تَقْبَلُـوا لَهُمْ شَـهَادَةً أَبَـداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِــقُونَ) (النــور:4) ثم قــال : (إِلَّا الَّذِينَ تَــابُوا مِنْ بَعْــدِ ذَلِــكَ وَأَصْلَحُوا)(النور: من الآية5) .

وهـذا الاسـتثناء لا يشـمل أول الجمـل بالاتفـاق، ويشـمل آخـر الجمل

0

بالاتفاق ، واختلف العلماء في الجملة الثانية، وهي قولـه : (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا)؛ 0فقيل : إنه يعود إليها ، وقيل : لا يعود.

وبناء على ذلك إذا تاب القاذف: هل تقبل شهادته أم لا ؟

---

[1] (أخرجه البخاري (كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية)

الجواب: اختلف في ذلك أهل العلم:

فمنهم من قال : لا تقبل شهادته أبدا ولو تاب، وأيدوا قولهم بأن الله أبد ذلك بقوله : (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا) (النور : 4)، وفائدة هذا التأبيد أن الحكم لا يرتفع عنهم مطلقا.

وقال الآخرون : بل تقبل ؛ لأن مبنى قبول الشهادة وردها على الفسق، فإذا زال وهو المانع من قبول الشهادة؛ زال ما يترتب عليه.

وينبغي في مثل هذا أن يقال : إنه يرجع إلى نظر الحاكم، فإذا رأى من المصلحة عدم قبول الشهادة لردع الناس عن التهاون بأعراض المسلمين؛ فليفعل.

وإلا؛ فالأصل أنه إذا زال الفسق وجب قبول الشهادة، وهل قذف المحصنين الغافلين المؤمنين كقذف المحصنات من كبائر الذنوب؟

الجواب: الذي عليه جمهور أهل العلم أن قذف الرجل كقذف المرأة ، وإنما خص بذلك المرأة؛ لأن الغالب أن القذف يكون للنساء أكثر؛ إذ البغايا كثيرات قبل الإسلام ،وقذف المرأة أشد؛ لأنه يستلزم الشك في نسب أولادها من زوجها، فيلحق بهن القذف ضررا أكثر؛ فتخصيصه من باب التخصيص بالغالب، والقيد الأغلبي لا مفهوم له؛ لأنه لبيان الواقع .

والشاهد من هذا الحديث قوله : (السحر)

* * *

وعن جندب مرفوعا : (حد الساحر ضربة بالسيف) . رواه الترمذي، وقال : (الصحيح أنه موقوف)[1] .

قوله : (وعن جندب) . ليس هو جندب بن عبد الله البجلي، بل جندب الخير المعروف بقاتل الساحر.

قوله : (مرفوعا) ؛ أي: إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فيكون من قول النبي عليه الصلاة و السلام، لكن نقل المؤلف عن الترمذي قوله: و الصحيح أنه موقوفا، أي: من قول جندب.

---

[1] أخرجه الترمذي في (الحدود ، باب ما جاء في الساحر) ، و الطبراني في (الكبير) (رقم 1665)، والدار قطني (3/114) ، والحاكم(4/360) . قال الترمذي: (لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم الملكي يضعف في الحديث و الصحيح عن جندب موقوفا) . وقال الحافظ في (الفتح) (10/236) : (إسناده ضعيف)، وضعفه الألباني (السلسلة الضعيفة (3/641) .

قولـه : (حـد السـاحر ضـربة بالسـيف) حـده يعـني: عقوبتـه المحددة شرعا.

وظاهره أنه لا يكفر؛ لأن الحدود تطهر المحدود من الإثم.

والكافر إذا قتل على ردته؛ فالقتل لا يطهره.

وهذا محمول على ما سبق: أن من أقسام السـحر مـالا يخـرج الإنسان عن الإسلام ، وهو ما كان بالأدوية و العقـاقير الـتي تـوجب الصرف و العطف وما أشبه ذلك .

قوله : (ضربة بالسيف) . روي بالتاء بعـد البـاء، وروي بالهـاء، وكلاهما صحيح، لكن الأولى أبلغ ؛ لأن التنكير وصيغة الوحـدة يـدلان على أنها ضربة قوية قاضية.

وفي (صحيح البخاري) عن بجالة بن عبدة؛ قـال : (كنت عمـر بن الخطاب رضي الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر و ساحرة) . قـال : (فقلنا ثلاث سواحر)[1] .

هـذا كنايـة عن القتـل ، وليس معنـاه أن يضـرب بالسـيف مـع ظهره مصفحا.

قولـه : (وفي صـحيح البخـاري) . ذكـر في الشـرح ــ أعـني (تفسـير العزيـز الحميـد) ــ أن هـذا اللفـظ ليس في (البخـاري)، والذي في (البخاري) أنه : (أمر بأن يفرق بين كـل ذي محـرم من المجوس)[2] ؛ لأنهم يجوزون نكـاح المحـارم ــ والعيـاذ باللـه؛ فـأمر عمر أن يفرق بين ذوي الـرحم ورحمـه، لكن ذكـر الشـارح صـاحب (تيسير العزيـز الحميـد): أن القطيعي رواه في الجـزء الثـاني من (فوائده).

وفيه : (ثم اقتلوا كل كاهن وسـاحر) ، وقـال (أي: الشـارح) : إسناده حسن.

قال: وعلى هـذا فعـزو المصـنف إلى البخـاري يحتمـل أنـه أراد أصله لا لفظه. أ هـ .

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في (المسند) (1/190)، وأبو داود في (السنن) (3043) .

[2] البخاري : كتاب الجزية / باب الجزية و الموادعة.

وهذا القتل هل هو حد أم قتله لكفره؟

يحتمل هذا وهذا بناء على التفصيل السابق[3] في كفر الساحر، ولكن بناء على ما سبق من التفصيل نقول : من خرج به السحر إلى الكفر فقتله قتل ردة ، ومن لم يخرج به السحر إلى الكفر من باب دفع الصائل يجب تنفيذه حيث رآه الإمام .

والحاصل : أنه يجب أن تقتل السحرة، سواء قلنا بكفرهم أم لم نقل؛

وصح عن حفصة رضي الله عنها؛ (أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت)[1] . وكذلك صح عن جندب[2] . قال أحمد : عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

لأنهم يمرضون ويقتلون ، ويفرقون بين المرء و زوجه، وكذلك بالعكس؛ فقد يعطفون فيؤلفون بين الأعداء ، ويتوصلون إلى أغراضهم ؛ فإن بعضهم قد يسحر أحدا ليعطفه إليه وينال مأربه منه، كما لو سحر امرأة ليبغي بها، ولأنهم كانوا يسعون في الأرض فسادا ؛ فكان واجبا على ولي الأمر قتلهم بدون استتابة ما دام انه لدفع ضررهم وفظاعة أمرهم، فإن الحد لا يستتاب صاحبه، متى قبض عليه وجب أن ينفذ فيه الحد.

قوله : (قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم) .

وهم : عمر ، وحفصة، وجندب الخير؛ أي: صح قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

والقول بقتلهم موافق للقواعد الشرعية؛ لأنهم يسعون في الأرض فسادا،وفسادهم من أعظم الفساد؛ فقتلهم واجب على الإمام، ولا يجوز للإمام أن يتخلف عن قتلهم؛ لأن مثل هؤلاء إذا تركوا وشأنهم انتشر فسادهم في أرضهم و في أرض غيرهم، وإذا قتلوا سلم الناس من شرهم، وارتدع الناس عن تعاطي السحر.

---

[3] تقدم (ص 490) .

[1] الإمام مالك في (الموطأ) (كتاب العقول، باب ما جاء في الغيلة و السحر) .

[2] البخاري في (التاريخ الكبير) (2/222) ، و البيهقي (8/136)، والطبراني في (الكبير) (1725).

* فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية البقرة. الثانية: تفسير آية النساء. الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما. الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن وقد يكون من الإنس. الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.

فيه مسائل:

* الأولى: تفسير آية البقرة؛ وهي قوله تعالى: (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاق)(البقرة: من الآية102)؛ أي: نصيب؛ ومن لا خلاق له في الآخرة ؛ فإنه كافر؛ إذ كل من له نصيب في الآخرة فإن مآله إلى الجنة.

* الثانية: تفسير آية النساء؛ وهي قوله تعالى: (يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوت)(النساء: من الآية50)، وفسر عمر الجبت بالسحر والطاغوت بالشيطان، وفسر بأن الجبت: كل ما لا خير فيه من السحر وغيره.

* الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما؛ وهذا بناءً على تفسير عمر رضي الله عنه.

* الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس. تؤخذ من قول جابر: الطواغيت كهان، وكذلك قول عمر: الطاغوت الشيطان، فإن الطاغوت إذا أطلق؛ فالمراد به شيطان الجن، والكهان شياطين الإنس.

* الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي. وقد سبق بيانها.

* السادسة: أن الساحر يكفر. تؤخذ من قوله تعالى: (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ...)(البقرة: من الآية102).

السادسة: أن الساحر يكفر. السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب. الثامنة وجود هذا في المسلمين على عهد عمر؛ فكيف بعده ؟ !

* السـابعة:أنـه يقتـل ولا يسـتتاب.يؤخـذ من قولـه(حـد الساحرضربة بالسيف) [1] والحد إذا بلـغ الإمـام لا يسـتتاب صـاحبه، بل يقتل بكل حال، أما الكفر؛ فإنه يستتاب صاحبه، وهذا هو الفـرق بين الحـد وبين عقوبـة الكفـر، وبهـذا نعـرف خطـأ من أدخـل حكم المرتد في الحدود، وذكروا من الحدود قتل الردة.

فقتل المرتد ليس من الحـدود؛ لأنـه يسـتتاب، فـإذا تـاب ارتفـع عنه القتل، وأما الحدود؛ فلا ترتفع بالتوبة إلا أن يتـوب قبـل القـدرة عليه، ثم إن الحـدود كفـارة لصـاحبها وليس بكـافر، والقتـل بـالردة كفارة وصاحبها كافر؛ لا يصلي عليه، ولا يغسل، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

* الثامنة: وجود هذا في المسلمين في عهد عمـر؛ فكيـف فيمـا بعـده ؟ ! تؤخـذ من قولـه: (كتب عمـر: أن اقتلـوا كـل سـاحر وسـاحرة)؛ فهـذا إذا كـان في زمن الخليفـة الثـاني في القـرون المفضلة، بل أفضلها؛ فكيف بعده من العصور التي بعدت عن وقت النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه وأصحابه ؟ ! فهو أكثر انتشـاراً بين المسلمين، وكلما بعد الناس عن زمن الرسالة اسـتولت عليهم الضلالة والجهالـة؛ فالضـلالة: ارتكـاب الخطـأ عن جهـل، والجهالـة: ارتكاب الخطأ عن عمد، ولهذا نقول: من عمـل سـوءً بجهالـة؛ فهـو أثم، ومن عمل سوءً بجهل؛ فليس بـآثم، قـال تعـالى: (إِنَّمَـا التَّوْبَـةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُـونَ السُّـوءَ بِجَهَالَـة)(النسـاء: من الآية17)، والمراد بالجهالة هنا ليست ضد العلم، بل ضد الرشد، وهي السفه.

* * *

باب بيان من أنواع السحر

* قوله: (باب بيان شيء من أنواع السحر).

أي: بيان حقائق هذه الأشياء مع حكمها.

---

[1] تقدم (ص 507) .

وقد سبق أن السحر ينقسـم إلى قسـمين: كفـر، وفسـق [1] ، فإن كان باستخدام الشياطين وما أشبه ذلك؛ فهو كفر.

وكذلك ما ذكره هنا من أنواع السحر: منها ما هو كفر، ومنها ما هو فسق حسب ما تقتضيه الأدلة الشرعية.

والأنواع: جمع نوع، والنوع أخص من الجنس؛ لأن الجنس اسـم يدخل تحته أنواع، والنوع يدخل تحته أفراد، وقد يكون الجنس نوعـاً باعتبار ما فوقه، والنوع جنساً باعتبار ما تحته.

فالإنسان نوع باعتبار الحيـوان، والحيـوان باعتبـار الإنس جنس؛ لأنـه يـدخل فيـه الإنسـان والإبـل والبقـر والغنم، والحيـوان باعتبـار الجسم نوع؛ لأنه الجسم يشمل الحيوان والجماد.

و (أنواع) هنا باعتبار الجنس العام.

وسبق ان السحر في اللغة: كل ما كان خفي السبب دقيقــاً في إدراكه حتى عد الفخر الـرازي من جملـة أنـواع السـحر السـاعات، وهي في القـــديم عبـــارة عن آلات مركبـــة؛ فكيـــف بالســـاعات الإلكترونية اليوم ؟ !

* * *

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفـر، حـدثنا عـوف، عن حيـان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة، عن أبيه؛ أنه سـمع النـبي صـلى اللـه عليه وسلم قال: (إن العيافة، والطرق، والطيرة من الجبت).

قال عوف: العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط بالأرض،

قوله: (العيافة). مصدر عـاف يعيـف عيافـة، وهي: زجـر الطـير للتشاؤم أو التفاؤل؛ فعنـد العـرب قواعـد في هـذا الأمـر؛ لأن زجـر الطير له أقسام.

فتارة يزجرها للصيد، كما قـال أهـل العلم في بـاب الصـيد: إن تعليم الطير بأن ينزجر إذا زجر؛ فهذا ليس من هذا الباب.

وتارة يزجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل، فإذا زجر الطـائر وذهب شـمالاً تشـاءم، وإذا ذهب يمينـاً تفـاءل، وإن ذهب أمامـاً؛ فلا أدري أيتوقفون أم يعيدون الزجر؟ فهذا من الجبت.

---

[1] انظر (ص 489)

قوله: (الطـرق). فسـره عـوف: بأنـه الخـط يخـط في الأرض، وكأنــه من الطريــق، من طــرق الأرض يطرقهــا إذا ســار عليهــا، وتخطيطها مثل المشي عليها يكون لـه أثـر في الأرض كـأثر السـير عليها.

ومعنى الخط بالأرض معروف عندهم، يضربون بـه على الرمـل على سبيل السحر والكهانـة، ويفعلـه النسـاء غالبـاً، ولا أدري كيـف يتوصــلون إلى مقصــودهم ومــا يزعمونــه من علم الغيب، وأنــه سيحصل كذا على ما هو معروف عندهم ؟ ! وهذا نوع من السحر.

أما خط الأرض ليكون سترة في الصلاة، أو لبيان حدودها ونحـو ذلك؛ فليس داخلاً في الحديث.

والجبت: قال الحسـن: رنـة الشـيطان [1] . إسـناده جيـد. ولأبي داود والنسائي وابن حبان في (صحيحه) لهم المسند منه [2] .

فإن قيل: قد صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنـه سـئل عن نبي من الأنبياء يخط؛ فقال: من وافق خطه؛ فذاك [3] .

قلنا: يجاب عنه بجوابين:

الأول: أن الرسول صلى الله عليه وسلم علقـه بـأمر لا يتحقـق الوصول إليه؛ لأنـه قـال: فمن وافـق خطـه فـذاك، ومـا يـدرينا هـل وافق خطه أم لا ؟

الثاني: أنه إذا كان الخط بالوحي من الله تعـالى كمـا في حـال هذا النبي؛ فلا بأس به؛ لأن الله يجعـل لـه علامـة يـنزل الـوحي بهـا بخطوط يعلمه إياها.

أما هذه الخطوط السحرية؛ فهي من الـوحي الشـيطاني، فـإن قيل: طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يسد الأبواب جميعاً خاصة في موضوع الشرك؛ فلماذا لم يقطع ويسد هذا الباب؟

---

[1] الإمام أحمد في (المسند) 5/60 0

[2] أبو داود في (السنن) 3907، والنسائي في (الكبرى) كما في (تحفة الأشـراف) 8/275، وبن حبـان في (الصحيح) 7/656، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إسناده حسن (الفتاوى 35/192)، وكذلك النووي في (رياض الصالحين) 612

[3] مسلم: كتاب المساجد/ باب تحريم الكلام في الصلاة.

فالجواب: كان هذا والله أعلم أمر معلوم، وهو أن فيـه نبيـاً من الأنبياء يخط، فلا بد أن يجيب عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

قوله: (من الجبت). سبق أن الجبت السحر، وعلى هذا فتكـون (من)

للتبعيض على الصحيح، وليست للبيان؛ فالمعنى أن هذه الثلاثة: العيافة، والطرق، والطيرة، من الجبت.

وقوله: (الطـيرة)؛ أي: من الجبت، على وزن فعلـة، وهي اسـم مصدر تطير، والمصدر منه تطير، وهي التشاؤم بمرئي أو مسـموع، وقيل: التشاؤم بمعلوم مرئياً كان أو مسموعاً، زماناً كـان أو مكانـاً، وهذا أشمل؛ فيشمل ما لا يرى ولا يسمع؛ كالتطير بالزمان.

وأصـل التطـير: التشـاؤم، لكن أضـيفت إلى الطـير؛ لأن غـالب التشاؤم عند العرب بـالطير، فعلقت بـه، وإلا؛ فـإن تعريفهـا العـام: التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم.

وكان العرب يتشاءمون بالطير وبالزمان وبالأشخاص، وهذا من الشرك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم [1] .

والإنسان إذا فتح على نفسه باب التشاؤم؛ ضاقت عليـه الـدنيا، وصار يتخيل كل شيء أنـه شـؤم، حـتى إنـه يوجـد أنـاس إذا أصـبح وخرج من بيته ثم قابله رجل ليس له إلا عين واحدة تشاءم، وقـال: اليوم يوم سوء، وأغلق دكانه، ولم يبع ولم يشتر ـ والعيـاذ باللـه ــ ، وكان بعضهم يتشاءم بيوم الأربعاء، ويقول: إنـه يـوم نحس وشـؤم، ومنهم من يتشاءم بشهر شوال، ولا سيما في النكـاح، وقـد نقضـت عائشة رضي الله عنها هذا التشـاؤم، بأنـه صـلى اللـه عليـه وسـلم عقد عليها في شـوال، وبـنى بهـا في شـوال؛ فكـانت تقـول: (أيكن كان أحظى عنده مني ؟) [2] ، والجواب : لا أحد.

---

[1] يأتي (78) .

[2] مسلم: كتاب النكاح/باب التزوج في شوال.

فالمهم أن التشاؤم ينبغي للإنسان أن لا يطرأ له على بال؛ لأنه ينكد عليه عيشه؛ فالواجب الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث كان يعجبه الفأل [1]؛ فينبغي للإنسان أن يتفاءل بالخير ولا يتشاءم، كذلك بعض الناس إذا حاول الأمر مرة بعد أخرى تشاءم بأنه لن ينجح فيه فيتركه، وهذا خطأ؛ فكل شيء ترى فيه المصلحة؛ فلا تتقاعس عنه في أول محاولة، وحاول مرة بعد أخرى حتى يفتح الله عليك.

وأما قول الحسن:الجبت:رنة الشيطان، قال صاحب(تيسير العزيز الحميد)[2]: لم أجد فيه كلاماً.

والظاهر أن رنة الشيطان؛ أي: وحي الشيطان؛ فهذه من وحي الشيطان وإملائه، ولا شك أن الذي يتلقى أمره من وحي الشيطان أنه أتى نوعاً من الكفر، وقول الحسن جاء في (تفسير ابن كثير) باللفظ الذي ذكره المؤلف، وجاء في (المسند) (5/60) بلفظ: إنه الشيطان.

ووجه كون العيافة من السحر أن العيافة يستند فيها الإنسان إلى أمر لا حقيقة له؛ فماذا يعني كون الطائر يذهب يميناً أو شمالاً أو أماماً أو خلفاً ؟ فهذا لا أصل له، وليس بسبب شرعي ولا حسي، فإذا اعتمد الإنسان على ذلك؛ فقد اعتمد على أمر خفي لا حقيقة له، وهذا سحر كما سبق تعريف السحر في اللغة.

وكذلك الطرق من السحر؛ لأنهم يستعملونه في السحر، ويتوصلون به إليه.

والطيرة كذلك؛ لأنها مثل العيافة تماماُ تستند إلى أمر خفي لا يصح الاعتماد عليه، وسيأتي في باب الطيرة ما يستثنى منه [1] .

---

[1] البخاري (كتاب الطب، باب لا عدوى) ، ومسلم (كتاب السلام، باب الطيرة والفأل).

[2] انظر: (تيسير العزيز الحميد) (ص 398).

[1] يأتي (ص 571),

قوله: (إسناده جيد ...) . قال الشيخ: إسناده جيد، وعندي أنه أقل من الجيد في الواقع؛ إلا أن يكون هناك متابعات، وكان بعض العلماء يذهب إلى أن الحديث إذا صح متنه، وكان موافقاً للأصول؛ فإنه يتساهل في سنده، والعكس بالعكس، إذا كان مخالفاً للأصول؛ فإنه لا يبالي بالسند، وهذا مسلك جيد بالنسبة لأخذ الحكم من الحديث، لكن بالنسبة للحكم على السند بأنه جيد بمجرد شهادة الأصول لهذا الحديث بالصحة؛ فهذا مشكل لأنه يلزم أنه لو جاءنا هذا السند في حديث آخر حكمنا بأنه جيد؛ فالأولى أن يقال: إن السند فيه ضعف، ولكن المتن صحيح، فأنا أرى أن مثل هذا لا يحكم له بالجودة؛ إذ جيد أرقى من حسن، ثم الحكم بالحسن في مثل هذا السند في نفسي منه شيء؛ لأنه ينبغي لنا أن نتحرى في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم، إلا أن الذي يخفف الأمر هو صحة المتن، وأيهما أهم: السند أم المتن ؟

الجواب: كلاهما مهمان، لكن المتن إذا كان صحيحاً تشهد له الأصول قد تستغني عنه بما تشهد به الأصول، أما السند؛ فلابد منه، يقول ابن المبارك: لولا السند؛ لقال كل من شاء ما شاء.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد). رواه أبو داود، وإسناده صحيح [1] .

قوله: (من). شرطية، وفعل الشرط: (اقتبس)، وجوابه: (فقد اقتبس).

قوله: (اقتبس). أي تعلم؛ لأن التعلم وهو أخذ الطالب من العالم شيئاً من علمه بمنزلة الرجل يقتبس من صاحب النار شعلة.

قوله: (شعبة). أي: طائفة، ومنه وله تعالى: (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ)(الحجرات: من الآية13)؛ أي: طوائف وقبائل.

---

[1] الإمام أحمد في (المسند) (1/227، 311) ، وأبو داود في (الطب، باب في النجوم، 4/226)، وابن ماجة في (الأدب، باب تعليم التجوم)، وصححه النووي في (رياض الصالحين) (ص 630) ، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في (الفتاوى) (35/193): (إسناده صحيح).

قوله: (من النجوم)ـ المراد: علم النجوم، وليس المراد النجــوم أنفسها؛ لأن النجوم لا يمكن أن تقتبس وتتعلم، والمراد به هنــا علم النجــوم الــذي يســتدل بــه على الحــوادث الأرضــية؛ فيســتدل مثلاً باقتران النجم الفلاني بالنجم الفلاني على أنه سيحدث كذا وكذا.

ويستدل بولادة إنسان في هذا النجم على أنه ســيكون ســعيداً، وفي النجم الآخر على أنه سيكون شقياً؛ فيستدلون باختلاف أحوال النجوم على اختلاف الحوادث الأرضية، والحوادث الأرضـية من عنـد الله، قد تكون أسبابها معلومة لنـا، وقـد تكـون مجهولـة، لكن ليس للنجوم بها علاقة، ولهذا جاء في حديث زيد بن خالد

الجهني في غزوة الحديبية؛ قـال؛ صـلى بنـا رسـول اللـه ذات ليلـة على إثر سماء من الليل؛ فقال؛ (قال الله تعالى: أصـبح من عبـادي مؤمن بي وكافر فمن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا ـ بنوء يعني: بنجم، والباء للسببية؛ يعني: هذا المطر من النجم ـ؛ فإنه كـافر بي مـؤمن بالكوكب، ومن قال: مطرنا بفضل اللـه ورحمتـه؛ فـذلك مـؤمن بي كافر بالكوكب) [1] .

فالنجوم لا تأتي بالمطر ولا تأتي بالرياح أيضاً، ومنه نأخــذ خطــأ العــوام الــذين يقولــون: إذا هبت الــريح طلــع النجم الفلاني؛ لأن النجوم لا تأثير لها بالرياح، صحيح أن بعض الأوقات والفصول يكـون فيها ريح ومطر؛ فهي ظرف لهما، وليست سبباً للريح أو المطر.

* وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

الأول: علم التــأثير، وهــو أن يســتدل بــالأحوال الفلكيــة على الحوادث الأرضية: فهذا محرم باطل لقـول النـبي صـلى اللـه عليـه وســلم : (من اقتبس شــعبة من النجــوم؛ فقــد اقتبس شــعبة من السحر) [2] ، وقوله في حديث زيد بن خالد: (من قال: مطرنـا بنـوء

---

[1] البخاري: كتاب الأذان/باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، ومسلم: كتـاب الإيمـان/بـاب بيـان كفر من قال مطرنا بالنوء.

[2] سبق (ص 518).

كذا وكذا؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم في الشمس والقمر:(إنهما آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته)[3] ؛ فالأحوال الفلكية لا علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية.

الثاني: علم التسيير، وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات؛ فهذا جائز، وقد يكون واجباً أحياناً، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم علامات القبلة من النجوم والشمس والقمر، قال تعالى: (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (النحل:15) ، فلما ذكر الله العلامات الأرضية انتقل إلى العلامات السماوية؛ فقال تعالى: (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) (النحل:16)، فالاستدلال بهذه النجوم على الأزمان لا بأس به، مثل أن يقال: إذا طلع النجم الفلاني دخل وقت السيل ودخل وقت الربيع، وكذلك على الأماكن؛ كالقبلة، والشمال، والجنوب.

قوله: (زاد ما زاد). أي: كلما زاد شعبة من تعلم النجوم ازداد شعبة من السحر.

ووجه ذلك: أن الشيء إذا كان من الشيء؛ فإنه يزداد بزيادته.

* ووجه مناسبة الحديث لترجمة المؤلف:

ان من أنواع السحر: تعلم النجوم ليستدل بها على الحوادث الأرضية وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند؛ لكن من حيث المعنى صحيح تشهد له النصوص الأخرى.

*   *   *

([3] البخاري: كتاب الكسوف/باب الصلاة في كسوف الشمس، ومسلم: كتاب الكسوف/باب ذكر النداء بصلاة الكسوف.

وللنسائي من حديث أبي هريرة: (من عقد عقدة، ثم نفث فيها؛ فقد سحر، ومن سحر؛ فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً؛ وكل إليه) [1] .

قوله: (من عقد عقدة)ـ (من) شرطية، والعقد معروف.
قوله: (ثم نفث فيها). النفث: النفخ بريق خفيف، والمراد هنا النفث من أجل السحر.
أما لو عقد عقدة، ثم نفث فيها من أجل أن تحتكم بالرطوبة؛ فليس بداخل في الحديث، والنفث من أجل السحر يفعلونه بعض الأحيان للصرف؛ فيصرفون به الرجل عن زوجته، ولا سيما عند عقد النكاح؛ فيبعد الرجل عن زوجته، فلا يقوى على جماعها، فمن عقد هذه العقدة؛ فقد وقع في السحر، كما قال تعالى: (وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ) (الفلق:4) .
قوله: (ومن سحر فقد أشرك). (من) هذه شرطية، وفعل الشرط: (سحر)، وجوابه: (فقد أشرك).
وقوله: (فقد أشرك). هذا لا يتناول جميع السحر، إنما المراد من سحر بالطرق الشيطانية.
أما من سحر بالأدوية والعقاقير وما أشبهها ؛ فقد سبق أنه لا يكون مشركاً [2] ، لكن الذي يسحر طاعة الشياطين واستخدامهم فيما يريد؛ فهذا لا شك أنه مشرك.

قوله: (ومن تعلق شيئاً وكل إليه). (تعلق شيئاً)؛ أي: استمسك به، واعتمد عليه.
(وكل إليه)؛ أي: جعل هذا الشيء الذي تعلق به عمادا له، ووكله الله إليه، وتخلى عنه.

---

[1] أخرجه النسائي في (كتاب تحريم الدم، باب الحكم في السحرة).
[2] تقدم (ص 490).

ومناسبة هذه الجملة للتي قبلها: أن النـافخ في العقـد يريـد أن يتوصل بهـذا الشـيء إلى حاجتـه ومآربـه، فيوكـل إلى هـذا الشـيء المحرم.

ووجه آخر: وهـو أن من النـاس من إذا سـحر عن طريـق النفخ بالعقد ذهب إلى السحرة وتعلق بهم، ولا يذهب إلى القراء والأدوية المباحة و الأدعية المشروعة، ومن توكل على الله كفاه، قال تعالى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ)(الطلاق: من الآية3)، وإذا كان الله حسبك؛ فلا بد أن تصل إلى ما تريد .

لكن من تعلق شـيئا من المخلـوقين وكـل إليـه، ومن وكـل إلى شـيء من المخلـوقين وكـل ضـعف وعجـز وعـورة ، وقـد يشـمل الحديث من اعتمد على نفسه وصار معجبا بما يقـول ويفعـل؛ فإنـه يوكل إلى نفسه، ويوكل إلى ضعف وعجز و عورة، ولهـذا ينبغي أن تكون دائما متعلقا بالله في كل أفعالـك و أحوالـك حـتى في أهـون الأمور.

ونقـول للإنسـان : اعتمـد على نفسـك بالنسـبة للنـاس ، فلا تسـألهم ولا تسـتذل أمـامهم، واسـتغن عنهم مـا اسـتطعت ، أمـا بالنسبة لله؛ فلا تستغن عنه، بل كن دائمـا معتمـدا على ربـك حـتى تتيسـر لـك الأمـور ، ومن هـذا النـوع من يتعلقـون ببعض الأحـراز يعلقونها؛ فإنهم يوكلون إلى هذا، ولا يحصل لهم مقصـودهم ، لكنهم لو اعتمدوا على الله، وسلكوا السبل الشرعية؛ حصل لهم

وعن ابن مسعود ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال : (ألا هل أنبئكم ما العضة؟ هي النميمة، القالة بين الناس)[1] .

ما يريـدون، ومن هـذا النـوع أيضـا من تعلـق شـيئا من القبـور، وجعلها ملجأه ومغيثه عند طلب الأمور؛ فإنه يوكل إليـه ، والإنسـان قد يفتن و يحصل له المطلوب بـدعاء هـؤلاء، ولكن هـذا المطلـوب الذي حصل حصل عند دعائهم لا بدعائهم، و الآية صريحة في ذلك ، قال تعالى : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَـة)(الاحقـاف: من الآية5)، لكن اللـه تعـالى قـد يفتن من شاء من عباده.

*مناسبة الحديث :

([1]) مسلم : كتاب البر و الصلة/ باب تحريم النميمة .

أن هؤلاء الذين يتعلقون بالسحر، ويجعلونه صناعة يصلون بها إلى مآربهم يوكلون إلى ذلك ، وآخر أمرهم الخسارة و الندم .

* * *

قوله : (ألا) . أداة استفتاح، والغرض تنبيه الخاطب والاعتناء بما يلقى إليه لأهميته.

قوله : (هل أنبئكم ما العضة) . الاستفهام للتشويق؛ كقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) (الصف:10).

لأن الإنسان مشتاق إلى العلوم يحب أن يعلم ، وقد يكون المراد به التنبيه؛ لأن الموجه إليه الخطاب ينبغي أن يتنبه ليعلم، وهي تصلح للجميع.

ومعنى أنبئكم : أخبركم ، وهي مرادفة للخبر في اصطلاح المحديثن، وقال بعض العلماء من ناحية اللغة لا الاصطلاح: إن الإنباء لغة يكون في الأمور الهامة، والإخبار أعم منه يكون في الهامة و غير الهامة.

قوله : (العضه) على وزن الحبل و الصمت و الوعد، بمعنى القطع، وأما رواية العضة على وزن عدة ؛ فإنها بمعنى التفريق، وأيا كان؛ فإنها تتضمن قطعا و تفريقا.

قوله : (هي النميمة) . فعلية بمعنى مفعول، وهي من نم الحديث إلى غيره؛ أي: نقله، والنميمة فسرها بقوله : (القالة بين الناس)؛ أي: نقل القول بين الناس، فينقل من هذا إلى هذا ، فيأتي لفلان ويقول : فلان يسبك؛ فهو نم إليه الحديث ونقله، وسواء كان صادقا أو كاذبا، فإن كان كاذبا؛ فهو بهت و نميمة، وإن كان صادقا ؛ فهو نميمة.

والنميمة كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم تقطع الصلة، وتفرق بين الناس[1] ؛فتجد هذين الرجلين صديقين، فيأتي هذا

---

[1] الإمام أحمد (6/459).

النمام ، فيقول لأحدهما: صاحبك يسـبك، فتنقلب هـذه المـودة إلى عداوة، فيحصل التفرق ، وهذا يشـبه السـحر بـالتفرق؛ لأن السـحر فيه تفريق، قال تعالى : (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِـهِ بَيْنَ الْمَـرْءِ وَزَوْجِهِ)(البقرة: من الآية102).

والنميمـة من كبـائر الـذنوب، وهي سـبب لعـذاب القـبر، ومن أسباب حرمان دخول الجنة ، قال صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل الجنة قتات)[2]؛ أي: نمام، وفي حديث ابن عباس المتفق عليه: أنه صلى الله عليه وسلم (مر بقبرين يعذبان، أحدهما كان يمشي بالنميمة)[1] .

والنميمة كمـا هي من كبـائر الـذنوب ؛ فهي في الحقيقـة خلـق ذميم، ولا ينبغي للإنسـان أن يطيـع النمـام مهمـا كـانت حالـه، قـال تعالى : (وَلا تُطِـعْ كُـلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ* هَمَّازٍ مَشَّـاءٍ بِنَمِيمٍ) (القلم:11-10)، واعلم أن من نم إليك نم فيك أو منك ؛ فاحذره.

وهي أيضا من أسباب فسـاد المجتمـع؛ لأن هـذا النمـام إذا أراد أن يعتدي على كل صديقين متحابين، ويفـرق بينهمـا بنميمتـه فسـد المجتمع ؛ لأن المجتمع مكون من أفراد، فإذا تفرقت صار كما قـال الله ـ عز و جل ـ : (وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَـلُوا وَتَـذْهَبَ رِيحُكُمْ)(لأنفـال: من الآية46)، وإذا لم يكن المجتمع كإنسان واحد؛ فإنــه لا يمكن أن يكون مجتمعا؛ فهو أفراد متناثرة ، والأفراد المتناثرة ليس لها قــوة، و لهذا قال الشاعر :

لا تخاصم بواحد أهل بيت   فضعيفان يغلبان قويا

وقال الآخر

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا   فإذا افترقن تكسرت أفرادا

---

[2] البخاري : كتاب الأدب /باب ما يكره من النميمة، ومسلم : كتاب الإيمان / باب غلظ تحـريم النميمـة، ولفظه : (لا يدخل الجنة نمام) .

[1] البخاري : كتاب الجنائز / باب عـذاب القـبر من الغيبـة، ومسـلم : كتـاب الطهـارة/ بـاب الـدليل على نجاسة البول .

ونحن لو تأملنا النصوص الشرعية؛ لوجدنا تحرم كـل مـا يكـون سببا للتفرق و القطيعـة، قـال صـلى اللـه عليـه وسـلم : (ولا يـبيع بعضكم على بيع أخيه)[2] ، وقال : (لا

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن من البيان لسحرا)[1] .

يخطب الرجل على خطبة أخيه)[2] ، وكل هذا لـدفع مـا يـوجب العداوة و البغضاء بين الناس .

*   *   *

قوله : (إن من البيان). (إن) : حرف توكيد، ينصب الاسـم و يرفع الخبر، و(من) : يحتمل أن تكون للتبعيض ، ويحتمل أن تكـون لبيان الجنس؛ فعلى الأول يكون المعنى : إن بعض البيـان سـحر و بعضه ليس بسحر، وعلى الثاني يكون المعنى : إن جنس البيان كله سحر.

قوله : (لسحرا) . اللام للتوكيد، و(سحرا) : اسم إن .

والبيـان : هـو الفصـاحة و البلاغـة ، وهـو من نعمـة اللـه على الإنسان، قال تعالى : (خلق الإنسان *علمه البيان) (الرحمن : 3-4) .

والبيان نوعان .

الأول : بيان لابد منه ، وهـذا يشـترك فيـه جميـع النـاس، فكـل إنسان إذا جاع قـال : إني جعت، وإذا عطش قـال : إني عطشـت ، وهكذا .

---

(2) البخاري : كتاب البيوع / بـاب لا يـبيع الرجل على بيع أخيـه، ومسـلم : كتـاب الـبيوع/ بـاب تحـريم بيع الرجل على بيع أخيه .

(1) البخـاري : كتـاب الطب / بـاب إن من البيـان لسـحرا، ومسـلم كتـاب الجمعة / بـاب تخفيف الصـلاة والخطبة

(2) البخاري : كتاب النكاح / باب لا يخطب على خطبة أخيه، ومسلم : كتاب النكاح / بـاب تحـريم الخطبة على خطبة أخيه .

الثاني : بيان بمعنى الفصاحة التامة التي تسبي العقـول و تغـير الأفكار، وهي التي قال فيها الرسول صلى الله عليـه وسـلم : (إن من البيان لسحرا) .

وعلى هذا التقسيم تكـون (من) للتبعيض؛ أي: بعض البيـان ـ وهو البيان الكامل الذي هو الفصاحة ـ سحر .

أما إذا جعلنا البيان بمعنى الفصاحة فقط؛ صارت (من) لبيـان الجنس.

ووجه كون البيـان سـحرا: أنـه يأخـذ بلب السـامع، فيصـرفه أو يعطفــه، فيظن الســامع أن الباطــل حــق لقــوة تــأثير المتكلم ، فينصرف إليه، ولهذا إذا أتى إنسـان يتكلم بكلام معنـاه باطـل، لكن لقوة فصاحته و بيانه يسحر السامع حقا، فينصرف إليه ، وإذا تكلم إنسان بليغ يحذر من حـق، ولفصـاحته وبيانـه يظن السـامع أن هـذا الحق باطل، فينصرف عنه، وهذا من جنس السـحر الـذي يسـمونه العطف و الصرف، و البيان يحصل به عطف وصـرف ؛ فالبيـان في الحقيقـة بمعـنى الفصـاحة، ولاشـك أنهـا تفعـل فعـل السـحر، وابن القيم يقول عن الحور: حديثها السحر الحلال .

قوله : (إن من البيان لسحرا) ، وهل هذا على سيبل الـذم ، أو على سبيل المدح ، أو لبيان الواقع ثم ينظر إلى أثره ؟

الجواب : الأخير هو المراد ؛ فالبيان من حيث هو بيـان لا يمـدح عليه ولا يـذم ، ولكن ينظـر إلى أثـره، و المقصـود منـه، فـإن كـان المقصود منه رد الحق و إثبات الباطل؛ فهو مذموم؛ لأنـه اسـتعمال لنعمة الله في معصيته، وإن كان المقصود منه إثبات الحق وإبطـال الباطل ؛ فهو ممـدوح ، و إذا كـان البيـان يسـتعمل في طاعـة اللـه وفي الدعوة إلى الله ؛ فهـو خـير من العي، لكن إذا ابتلي الإنسـان ببيان ليصد الناس عن دين الله؛ فهذا لا خير فيه ، و العي خير منـه، و البيان من حيث هو لا

شك أنه نعمة، ولهذا امتن الله به على الإنسان ؛ فقال تعـالى : (علمه البيان) (الرحمن : 4).

* وجه مناسبة الحديث للباب :

المؤلف كان حكيما في تعبيره بالترجمة، حيث قال : بـاب بيـان شيء من أنواع السحر، ولم يحكم عليهـا بشـيء؛ لأن منهـا مـا هـو شرك ، ومنها ما هو من كبائر الذنوب، ومنها دون ذلك، ومنها ما هو جائز على حسب ما يقصد به وعلى حسب تأثيره و آثاره .

* * *

*فيه مسائل :

الأولي: أن العيافـة و الطـرق و الطـيرة من الجبت . الثانيـة : تفسير العيافة و الطرق. الثالثة : أن علم النجـوم نـوع من السـحر. الرابعة: العقد مع النفث من ذلك . الخامسة: أن النميمة من ذلك . السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة.

قـال : (فيـه مسـائل) ؛ أي: في هـذا البـاب ومـا تضـمنه من الأحاديث و الآثار مسائل:

*المسألة الأولي : أن العيافـة و الطـرق و الطـيرة من الجبت. وقد سبق تفسير هذه الثلاثة و تفسير الجبت .

*الثانية : تفسير العيافة و الطرق . وقد بينت في الباب أيضا وشرحت.
*الثالثة : أن علم النجوم نوع من السحر. لقوله : (من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر)، وسبق الكلام أيضا .
*الرابعة : العقد مع النفث من ذلك . لحديث أبي هريرة: (من عقد عقدة ثم نفث فيها؛ فقد سحر) ، وقد تقدم الكلام على ذلك .
*الخامسة : أن النميمة من ذلك . لحديث ابن مسعود: (ألا هل أنبئكم ما العضة ؟ هي النميمة) ، وهي من السحر؛ لأنها تفعل ما يفعل الساحر من التفريق بين الناس و التحريش بينهم ، وقد سبق بيان ذلك .
*السادسة : أن من ذلك بعض الفصاحة. أي: من السحر بعض الفصاحة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن من البيان لسحرا)، والمؤلف رحمه الله قال: بعض الفصاحة استدلالا بقوله صلى الله عليه وسلم:(إن من البيان)؛ لأن(من) هنا عند المؤلف للتبعيض، ووجه كون ذلك من السحر أن لسان البليغ ذي البيان قد يصرف الهمم وقد يلهب بما عنده من الفصاحة .

* * *

باب ما جاء في الكهان ونحوهم

الكهان : جمع كاهن ، والكهنة أيضا جمع كاهن، وهم قوم يكونون في أحياء العرب يتحاكم الناس إليهم ، وتتصل بهم الشياطين ، و تخبرهم عما كان في السماء، تسترق السمع من السماء، وتخبر الكاهن به، ثم الكاهن يضيف إلى هذا الخبر ما يضيف من الأخبار الكاذبة، ويخبر الناس ، فإذا وقع مما أخبر به شيء؛ اعتقده الناس عالما بالغيب، فصاروا يتحاكمون إليهم؛ فهم مرجع للناس في الحكم، ولهذا يسمون الكهنة؛ إذ هم يخبرون عن الأمور في المستقبل، يقولون : سيقع كذا و سيقع كذا، وليس من الكهانة في شيء من يخبر عن أمور تدرك بالحساب ؛ فإن الأمور التي تدرك بالحساب ليست من الكهانة في شيء ، كما لو أخبر عن كسوف الشمس أو خسوف القمر؛ فهذا ليس من الكهانة لأنه

يدرك بالحساب، وكما لو أخبر أن الشـمس تغـرب في 20من بـرج الميزان مثلا في الساعة كذا و كذا؛ فهذا ليس من علم الغيب، كمـا يقولــون:إنــه ســيخرج في أول العــام أو العــام الــذي بعــده مذنب(هالي)، وهو نجم له ذنب طويل؛ فهـذا ليس من الكهانـة في شيء؛ لأنـه من الأمـور الـتي تـدرك بالحسـاب؛ فكـل شـيء يـدرك بالحسـاب، فـإن الإخبـار عنـه ولـو كـان مسـتقبلا لا يعتـبر من علم الغيب ، ولا من الكهانة .

وهل من الكهانة ما يخبر بـه الآن من أحـوال الطقس في خلال أربع وعشرين ساعة أو ما أشبه ذلك ؟

الجـواب: لا ؛ لأنـه أيضـا يسـتند إلى أمـور حسـية ، وهي تكيـف الجو؛ لأن الجو يتكيف على صـفة معينـة تعـرف بـالموازين الدقيقـة عندهم ؛ فيكون صالحا لأن

روى مسلم في (صـحيحه) عن بعض أزواج النـبي صـلى اللـه عليه وسلم ، عن النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ؛ قـال : (من أتى عرافـا، فسـأله عن شـيء ، فصـدقه بمـا يقـول لم تقبـل لـه صـلاة أربعين يوما)[1].

يمطـر ، أو لا يمطـر، ونظـير ذلـك في العلم البـدائي إذا رأينـا تجمع الغيوم و الرعد و البرق و ثقل السـحاب ، نقـول : يوشـك أن ينزل المطر .

فـالمهم أن مــا اســتند إلى شــيء محســوس؛ فليس من علم الغيب، وإن كــان بعض العامــة يظنــون أن هــذه الأمــور من علم الغيب، ويقولون : أن التصديق بها تصديق بالكهانة .

والشيء الذي يدرك بالحس إنكاره قبيح ؛ كما قال السفاريني :

فكل معلوم بحس أو حجا   فنكره جهل قبيح بالهجا

فالذي يعلم بالحس لا يمكن إنكاره ولو أن أحدا أنكـره مسـتندا بذلك إلى الشرع؛ لكان ذلك طعنا بالشرع .

*   *   *

---

[1] مسلم : كتاب السلام / باب تحريم الكهانة و إتيان الكهان ، دون قوله : (فصـدقه بما يقـول) . وهي عند الإمام أحمد في (المسند) (4/68 ، 5/380) .

قوله : (من) : شرطية؛ فهي للعموم .

والعراف:صيغة مبالغة من العارف ، أو نسبة؛ أي: من ينتسب إلى العرافة.

والعراف قيل : هو الكاهن، وهو الذي يخبر عن المستقبل .

وقيل : هو اسم عام للكاهن و المنجم والرمال و نحوهم ممن يستدل على

معرفة الغيب بمقدمات يستعملها، وهذا المعنى أعم ، يدل عليه الاشتقاق؛ إذ هو مشتق من المعرفة ، فيشمل كل من تعاطى هذه الأمور و ادعى بها المعرفة.

قوله : (فسأله؛ لم تقبل له صلاة أربعين يوما) . ظاهر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يوما، ولكنه ليس على إطلاقه؛ فسؤال العراف و نحوه ينقسم إلى أقسام :

القسم الأول : أن يسأله سؤالا مجردا؛ فهذا حرام لقول النبي صلى الله عليه وسلم : (من أتي عرافا ...)[1] ؛ فإثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه؛ إذ لا عقوبة إلا على فعل محرم .

القسم الثاني : أن يسأله فيصدقه، ويعتبر قوله ؛ فهذا كفر لأن تصديقه في علم الغيب تكذيب للقرآن ، حيث قال تعالى : (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)(النمل: من الآية 65).

القسم الثالث : أن يسأله ليختبره : هل هو صادق أو كاذب ، لا لأجل أن يأخذ بقوله؛ فهذا لا بأس به ، ولا يدخل في الحديث .

وقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم ابن صياد ؛ فقال : (ماذا خبأت لك ؟ قال : الدخ.

فقال : (اخسأ ؛ فلن تعدو قدرك)[2] ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم سأله عن شيء أضمره له؛ لأجل أن يختبره ؛ فأخبره به .

---

[1] تقدم (ص531) .

[2] البخاري : كتاب الجهاد / باب كيف يعرض الإسلام على الصبي ، ومسلم: كتاب الفتن / باب ابن صياد.

القسم الرابع : أن يسأله ليظهر عجزه وكذبه، فيمتحنه في أمور يتبين بها

كذبه وعجزه، وهذا مطلوب ، وقد يكون واجبا.

وإبطال قول الكهنة لاشك أنه أمر مطلوب ، وقد يكون واجبا؛ فصار السؤال هنا ليس على إطلاقه، بل يفصل فيه هذا التفصيل على حسب ما دلت عليه الأدلة الشرعية الأخرى .

وقد ذكر شيخ الإسلام أن الجن يخدمون الإنس في أمور، و الكهان يستخدمون الجن ليأتوهم بخبر السماء، فيضيفون إليه من الكذب ما يضيفون، وخدمة الجن للإنس ليست محرمة على كل حال ، بل هي على حسب الحال.

فالجني يخدم الإنس في أمور لمصلحة الإنس ، وقد يكون للجن فيها مصلحة، وقد لا يكون له فيها مصلحة، بل لأنه يحبه في الله و لله ، ولاشك أن من الجن مؤمنين يحبون المؤمنين من الإنس؛ لأنه يجمعهم الإيمان بالله .

وقد يخدمونهم لطاعة الإنس لهم فيما لا يرضي الله ـ عز و جل ـ ؛ إما في الذبح لهم، أو عبادتهم، أو ما أشبه ذلك .

والأغرب من ذلك أنهم ربما يخدمون الإنس لأمر محرم من زنا أو لواط؛ لأن الجنية قد تستمتع بالإنسي بالعشق و التلذذ بالاتصال به، أو العكس، وهذا أمر معلوم مشهود ، حتى ربما كان الجني الذي في الإنسان ينطق بذلك ، كما بعلم من الذين يقرؤون على المصابين بالجن .

والنبي صلى الله عليه وسلم حضر إليه الجن وخاطبهم و أرشدهم، ووعدهم بعطاء لا نظير له؛ فقال لهم : (كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحما، وكل بعرة؛ فهي علف لدوابكم) ، وذكر أن في عهد عمر رضي الله عنه امرأة لها رئيُ من الجن، وكانت توصيه بأشياء، حتى إنه تأخر عمر ذات يوم، فأتوا إليها،

فقالوا: ابحثي لنا عنه. فذهب هذا الجني الذي فيها، وبحث وأخبرهم أنه في مكان كذا، وأنه يسم إبل الصدقة [1] .

قولـه: (فصـدقة). ليسـت في (صـحيح مسـلم)، بـل الـذي في (مسلم): (فسأله؛ لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)، وزيادتها في نقــل المؤلف؛ إما لأن النسخة التي نقل منها بهذا اللفظ (فصدقة)، أو أن المؤلف عزاه أو أن المؤلف عزاه إلى (مسلم) باعتبار أصله، فأخــذ من (مسلم) : (فسأله)، وأخذ من أحمد: (فصدقه).

قوله: (لم تقبل له صلاة أربعين ليلة). نفي القبول هنا يلزم منه نفي الصحة أولاً؟

نقول: نفي القبول إما أن يكون لفوات شرط، أو لوجــود مــانع؛ ففي هاتين الحالين يكون نفي القبول نفياً للصحة، كما لو قلت: من صـلى بغـير وضـوء لم يقبـل اللــه صـلاته، ومن صـلى في مكـان مغصوب لم يقبل الله صلاته عند من يرى ذلك.

وإن كان نفي القبول لا يتعلق بفوات شرط ولا وجود مــانع؛ فلا يلـزم من نفي القبـول نفي الصـحة، وإنمـا يكـون المـراد بـالقبول المنفي: إما نفي القبول التام؛ أي: لم تقبل على وجه التمـام الـذي يحصل به تمام الرضا وتمام المثوبة.

وإما أن يُراد به أن هذه السيئة التي فعلها تقابـل تلـك الحسـنة في الميزان، فتسقطها، ويكـون وزرهـا موازيـاً لأجـر تلـك الحسـنة، وإذا لم يكن له أجـر صـارت كأنهـا غـير مقبولـة، وإن كـانت مجزئـة ومبرئة للذمة، لكن الثواب الذي حصل

بها قوبل بالسيئة فأسقطته.

ومثله قوله صلى الله عليه وسلم : (من شرب الخمر؛ لم تقبل له صلاة أربعين يوماً) [1] .

---

[1] (أحكام المرجان في أحكام الجان) (ص 38).

[1] الإمام أحمد في (المسند) (2/35)، والترمذي: كتاب الأشربة/ باب ما جاء في شـارب الخمـر، وقـال (حديث حسن)، والبغوي في (شرح السنة) (11/357)، والحـاكم (4/162)، وصـححه ووافقه الـذهبي،

وقوله: (أربعين يوماً). تخصيص هـذا العـدد لا يمكننـا أن نعللـه؛ لأن الشيء المقدر بعدد لا يستطيع الإنسان غالباً أن يعرف حكمتـه، فكـون الصـلاة خمس صـلوات أو خمسـين لا نعلم لمـاذا خُصصـت بذلك؛ فهذا من الأمور التي يُقصد بها التعبُد لله، والتعبـد للـه بمـا لا تعرف حكمته أبلغ من التعبـد لـه بمـا تعـرف حكمتـه؛ لأنـه أبلـغ في التذلل، صحيح أن الإنسان إذا عرف الحكمـة اطمـأنت نفسـه أكـثر، لكن كون الإنسان ينقاد لما لا يعرف حكمته دليل على كمال الانقياد والتعبد لله ـ عز وجل ـ ؛ فهو من حيث العبوديـة أبلـغ وأكمـل ، أمـا ذاك؛ فهو من حيث الطمأنينة إلى الحكم يكون أبلـغ؛ لأن النفس إذا علمت بالحكمة في شيء اطمأنت إليه بلا شـك، وازدادت أخـذاً لـه وقبولاً؛ فهنـاك أشـياء ممـا عينـه الشـرع بعـدد أو كيفيـة لا نعلم مـا الحكمـة فيـه، ولكن سـبيلنا أن نكـون كمـا قـال اللـه تعـالى عن المؤمنين: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُـولُهُ أَمْـراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)(الأحزاب: من الآية36).

فعلينا التسليم والانقياد وتفويض الأمر إلى الله تعالى.

ويؤخـذ من الحـديث : تحـريم إتيـان العـراف وسـؤاله؛ إلا مـا اسـتثني؛ كالقسـم الثـالث والرابـع؛ لمـا في إتيـانهم وسـؤالهم من المفاسد العظيمة، التي ترتب على

وعن أبي هريرة (رضي الله عنـه)، عن النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم؛ قال: (من أتى كاهناً، فصدقة بما يقول؛ فقد كفـر بمـا أُنـزل على محمد صلى الله عليه وسلم) رواه أبو داوود [1] .

تشـجيعهم وإغـراء النـاس بهم، وهم في الغـالب يـأتون بأشـياء كلها باطلة.

* * *

---

[1] الإمام أحمد في (المسند) (2/8-4، 476) ، وأبو داوود : كتاب الطب/باب في الكاهن، والترمذي: كتاب الطهارة/ باب في كراهية إتيان الحائض، وابن ماجة: كتاب الطهارة/باب النهي عن إتيان الحائض.

وقال أحمد شاكر: (إسناده حسن) المسند (4917).

قوله: (من أتى كاهناً). تقدم معنى الكهان، وأنهم كانوا رجالاً في أحياء العرب تنزل عليهم الشياطين، وتخبرهم بما سمعت من أخبار السماء.

قوله: (فصدقة). أي: نسبه إلى الصدق، وقال: إنه صادق، وتصديق الخبر يعني: تثبيته وتحقيقه، فقال: هذا حق وصحيح وثابت.

قوله: (بما يقول). (ما) عامة في كل ما يقول، حتى ما يحتمل أنه صدق؛ فإنه لا يجوز أن يصدقه؛ لأن الأصل فيهم الكذب.

قوله (فقد كفر بما أُنزل على محمد)؛ أي: بالذي أنزل، والذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم القرآن أنزل إليه بواسطة جبريل، قال تعالى: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِين * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ) (الشعراء:193،192)، وقال تعالى: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ)(النحل: من الآية102)، وبهذا نعرف أن القول الراجح في الحديث القدسي أنه من كلام الله تعالى معنى، وأما لفظه؛ فمن الرسول صلى الله عليه وسلم، لكنه حكاه عن الله؛ لأننا لو لم نقل بذلك لكان الحديث القدسي أرفع سنداً من القرآن، حيث إن الرسول صلى الله عليه وسلم

يرويه عن ربه مباشرة والقرآن بواسطة جبريل.

ولأنه لو كان من كلام الله لفظاً؛ لوجب أن تثبت له أحكام القرآن؛ لأن الشرع لا يفرق بين المتماثلين، وقد علم أن أحكام القرآن لا تنطبق على الحديث القدسي؛ فهو لا يُتعبد بتلاوته، ولا يُقرأ في الصلاة، ولا يُعجز لفظه، ولو كان من كلام الله؛ لكان معجزاً؛ لأن كلام الله لا يماثله كلام البشر، وأيضاً باتفاق أهل العلم فيما أعلم أنه لو جاء مُشرك يستجير ليسمع كلام الله وأسمعناه الأحاديث القدسية؛ فلا يصح أن يقال: إنه سمع كلام الله.

فدل هذا على أنه ليس من كلام الله، وهذا هو الصحيح، وللعلماء في ذلك قولان: هذا أحدهما، والثاني: أنه من قول الله لفظاً.

فإن قال قائل: كيف تصححون هذا والنبي صلى الله عليه وسلم ينسب القول إلى الله، ويقول: قال الله تعالى، ومقول القول هو هذا الحديث المسوق ؟

قلنا: هذا كما قال الله تعالى عن موسى وفرعون وإبراهيم: قال موسى، قال فرعون، قال إبراهيم ... مع أننا نعلم أن هذا اللفظ ليس من كلامهم ولا قولهم؛ لأن لغتهم ليست اللغة العربية، وإنما نُقل نقلاً عنهم، ويدل هذا أن القصص في القرآن تختلف بالطول والقصر والألفاظ، مما يدل على أن الله سبحانه ينقلها بالمعنى، ومع ذلك ينسبها إليهم؛ كما قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إلا الذي فطرني) (الزخرف: 26) ، وقال عن موسى: (وقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ) (الأعراف: من الآية128)، وقال عن فرعون: (قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) (الشعراء:34).

قوله: (بما أنزل على محمد) . ذكر أهل السنة أن كل كلمة وصف فيها القرآن بأنه منزل أو أنزل من الله؛ فهي دالة على علو الله ـ سبحانه وتعالى ـ

وللأربعة، والحاكم ـ وقال: (صحيح على شرطهما) ــ عن أبي هريرة:

بذاته، وعلى أن القرآن كلام الله؛ لأن النزول يكون من أعلى، والكلام لا يكون إلا من متكلم به.

قوله: (كفر بما أنزل على محمد). وجه ذلك: أن ما أنزل على محمد قال الله تعالى فيه: (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)(النمل: من الآية65)، وهذا من أقوى طرق الحصر؛ لأن فيه النفي والإثبات؛ فالذي يصدق الكاهن في علم الغيب وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله؛ فهو كافر كفراً أكبر مخرجاً من الملة، وإن كان جاهلاً ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب؛ فكفره كفر دون كفر.

قوله: (وللأربعة والحاكم). الأربعة هم : أبو داود، والنسائي، والترمزي، وابن ماجة، والحاكم ليس من أهل (السنن)، لكن له كتاب سمي (صحيح الحاكم).

قوله: (صحيح على شرطهما)؛ أي: شرط البخاري ومسلم، لكن قول (على شرطهما) هذا على ما يعتقد، وإلا؛ فقد يكون الأمر على خلاف ذلك.

ومعنى قوله: (على شرطهما)؛ أي: أن رجاله (الصحيحين)، وأن ما اشترطه البخاري ومسلم موجود فيه.

ونحن لا ننكـر أن هنـاك أحـاديث صـحيحة لم يـذكرها البخـاري ومسلم؛ لأنهمـا لم يسـتوعبا الصـحيح كلـه، وهـذا أمـر واقـع، ولكن ينظر في قول من قال: إن هذا الحديث على شرطهما؛ فقـد تكـون فيـه علـة خفيـة خفيت على هـذا القائـل، ويكـون البخـاري ومسـلم علماها وتركا الحديث من أجلها.

(من أتى عرافاً أو كاهناً، فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم) [1]

قوله : (صحيح) . يقولون: الحاكم ممن يتساهل بالتصـحيح، ولهـذا قالوا: لا عبرة بتصحيح الحاكم، ولا بتوثيق ابن حبـان، ولا بوضـع ابن الجوزي، ولا بإجماع ابن المنذر.

وهذا القول فيه مجازفة في الحقيقـة؛ لأن كلمـة (لا عـبرة)؛ أي: لا يلتفت إليـه، والصـواب أنـه لا يؤخـذ مقبـولاً في كـل حـال، مـع أني تـدبرت كلام ابن المنـذر رحمـه اللـه، ووجـدت أنـه دائمـاً إذا نقـل الإجماع يقول: إجماع من نحفظ قوله من أهل العلم، وهو بهـذا قـد احتفظ لنفسه، ولا يكلف الله نفساً إلى وسعها.

ولكننا مع ذلك نقول: إذا كان لا يعرف إلا ما حوله؛ فإن قوله هذا لا يكون إجماعاً ولا يوثق به، ولا نحكم بأنه إجماع.

مثاله: فلو قال رجل : لم يدرس إلا المـذهب الحنبلي في مسـألة ، وقال هذا إجماع من نحفظ قوله من أهـل العلم؛ فـإن قولـه هـذا لا يعتبر؛ لأنه لم يحفظ إلا قولاً قليلاً من أقوال أهل العلم.

قولـه: (من أتى عرافـاً أو كاهنـاً) . (أو) يحتمـل أن تكـون للشـك ، ويحتمل

---

[1] الإمام أحمد في (المسند) (2/429)، والبيهقي في (السنن) (7/195) ، والهيثمي في (المجمع) (5/11).
قال في تفسير العزيز) ص 409 : فعزو المصنف إلى الأربعة ليس كذلك فإنه لم يروه أحد منهم ... ولعله أراد الذي قبله) ، والحاكم في (المستدرك) (1/12) وصححه ووافقه الذهبي.

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً [1] .

وعن عمران بن حصين مرفوعاً: (ليس منا من تطير أو تطير له، أو

أن تكون للتنويع؛ فالحديث الأول بلفظ عراف، والثاني بلفظ كاهن، والثالث جمع بينهما؛ فتكون (أو) للتنويع.

وجاء المؤلف بهذا الحديث مع أن الأول والثاني مغنيان عنه؛ لأن كثرة الأدلة مما يقوي المدلول، أرأيت لو أن رجلاً أخبرك بخبر فوثقت به، ثم جاء آخر وأخبرك به ازددت توثقاً وقوة، ولهذا فرق الشارع بين أن يأتي الإنسان بشاهد واحد أو شاهدين.

وظاهر صنيع المؤلف: أن حديث أبي هريرة: (من أتى عرافاً أو كاهناً) أنه موقوف؛ لأنه قال عن أبي هريرة، لكنه لما قال في الذي بعده: (موقوفاً) ترجح عندنا أن الحديث الذي قبله مرفوع.

قوله: (ليس منا). تقدم الكلام على هذه الكلمة، وأنها لا تدل على خروج الفاعل من الإسلام، بل على حسب الحال.

قوله: (مرفوعاً)؛ أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

قوله: (تطير). التطير: هو التشاؤم بالمرئي أو المسموع أو المعلوم أو غير ذلك، وأصله من الطير؛ لأن العرب كانوا يتشاءمون أو يتفاءلون بها، وقد سبق ذلك [2] .

أو تكهن له، أو سحر له، ومن أتى كاهناً، فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم) . رواه البزار بإسناد جيد [1] .

---

[1] الإمام أحمد في (المسند) (2/428)، وأبو يعلى في (المسند) (5408)، والهيثمي في (المجمع) (5/118-119).

[2] تقدم (ص 515).

[1] البزار في (المسند) (3044)، والهيثمي في (المجمع) (5/118) . قال المنذري في (الترغيب) : (إسناده جيد)، وقال الهيثمي: (ورجاله ، رجال الصحيح).

ومنه ما يحصل لبعض الناس إذ شرع في عمل، ثم حصل له في أوله تعثر تركه وتشاءم؛ فهذا غير جائز، بل يتعمد على الله ويتوكل عليه، وما دمت أنك تعلم أن في هذا الأمر خيراً، ولا تشاءم؛ لأنك لم توفق فيه لأول مرة؛ فكم من إنسان لم يوفق في العمل أول مرة، ثم وفق في ثاني مرة أو ثالث مرة ؟ !

ويقال: إن الكسائي ـ إمام النحو ـ طلب النحو عدة مرات، ولكنه لم يوفق، فرأى نملة تحمل نواة تمر، فتصعد إلى الجدار، فتسقط، حتى كررت ذلك عدة مرات، ثم صعدت بها إلى الجدار وتجاوزته؛ فقال: سبحان الله ! هذه النملة تكابد هذه النواة حتى نجحت، إذن أنا سأكابد على النحو حتى أنجح. فكابد؛ فصار إمام أهل الكوفة في النحو.

قوله: (أو تطير له). بالبناء للمفعول؛ أي: أمر من يتطير له، مثل أن يأتي شخص، ويقول: سأسافر إلى المكان الفلاني، وأنت صاحب طير، وأريد أن تزجر طيرك لأنظر: هل هذه الوجهة مباركة أم لا، فمن فعل ذلك؛ فقد تبرأ منه الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقوله: (من تطير) يشمل من تطير لنفسه، أو تطير لغيره.

ورواه الطبراني في (الأوسط) بإسناد حسن من حديث ابن عباس؛ دون قوله: (ومن أتى كاهناً ... ، إلى آخره [1] .

وقوله: (أو تكهن أو تكهن له) . سبق أن الكهانة ادعاء علم الغيب في المستقبل [2] ، يقول سيكون كذا وكذا، وربما يقع؛ فهذا متكهن، ومن الغريب أنه شاع الآن في أسلوب الناس قولهم: تكهن بأن فلاناً سيأتي، ويطلقون هذا اللفظ الدال على عمل محرم على أمر مباح، وهذا لا ينبغي؛ لأن العامي الذي لا يفرق بين الأمور يظن

---

(1) الطبراني في (الأوسط) كما في (مجمع الزوائد) (5/117)، وقال: وفيه زمعة بن صالح، وهو ضعيف. وال المنذري في (الترغيب) (4/33): (إسناده حسن).

(2) تقدم (ص 530).

أن الكهانة كلها مباحة، بـدليل إطلاق هـذا اللفـظ على شـيء مبـاح معلوم إبحاحته.
قوله: (أو تكهن له) ؛ أي: طلب من الكاهن أن يتكهن لـه، كـان يقول للكاهن: ماذا يصيبني غـداً، أو في الشـهر الفلانيـة، وهـذا تـبرأ منه الرسول صلى الله عليه وسلم.
قوله: (أو سَحَرَ أو سُـحرَ لـه) . تقـدم تعريـف السـحر، وتقدمـه بيان أقسامه.
قوله: (أو سُحر له)؛ أي: طلب من الساحر أن يسحر له، ومنــه النشرة عن طريق السحر؛ فهي داخلة فيه، وكانوا يستعملونها على وجـوه متنوعـة، منهـا أنهم يـأتون بطسـت فيـه مـاء، ويصـبون فيـه رصاصـاً، فيتكـون هـذا الرصـاص بوجـه السـاحر؛ أي: تكـون صـورة الساحر في هذا الرصاص، ويسمونها العامة

قال البغوي: (العـراف: الـذي يـدعي معرفـة الأمـور بمقـدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك) [1] .
وقيل : هو الكاهن. والكاهن: هو الـذي يخـبر عن المغيبـات في المستقبل.
وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

عندنا (صب الرصاص)، وهـذا من أنـواع السـحر المحـرم، وقـد تبرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم من فاعله [2] .
الشـاهد من هــذا الحــديث: قولــه: (ومن أتى كاهنــاً ...) إلخ ، وقوله: (ورواه الطبراني في (الأوسط) بإسناد جيـد من حـديث ابن عباس ...) إلخ؛ فيكون هذا مقوياً للأول.

---

[1] شرح السنة (12/182) .
[2] تقدم (ص 540).

* قولـه: (قـال البغـوي : العـراف الـذي يـدعي معرفـة الأمـور بمقدمات ...). العراف: صيغة مبالغة فإما أن يراد بها الصيغة، وإمـا أن يراد بها النسبة.

وهـو الـذي يـدعى معرفـة تتعلـق بعلم الغيب، فيـدعي معرفـة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها.

وظاهر كلام البغوي رحمه اللـه: أنـه شـامل لمن ادعى معرفـة المستقبل والماضي؛ لأن مكان المسروق يعلم بعد السرقة، وكذلك الضالة قد حصل

وقال أبو العباس ابن تيميـه : العـراف : اسـم للكـاهن والمنجم والرمال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق) [1]

الضـياع، ولكن المسـألة ليسـت اتفاقيـة بين أهـل العلم، ولهـذا قال المؤلف رحمه الله: (وقيل: هو)؛ أي: العراف الكاهن.

والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

قوله: (وقيل: هو الذي يخـبر عمـا في الضـمير)؛ أي: أن تضـمر شئياً فتقول: ما أضمرت؟ فيقول: أضمرت كذا وكذا.

أو المغيبـات في المسـتقبل، تقـول: مـاذا سـيحدث في الشـهر الفلاني في اليوم الفلاني؟ ماذا ستلد امـرأتي؟ مـتى يقـدم ولـدي؟ وهو لا يدري.

والخلاصة: أن العلماء اختلفوا في تعريـف العـراف؛ فقيـل: هـو الـذي يـدعي معرفـة الأمـور بمقـدمات يسـتدل بهـا على مكـان المسـروق والضـالة ونحوهـا؛ فيكـون شـاملاً لمن يخـبر عن أمـور وقعت.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقيل: هو الكاهن، والكاهن: هـو الـذي يخـبر عن المغيبـات في المستقبل.

---

[1] مجموع الفتاوى (35/137).

*   *   *

قوله: (وقال أبو العباس ابن تيميـه). هـو أحمـد بن عبـد الحليم بن عبد السلام بن تيميه، يكنى بأبي العباس، ولم يتزوج، ولم يتركه من باب الرهبانية، ولكنه والله أعلم كـان مشـغولاً بالجهـاد العلمي مع قلة الشهوة، وإلا لو كان قوي الشهوة

لتزوج، وليس كما يدعي المـزورون أن لـه ولـداً مـدفوناً إلى جانبـه في دمشق؛ فإنه غير صحيح قطعاً.

وظاهر كلام الشيخ : أن شيخ الإسـلام جـزم بهـذا ، ولكن شـيخ الإسلام قال : وقيل العراف ،وذكره بقيل، ومعلوم أن ما ذكر بقيـل ليس مما يجزم بأن الناقل يقول به، صحيح أنه إذا نقله ولم ينقضه؛ فهذا دليل على أنه ارتضاه.

وعلى كل حال؛ فشيخ الإسلام ساق هذا القـول و ارتضـاه، ثم قـال: ولـو قيـل : إنـه اسـم خـاص لبعض هـؤلاء الرمـال و المنجم ونحوهم ؛ فإنهم يدخلون فيـه بـالعموم المعنـوي؛ لأن عنـدنا عمومـا معنويا، وهو ما ثبت عن طريق القياس، و عموما لفظيا، وهو ما دل عليه اللفظ، بحيث يكون اللفظ شاملا له .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله أن اسـتخدام الإنس للجن له ثلاث حالات .

الحال الأولى : أن يستخدم في طاعة الله ، كأن يكون لـه نائبـا في تبليغ الشرع ؛ فمثلا: إذا كان لـه صـاحب من الجن مـؤمن يأخـذ عنه العلم، ويتلقى منه ، وهذا شيء ثبت أن الجن قـد يتعلمـون من الإنس، فيسـتخدم في تبليـغ الشـرع لنظرائـه من الجن، أو في المعونة على أمور مطلوبة شرعا؛ فهذا لا بأس به، بل إنه قد يكـون أمرا محمودا أو مطلوبا، وهو من الدعوة إلى اللـه ــ عـز و جـل ــ ، والجن حضروا النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم وقـرأ عليهم القـرآن، وولوا إلى قومهم منذرين ، والجن فيهم الصلحاء و العباد و الزهاد و العلماء؛ لأن المنذر لابد أن يكون عالما بما ينذر، عابدا مطيعـا للـه ـ سبحانه ـ في الإنذار .

الحال الثانية : أن يستخدمهم في أمور مباحة ، مثـل أن يطلب منهم العون على أمر من الأمور المباحة، قال : فهـذا جـائز بشـرط أن تكون الوسيلة مباحة، فإن كانت محرمـة؛ صـار حرامـا، كمـا لـو كان الجني لا يساعده في أمـوره إلا إذا ذبح لـه أو سجد لـه أو مـا أشبه ذلك .

ثم ذكر ما ورد أن عمر تأخر ذات مرة في سفره، فاشتغل فكر أبي موسى، فقالوا له : إن امرأة من أهل المدينـة لهـا صـاحب من الجن ، فلـو أمرتهـا أن ترسـل صـاحبها للبحث عن عمـر، ففعـل، فذهب الجني، ثم رجع، فقال: إن أمير المؤمنين ليس به بأس، وهو يسم إبـل الصـدقة في المكـان الفلاني[1]؛ فهـذا استخدام في أمـر مباح .

الحال الثالثة : أن يستخدمهم في أمـور محرمـة؛ كنهب أمـوال الناس وترويعهم، وما أشبه ذلك؛ فهذا محرم، ثم إن كانت الوسـيلة شركاً صار شركاً، وإن كانت وسيلته غير شرك صار معصية، كما لو كان هذا الجني الفاسق يـألف هـذا الإنسـي الفاسـق ويتعـاون معـه على الإثم والعـدوان؛ فهـذا يكـون إثمـاً وعـدواناً، ولا يصـل إلى حـد الشرك.

ثم قال: إن من يسأل الجن، أو يسأل الجن، ويصدقهم في كـل مـا يقولـون؛ فهـذا معصـية وكفـر، والطريـق للحفـظ من الجن هـو قـراءة آيـة الكرسـي، فمن قرأهـا في ليلـة لم يـزل عليـه من اللـه حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، كما ثبت عنه صلى اللـه عليـه وسلم [2] ، وهي : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم ...) الآية.

وقـال ابن عبـاس في قـوم يكتبـون (أبـا جـاد) وينظـرون في النجوم: (ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق) [1] .

---

(1) تقدم (ص 534) .

(2) البخاري: كتاب الخلق/باب صفة إبليس وجنوده.

(1) عبد الرزاق في (المصنف) (11/26)، والبيهقي في (السنن الكبرى) (8/139).

قوله: (يكتبون أباجاد وينظرون في النجوم) . الـواو هنـا ليسـت عطفاً، ولكنها للحـال، يعـني: والحـال أنهم ينظـرون، فـيربطون مـا يكتبون بسير النجوم وحركتها.

قولـه: (مـا أرى من فعـل ذلـك) . ويجـوز بفتح الهمـزة بمعـنى: أعلم، وبالضم بمعنى: ما أظن.

وقوله: (أباجاد) . هي: أبجد هـوز حطي كلمن سـعفص قرشـت ثخذ ضظغ ... وتعلم أباجاد ينقسم إلى قسمين:

الأول: تعلم مباح بأن نتعلمها لحساب الجمل ، وما أشـبه ذلـك؛ فهذا لا بأس به، وما زال أناس يستعملونها، حـتى العلمـاء يؤرخـون بها ، قال شيخنا عبدالرحمن بن سـعدي رحمـه اللـه في تـاريخ بنـاء المسجد الجامع القديم :

جد بالرضا وعط المنى   من ساعدوا في ذا البنا

تاريخه حين انتهــى   قول المنيب اغفر لنـا

والشهر في شوال يـا   رب تقبل سعينـــا

فقوله: (اغفر لنا) لو عددناها حسب الجمل صارت 1362هـ .

وقد اعتنى بها العلماء في العصور الوسطى، حتى في القصـائد الفقهية والنحوية وغيرها.

ويؤرخون بها مواليد العلماء ووفياتهم، ولم يرد ابن عبـاس هـذا القسم.

الثاني: محرم، وهو كتابة (أباجاد) كتابة مربوطـة بسـير النجـوم وحركتهـا وطلوعهـا وغروبهـا، وينظـرون في النجـوم ليسـتدلوا بالموافقة أو المخالفة على ما سيحدث في الأرض، إما على سـبيل العموم؛ كالجدب والمرض والجرب وما أشـبه ذلـك، أو على سـبيل الخصوص؛ كأن يقول لشخص: سيحدث لك مرض أو فقر أو سعادة أو نحس في هذا وما أشـبه ذلـك؛ فهم يربطـون هـذه بهـذه، وليس هناك علاقة بين حركات النجوم واختلاف الوقائع في الأرض.

وقوله: (ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق).

قوله: (خلاق)؛ أي: نصيب.

ظـاهر كلام ابن عبـاس أنـه يـرى كفـرهم؛ لأن الـذي ليس لـه نصيب عند الله هو الكافر؛ إذ لا ينفى النصـيب مطلقـاً عن أحـد من المؤمنين، وإن كان له ذنوب عذب بقدر ذنوبه، أو تجاوز اللـه عنهـا، ثم صار آخر أمره إلى نصيبه الذي يجده عند الله.

ولم يبين المؤلف رحمه الله حكم الكاهن والمنجم والرمال من حيث العقوبة في الدنيا، وذلك أننا إن حكمنا بكفـرهم؛ فحكمهم في الدنيا أنهم يستتابوا، فإن تابوا، وإلا؛ قتلوا كفراً.

وإن حكمنا بعدم كفرهم؛ إما لكون السـحر لا يصـل إلى الكفـر، أو قلنا: إنهم لا يكفرون؛ لأن المسألة فيهـا خلاف؛ فإنـه يجب قتلهم لدفع مفسدتهم ومضرتهم، حتى وإن قلنا بعدم كفرهم؛ لأن أسـباب القتـل ليسـت مختصـة بـالكفر فقـط، بـل للقتـل أسـباب متعـددة ومتنوعـة، قـال تعـالى : (إِنَّمَـا جَـزَاءُ الَّذِينَ يُحَـارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ

وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَــوْا مِنَ الْأَرْضِ)(المائــدة: من الآية33)؛ فكل من أفسد على النـاس أمـور دينهم أو دنيـاهم؛ فإنـه يسـتتاب، فإن تاب، وإلا قُتل، ولا سيما إذا كانت هذه الأمور تصل إلى الإخراج من الإسلام.

والنظر في النجوم ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يسـتدل بحركاتهـا وسـيرها على الحـوادث الأرضـية، سواء كانت عامة أو خاصة؛ فهـو شـرك إن اعتقـد أن هـذه النجـوم هي المدبرة للأمور، أو أن لها شـركاً؛ فهـو كفـر مخـرج عن الملـة، وإن اعتقد أنهـا سـبب فقـط؛ فكفـره غـير مخـرج من الملـة، ولكن يسمى كفراً؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم على إثر سماء كنت من الليل: (هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قـالوا: اللـه ورسـوله أعلم. قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، أما من قال: مُطرنا بفضـل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب،وأما من قـال: مُطرنـا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب) [1] .

---

(1) تقدم (ص 519).

وقد سبق لنا أن هذا الكفر ينقسم إلى قسمين بحسب اعتقاد قائله [2] .

الثاني: أن يتعلم علم النجوم ليستدل بحركاتها وسيرها على الفصول وأوقات البذر والحصاد والغرض وما أشبهه؛ فهذا من الأمور المباحة؛ لأنه يستعان بذلك على أمور دنيوية.

القسم الثالثة: أن يتعلمها لمعرفة أوقات الصلوات وجهات القبلة، وما أشبه ذلك من الأمور المشروعة؛ فالتعلم هنا مشروع، وقد يكون فرض كفاية أو فرض عين.

* فيه مسائل :

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن. الثانية: التصريح بأنه كفر. الثالثة: ذكر من تكهن له. الرابعة: ذكر من تطير له. الخامسة: ذكر من سحر له. السادسة: ذكر من تعلم أباجاد.

فيه مسائل :

- الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن. يؤخذ من قوله (من أتى كاهناً، فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد) ، ووجهه: أنه كذب بالقرآن، وهذا من أعظم الكفر.
- الثانية: التصريح بأنه كفر. تؤخذ من قوله: (فقد كفر بما أنزل على محمد).
- الثالثة: ذكر من تكهن له. تؤخذ من حديث عمران بن حصين؛ حيث قال: (ليس منا)؛ أي: إنه كالكاهن في براءة النبي صلى الله عليه وسلم منه.
- الرابعة: ذكر من تطير له. تؤخذ من قوله: (أو تطير له).
- الخامسة: ذكر من سحر له. تؤخذ من قوله: (أو سحر له).

وأتى المؤلف بذكر من تكهن له، أو سحر له، أو تطير له؛ لأنه قد يعارض فيه معارض، فيقول هذا في الكهان، وهذا في

---

[2] (ص 519).

المتطيرين، وهذا في السحرة؛ فقال: إن من طلب أن يفعل له ذلك؛ فهو مثلهم في العقوبة.

- السادسة: ذكر من تعلم أباجاد. وتعلم ذلك فيه تفصيل لا يحمد ولا يذم؛ إلا على حسب الحال التي تنزل عليها، وقد سبق ذلك.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

- السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

وفي هذه المسألة خلاف بين أهل العلم:

القول الأول: أن العراف هو الكاهن؛ فهما مترادفان؛ فلا فرق بينهما.

القول الثاني: أن العراف هو الذي يستدل على معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها؛ فهو أعم من الكاهن؛ لأنه يشمل الكاهن وغيره، فهما من باب العام والخاص.

القول الثالث: أن العراف يخبر عن أمور بمقدمات يستدل عليها، والكاهن هو الذي يخبر عما في الضمير، أو عن المغيبات في المستقبل.

فالعراف أعم، أو أن العراف يختص بالماضي، والكاهن بالمستقبل؛ فهما متباينان، والظاهر أنهما متباينان؛ فالكاهن من يخبر عن المغيبات في المستقبل والعراف من يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

* * *

باب ما جاء في النشرة

عن جـابر ؛ أن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم سُـئل عن النشرة ؟ فقال:

---

* تعريف النشرة:
في اللغة؛ بضم النون: فعلة من النشر، وهو التفريق.
وفي الاصطلاح: حل السحر عن المسحور.
لأن هـذا الـذي يحـل السـحر عن المسـحور: يرفعـه، ويزيلـه، ويفرقه.
أما حكمها؛ فهو يتبين مما قالـه المؤلـف رحمـه اللـه، وهـو من أحسن البيانات.
ولا ريب أن حـــل الســـحر عن المســـحور من بـــاب الـــدواء والمعالجـة، وفيـه فضـل كبـير لمن ابتغى بـه وجـه اللـه، لكن في القسم المباح منها.
لأن السحر له تأثير على بدن المسحور وعقلـه ونفسـه وضـيق الصدر، حيث لا يأنس إلا بمن استعطف عليه.
وأحياناً يكون أمراضاً نفسية بالعكس، تنفر هذا المسـحور عمن تنفره عنه من الناس، وأحياناً يكون أمراضاً عقلية؛ فالسحر له تأثير إما على البدن، أو العقل، أو النفس.

*　*　*

قوله في (عن النشـرة). أل للعهـد الـذهني؛ أي: المعروفـة في الجاهلية التي كانوا يستعملونها في الجاهلية، وذلـك عن طريـق من طرق حل السحر، وهي على نوعين:
الأول: أن تكون باسـتخدام الشـياطين ، فـإن كـان لا يصـل إلى حاجته منهم

(هي من عمل الشيطان). رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود [1] ، وقال: (سُئل أحمد عنها ؟ فقال: ابن مسعود يكره هذا كله).

---

[1] الإمام أحمد في (المسند) (3/294)، وأبو داود: كتاب الطب/باب في النشرة، والحاكم في (المستدرك) (4/420)، وصححه ووافقه الذهبي . قال الحافظ في (الفتح) (10/233): (إسناده حسن).

إلا بالشرك؛ كانت شركاً، وإن كان يتوصـل لـذلك بمعصـية دون الشرك؛ كان لها حكم تلك المعصية.

الثاني: أن تكون بالسحر؛ كالأدوية والرقى والعقـد والنفث ومـا أشبه ذلك؛ فهذا له حكم السحر على ما سبق.

ومن ذلـك مـا يفعلـه بعض النـاس، أنهم يضـعون فـوق رأس المسـحور طشـتاً فيـه مـاء ويصـبون عليـه رصاصـاً ويزعمـون أن السـاحر يظهـر وجهـه في هـذا الرصـاص؛ فيسـتدل بـذلك على من سحره، وقد سئل الإمام أحمد عن النشرة، فقـال: إن بعض النـاس أجازها، فقيل له: إنهم يجعلون مـاء في طشـت، وإنـه يغـوص فيـه، وإنه يبدو وجهه، فنفض يده وقال: ما أدري ما هذا ؟ ما أدري ما هذا ؟ فكأنه رحمه الله توقف في الأمر وكره الخوض فيه.

قولـه: (من عمـل الشـيطان)؛ أي: من العمـل الـذي يـأمر بـه الشـيطان ويـوحي بـه؛ لأن الشـيطان يـأمر بالفحشـاء ويـوحي إلى أوليائه بالمنكر، وهذا يغني عن قوله: إنها حرام ، بل هـو أشـد ؛ لأن نسبتها للشيطان أبلغ في تقبيحهـا والتنفـير منهـا، ودلالـة النصـوص على التحريم لا تنحصر في لفظ التحريم أو نفي الجـواز ،

بل إذا رتبت العقوبات على الفعل كان دليلاً على تحريمه.

قولـه: (رواه أحمـد بسـند جيـد وأبـو داود). سـند أبي داود إلى أحمد متصل؛ لأنه قد حدثه وأدركه.

قوله: (فقال: ابن مسـعود يكـره هـذا كلـه). أجـاب رحمـه اللـه بقول الصحابي، وكأنه ليس عنده أثر صـحيح عن النـبي صـلى اللـه عليه وسلم في ذلك، وإلا لاستدل به.

والمشار إليه في قولـه: (يكـره هـذا كلـه) كـل أنـواع النشـرة، وظاهره: ولو كانت على الوجه المباح على ما يأتي، لكنه غير مراد؛ لأن النشرة بالقرآن والتعـوذات المشـروعة لم يقـل أحـد بكراهتـه، وسبق أن ابن مسعود رضي الله عنه كان يكـره تعليـق التمـائم من القرآن وغير القرآن.

وعلى هذا؛ فالكلية في قول أحمد: (يكره هذا كله) يراد بها النشرة التي من عمل الشيطان، وهي النشرة بالسحر والنشرة التي من التمائم.

وقوله: (يكره). الكراهة عند المتقدمين يراد بها التحريم غالباً ، ولا تخرج عنه إلا بقرينة، وعند المتأخرين خلاف الأولى؛ فلا تظن أن لفظ المكروه في عرف المتقدمين أو كلامهم مثله في كلام المتأخرين، بل هو يختلف، انظر إلى قوله تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ...)(الاسراء: من الآية23)، إلى أن قال بعد أن ذكر أشياء محرمة: (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً) (الاسراء:38)، ولا شك أن المراد بالكراهة هنا التحريم.

* * *

وفي (البخاري) عن قتادة: (قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته؛ أيحل عنه أو ينشر ؟ قال: لا بأس به؛ إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع؛ فلم ينه عنه) [1] .

قوله: (رجل به طب) . أي: سحر، ومن المعلوم أن الطب هو علاج المرض، لكن سمي السحر طباً من باب التفاؤل، كما سمي اللديغ سليماً والكسير جبيراً.

قوله: (أو يؤخذ عن امرأته). أي: يحبس عن زوجته؛ فلا يتمكن من جماعها، وهو ليس به بأس، وهذا نوع من السحر.

والعجيب أنه مشتهر عند الناس أنه إذا كان عند العقد، وعقد أحد عقده عند العقد؛ فإنه يحصل حبسه عن امرأته، وبالغ بعضهم؛ فقال: إذا شبك أحدهم بين أصابعه عند العقد حبس الزوج عن أهله، وهذا لا أعرف له أصلاً.

ولكن كثيراً ما يقع حبس الزوج عن زوجته ويطلبون العلاج.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن من العلاج أن يطلقها، ثم يراجعها؛ فينفك السحر.

---

[1] البخاري في (الصحيح) تعليقاً: كتاب الطب/باب هل يستخرج السحر.

لكن لا أدري هل هذا يصح أم لا ؟ فإذا صح؛ فالطلاق هنـا جـائز؛ لأنه طلاق للاستبقاء، فيطلق كعلاج، ونحن لا نفتي بشـيء من هـذا، بل نقول: لا نعرف عنه شيئاً.

و (أو) في قوله: (أو يؤخذ) يحتمل أنها للشك من الـراوي: هـل قال قتادة (به طب) أو قال: (يؤخذ عن امرأته) ؟

أي: أو قلت: يؤخذ ، ويحتمل أن تكون للتنويع، أي أنه سأله عن أمرين: عن المسحور، وعن الذي يؤخذ عن امرأته.

قوله: (أيحـل عنـه أو ينشـر) . لا شـك أن (أو) هنـا للشـك؛ لأن الحل هو النشرة.

قوله: (لا بأس به، إنما يريدون به الإصـلاح). كـأن ابن المسـيب رحمه الله قسم السحر إلى قسمين: ضار، ونافع.

فالضار محرم، قال تعالى: (وَيَتَعَلَّمُـونَ مَـا يَضُـرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ) (البقـرة: من الآية102)، والنـافع لا بـأس بـه، وهـذا ظـاهر مـا روي عنه، وبهذا أخذ أصحابنا الفقهاء، فقالوا: يجوز حـل السـحر بالسـحر للضرورة ، وقال بعض أهل العلم: إنه لا يجوز حل السحر بالسـحر، وحملوا ما روي عن ابن المسيب بأن المراد به ما لا يعلم عن حاله: هل هو سحر، أم غير سحر ؟ أما إذا علم أنه سحر؛ فلا يحل ، واللـه أعلم.

ولكن على كل حال حتى ولو كان ابن المسـيب ومن فـوق ابن المسيب ممن ليس قوله حجة يرى أنه جائز؛ فلا يلـزم من ذلـك أن يكون جائزاً في حكم الله حـتى يعـرض على الكتـاب والسـنة، وقـد سُئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن النشرة ؟ فقـال: (هي من عمل الشيطان) [1] 0

وروي عن الحسن؛ أنه قال: (لا يحل السحر إلا ساحر) [1] .

---

[1] تقدم (ص 553) .

[1] فتح الباري (10/233) .

قال ابن القيم: (النشرة : حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور. والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة؛ فهذا جائز) .

قوله: (وروي عن الحسن: لا يحل السحر إلا ساحر). هذا الأثر إن صح؛ فمراد الحسن الحل المعروف غالباً ، وأنه لا يقع إلا من السحرة.

قوله: (قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور ...) إلخ.

هذا الكلام جيد ولا مزيد عليه.

* * *

* فيه مسائل :

الأولى: النهي عن النشرة.

الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال.

فيه مسائل:
* الأولى: النهي عن النشرة. تؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم: (هي من عمل الشيطان)، وهنا ليس فيه صيغة نهي، لكن فيه ما يدل على النهي؛ لأن طرق إثبات النهي ليست الصيغة فقط، بل ذم فاعله ونحوه، وتقبيح الشيء وما أشبه ذلك يدل على النهي.
* الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه. تؤخذ من كلام ابن القيم رحمه الله وتفصيله.

* إشكال وجوابه :
ما الجمع بين قول الفقهاء رحمهم الله يجوز حل السحر بالسحر، وبين قولهم يجب قتل الساحر ؟
الجمع أن مرادهم بقتل الساحر من يضر بسحره دون من ينفع؛ فلا يقتل، أو أن مرادهم بيان حكم حل السحر بالسحر للضرورة، وأما الإبقاء على الساحر؛ فله نظر آخر ، والله أعلم .

* * *

باب ما جاء في التطير

---

* تعريف التطير :
في اللغة : مصدر تطير، وأصله مأخوذ من الطير؛ لأن العرب يتشاءمون أو يتفاءلون بالطيور على الطريقة المعروفة عندهم بزجر الطير، ثم ينظر: هل يذهب يميناً أو شمالاً أو ما أشبه ذلك، فإن ذهب إلى الجهة التي فيها التيامن؛ أقدم، أو فيها التشاؤم؛ أحجم.
أما في الاصطلاح؛ فهي التشاؤم بمرئي أو مسموع، وهذا من الأمور النادرة؛ لأن الغالب أن اللغة أوسع من الاصطلاح؛ لأن الاصطلاح يدخل على الألفاظ قيوداً تخصصها، مثل الصلاة لغة: الدعاء، وفي الاصطلاح أخص من الدعاء، وكذلك الزكاة وغيرها.
وإن شئت؛ فقل التطير: هو التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو معلوم.

بمرئي مثل: لو رأى طيراً فتشاءم لكونه موحشاً.
أو مسموع مثل: من هم بأمر فسمع أحداً يقول لآخر: يا خسران، أو يا خائب؛ فيتشاءم.
أو معلوم؛ كالتشاؤم ببعض الأيام أو بعض الشهور أو بعض السنوات؛ فهذه لا تُرى ولا تسمع.
واعلم أن التطير ينافي التوحيد، ووجه منافاته له من وجهين:
الأول: أن المتطير قطع توكله على الله واعتمد على غير الله .
الثاني: أنه تعلق بأمر لا حقيقة له، بل هو وهم وتخييل؛ فأي رابطة بين هذا الأمر، وبين ما يحل له، وهذا لا شك أنه يخل بالتوحيد ؛ لأن التوحيد عبادة
وقول الله تعالى: (أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)(لأعراف: من الآية131) .

واستعانة، قال تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة:5) ، وقال تعالى: (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)(هود: من الآية123) .
فالطيرة محرمة، وهي منافية للتوحيد كما سبق، والمتطير لا يخلو من حالين:
الأول: أن يحجم ويستجيب لهذه الطيرة ويدع العمل، وهذا من اعظم التطير والتشاؤم.
الثاني: أن يمضي لكن في قلق وهم وغم يخشى من تأثير هذا المتطير به، وهذا أوهن.
وكلا الأمرين نقص في التوحيد وضرر على العبيد، بل انطلق إلى ما تريد بانشراح صدر وتيسير واعتماد على الله ـ عز وجل ـ ، ولا تسيء الظن بالله ـ عز وجل ـ .
* * *
وقد ذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب آيتين:
* الآية الأولى قوله تعالى: (ألا إنما طائرهم عند الله).
هذه الآية نزلت في قوم موسى كما حكى الله عنهم في قوله: (وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ)(لأعراف: من الآية 131)، قال الله تعالى: (ألا إنما طائرهم عند الله)، ومعنى: (يطيروا بموسى ومن معه): أنه إذا جاءهم البلاء والجدب والقحط قالوا:

هذا من موسى وأصحابه؛ فأبطل الله هذه العقيدة بقولـه: (ألا إنمـا طائرهم عند الله).

وقوله: (قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ) (يّـس:19) .

قولـه: (ألا إنمـا طـائرهم عنـد اللـه) . (ألا): أداة اسـتفتاح تفيـد التنبيه والتوكيد، و(إنما) : أداة حصر.

وقوله: (طائر) مبتدأ ، و(عند الله) خبر، والمعنى: أن ما يصيبهم من الجدب والقحط ليس من موسى وقومه، ولكنـه من اللـه؛ فهـو الذي قدره ولا علاقة لموسى وقومـه بـه، بـل إن الأمـر يقتضـي أن موسى وقومه سبب للبركة والخـير، ولكن هـؤلاء ــ والعيـاذ باللـه ـ يلبسون على العوام ويوهمون الناس خلاف الواقع.

قوله: (ولكن أكـثرهم لا يعلمـون) . فهم في جهـل؛ فلا يعلمـون أن هنـاك إلهـاً مـدبراً، وأن مـا أصـابهم من اللـه وليس من موسـى وقومه.

* الآية الثانية قوله تعالى : (قالوا طائركم معكم).

أي: قال الذين أرسلوا إلى القريـة في قولـه تعـالى: (وَاضْـرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ)(الزمر: من الآية13).

فقالوا ذلك رداً على قوله أهل القرية: (إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ)(يّــس: من الآية18)؛ أي: تشــاءمنا بكم، وإننــا لا نــرى أنكم تــدلوننا على الخـير، بـل على الشـر ومـا فيـه هلاكنـا؛ فأجـابهم الرسـل بقـولهم: (طائركم معكم) ؛ أي: مصـاحب لكم، فمـا يحصـل لكم؛ فإنـه منكم ومن أعمالكم، فأنتم السبب في ذلك.

ولا منافاة بين هذه الآية والتي ذكرها المؤلف قبلهـا؛ لأن الأولى تدل على أن المقدر لهذا الشيء هو الله، والثانية تـبين سـببه، وهـو أنـه منهم؛ فهم في الحقيقـة طـائرهم معهم (أي الشـؤم) الحاصـل عليهم معهم ملازم لهم؛ لأن أعمالهم تستلزمه؛

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم قال: (لا عدوىن ولا طيرة ولا هامة، ولا صفر) . أخرجـاه [1] ، وزاد مسلم [2] : (ولا نوء ، ولا غول).

كما قال تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَـبَتْ أَيْـدِي النَّاسِ)(الروم: من الآية41) ، وقـال تعـالى: (وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُـرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَـاتٍ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَـذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الأعراف:96).

ويُستـفاد من الآيـتين المـذكورتين في البـاب: أن التطـير كـان معروفاً من قبل العـرب وفي غـير العـرب؛ لأن الأولى في فرعـون وقومه، والثانية في أصحاب القرية.

وقولـه: (أإن ذكـرتم بـل أنتم قـوم مسـرفون). ينبغي أن تقـف على قوله: (ذكرتم)؛ لأنها جملة شرطية، وجواب الشـرط محـذوف تقديره: أإن ذكرتم تطيرتم، وعلى هذا؛ فلا تصلها بما بعدها.

وقوله: (بل أنتم قوم مسرفون) . (بل) هنا للاضراب الإبطـالي؛ أي: ما أصابكم ليس منهم، بل هو من إسرافكم.

وقوله: (مسرفون) . أي: متجاوزن للحد الـذي يجب أن تكونـوا عليه .

* * *

قوله صلى الله عليه وسلم: (لا عدوى). لا نافيـة للجنس، ونفي الجنس أعم من نفي الواحـد والاثـنين والثلاثـة؛ لأنـه نفي للجنس كله ، فنفي الرسول صلى الله

عليه وسلم العدوى كلها

والعدوى: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح، وكما يكـون في الأمراض الحسية يكـون أيضـاً في الأمـراض المعنويـة الخلقيـة،

---

[1] البخاري: كتاب الطب/باب لا هامة، ومسلم: كتاب السلام/باب لا عدوى ولا طيرة.

[2] في الموضع السابق (4/1744).

ولهذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن جليس السوء كنافخ الكير؛ إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة [1] .

فقوله: (لا عدوى) يشمل الحسية والمعنوية، وإن كانت في الحسية أظهر.

قوله: (ولا طيرة). اسم مصدر تطير؛ لأن المصدر منه تطير، مثل الخيرة اسم مصدر اختار، قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) (الأحزاب: من الآية36)؛ أي: الاختيار، أي يختاروا خلاف ما قضى الله ورسوله من الأمر.

واسم المصدر يوافق المصدر في المعنى، ولذلك تقول كلمته كلاماً بمعنى كلمته تكليماً، وسلمت عليه سلاماً بمعنى سلمت عليه تسليماً.

لكن لما كان يخالف المصدر في البناء سموه اسم مصدر، والطيرة تقدم أنها هي التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم [2] .

قوله: (ولا هامة). الهامة؛ بتخفيف الميم فسرت بتفسيرين:

الأول: أنها طير معروف يشبه البومة، أو هي البومة، تزعم العرب أنه إذا

قُتل القتيل؛ صارت عظامة هامة تطير وتصرخ حتى يؤخذ بثأره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه.

التفسير الثاني: أن بعض العرب يقولون: الهامة هي الطير المعروف، لكنهم يتشاءمون بها، فإذا وقعت على بيت أحدهم ونعقت؛ قالوا: إنها تنعق به ليموت، ويعتقدون أن هذا دليل قرب أجله، وهذا كله ـ بلا شك ـ عقيدة باطلة.

قوله: (ولا صفر). قيل: إنه شهر صفر، كانت العرب يتشاءمون به ولاسيما في النكاح.

---

[1] البخاري: كتاب البيوع/ باب في العطار وبيع المسك، ومسلم: كتاب البر والصلة/باب استحباب مجالسة الصالحين.

[2] تقدم (ص 559)ز

وقيل: إنه داء في البطن يصيب الإبل وينتقل من بعير إلى آخر، وعلى هذا؛ فيكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

وقيل: إنه نهي عن النسيئة، وكانوا في الجاهلية ينسئون، فإذا أرادوا القاتل في شهر المحرم استحلوه، وأخروا الحرمة إلى شهر صفر، وهذه النسيئة التي ذكرها الله بقوله تعالى : (فيحلوا ما حرم الله)(التوبة: 37)، وهذا القول ضعيف، ويضعفه أن الحديث في سياق التطير، وليس في سياق التغيير، والأقرب أن صفر يعني الشهر، وأن المراد نفي كونه مشؤوماً؛ أيك لا شؤم فيه، وهو كغيره من الأزمان يقدر فيه الخير ويقدر فيه الشر.

وهذا النفي في هذه الأمور الأربعة ليس نفياً للوجود؛ لأنها موجودة، ولكنه نفي للتأثير؛ فالمؤثر هو الله، فما كان منها سبباً معلوماً؛ فهو سبب صحيح، وما كان منها سبباً موهوماً؛ فهو سبب باطل، ويكون نفياً لتأثيره بنفسه إن كان صحيحاً، ولكونه سبباً إن كان باطلاً.

فقوله: (لا عدوى): العدوى موجودة، ويدل لوجودها قوله صلى الله عليه

وسلم: (لا يورد ممرض على مصح) [1] ؛ أي: لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل الصحيحة؛ لئلا تنتقل العدوى.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (فر من المجذوم فرارك من الأسد) [2] .

والجذام مرض خبيث معد بسرعة ويتلف صاحبه؛ حتى قيل: إنه الطاعون؛ فالأمر بالفرار من المجذوم لكي لا تقع العدوى منه إليك، وفيه إثبات لتأثير العدوى، لكن تأثيرها ليس أمراً حتمياً، بحيث تكون علة فاعله، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالفرار، وأن لا يورد ممرض على مصح من باب تجنب الأسباب لا من باب تأثير الأسباب نفسها؛ فالأسباب لا تؤثر بنفسها، لكن ينبغي لنا أن نتجنب

([1] مسلم: كتاب السلام/باب لا عدوى ولا طيرة.

([2] البخاري في (الصحيح) تعليقاً في (كتاب الطب، باب الجذام).

الأسباب التي تكون سبباً للبلاء؛ لقوله تعالى: (وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَـةِ)(البقـرة: من الآية195)، ولا يمكن أن يقـال: إن الرسـول صلى الله عليه وسلم ينكر تأثير العدوى؛ لأن هذا أمر يبطله الواقـع والأحاديث الأخرى.

فـإن قيـل: إن الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم لمـا قـال: (لا عدوى. قال رجل: يا رسول الله ! الإبل تكون صحيحة مثل الظبـاء، فيدخلها الجمل الأجرب فتجرب؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فمن أعـدى الأول؟) [3] يعـني أن المـرض نـزل على الأول بـدون عـدوى، بـل نـزل من عنـد اللـه ــ عـز وجـل ــ ؛ فكـذلك إذا انتقـل بالعدوى؛ فقد أنتقل بأمر الله، والشيء قد يكـون لـه سـبب معلـوم وقد لا يكون له سبب معلوم، فجـرب الأول ليس سـببه معلومـاً؛ إلا أنه بتقدير الله تعالى، وجرب الذي بعده له سـبب معلـوم ، لكن لـو شاء الله تعالى لم يجرب، ولهذا أحياناً تُصاب

الإبل بالجرب، ثم يرتفع ولا تموت، وكذلك الطـاعون والكولـيرا أمراض معدية، وقد تدخل الـبيت فتصـيب البعض فيموتـون ويسـلم آخرون ولا يصابون.

فعلى الإنسان أن يعتمد على الله، ويتوكـل عليـه، وقـد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه رجل مجذوم، فأخذ بيده وقال له: (كل) يعني من الطعام الذي كان يأمل منه الرسول صلى الله عليه وسلم) [1] ؛ لقوة توكله صلى الله عليه وسلم ؛ فهذا التوكل مقاوم لهذا السبب المعدي.

وهذا الجمع الذي أشرنا إليه هو أحسن مـا قيـل في الجمـع بين الأحاديث، وادعى بعضهم النسخ؛ فمنهم من قال: عن الناسخ قوله: (لا عــدوى)، والمنســوخ قولــه: (فــر من المجــذوم) ، و (ولا يــورد ممرض على مصـح) ، وبعضـهم عكس، والصـحيح أنـه لا نسـخ؛ لأن من شروط النسخ تعذر الجمع، وإذا أمكن الجمع وجب الرجوع إليه؛

---

[3] البخاري: كتاب الطب/باب لا صفر، ومسلم: كتاب السلام/باب لا عدوى ولا طيرة.

[1] أبو داود: كتاب الطب/باب في الطيرة، والترمذي: كتـاب الأطعمـة/بـاب في الأكل مع المجـذوم، وابن ماجة: كتاب الطب/ باب الجذام، والحاكم (4/139)، وصححه ووافقه الذهبي.

لأن في الجمــع إعمــال الــدليلين، وفي النســخ إبطــال أحــدهما، وإعمالهما أولى من إبطال أحدهما؛ لأننا اعتبرناهما وجعلناهما حجة، وأيضاً الواقع يشهد أنه لا نسخ.

وقوله: (ولا صفر). فيه ثلاثة أقوال سبقت ، وبيان الراجح منها.

والأزمنة لا دخل لها في التأثير وفي تقدير الله ــ عــز وجــل ــ ؛ فصفر كغيره من الأزمنة يقدر فيه الخـير والشـر، وبعض النـاس إذا انتهى من شيء في صفر أرخ ذلـك وقـال: انتهى في صـفر الخـير، وهذا من باب مداواة البدعة ببدعة،

والجهل بالجهل؛ فهو ليس شهر خير ولا شهر شر.

أما شهر رمضان، وقولنا: إنه شهر خير؛ فالمراد بالخير العبادة، ولا شك أنه شـهر خـير، وقـولهم: رجب المعظم؛ بنـاءً على أنـه من الأشهر الحرم.

ولهذا أنكر بعض السلف على من إذا سـمع البومـة تنعـق قـال: خـيراً إن شـاء اللـه؛ فلا يُقـال: خـير ولا شـر، بـل هي تنعـق كبقيـة الطيور.

فهذه الأربعة التي نفاها الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم تُـبين وجوب التوكل على الله وصدق العزيمة، ولا يضـعف المسـلم أمـام هذه الأشياء؛ لأن الإنسان لا يخلو من حالين:

إما أن يستجيب لها بأن يقدم أو يحجم أو ما أشبه ذلك؛ فيكون حينئذ قد علق أفعاله بمـا لا حقيقـة لـه ولا أصـل لـه، وهـو نـوع من الشرك.

وإما أن لا يستجيب بأن يكون عنده نـوع من التوكـل ويقـدم ولا يبـالي، لكن يبقى في نفسـه نـوع من الهم أو الغم، وهـذا وإن كـان أهون من الأول، لكن يجب ألا يسـتجيب لـداعي هـذه الأشـياء الـتي نفاها الرسول صلى الله عليه وسلم مطلقاً، وأن يكون معتمداً على الله ـ عز وجل ـ .

وبعض الناس قد يفتح المصحف لطلب التفاؤل، فإذا نظـر ذكـر النار تشاءم، وإذا نظر ذكر الجنة قـال: هـذا فـأل طيب؛ فهـذا مثـل عمل الجاهلية الذين يستقسمون بالأزلام.

فالحاصل أننا نقول: لا تجعل على بالك مثل هذه الأمور إطلاقاً؛ فالأسـباب المعلومـة الظـاهرة تقي أسـباب الشـر، وأمـا الأسـباب الموهومة التي لم يجعلها الشرع سـبباً بـل نفاهـا؛ فلا يجـوز لـك أن تتعلق بها، بل احمد الله على العافية، وقل: ربنا عليك توكلنا.

قوله: (لا نوء) . واحد الأنواء، والأنـواء: هي منـازل القمـر، وهي ثمان

وعشرون منزلة، كل منزلة لها نجم تدوم بمدار السنة.

وهـذه النجـوم بعضـها يسـمى النجـوم الشـمالية، وهي لأيـام الصيف، وبعضها يسمى النجوم الجنوبية، وهي لأيام الشتاء، وأجـرى الله العادة أن المطر في وسط الجزيرة العربية يكون أيام الشـتاء، أما أيام الصيف؛ فلا مطر.

فالعرب كانوا يتشاءمون بالأنواء، ويتفاءلون بها؛ فبعض النجـوم يقولون: هذا نجم نحس لا خير فيه، وبعضـها بـالعكس يتفـاءلون بـه فيقولون: هذا نجم سعود وخير، ولهذا إذا أمطروا قالوا: مُطرنا بنوء كذا، ولا يقولون: مُطرنا بفضل الله ورحمته، ولا شـك أن هـذا غايـة الجهل.

ألسنا أدركنا هذا النوء بعينه في سنة يكون فيه مطر وفي سـنة أخرى لا يكون فيه مطر ؟

ونجد السنوات تمر بدون مطر مع وجود النجوم الموسمية التي كانت كثيراً ما يكون في زمنها الأمطار.

فـالنوء لا تـأثير لـه؛ فقولنـا: طلـع هـذا النجم، كقولنـا: طلعت الشمس؛ فليس له إلا طلوع وغروب، والنوء وقت تقدير، وهو يــدل على دخول الفصول فقط.

وفي عصرنا الحاضر يعلق المطـر بالضـغط الجـوي والمنخفض الجوي، وهذا وإن كـان قـد يكـون سـبباً حقيقيـاً ، ولكن لا يفتح هـذا الباب للناس، بل الـواجب أن يُقـال: هـذا من رحمـة اللـه، هـذا من فضله ونعمه، قـال تعـالى: (أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ يُـزْجِي سَـحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِـهِ)(النـور: من الآية 43)، وقال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَـاحَ فَتُثِـيرُ سَـحَاباً فَيَبْسُـطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ) (الروم: من الآية48).

فتعليق المطر بالمنخفضات الجوية من الأمور الجاهلية التي تصرف الإنسان

ولهما عن أنس؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا عدوى، ولا طيرة،

عن تعلقه بربه.

فذهبت أنواء الجاهلية، وجاءت المنخفضات الجوية، وما أشبه ذلك من الأقوال التي تصرف الإنسان عن ربه ـ سبحانه وتعالى ـ .

نعم، المنخفضات الجوية قد تكون سبباً لنزول المطر، لكن ليست هي المؤثر بنفسها؛ فتنبه.

قوله: (ولا غول). جمع غولة أو غولة، ونحن نسميها باللغة العامية: (الهولة)؛ لأنها تهول الإنسان.

والعرب كانوا إذا سافروا أو ذهبوا يميناً وشمالاً تلونت لهم الشياطين بألوان مفزعة مخيفة، فتدخل في قلوبهم الرعب والخوف، فتجدهم يكتئبون ويستحسرون عن الذهاب إلى هذا الوجه الذي أرادوا، وهذا لا شك أنه يضعف التوكل على الله، والشيطان حريص على إدخال القلق والحزن على الإنسان بقدر ما يستطيع، قال تعالى: (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)(المجادلة: من الآية10).

وهذا الذي نفاه الرسول صلى الله عليه وسلم هو تأثيرها؛ وليس المقصود بالنفي نفي الوجود، وأكثر ما يبتلى الإنسان بهذه الأمور إذا كان قلبه معلقاً بها، أما إن كان معتمداً على الله غير مبال بها؛ فلا تضره ولا تمنعه عن جهة قصدة.

*　*　*

قوله في حديث أنس: (لا عدوى، ولا طيرة) . تقدم الكلام على ذلك.

ويعجبني الفأل) . قالوا : وما الفأل ؟ قال : (الكلمة الطيبة) [1] .

---

[1] تقدم (ص 516) .

قولـه: (ويعجبـني الفـأل). أي: يسـرني، والفـأل بينـه بقولـه : (الكلمة الطيبة). فـ (الكلمة الطيبة) تعجبه صلى الله عليـه وسـلم ؛ لما فيها من إدخال السرور على النفس والانبساط ، والمضي قدماً لما يسعى إليه الإنسان، وليس هذا من الطيرة، بل هذا مما يشـجع الإنسان؛ لأنها لا تؤثر عليه، بل تزيده طمأنينة وإقداماً وإقبالاً.

وظـاهر الحـديث: الكلمـة الطيبـة في كـل شـيء؛ لأن الكلمـة الطيبة في الحقيقة تفتح القلب وتكون سـبباً لخـيرات كثـيرة، حـتى إنها تُدخل المرء في جملة ذوي الأخلاق الحسنة.

وهـذا الحـديث جمـع النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم فيـه بين محذورين ومرغوب؛ فالمحذوران هما العدوى والطيرة، والمرغـوب هو الفأل، وهذا من حُسن تعليم النبي صلى الله عليـه وسـلم؛ فمن ذكر المرهوب ينبغي أن يذكر معـه مـا يكـون مرغوبـاً ، ولهـذا كـان القرآن مثاني إذا ذكر أوصاف المؤمنين ذكر أوصاف الكافرين، وإذا ذكر العقوبة ذكر المثوبة، وهكذا.

قوله: (عن عقبة بن عـامر). صـوابه عن عـروة بن عـامر؛ كمـا ذكره في (التيسير)، وقد اختلف في نسبه وصحبته.

قوله: (ذكرت الطيرة عند رسول الله) . وهـذا الـذكر إمـا ذكـر شأنها ، أو ذكر أن الناس يفعلونها، والمراد: تحدث النـاس بهـا عنـد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولأبي داود ـ بسـند صـحيح ــ عن عقبـة بن عـامر؛ قـل: ذكـرت الطيرة عند رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم فقـال: (أحسـنها الفأل، ولا ترد مسلماً، فـإذا رأى أحـدكم مـا يكـره؛ فليقـل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك) [1] .

---

(1) أبو داود (كتاب الطب، باب في الطيرة) ، والبيهقي في (السنن) (8/139).
قال النووي في (رياض الصالحين) (ص 620) : (رواه أبو داود بإسناد صحيح).

قوله: (أحسنها الفأل) . سبق أن الفأل ليس من الطيرة [2] ، لكنه شبيه بالطيرة من حيث الإقدام؛ فإنه يزيد الإنسان نشاطاً وإقداماً فيما توجه إليه؛ فهو يشبه الطيرة من هذا الوجه، وإلا؛ فبينهما فرق لأن الطيرة توجب تعلق الإنسان بالمتطير به، وضعف توكله على الله، ورجوعه عما هم به من أجل ما رأى، لكن الفأل يزيده قوة وثباتاً ونشاطاً؛ فالشبه بينهما هو التأثير في كل منهما.

قوله: (ولا ترد مسلماً) . يفهم منه أن من ردته الطيرة عن حاجته؛ فليس بمسلم.

قوله: (فإذا رأى أحدكم ما يكره) . فحينئذ قد ترد على قلبه الطيرة، ويبتعد عما يريدن ولا يقدم عليه، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم دواء لذلك وقال: (فليق: اللهم لا يأتي بالحسنات ...) إلخ.

قوله: (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت) . وهذا هو حقيقة التوكل ،

وقوله: (اللهم) . يعني: يا الله، ولهذا بُنيت على الضم؛ لأن المنادي علم ، بل هو أعلم الأعلام وأعرف المعارف على الإطلاق، والميم عوض عن يا المحذوفة، وصارت في آخر الكلمة تبركاً بالابتداء باسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وصارت ميماً؛ لأنها تدل الجمع؛ فكأن الداعي جمع قلبه على الله.

قوله: (لا يأتي بالحسنات إلا أنت) . أي: لا يقدرها ولا يخلقها ولا يوجدها للعبد إلا الله وحده لا شريك له، وهذا لا ينافي أن تكون الحسنات بأسباب خلقها الله؛ صار الموجد حقيقة هو الله.

والمراد بالحسنات: ما يستحسن المرء وقوعه، ويحسن في عينه.

ويشمل ذلك الحسنات الشرعية؛ كالصلاة والزكاة وغيرها؛ لأنها تسر المؤمن ، ويشمل الحسنات الدنيوية؛ كالمال والولد ونحوها، قال تعالى : (إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ) (التوبة:50)، وقال تعالى

---

[2] (ص 570) .

في آيـة أخـرى: (إِنْ تَمْسَسْـكُمْ حَسَـنَةٌ تَسُـؤْهُمْ وَإِنْ تُصِـبْكُمْ سَـيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)(آل عمران: من الآية120) .

وقوله : (إلا أنت). فاعل يأتي ؛ لأن الاستثناء هنا مفرغ.

قوله: (ولا يدفع السيئات إلا أنت) . السيئات: مـا يسـوء المـرء وقوعه وينفر منه حالاً أو مآلاً ، ولا يدفعها إلا اللـه، ولهـذا إذا أصـيب الإنسان بمصيبة التجأ إلى ربه تعالى، حتى المشركون إذا ركبوا في الفلك ، وشاهدوا الغرق؛ دعوا الله مخلصين له الدين.

ولا ينـافي هـذا أن يكـون دفعهـا بأسـباب ؛ فمثلاً لـو رأى رجلاً غريقاً، فأنقذه؛ فإنما أنقذه بمشيئة اللـه، ولـو شـاء اللـه لم ينقـذه؛ فالسبب من الله.

فعقيـدة كـل مسـلم أنـه لا يـأتي بالحسـنات إلا للـه، ولا يـدفع السيئات إلا الله، وبمقتضـى هـذه العقيـدة؛ فإنـه يجب أن لا يسـأل المسلم الحسنات ولا يسأل دفع السيئات ويسألون دفع السـيئات ، قـال تعـالى عن زكريـا : (رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَـدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَـةً)(آل عمران: من الآية38)، وقال تعـالى عن أيـوب: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَـادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (الانبياء:83) ، وهكـذا يجب أن يكون المؤمن أيضا .

قوله : (ولا حول ولا قوة إلا بك) . في معناها وجهان:

الأول : أنه لا يوجد حـول ولا قـوة إلا باللـه؛ فالبـاء بمعـنى في، يعني: إلا في الله وحده، ومن سواه ليس لهم حول ولا قوة، ويكون الحول و القوة المنفيان عن غير الله هما الحـول المطلـق و القـوة المطلقة؛ لأن غير الله فيه حول و قوة، لكنها نسبية ليست بكاملـة؛ فالحول الكامل والقوة الكاملة في الله وحده.

الثاني : أنه لا يوجد لنا حول و لا قوة إلا بالله؛ فالبـاء للاسـتعانة أو للسببية، وهذا المعنى أصح، وهو مقتضى ورودهـا في مواضـعها؛ إذ إننا لا نتحول من حـال إلى حـال، ولا نقـوى على ذلـك إلا باللـه ؛ فيكون في هذه الجملة كمال التفويض إلى الله، وأن الإنسـان يـبرأ من حوله وقوته إلا بما أعطاه الله من الحول و القوة .

فإن صح الحديث؛ فالرسول صلى الله عليـه وسـلم أرشـدنا إذا رأينا ما نكره مما يتشـاءم بـه المتشـائم أن نقـول : (اللهم لا يـأتي

بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حـول ولا قـوة إلا بك) .

*   *   *

وعن ابن مسعود مرفوعا : (الطـيرة شـرك ، الطـيرة شـرك ، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل)[1] رواه أبو داود و الترمـذي و صححه . جعل آخره من قول ابن مسعود .

قوله : (مرفوعا) . أي : إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله : (الطيرة شرك ، الطيرة شرك) . هاتان الجملتان يؤكد بعضهما بعضا من باب التوكيد اللفظي.

وقوله : (شرك) . أي : إنها من أنواع الشرك، وليست الشرك كله، وإلا؛ لقال : الطيرة شرك .

وهل المراد بالشرك هنا الشرك الأكـبر المخـرج من الملـة ، أو أنها نوع من أنواع الشرك ؟

نقـول: هي نـوع من أنـواع الشـرك؛ كقولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم : (اثنتـان في النـاس همـا بهم كفـر)[2] ؛ أي : ليس الكفـر المخرج عن الملة ، وإلا ، لقال : (هما بهم الكفر) ، بل هما نوعان من الكفر .

لكن في ترك الصلاة قال : (بين الرجل و بين الشرك و الكفـر ترك الصـلاة)[3] ، فقـال : (الكفـر) ؛ فيجب أن نعـرف الفـرق بين (أل) المعرفة أو الدالة

)

[1] الإمام أحمد في (المسن) (1/389) ، وأبو داود : كتاب الطب / باب الطيرة)، و الترمذي: كتاب السير / باب ما جاء في الطيرة ـ وقال : (حسن صحيح) ـ ، و الحاكم (1/23) ـ وصححه ووافقه الذهبي.

) [2] : كتاب الإيمان / باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب .

) [3] أخرجه مسلم (كتاب الإيمان ، باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة) .

على الاستغراق ، وبين خلو اللفظ منها، فـإذا قيـل : هـذا كفـر؛ فالمراد أنه نوع من الكفر لا يخرج من الملة، وإذا قيل: هذا الكفر ؛ فهو المخرج من الملة.

فإذا تطير إنسان بشيء رآه أو سمعه؛ فإنه لا يعد مشركا شركا يخرجه من الملة، لكنه أشرك من حيث إنه اعتمد على هذا السـبب الذي لم يجعله اللـه سـببا، وهـذا يضـعف التوكـل على اللـه ويـوهن العزيمة ، وبذلك يعتبر شركا من هذه الناحية، والقاعـدة : (إن كـل إنسان اعتمد على سبب لم يجعله الشرع سببا؛ فإنه مشركا شــركا أصغر) .

وهذا نوع من الإشراك مع الله ؛ إمـا في التشـريع إن كـان هـذا السبب شرعيا، وإما في التقدير إن كان هذا السبب كونيـا، لكن لـو اعتقد هذا المتشائم المتطير أن هذا فاعل بنفسـه دون اللـه ؛ فهـو مشركا شركا أكبر؛ لأنه جعل لله شريكا في الخلق والإيجاد .

قوله : (وما منا) . (منا) : جار و مجرور خبر لمبتدأ محـذوف، إما قبل (إلا) إن قدرت ما بعـد إلا فعلا ؛ أي : ومـا منـا إلا تطـير، أو بعد (إلا) ؛ أي: وما منا إلا متطير .

والمعنى : ما منـا إنسـان يسـلم من التطـير؛ فالإنسـان يسـمع شيئا فيتشاءم، أو يبدأ في فعل؛ فيجد أو له ليس بالسهل فيتشــاءم و يتركه .

والتوكـل : صـدق الاعتمـاد على اللـه في حلب النـافع ودفـع المضار مع الثقة بالله ، وفعل الأسباب التي جعلها الله تعالى أسبابا .

فلا يكفي صدق الاعتماد فقط ، بل لابد أن تثق به؛ لأنه سـبحانه يقول: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) !

قوله : (وجعل آخره من قول ابن مسعود). وهو قوله : (ومـا منا إلا...) إلخ . وعلى هذا يكون موقوفـا، وهـو مـدرج في الحـديث، والمدرج: أن يدخل أحد الرواة كلامـا في الحـديث من عنـده بـدون بيان، ويكون في الإسناد و المتن، ولكن أكثره في المتن، وقد يكون في أول الحديث، وقد يكون في وسطه، وقد يكون في آخره ، وهو الأكثر .

مثال ما كان في أول الحديث: قول أبي هريرة رضي الله عنـه: (أسبغوا الوضوء، ويـل للأعقـاب من النـار)[1] ؛ فقولـه : (اسـبغوا الوضوء) من كلام أبي هريرة، وقوله : (ويل للأعقاب من النار) من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومثال ما كان في وسطه قول الزهري في حديث بدء الـوحي : (كان رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم يتحنث في غـار حـراء ، والتحنث : التعبد)[2] ، ومثال ما كان في آخره: هـذا الحـديث الـذي ذكره المؤلف، وكذا حديث أبي هريرة، وفيه : (فمن استطاع منكم أن يطيل غرته؛ فليفعل)[3] ؛ فهذا من كلام أبي هريرة .

قولــه : (من ردتــه الطــيرة عن حاجتــه). (من) . شــرطية، وجواب الشـرط: (فقـد أشـرك) ، واقـترن الجـواب بالفـاء؛ لأنـه لا يصلح لمباشرة الأداة، وحينئذ يجب اقترانه بالفـاء ، وقـد جمـع ذلـك في بيت شعر معروف، وهو قوله:

ولأحمد من حديث ابن عمرو : (من ردتـه الطـيرة عن حاجتـه؛ فقد أشرك). قالوا : فما كفارة ذلـك ؟ قـال : (أن تقولـوا: اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك)[1] .

اسمية طلبية و بجامد وبما وقد وبلن وبالتنفيس

وقوله : (عن حاجته) . الحاجة : كـل مـا يحتاجـه الإنسـان بمـا تتعلق به الكمالات، وقد تطلق على الأمور الضرورية .

قولــه : (فقــد أشــرك). أي: شــركا أكــبر إن اعتقــد أن هــذا المتشاءم به يفعل ويحدث الشـر بنفسـه، وإن اعتقـده سـببا فقـط فهو أصغر؛ لأنه سبق أن ذكرنا قاعدة مفيدة في هذا البــاب ، وهي: (إن كل من اعتقد في شيء أنه سبب ولم يثبت أنه سبب لا كونا و لا شرعا؛ فشركه شرك أصغر؛ لأنه ليس لنا أن يثبت أن هـذا سـبب

---

[1] البخاري : كتاب الوضوء / باب غسل الأعقاب ، ومسلم: كتاب الطهارة / باب وجوب غسل الرجلين .

[2] البخاري : كتاب بدء الوحي / باب كيف بدء الوحي، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم .

[3] البخاري: كتاب الوضوء / باب فضل الوضوء ، ومسلم : كتاب الطهارة/ باب استحباب إطالة الغرة .

[1] الإمام أحمد في (المسند) (2/220)

إلا إذا كان الله قد جعله سببا كونيا أو شرعيا؛ فالشرعي: كـالقراءة و الدعاء، والكوني: كالأدوية التي جرب نفعها) .

قوله : (فما كفارة ذلك) . أي: ما كفارة هذا الشرك، أو ما هو الدواء الذي يزيل هذا الشرك؟ لأن الكفـارة قـد تطلـق على كفـارة الشيء بعد فعله، وقد تطلق على الكفـارة قبـل الفعـل، وذلـك لأن الاشتقاق مأخوذ من الكفر ، وهو الستر، والستر واق؛ فكفارة ذلــك إن وقع وكفارة ذلك إن لم يقع .

وقوله : (اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طـيرك) . يعـني: فأنت الذي بيدك الخير المباشر؛ كالمطر و النبات، وغير المباشــر ؛ كالذي يكون سببه من عند

الله على يد مخلوق، مثـل: أن يعطيـك إنسـان درهم صـدقة أو هداية، وما أشبه ذلك؛ فهذا الخير من الله، لكن بواسطة جعلها الله سببا، وإلا فكل الخير من الله ـ عز و جل ـ .

وقوله : (فلا خير إلا خيرك) . هذا الحصر حقيقي؛ فالخير كلــه من الله، سواء كان بسبب معلوم أو بغيره .

وقوله : (لا طير إلا طيرك) . أي : الطيور كلها ملكك ؛ فهي لا تفعل شيئا ، وإنما هي مسخرة، قال تعالى : (أَوَلَمْ يَـرَوْا إِلَى الطَّيْـرِ فَوْقَهُمْ صَـافَّاتٍ وَيَقْبِضْـنَ مَـا يُمْسِـكُهُنَّ إِلَّا الـرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ بَصِيرٌ) (الملك:19)، وقال تعـالى : (أَلَمْ يَـرَوْا إِلَى الطَّيْـرِ مُسَـخَّرَاتٍ فِي جَـوِّ السَّـمَاءِ مَـا يُمْسِـكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (النحل:79) ؛ فالمهم أن الطير مسخرة بإذن اللـه ؛ فاللـه تعالى هو الذي يدبرها و يصرفها و يسخرها تـذهب يمينـا و شـمالا ، ولا علاقة لها بالحوادث.

ويحتمل أن المراد بالطير هنا ما يتشاءم بـه الإنسـان؛ فكـل مـا يحدث للإنسان من التشـاؤم و الحـوادث المكروهـة؛ فإنـه من اللـه كما أن الخير من الله؛ كما قال تعالى : (ألا إنما طائرهم عند الله) (الأعراف :31).

لكن سبق لنا أن الشر في فعل الله ليس بواقع، بل الشر في المفعول لا في الفعل، بل فعله تعالى كله خير؛ إما خير لذاته، وإما لما يترتب عليه من المصالح العظيمة التي تجعله خيرا .

فيكون قوله : (لا طير إلا طيرك) مقابلا لقوله : (ولا خير إلا خيرك).

قوله : (ولا إله غيرك) . (لا) نافية للجنس ، و(إله) بمعنى: مألوه؛ كغراس بمعنى مغروس، وفراش بمعنى مفروش، والمألوه: هو المعبود محبة و تعظيما يتأله إليه الإنسان محبة له و تعظيما له .

وله من حديث الفضل بن عباس : (إنما الطيرة ما أمضاك أوردك)[1] .

فإن قيل : إن هناك آلهة دون الله؛ كما قال تعالى : (فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْء)(هود: من الآية 101) .

أجيب : أنها وإن عبدت من دون الله و سميت آلهة؛ فليست آلهة حقا لأنها لا تستحق أن تعبد ؛ فلهذا نقول : لا إله إلا الله ؛ أي: حق لا إله إلا الله .

*يستفاد من الحديث :

1-أنه لا يجوز للإنسان أن ترده الطيرة عن حاجته، وإنما يتوكل على الله ولا يبالي بما رأى أو سمع أو حدث له عند مباشرته للفعل أول مرة؛ فإن بعض الناس إذا حصل له ما يكره في أول مباشرته الفعل تشاءم، وهذا خطأ؛ لأنه ما دامت هناك مصلحة دنيوية أو دينية؛ فلا تهتم بما حدث.

2- أن الطيرة نوع من الشرك؛ لقوله : (من ردته الطيرة عن حاجته؛ فقد أشرك) .

3-أن من وقع في قلبه التطير ولم ترده الطيرة؛ فإن ذلك لا يضر كما سبق في حديث ابن مسعود : (وما منا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل)[2] .

4- أن الأمور بيد الله خيرها و شرها .

5-انفراد الله بالألوهية ؛ كما انفرد بالخلق و التدبير .

---

[1] الإمام أحمد في (المسند) ، وقال الشيخ حفظه الله : (في سنده مقال) (ص580) .

[2] تقدم (ص89) .

وحصرا ؛ أي: ما الطيرة إلا ما أمضـاك أو ردك لا مـا حـدث في قلبك ولم تلتفت إليـه ، ولا ريب أن السـلامة منهـا حـتى في تفكـير الإنســان خــير بلا شــك، لكن إذا وقعت في القلب ولم تــرده ولم يلتفت لها ؛ فإنها لا تضره، لكن عليه أن لا يستسلم ، بل يــدافع ؛ إذ الأمر كله بيد الله .

قوله : (ما أمضاك أو ردك) . أما (ما ردك) ؛ فلا شك أنـه من الطيرة؛ لأن التطير يوجب الترك و التراجع .

وأما (ما أمضاك) ؛ فلا يخلو من لأمرين :

الأول : أن تكون من جنس التطير ، وذلك بـأن يسـتدل لنجاحـه أو عدم نجاحه بالتطير، كما لو قال : سأزجر هذا الطـير، فـإذا ذهب إلى اليمين؛ فمعنى ذلـك اليمن و البركـة، فيقـدم؛ فهـذا لاشـك أنـه تطير؛ لأن التفاؤل بمثل انطلاق الطير عن اليمين غير صـحيح؛ لأنــه لا وجه له؛ إذ الطير إذا طار؛ فإنه يذهب إلى الذي يرى أنــه وجهتـه، فإذا اعتمد عليه؛ فقد اعتمد على سـبب لم يجعلـه اللـه سـببا، وهـو حركة الطير.

الثني : أن يكون سبب المضي كلاما سمعه أو شيئا شاهده يدل على تيسير هذا الأمر لـه؛ فـإن هـذا فـأل، وهـو الـذي يعجب النـبي صلى الله عليه وسـلم ، لكن إن اعتمـد عليـه وكـان سـببا لإقدامـه؛ فهذا حكمه الطيرة ، وإن لم يعتمد عليه ولكنـه فـرح ونشـط وازداد نشاطا في طلبه؛ فهذا من الفأل المحمود .

والحديث في سنده مقال ، لكن على تقدير صحته هذا حكمه .

* * *

*فيه مسائل
الأولي: التنبيــه على قولــه: (ألا إنمــا طــائرهم عنــد اللــه) (الأعراف : 131)، مع قوله : (طائركم معكم) (يس : 19) الثانية : نفي العــدوى. الثالثــة : نفي الطــيرة. الرابعــة : نفي الهامــة . الخامسـة : نفي الصـفر. السادسـة : أن الفـأل ليس من ذلـك بـل مستحب .

فيه مسائل :
*الأولى : التنبيه على قوله : (ألا إنما طائرهم عنـد اللـه)، مـع قوله : (طائركم معكم).
أي : لكي يتنبـه الإنسـان، فـإن ظـاهر الآيـتين التعـارض، وليس كذلك؛ فالقرآن و السـنة لا تعـارض بينهمـا و لا تعـارض في ذاتهمـا، إنما يقع التعارض حسب فهم المخاطب ، وقد سبق بيان الجمع أن قوله : (ألا إنما طائرهم عند الله) أن الله هو المقـدر ذلـك ، وليس موسى و لا غيره من الرسل، وأن قوله: (طائركم معكم) من بـاب السبب؛ أي: أنتم سببه.
*الثانية : نفي العدوى . وقد سبق أن المراد بنفيها نفي تأثيرهـا بنفسها لا أنها سبب للتأثير؛ لأن الله قد جعـل بعض الأمـراض سـببا للعدوى و انتقالها.
*الثالثة : نفي الطيرة . أي : نفي التأثير لا نفي الوجود .
*الرابعـة : نفي الهامـة . والخامسـة : نفي الصـفر. وقـد سـبق تفسيرهما .
*السادسة : أن الفأل ليس من ذلـك، بـل مسـتحب. تؤخـذ من قول النبي

السابعة : تفسير الفـأل . الثامنـة : أن الواقـع في القلـوب من ذلك مع كراهية لا يضر بل يذهبـه اللـه بالتوكـل . التاسـعة: ذكـر مـا يقول من وجده.

صلى الله عليه وسلم : (يعجبني الفأل)[1]،وكل ما أعجب النـبي صلى الله عليه وسلم ؛ فهو حسن ، قالت عائشة رضي الله عنهـا : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه الـتيمن في تنعلـه وترجلـه وطهوره وفي شأنه كله)[2] .

*السابعة : تفسير الفأل. فسره النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم بأنه : الكلمة الطيبة، وسبق أن هذا التفسـير على سـبيل المثـال لا على سبيل الحصر ؛ لأن الفأل كـل مـا ينشـط الإنسـان على شـيء محمود؛ من قول، أو فعل مرئي أو مسموع.

*الثامنة : أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر، بل يذهبه الله بالتوكـل. أي: إذا وقـع في قلبـك وأنت كـاره لـه؛ فإنـه لا يضرك ويذهبه اللـه بالتوكـل؛ لقـول ابن مسـعود : (ومـا منـا إلا ... ولكن الله يذهبه بالتوكل)[3] .

*التاسعة : ذكر ما يقول من وجده . سبق أنه شيئان :

أن يقول: (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السـيئات إلا أنت، ولا حـول ولا قـوة إلا بـك) . أو يقـول : (اللهم لا خـير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك) .

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك. الحادية عشـرة : تفسـير الطيرة المذمومة.

---

*العشـرة : التصـريح بـأن الطـيرة شـرك . وسـبق أن الطـيرة شرك ، لكن بتفصيل ، فإن اعتقد تأثيرها بنفسها؛ فهو شرك أكـبر ، وإن اعتقد أنها سبب؛ فهو شرك أصغر .

---

[1] تقدم (ص516) .

[2] البخاري : كتاب الوضوء / باب التيمن في الوضوء و الغسل، ومسلم : كتاب الطهـارة/ بـاب الـتيمن في الطهور .

[3] تقدم (ص 574) .

*الحادية عشرة : تفسير الطيرة المذمومة . أي: ما أمضـاك أو ردك.

*   *   *

باب ما جاء في التنجيم

التنجيم : مصدر نجم بتشديد الجيم ؛ أي: تعلم علم النجـوم ، أو اعتقد تأثير النجوم .

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين :

1- علم التأثير. 2- علم التسيير

فالأول : علم التأثير. وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

ا- أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة، بمعنى أنها هي الـتي تخلق الحوادث و الشـرور ؛ فهـذا أكـبر؛ لأن من ادعى أن مـع اللـه خالقا؛ فهو شركا أكبر؛ فهذا جعل المسخر خالقا مسخرا.

ب- أن يجعلها سـبب يـدعي بـه علم الغيب، فيسـتدل بحركاتهـا وتنقلاتها و تغيراتها على أنه سـيكون كـذا و كـذا ؛ لأن النجم الفلاني صار كذا و كذا ، مثل أن يقول : هذا الإنسان ستكون حياتـه شـقاء؛ لأنه ولد في النجم الفلاني ، وهذا حياتـه سـتكون سـعيدة؛ لأنـه ولـد

في النجم الفلاني ؛ فهــذا اتخــذ تعلم النجــوم وســيلة لادعــاء علم الغيب، ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملـة؛ لأن اللـه يقـول : (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)(النمـل: من الآية65)، وهذا من أقوى أنواع الحصر؛ لأنه بـالنفي و الإثبـات، فـإذا ادعى أحد علم الغيب؛ فقد كذب القرآن.

ج- أن يعتقـدها سـببا لحـدوث الخـير و الشـر، أي أنـه إذا وقـع شيء نسبه إلى النجوم، ولا ينسب إلى النجوم شيئا إلا بعد وقوعـه؛ فهذا شرك أصغر.

فإن قيل: ينتقض هذا بما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسـلم في قوله في الكسوف : (إن الشمس و القمر آيتان من آيـات اللـه يخوف الله بهما عباده) [(1)] ؛ فمعنى ذلك أنهما علامة إنذار.

والجواب من وجهين :

الأول : أنــه لا يســلم أن للكســوف تــأثيرا في الحــوادث و العقوبات من الجدب و القحط و الحروب، ولذلك قال النـبي صـلى الله عليه وسلم : (إنهما لا ينكسـفان لـوت أحـد و لا لحياتـه)[(2)] ، لا في مـا مضـى و لا في المسـتقبل ، وإنمـا يخـوف اللـه بهمـا العبـاد لعلهم يرجعون، وهذا أقرب .

الثاني : أنه لـو سـلمنا أن لهمـا تـأثيراً؛ فـإن النص قـد دل على ذلك، وما دل عليه النص يجب القول به، لكن يكون خاصاً به.

لكن الوجه الأول هو الأقرب: أننا لا نسلم أصـلاً أن لهمـا تـأثيراً في هـذا؛ لأن الحـديث لا يقتضـيه؛ فالحـديث ينص على التخويـف، والمخوف هو الله تعالى، والمخوفة عقوبتـه، ولا أثـر للكسـوف في ذلك، وإنما هو علامة فقط.

(1، 2) البخاري : كتاب الكسوف / باب الصدقة في الكسوف ، مسلم : كتاب الكسوف / باب ذكر النداء بصلاة الكسوف .

(

الثاني: علم التيسير. وهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية؛ فهذا مطلــوب، وإذا كان يعين على مصالح دينية واجبة كـان تعلمهـا واجبـاً، كمـا لـو أراد أن يستدل بالنجوم على مصالح دينية واجبة كان تعلمهـا واجبـاً، كما لـو أراد أن يسـتدل بـالنجوم على جهـة القبلـة؛ فـالنجم الفلاني يكون ثلث الليل قبلة، والنجم الفلاني يكـون ربـع الليـل قبلـة؛ فهـذا فيه فائدة عظيمة.

الثاني: أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية؛ فهذا لا بــأس به، وهو نوعان:

النوع الأول: أن يستدل بهـا على الجهـات؛ كمعرفـة أن القطب يقع شمالاً، والجدي وهو قريب منه يدور حوله شمالاً، وهكذا ؛ فهـذا جائز ، قال تعالى: (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) (النحل:16).

النوع الثاني: أن يستدل بها على الفصول، وهو ما يعــرف بتعلم منازل القمر؛ فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون.

والذين كرهوه قالوا: يُخشى إذا قيل: طلــع النجم الفلاني؛ فهــو وقت الشتاء أو الصيف: أن بعض العامة يعتقـد أنـه هـو الـذي يـأتي بالبرد أو بالحر أو بالرياح.

والصحيح عدم الكراهة ؛ كما سيأتي إن شاء الله [1]

* * *

---

[1] انظر (ص 105) .

قال البخاري في (صحيحه): (قال قتادة: خلق الله هذه النجــوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتـدي بهـا، فمن تأول فيها غير ذلك؛ أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به) [1] انتهى.

قولـه في أثـر قتـادة: (خلـق اللـه هـذه النجـوم ثلاث)ـ اللازم للتعليل؛ أي: لبيان العلة والحكمة.

قولـه: (لثلاث)ـ ويجـوز لثلاثـة، لكن الثلاث أحســن، أي: لثلاث حكم، لهذا حذف تاء التأنيث من العدد.

والثلاث هي:

الأولى: زينـة للسـماء، قـال تعـالى: (وَلَقَـدْ زَيَّنَّا السَّـمَاءَ الـدُّنْيَا بِمَصَــابِيحَ وَجَعَلْنَاهَــا رُجُومــاً لِلشَّــيَاطِينِ)(الملــك: من الآية5)؛ لأن الإنسان إذا رأى السـماء صـافية في ليلـة غـير مقمـرة وليس فيهـا كهرباء يجد لهذه النجـوم من الجمـال العظيم مـا لا يعلمـه إلا اللـه؛ فتكـون كأنهـا غابـة محلاة بـأنواع من الفضـة اللامعـة، هـذه نجمـة مضيئة كبـيرة تميـل إلى الحمـرة، وهـذه تميـل إلى الزرقـة، وهـذه خفيفة، وهذه متوسطة، وهذا شيء مشاهد.

وهـل نقـول: إن ظـاهر الآيـة الكريمـة أن النجـوم مرصـعة في السماء، أو نقول: لا يلزم ذلك؟

الجــواب: لا يلــزم من ذلــك أن تكــون النجــوم مرصــعة في السماء ، قال

تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُـلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (الانبياء:33)؛ أي: يدورون، كل له فلك.

---

[1] البخاري : كتاب بدء الخلق، باب في النجوم، معلقاً.

وأنا شاهدت بعيني أن القمر خسف نجمة من النجوم، أي غطاها، وهي من النجوم اللامعة الكبيرة كان يقرب حولها في آخر الشهر، وعند قرب الفجر غطاها؛ فكنا لا نراها بالمرة، وذلك قبل عامين في آخر رمضان.

إذن هي أفلاك متفاوتة في الارتفاع والنزول، ولا يلزم أن تكون مرصعة في السماء.

فإن قيل: فما الجواب عن قوله تعالى: (زينا السماء الدنيا) ؟

قلنا: إنها لا يلزم من تزيين الشيء بالشيء أن يكون ملاصقاً له، أرأيت لو أن رجلاً عمر قصراً وجعل حوله ثريات من الكهرباء كبيرة وجميلة، وليست على جدرانه؛ فالناظر إلى القصر من بعد يرى أنها زينة له، وإن لم تكن ملاصقة له.

الثانية: رجوماً للشياطين؛ أي: لشياطين الجن، وليسوا شياطين الإنس؛ لأن شياطين الإنس لم يصلوها، لكن شياطين الجن وصلوها؛ فهم أقدر من شياطين الإنس، ولهم قوة عظيمة نافذة، قال تعالى عن عملهم الدال على قدرتهم: (وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ) (صّ:37)؛ أي: سخرنا لسليمان: (وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ) (صّ:38) وقال تعالى : (قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ)(النمل: من الآية39)، أي: من سبأ إلى الشام، وهو عرش عظيم لملكة سبأ؛ فهذا يدل على قوتهم وسرعتهم ونفوذهم.

وقال تعالى: (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً) (الجن:9). والرجم: الرمي.

الثالثة: علامات يهتدى بها، من قوله تعالى : (وألقى في الأرض

وكره قتادة تعلم منازل القمر. ولم يرخص ابن عيينة فيه . ذكره حرب عنهما. ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هو يهتدون)(النحل:16)؛ فذكر الله تعالى نوعين من العلامات التي يهتدي بها:

الأول : أرضية، وتشمل كل ما جعل الله في الأرض من علامة ؛ كالجبال، والأنهار ، والطرق، والأودية، ونحوها.

والثاني : أفقية في قوله تعالى : (وبالنجم هم يهتدون)ـ
والنجم : اسم جنس يشمل كل ما يهتدى به، ولا يختص بنجم معين؛ لأن لكل قوم في الاستدلال بهذه النجوم على الجهات، سواء جهات القبلة أو المكان ، برا أو بحرا .
وهذا من نعمة الله أن جعل علامات علوية لا يحجب دونها شيء، وهي النجوم؛ لأنك في الليل لا تشاهد جبالا أودية ، وهذا من تسخير الله، قال تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْه)(الجاثية: من الآية13).
قوله : (وكره قتادة تعلم منازل القمر) . أي: كراهة تحريم بناء على أن الكراهة في كلام السلف يراد بها التحريم غالبا .
وقوله : (تعلم منازل القمر) يحتمل أمرين :
الأول أن المراد به معرفة منزلة القمر، الليلة يكون في الشرطين، ويكون في الإكليل؛ فالمراد معرفة منازل القمر كل ليلة؛ لأن كل ليلة له منزلة حتى يتم ثمانيا وعشرين و في تسع و عشرين وثلاثين لا يظهر في الغالب .
الثاني : أن المراد به تعلم منازل النجوم؛ أي: يخرج النجم الفلاني في

وعن أبي موسى ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثلاثة لا يدخلون الجنة:

اليوم الفلاني، وهذه النجوم جعلها الله أوقاتا للفصول؛ لأنها (28) نجما، منها (14) يمانية و (14) شمالية؛ فإذا حلت الشمس في المنازل الشمالية صار الحر ، وإذا حلت في الجنوبية صار البرد ، ولذلك كان من علامة دنو البرد خروج سهيل، وهو من النجوم اليمانية .
قوله : (ولم يرخص فيه ابن عيينة) . هو سفيان بن عيينة المعروف، وهذا يوافق قول قتادة بالكراهة .
قوله : (وذكره حرب)ـ من أصحاب أحمد، روى عنه مسائل كثرة.
قوله : (إسحاق). هو إسحاق بن راهويه .

والصحيح أنه لا بأس بتعلم منازل القمر؛ لأنه لا شـرك فيهـا؛ إلا إن تعلمها ليضف إليها نزول المطر وحصول البرد، وأنها هي الجالبة لذلك ؛ فهذا نوع من الشـرك، أمـا مجـرد معرفـة الـوقت بهـا: هـل الربيع ، أو الخريف، أو الشتاء؛ فهذا لا بأس به .

* * *

قوله في حديث أبي موسى : (الجنة) . هي الدار الـتي أعـدها الله لأوليائه المتقين، وسميت بذلك؛ لكثرة أشـجارها لأنهـا تجن من فيها أي تستره .

قوله : (مدمن خمر) . هو الذي يشرب الخمر كثـيرا، و الخمـر حــده الرســول صــلى اللــه عليــه وســلم بقولــه : (كــل مســكر خمر)[1]ومعنى (أسكر)؛ أي: غطى العقل، وليس

مـدمن الخمـر، وقـاطع الـرحم، ومصـدق بالسـحر) . رواه أحم وابن حبان في (صحيحه)[1] .

كـل مـا غطى العقـل فهـو خمـر؛ فـالبنج مثلا ليس بخمـر، وإذا شـرب دهنـا فـأغمي عليـه؛ فليس ذلـك بخمـر، وإنمـا الخمـر الـذي يغطي العقل على وجه اللذة و الطـرب؛ فتجـد الشـارب يحس أنـه منزلة عظيمة و سعادة وما أشبه ذلك، قال الشاعر:

ونشربها فتتركنا ملوكا وأسدا ما يهنئها اللقاء

وقال حمزة بن عبد المطلب ـ وكان قد سكر قبل تحريم الخمر ـ للنبي صلى الله عليه وسلم : (وهل أنتم إلا عبيد أبي)[2] ؛ فالذي يغطي العقـل على سـبيل اللـذة محـرم بالكتـاب و السـنة، بمجـرد إنكاره تحريمه .

قولـه : (قـاطع رحم) . الـرحم : هم القرابـة، قـال تعـالى : (وأولو الأرحـام بعضـهم أولى ببعض) (الأنفـال :75) ، وليس كمـا

---

(1) مسلم (كتاب الأشربة ، بيان أن كل مسكر خمر.

(1) الإمام أحمد في (المسند) (4/339) ، وابن حبان (7/365) .
قال الهيثمي في (المجمع) (5/74) : (رجال أحمد و أبي يعلى ثقات) .

(2) البخاري : كتاب المساقاة/ باب بيع الحطب، ومسلم : كتاب الأشربة / باب تحريم الخمر .

ومن استحله؛ فهو كافر، إلا إن كـان ناشـئا ببادية بعيـدة، أو حـديث عهد بالإسلام ، ولا يعلم الحكم الشرعي في ذلـك؛ فإنـه يعـرف و لا يكفـر يظنـه العامـة أنهم أقـارب الـزوجين؛ لأن هـذه تسـمية غـير شرعية، و الشرعية في أقارب الزوجين: أن

ومعنى قاطع الرحم : أن لا يصله، و الصـلة جـاءت مطلقـة في الكتاب و السـنة، قـال تعـالى: (وَالَّذِينَ يَصِـلُونَ مَـا أَمَـرَ اللَّهُ بِـهِ أَنْ يُوصَلَ)(الرعـد:من الآية21)، ومنـه الأرحـام ومـا جـاء مطلقـا غـير مقيد؛ فإنه يتبع فيه العرف كما قيل :

وكل ما أتى ولم يحدد بالشرع كالحرز فبالعرف احدد

فالصـــلة في زمن الجـــوع و الفقـــر : أن يعطيهم و يلاحظهم بالكسرة و الطعام دائما، وفي زمن الغنى لا يلزم ذلك .

وكذلك الأقارب ينقسمون إلى قريب و بعيد؛ فـأقربهم يجب لـه من الصلة أكثر مما يجب للأبعد.

ثم الأقارب ينقسمون إلى قسمين من جهـة أخـرى : قسـم من الأقارب يرى أن لنفسه حقا لابد من القيام به، ويريد أن تصله دائما ، وقسم آخر يقدر الظروف و ينزل الأشياء منازلها؛ فهـذا لـه حكم، وذلك له حكم .

والقطيعة يرجع فيها العرف؛ إلا أنـه يسـتثنى من ذلـك مسـألة، وهي: ما لو كان العرف عدم الصلة مطلقا، بأن كنا في أمة تشتتت وتقطعت عـرى صـلتها كمـا يعـرف الآن في البلاد الغربيـة؛ فإنـه لا يعمل حينئذ بالعرف، ونقول: لابد من صلة، فإذا كان هناك صلة في العرف اتبعناها، وإذا لم يكن هنـاك صـلة؛ فلا يمكن أن نعطـل هـذه الشريعة التي أمر الله بها ورسوله .

والصـلة ليس معناهـا أن تصـل من وصـلك؛ لأن هـذا مكافـأة، وليست صلة؛ لأن الإنسان يصـل أبعـد النـاس عنـه إذا وصـله، إنمـا

الواصل؛ كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (من إذا قطعت رحمه وصلها)[1] ، هذا هو الذي يريد وجه الله

والدار الآخرة .

وهل صلة الرحم حق لله أو للآدمي؟

الظاهر أنها حق للآدمي، وهي حق لله باعتبار أن الله أمر بها .

قوله : (ومصدق بالسحر). هذا هو شاهد الباب، ووجهه أن علم التنجيم نوع من السحر، فمن صدق به؛ فقد صدق بنوع من السحر، فقد سبق : (أن من اقتبس شعبه من النجوم ؛ فقد اقتبس شعبة من السحر)[1] ، والمصدق به هو المصدق بما يخبر به المنجمون ، فإذا قال المنجم : سيحدث كذا وكذا، وصدق به؛ فإنه لا يدخل الجنة؛ لأنه صدق بعلم الغيب لغير الله، قال تعالى : (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)(النمل: من الآية65).

فإن قيل : لماذا لا يجعل السحر هنا عاما ليشمل التنجيم و غير التنجيم؟

أجيب : إن المصدق بما يخبره به السحرة من علم الغيب يشمله الوعيد هنا، وأما المصدق بأن للسحر تأثيرا؛ فلا يلحقه هذا الوعيد؛ إذ لاشك أن للسحر تأثيرا، لكن تأثيره تخييل ، مثل ما وقع من سحرة فرعون حيث سحروا أعين الناس حتى رأوا الحبال و العصي كأنها حيات تسعى، وإن كان لا حقيقة لذلك، وقد يسحر الساحر شخصا فيجعله يحب فلانا ويبغض فلانا؛ فهو مؤثر،قال تعالى: (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ)(البقرة: من الآية102)؛ فالتصديق بأثر السحر على هذا الوجه لا يدخله الوعيد لأنه تصديق بأمر واقع .

أما من صدق بأن السحر يؤثر في قلب الأعيان بحيث يجعل الخشب ذهبا

---

[1] البخاري : كتاب الآداب / باب ليس الواصل بالمكافئ

[1] تقدم (ص518)

أو نحو ذلك ؛ فلا شك في دخوله في الوعيد ؛ لأن هذا لا يقدر عليه إلا الله ـ عز وجل ـ .
قوله : (ثلاثة لا يدخلون الجنة) . هل المراد الحصر وأن غيرهم يدخل الجنة ؟
الجواب : لا ؛ لأن هناك من لا يدخلون الجنة سوى هؤلاء؛ فهذا الحديث لا يدل على الحصر .
وهل هؤلاء كفار لأن من لا يدخل الجنة كافر؟
اختلف أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من أحاديث الوعيد على أقوال:
القول الأول : مذهب المعتزلة و الخوارج الذين يأخذون بنصوص الوعيد، فيرون الخروج من الإيمان بهذه المعصية، لكن الخوارج يقولون: هو كافر، و المعتزلة يقولون : هو في منزلة بين المنزلتين، وتتفق الطائفتان على أنهم مخلدون في النار، فيجرون هذا الحديث و نحوه على ظاهره ، ولا ينظرون إلى الأحاديث الأخرى الدالة على أن من في قلبه إيمان وإن قل؛ فإنه لابد أن يدخل الجنة .
القول الثاني : أن هذا الوعيد فيمن استحل هذا الفعل بدليل النصوص الكثيرة الدالة على أن من في قلبه إيمان وإن قل؛ فلابد أن يدخل الجنة، وهذا القول ليس بصواب؛ لأن من استحله كافر ولو لم يفعله، فمن استحل قطيعة الرحم أو شرب الخمر مثلا؛ فهو كافر وإن لم يقطع الرحم ولم يشرب الخمر.
القول الثالث : أن هذا من باب أحاديث الوعيد التي تمر كما جاءت ولا يتعرض لمعناها،بل يقال: هكذا قال الله وقال رسوله و نسكت؛ فمثلا : قوله تعالى : (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ

وَأَعَدَّ لَـهُ عَـذَاباً عَظِيمـاً) (النسـاء:93)، هـذه الآيـة من نصـوص الوعيـد؛ فنـؤمن بهـا، ولا نتعـرض لمعناهـا ومعارضـتها للنصـوص الأخرى، ونقول : هكذا قال الله، والله أعلم بمـا أراد، وهـذا مـذهب كثير من السلف ؛ كمالك وغيره، وهذا أبلغ في الزجر .

القول الرابع : أن هذا نفي مطلق، والنفي المطلق يحمـل على المقيد؛ فيقال: لا يدخلون الجنة دخولا مطلقا يعني لا يسبقه عذاب، ولكنهم يدخلون الجنة دخولا يسبقه عذاب بقدر ذنوبهم، ثم مرجعهم إلى الجنة، وذلـك لأن نصـوص الشـرع يصـدق بعضـها بعضـا، ويلائم بعضـها بعضـا، وهـذا أقـرب إلى القواعـد وأبين حـتى لا تبقى دلالـة النصوص غير معلومة؛ فتقيد النصوص بعضها ببعض .

وهناك احتمال : أن من كانت هذه حاله حري أن يختم له بسوء الخاتمة، فيموت كافرا ، فيكون هذا الوعيـد باعتبـار مـا يـؤول حالـه إليه، وحينئذ لا يبقى في المسألة إشكال؛ لأن من مات على الكفر ؛ فلن يدخل الجنة، وهو مخلد في النار ، وربما يؤيده قوله صلى اللـه عليه وسلم : (لا يزال المرء في فسحه من دينه مـا لم يصـب دمـا حراما)[1] ؛ فيكون هذا قولا خامسا .

* * *

*فيه مسائل :

الأولى : الحكمة في خلق النجوم . الثانية : الـرد على من زعم غير ذلك . الثالثة : ذكر الخلاف في تعلم المنازل . الرابعة : الوعيـد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل .

---

[1] البخاري : كتاب الديانات / باب قوله تعالى : (ومن يقتل مؤمنا متعمدا ...) .

فيه مسائل :

الأولى : الحكمة في خلق النجوم . وهي ثلاث:

- أنها زينة للسماء .
- ورجوم للشياطين .
- وعلامات يهتدى بها .

وربما يكون هناك حكم اخرى لا نعلمها .

الثانية : الرد على من زعم غير ذلك . لقول قتادة : (من تـأول فيها غير ذلك؛ أخطأ ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به) .

ومراد قتادة في قوله : (غـير ذلـك) مـا زعمـه المنجمـون من الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضـية ، وأمـا مـا يمكن أن يكون فيها من أمور حسية سوى الثلاث السابقة؛ فلا ضـلال لمن تأوله .

الثالثة : ذكر الخلاف في تعلم المنازل . سبق ذلك[1] .

الرابعة : الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولـو عـرف أنـه باطل .

من صدق بشيء من التنجيم أو غـيره من السـحر بلسـانه ولـو اعتقد بطلانه بقلبه ؛ فإن عليه هذا الوعيد، كيف يصدق وهـو يعـرف أنه باطل؛ لأنه يؤدي إلى إغراء الناس به و بتعلمه و بممارسته ؟ !

---

(1) انظر (ص105) .